الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الخامس

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبایی

نشرت فی الطباعۂ:

علامه طباطبایی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیۂ باصفهان للتحریات الکمبیوتریۂ

الفهرس

تفسير الميزان المجلد ۵

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

[بقيه سوره النساء]

[سوره النساء (۴): الآيات ۷۷ الی ۸۰]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ اَلْقِتٰالُ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ اَلنّٰاسَ كَخَشْيَةِ اَللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا اَلْقِتٰالَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتٰاعُ اَلدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ اَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اِتَّقىٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (۷۷) أَيْنَمٰا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ اَلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ اَلْقَوْمِ لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (۷۸) مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْنٰاكَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً (۷۹) مَنْ يُطِعِ اَلرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اَللّٰهَ وَ مَنْ تَوَلّٰى فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰)

بيان

الآيات متصله بما قبلها،و هی جميعا ذات سياق واحد،و هذه الآيات تشتمل علی الاستشهاد بأمر طائفه أخری من المؤمنين ضعفاء الإيمان و فيها عظه و تذكير بفناء الدنيا، و بقاء نعم الآخره،و بيان لحقيقه قرآنيه فی خصوص الحسنات و السيئات.

ص: ۵

قوله تعـالى:« أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيـلَ لَهُمْ- -إلى قوله- أَوْ أَشَـدَّ خَشْـيَةً» كف الأيـدى كنـايه عن الإمساک عن القتال لکون القتل الـذى يقع فيه من عمل الأيـدى،و هـذا الکلام يـدل على أن المؤمنين کانوا فى ابتـداء أمرهم يشق عليهم ما يشاهـدونه من تعدى الکفار و بغيهم عليهم فيصـعب عليهم أن يصبروا على ذلک و لا يقابلوه بسل السيوف فأمرهم الله بالکف عن ذلک،و إقامه شعائر الـدين من صـلاه و زکاه ليشـتد عظم الـدين و يقوم صـلبه فيأذن الله لهم فى جهاد أعـدائه،و لو لا ذلک لانفسـخ هيکل الـدين،و انهدمت أرکانه، و تلاشت أجزاؤه.

ففى الآيـات لومهم على أنهم هم الـذين کـانوا يسـتعجلون فى قتـال الکفـار،و لا يصبرون على الإمساک و تحمل الأذى حين لم يکن لهم من العده و القوه ما يکفيهم للقاء عدوهم فلما کتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون العدو و هم ناس مثلهم کخشيه الله أو أشد خشيه.

قوله تعـالى:« وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ کَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتٰالَ: ظاهره أنه عطف على قوله إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ»، و خاصه بالنظر إلى تغيير السـياق من الفعل المضارع (يَخْشَوْنَ النّٰاسَ) إلى الماضى (قٰالُوا) فالقائل بهذا القول هم الذين کانوا يتوقعون للقتال،و يستصعبون الصبر فأمروا بکف أيديهم.

و من الجـائز أن يکون قولهم «رَبَّنٰا لِمَ کَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتٰالَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» محکيا عن لسان حالهم کما من الجائز أن يکونوا قائلين ذلک بلسانهم الظاهر فإن القرآن يستعمل من هذه العنايات کل نوع.

و توصـيف الأجـل الـذى هو أجل الموت حتف الأنف بالقريب ليس المراد به أن يسألوا التخلص عن القتل،و العيش زمانا يسـيرا بـل ذلـک تلويـح منهم بـأنهم لو عـاشوا من غير قتل حتى يموتوا حتف أنفهم لم يکن ذلک إلا عيشا يسـيرا و أجلا قريبا فما لله- سبحانه- لا يرضـى لهم أن يعيشوا هـذه العيشه اليسـيره حتى يبتليهم بالقتل،و يعجل لهم الموت؟ و هـذا الکلام صادر منهم لتعلق نفوسـهم بهذه الحياه الدنيا التى هى فى تعليم القرآن متاع قليل يتمتع به ثم ينقضـى سـريعا و يعفى أثره،و دونه الحياه الآخره التى هى الحياه الباقيه الحقيقيه فهى خير،و لذلک أجيب عنهم بقوله «قُلْ» (إلخ).

ص :۶

قوله تعالى: «قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْيٰا قَلِيلٌ» (إلخ)أمر للنبى ص أن يجيب هؤلاء الضعفاء بما يوضح لهم خطأ رأيهم فى ترجيح العيش الدنيوى اليسير على كرامه الجهاد و القتل فى سبيل الله تعالى،و محصله أنهم ينبغى أن يكونوا متقين فى إيمانهم،و الحياه الدنيا هى متاع يتمتع به قليل إذا قيس إلى الآخره،و الآخره خير لمن اتقى فينبغى لهم أن يختاروا الآخره التى هى خير على متاع الدنيا القليل لأنهم مؤمنون و على صراط التقوى،و لا يبقى لهم إلا أن يخافوا أن يحيف الله عليهم و يظلمهم فيختاروا لذلك ما بأيديهم من المتاع على ما يوعدون من الخير،و ليس لهم ذلك فإن الله لا يظلمهم فتيلا.

و قد ظهر بهذا البيان أن قوله. «لِمَنِ اتَّقىٰ» من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للدلاله على سبب الحكم،و دعوى انطباقه على المورد،و التقدير-و الله أعلم-:و الآخره خير لكم لأنكم ينبغى أن تكونوا لإيمانكم أهل تقوى،و التقوى سبب للفوز بخير الآخره فقوله «لِمَنِ اتَّقىٰ» كالكنايه التى فيها تعريض.

قوله تعالى: «أَيْنَمٰا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَهٍ» البروج جمع برج و هو البناء المعمول على الحصون،و يستحكم بنيانه ما قدر عليه لدفع العدو به و عنه، و أصل معناه الظهور،و منه التبرج بالزينه و نحوها،و التشييد الرفع،و أصله من الشيد و هو الجص لأنه يحكم البناء و يرفعه و يزينه فالبروج المشيده الأبنيه المحكمه المرتفعه التى على الحصون يأوى إليها الإنسان من كل عدو قادم.

و الكلام موضوع على التمثيل بذكر بعض ما يتقى به المكروه،و جعله مثلا لكل ركن شديد تتقى به المكاره،و محصل المعنى:أن الموت أمر لا يفوتكم إدراكه،و لو لجأتم منه إلى أى ملجإ محكم متين فلا ينبغى لكم أن تتوهموا أنكم لو لم تشهدوا القتال و لم يكتب لكم كنتم فى مأمن من الموت،و فاته إدراككم فإن أجل الله لآت.

قوله تعالى: «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ»(إلى آخر الآيه)جملتان أخريان من هفواتهم حكاهما الله تعالى عنهم،و أمر نبيه ص أن يجيبهم عنهما ببيان حقيقه الأمر فيما يصيب الإنسان من حسنه و سيئه.

و اتصال السياق يقضى بكون الضعفاء المتقدم ذكرهم من المؤمنين هم القائلون ذلك قالوا ذلك بلسان حالهم أو مقالهم،و لا بدع فى ذلك فإن موسى أيضا جبه بمثل هذا المقال

كما حكى الله سبحانه ذلك بقوله «فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَهُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَهٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَلاٰ إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ» :(الأعراف:١٣١) و هو مأثور عن سائر الأمم فى خصوص أنبيائهم،و هذه الأمه فى معاملتهم نبيهم لا يقصرون عن سائر الأمم،و قد قال تعالى :«تَشٰابَهَتْ قُلُوبُهُمْ» :(البقره:١١٨)و هم مع ذلك أشبه الأمم ببنى إسرائيل،

و قد قال رسول الله ص: «إنهم لا يدخلون جحر ضب إلا دخلتموه» و قد تقدم نقل الروايات فى ذلك من طرق الفريقين.

و قد تمحل فى الآيات أكثر المفسرين بجعلها نازله فى خصوص اليهود أو المنافقين أو الجميع من اليهود و المنافقين،و أنت ترى أن السياق يدفعه.

و كيف كان فالآيه تشهد بسياقها على أن المراد بالحسنه و السيئه ما يمكن أن يسند إلى الله سبحانه،و قد أسندوا قسما منه إلى الله تعالى و هو الحسنه،و قسما إلى النبى ص و هو السيئه فهذه الحسنات و السيئات هى الحوادث التى كانت تستقبلهم بعد ما أتاهم النبى ص و أخذ فى ترفيع مبانى الدين و نشر دعوته و صيته بالجهاد،فهى الفتح و الظفر و الغنيمه فيما غلبوا فيه من الحروب و المغازى،و القتل و الجرح و البلوى فى غير ذلك، و إسنادهم السيئات إلى النبى ص فى معنى التطير به أو نسبه ضعف الرأى و رداءه التدبير إليه.

فأمر تعالى نبيه ص بأن يجيبهم بقوله «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ» فإنها حوادث و نوازل ينظمها ناظم النظام الكونى،و هو الله وحده لا شريك له إذ الأشياء إنما تنقاد فى وجودها و بقائها و جميع ما يستقبلها من الحوادث له تعالى لا غير.على ما يعطيه تعليم القرآن.

ثم استفهم استفهام متعجب من جمود فهمهم و خمود فطنتهم من فقه هذه الحقيقه و فهمها فقال: «فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً».

:

«قوله تعالى مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِكَ»، لما ذكر أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ثم أراد بيان حقيقه الأمر،صرف الخطاب عنهم لسقوط فهمهم،و وجه وجه الكلام إلى النبى ص،و بين حقيقه ما يصيبه من حسنه أو سيئه لذاك الشأن،و ليس للنبى ص فى نفسه خصوصيه فى هذه الحقيقه التى هى من الأحكام الوجوديه الدائره بين جميع الموجودات،و لا أقل بين جميع الأفراد من الإنسان

من مؤمن أو كافر،أو صالح أو طالح،و نبی أو من دونه.

فالحسنات و هی الأمور التی یستحسنها الإنسان بالطبع کالعافیه و النعمه و الأمن و الرفاهیه کل ذلک من الله سبحانه،و السیئات و هی الأمور التی تسوء الإنسان کالمرض و الذله و المسکنه و الفتنه کل ذلک یعود إلی الإنسان لا إلیه سبحانه فالآیه قریبه مضمونا من قوله تعالی «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ:» (الأنفال:۵۳)و لا ینافی ذلک رجوع جمیع الحسنات و السیئات بنظر کلی آخر إلیه تعالی کما سیجیء بیانه.

قوله تعالی: «وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً»، أی لا سمه لک من عندنا إلا أنک رسول وظیفتک البلاغ،و شأنک الرساله لا شأن لک سواها و لیس لک من الأمر شیء حتی تؤثر فی میمنه أو مشأمه،أو تجر إلی الناس السیئات،و تدفع عنهم الحسنات،و فیه رد تعریضی لقول أولئک المتطیرین فی السیئات «هٰذِهِ مِنْ عِنْدِکَ» تشؤما به(ص)ثم أید ذلک بقوله «وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً».

قوله تعالی: «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ»، استئناف فیه تأکید و تثبیت لقوله فی الآیه السابقه «وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً»، و بمنزله التعلیل لحکمه أی ما أنت إلا رسولا منا من یطعک بما أنت رسول فقد أطاع الله،و من تولی فما أرسلناک علیهم حفیظا.

و من هنا یظهر أن قوله «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ»، من قبیل وضع الصفه موضع الموصوف للإشعار بعله الحکم نظیر ما تقدم فی قوله« وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقیٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِیلاً» و علی هذا فالسیاق جار علی استقامته من غیر التفات من الخطاب فی قوله «وَ أَرْسَلْنٰاکَ»، إلی الغیبه فی قوله «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ»، ثم إلی الخطاب فی قوله «فَمٰا أَرْسَلْنٰاکَ» .

(کلام فی استناد الحسنات و السیئات إلیه تعالی)

یشبه أن یکون الإنسان أول ما تنبه علی معنی الحسن تنبه علیه من مشاهده الجمال فی أبناء نوعه الذی هو اعتدال الخلقه،و تناسب نسب الأعضاء و خاصه فی الوجه ثم

فی سائر الأمور المحسوسه من الطبیعیات و یرجع بالآخره إلی موافقه الشیء لما یقصد من نوعه طبعا.

فحسن وجه الإنسان کون کل من العین و الحاجب و الأذن و الأنف و الفم و غیرها علی حال أو صفه ینبغی أن یرکب فی نفسه علیها،و کذا نسبه بعضها إلی بعض، و حینئذ تنجذب النفس و یمیل الطبع إلیه،و یسمی کون الشیء علی خلاف هذا الوصف بالسوء و المساءه و القبح علی اختلاف الاعتبارات الملحوظه فالمساءه معنی عدمی کما أن الحسن معنی وجودی.

ثم عمم ذلک إلی الأفعال و المعانی الاعتباریه و العناوین المقصوده فی ظرف الاجتماع من حیث ملاءمتها لغرض الاجتماع و هو سعاده الحیاه الإنسانیه أو التمتع من الحیاه، و عدم ملاءمتها فالعدل حسن،و الإحسان إلی مستحقه حسن،و التعلیم و التربیه و النصح و ما أشبه ذلک فی مواردها حسنات،و الظلم و العدوان و ما أشبه ذلک سیئات قبیحه لملاءمه القبیل الأول لسعاده الإنسان أو لتمتعه التام فی ظرف اجتماعه و عدم ملاءمه القبیل الثانی لذلک،و هذا القسم من الحسن و ما یقابله تابع للفعل الذی یتصف به من حیث ملاءمته لغرض الاجتماع فمن الأفعال ما حسنه دائمی ثابت إذا کان ملاءمته لغایه الاجتماع و غرضه کذلک کالعدل،و منها ما قبحه کذلک کالظلم.

و من الأفعال ما یختلف حاله بحسب الأحوال و الأوقات و الأمکنه أو المجتمعات فالضحک و الدعابه حسن عند الخلان لا عند الأعاظم،و فی محافل السرور دون المأتم، و دون المساجد و المعابد،و الزنا و شرب الخمر حسن عند الغربیین دون المسلمین.

و لا تصغ إلی قول من یقول:إن الحسن و القبح مختلفان متغیران مطلقا من غیر ثبات و لا دوام و لا کلیه،و یستدل علی ذلک فی مثل العدل و الظلم بأن ما هو عدل عند أمه بإجراء أمور من مقررات اجتماعیه غیر ما هو عدل عند أمه أخری بإنفاذ مقررات أخری اجتماعیه فلا یستقر معنی العدل علی شیء معین فالجلد للزانی عدل فی الإسلام و لیس کذلک عند الغربیین،و هکذا.

و ذلک أن هؤلاء قد اختلط علیهم الأمر،و اشتبه المفهوم عندهم بالمصداق،و لا کلام لنا مع من هذا مبلغ فهمه.

و الإنسان على حسب تحول العوامل المؤثره فى الاجتماعات يرضـى بتغيير جميع أحكامه الاجتماعيه دفعه أو تدريجا و لا يرضى قـط بـأن يسـلب عنه وصف العـدل،و يسـمى ظالمـا، و لاـ بـأن يجـد ظلما لظالم إلا مع الاعتـذار عنه،و للكلام ذيل طويل يخرجنا الاشتغال به عن ما هو أهم منه.

ثم عمم معنى الحسن و القبـح لسائر الحوادث الخارجيه التى تسـتقبل الإنسان مدى حياته على حسب تأثير مختلف العوامل و هى الحوادث الفرديه أو الاجتمـاعيه التى منهـا مـا يوافق آمـال الإنسـان،و يلائـم سـعادته فى حياته الفرديه أو الاجتماعيه من عافيه أو صحه أو رخاء،و تسـمى حسـنات،و منها ما ينافى ذلك كالبلايا و المحن من فقر أو مرض أو ذله أو إساره و نحو ذلك،و تسمى سيئات.

فقد ظهر مما تقدم أن الحسـنه و السيئه يتصف بهما الأمور أو الأفعال من جهه إضافتها إلى كمال نوع أو سعاده فرد أو غير ذلك فـالحسن و القبـح وصـفان إضافيـان،و إن كانت الإضافه فى بعض الموارد ثابته لازمه،و فى بعضـها متغيره كبـذل المال الـذى هو حسن بالنسبه إلى مستحقه و سيئ بالنسبه إلى غير المستحق.

و أن الحسن أمر ثبوتى دائمـا و المساءه و القبـح معنى عـدمى و هو فقـدان الأمر صـفه الملاءمه و الموافقه المـذكوره،و إلا فمتن الشىء أو الفعل مع قطع النظر عن الموافقه و عدم الموافقه المذكورين واحد من غير تفاوت فيه أصلا.

فالزلزله و السـيل الهادم إذا حلا ساحه قوم كانا نعمتين حسـنتين لأعدائهم و هما نازلتان سيئتان عليهم أنفسهم،و كل بلاء عام فى نظر الدين سراء إذا نزل بالكفار المفسدين فى الأرض أو الفجار العتاه،و هو بعينه ضراء إذا نزل بالأمه المؤمنه الصالحه.

و أكل الطعام حسن مباح إذا كان من مال آكله مثلا،و هو بعينه سيئه محرمه إذا كان من مال الغير من غير رضا منه لفقدانه امتثال النهى الوارد عن أكل مال الغير بغير رضاه، أو امتثال الأمر الوارد بالاقتصار على ما أحل الله،و المباشـره بين الرجل و المرأه حسـنه مبـاحه إذا كان عن ازدواج مثلا،و سـيئه محرمه إذا كان سـفاحا من غير نكاح لفقـدانه موافقه التكليف الإلهى فالحسـنات عناوين وجوديه فى الأمور و الأفعال،و السيئات عناوين عدميه فيهما،و متن الشىء المتصف بالحسن و السوء واحد.

ص :۱۱

و الذی یراه القرآن الشریف أن کل ما یقع علیه اسم الشیء ما خلا الله-عز اسمه- مخلوق لله قال تعالی :«اللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ» : (الزمر:۶۲)و قال تعالی: «وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً» :(الفرقان:۲)و الآیتان تثبتان الخلقه فی کل شیء،ثم قال تعالی:

«الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ» :(السجده:۷)فأثبت الحسن لکل مخلوق،و هو حسن لازم للخلقه غیر منفک عنها یدور مدارها.

فکل شیء له حظ من الحسن علی قدر حظه من الخلقه و الوجود،و التأمل فی معنی الحسن(علی ما تقدم)یوضح ذلک مزید إیضاح فإن الحسن موافقه الشیء و ملاءمته للغرض المطلوب و الغایه المقصوده منه،و أجزاء الوجود و أبعاض هذا النظام الکونی متلائمه متوافقه،و حاشا رب العالمین أن یخلق ما تتنافی أجزاؤه،و یبطل بعضه بعضا فیخل بالغرض المطلوب،أو یعجزه تعالی أو یبطل ما أراده من هذا النظام العجیب الذی یبهت العقل و یحیر الفکره. و قد قال تعالی :«هُوَ اللّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ» (الزمر:۴) و قال تعالی: «وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ» :(الأنعام:-۱۸)و قال تعالی «وَ ما کانَ اللّهُ لِیُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ عَلِیماً قَدِیراً» :(فاطر:۴۴)فهو تعالی لا یقهره شیء و لا یعجزه شیء فی ما یریده من خلقه و یشاؤه فی عباده.

فکل نعمه حسنه فی الوجود منسوبه إلیه تعالی،و کذلک کل نازله سیئه إلا أنها فی نفسها أی بحسب أصل النسبه الدائره بین موجودات المخلوقه منسوبه إلیه تعالی و إن کانت بحسب نسبه أخری سیئه،و هذا هو الذی یفیده قوله تعالی: «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِکَ قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً» :(النساء:-۷۸)و قوله فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَهُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسی وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللّهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ» :(الأعراف:۱۳۱)إلی غیر ذلک من الآیات.

و أما جهه السیئه فالقرآن الکریم یسندها فی الإنسان إلی نفس الإنسان بقوله تعالی فی هذه السوره: «ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ:» XالآیهX (النساء:۷۹)و قوله تعالی« وَ ما أَصابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِما کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ» :(الشوری:۳۰) و قوله تعالی« إِنَّ اللّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»:

» (الرعد:۱۱)،و قوله تعالی« ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ یَکَ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» :(الأنفال:۵۳)و غیرها من الآیات.

و توضیح ذلک أن الآیات السابقه کما عرفت تجعل هذه النوازل السیئه کالحسنات أمورا حسنه فی خلقتها فلا یبقی لکونها سیئه إلا أنها لا تلائم طباع بعض الأشیاء التی تتضرر بها فیرجع الأمر بالآخره إلی أن الله لم یجد لهذه الأشیاء المبتلاه المتضرره بما تطلبه و تشتاق إلیه بحسب طباعها،فإمساک الجود هذا هو الذی یعد بلیه سیئه بالنسبه إلی هذه الأشیاء المتضرره کما یوضحه کل الإیضاح قوله تعالی: «مٰا یَفْتَحِ اللّهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلاٰ مُمْسِکَ لَهٰا وَ مٰا یُمْسِکْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» : (فاطر:۲).

ثم بین تعالی أن إمساک الجود عما أمسک عنه أو الزیاده و النقیصه فی إفاضه رحمته إنما یتبع أو یوافق مقدار ما یسعه ظرفه،و ما یمکنه أن یستوفیه من ذلک،قال تعالی فیما ضربه من المثل: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِیَهٌ بِقَدَرِهٰا» :(الرعد:۱۷)و قال:

«وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :(الحجر:۲۱) فهو تعالی إنما یعطی علی قدر ما یستحقه الشیء و علی ما یعلم من حاله،قال: «أَ لاٰ یَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ» :(الملک:۱۴).

و من المعلوم أن النعمه و النقمه و البلاء و الرخاء بالنسبه إلی کل شیء ما یناسب خصوص حاله کما یبینه قوله تعالی: «وَ لِکُلٍّ وِجْهَهٌ هُوَ مُوَلِّیهٰا» :(البقره:۱۴۸)فإنما یولی کل شیء و یطلب وجهته الخاصه به و غایته التی تناسب حاله.

و من هنا یمکنک أن تحدس أن السراء و الضراء و النعمه و البلاء بالنسبه إلی هذا الإنسان الذی یعیش فی ظرف الاختیار فی تعلیم القرآن أمور مرتبطه باختیاره فإنه واقع فی صراط ینتهی به بحسن السلوک و عدمه إلی سعادته و شقائه کل ذلک من سنخ ما لاختیاره فیه مدخل.

و القرآن الکریم یصدق هذا الحدس،قال تعالی: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» : (الأنفال:۵۳)فلما فی أنفسهم من النیات الطاهره و الأعمال الصالحه دخل فی النعمه التی خصوا بها فإذا غیروا غیر الله بإمساک رحمته و قال: «وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ» (الشوری-:۳۰)فلأعمالهم تأثیر فی ما ینزل بهم من النوازل و یصیبهم من المصائب،و الله یعفو عن کثیر منها.

و قال تعالى: «مٰا أَصٰابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَکَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِکَ» :XالآيهX(النساء:٧٩).

و إياك أن تظن أن الله سبحانه حين أوحى هذه الآيه إلى نبيه ص نسى الحقيقه الباهره التى أبانها بقوله: «اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» : (الزمر:٦٢)و قوله: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» :(السجده:٧)فعد كل شىء مخلوقا لنفسه حسنا فى نفسه و قد قال:

«وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» :(مريم:٦٤)و قال: «لاٰ يَضِلُّ رَبِّي وَ لاٰ يَنْسىٰ» (طه:٥٢) فمعنى قوله« مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ» (الآيه)أن ما أصابك من حسنه-و كل ما أصابك حسنه-فمن الله،و ما أصابك من سيئه فهى سيئه بالنسبه إليك حيث لا يلائم ما تقصده و تشتهيه و إن كانت فى نفسها حسنه فإنما جرتها إليك نفسك باختيارها السيئ،و استدعتها كذلك من الله فالله أجل من أن يبدأك بشر أو ضر.

و الآيه كما تقدم و إن كانت خصت النبى ص بالخطاب لكن المعنى عام للجميع، و بعباره أخرى هذه الآيه كالآيتين الأخريين« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً» (الآيه) «وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ» (الآيه)متكفله للخطاب الاجتماعى كتكفلها للخطاب الفردى.

فإن للمجتمع الإنسانى كينونه إنسانيه و إراده و اختيارا غير ما للفرد من ذلك.

فالمجتمع ذو كينونه يستهلك فيها الماضون و الغابرون من أفراده،و يؤاخذ متأخروهم بسيئات المتقدمين،و الأموات بسيئات الأحياء،و الفرد غير المقدم بذنب المقترفين للذنوب و هكذا، و ليس يصح ذلك فى الفرد بحسب حكمه فى نفسه أبدا،و قد تقدم شطر من هذا الكلام فى بحث أحكام الأعمال فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

فهذا رسول الله ص أصيب فى غزوه أحد فى وجهه و ثناياه،و أصيب المسلمون بما أصيبوا،و هو(ص)نبى معصوم إن أسند ما أصيب به إلى مجتمعه و قد خالفوا أمر الله و رسوله كان ذلك مصيبه سيئه أصابته بما كسبت أيدى مجتمعه و هو فيهم،و إن أسند إلى شخصه الشريف كان ذلك محنه إلهيه أصابته فى سبيل الله،و فى طريق دعوته الطاهره إلى الله على بصيره فإنما هى نعمه رافعه للدرجات.

و كذا كل ما أصاب قوما من السيئات إنما تستند إلى أعمالهم على ما يراه القرآن و لا يرى إلا الحق،و أما ما أصابهم من الحسنات فمن الله سبحانه.

نعم هاهنا آيات أخر ربما نسبت إليهم الحسنات بعض النسبه كقوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ» :(الأعراف:٩۶)و قوله:

«وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يُوقِنُونَ» (السجده:٢۴) و قوله: «وَ أَدْخَلْنٰاهُمْ فِي رَحْمَتِنٰا إِنَّهُمْ مِنَ الصّٰالِحِينَ» :(الأنبياء:٨۶)و الآيات فى هذا المعنى كثيره جدا.

إلا إن الله سبحانه يذكر فى كلامه أن شيئا من خلقه لا يقدر على شىء مما يقصده من الغايه،و لا يهتدى إلى خير إلا بإقدار الله و هدايته قال تعالى: «الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ» :(طه:۵٠)و قال تعالى: «وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» :(النور:٢١)و يتبين بهاتين الآيتين و ما تقدم معنى آخر لكون الحسنات لله عز اسمه،و هو أن الإنسان لا يملك حسنه إلا بتمليك من الله و إيصال منه فالحسنات كلها لله و السيئات للإنسان،و به يظهر معنى قوله تعالى« مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» (الآيه).

فلله سبحانه الحسنات بما أن كل حسن مخلوق له،و الخلق و الحسن لا ينفكان،و له الحسنات بما أنها خيرات،و بيده الخير لا يملكه غيره إلا بتمليكه،و لا ينسب إليه شىء من السيئات فإن السيئه من حيث إنها سيئه غير مخلوقه و شأنه الخلق،و إنما السيئه فقدان الإنسان مثلا رحمه من لدنه تعالى أمسك عنها بما قدمته أيدى الناس،و أما الحسنه و السيئه بمعنى الطاعه و المعصيه فقد تقدم الكلام فى نسبتهما إلى الله سبحانه فى الكلام على قوله تعالى «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً» :(البقره:٢۶)فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

و أنت لو راجعت التفاسير فى هذا المقام،وجدت من شتات القول و مختلف الآراء و الأهواء و أقسام الإشكالات ما يبهتك،و أرجو أن يكون فيما ذكرناه كفايه للمتدبر فى كلامه تعالى،و عليك فى هذا البحث بتفكيك جهات البحث بعضها عن بعض،و تفهم ما يتعارفه القرآن من معنى الحسنه و السيئه،و النعمه و النقمه،و الفرق بين شخصيه المجتمع و الفرد حتى يتضح لك مغزى الكلام.

ص :١۵

(بحث روائی)

و فی الدر المنثور،:فی قوله تعالی« أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا»(الآیه):أخرج النسائی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه و البیهقی فی سننه من طریق عکرمه عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف و أصحابا له أتوا النبی ص-فقالوا:یا نبی الله کنا فی عز و نحن مشرکون فلما آمنا صرنا أذله فقال:إنی أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم فلما حوله الله إلی المدینه أمره الله بالقتال فکفوا فأنزل الله: «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا أَیْدِیَکُمْ» (الآیه.

و فیه،:أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر عن قتاده فی الآیه قال": کان أناس من أصحاب النبی ص،و هم یومئذ بمکه قبل الهجره،یسارعون إلی القتال فقالوا للنبی ص،ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشرکین،و ذکر لنا أن عبد الرحمن بن عوف کان فیمن قال ذلک،فنهاهم نبی الله ص عن ذلک قال:لم أومر بذلک،فلما کانت الهجره و أمروا بالقتل کره القوم ذلک،و صنعوا فیه ما تسمعون قال الله تعالی، «قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْیٰا قَلِیلٌ وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقیٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِیلاً».

و فی تفسیر العیاشی،عن صفوان بن یحیی عن أبی الحسن(ع)قال: قال:الله تعالی:

یا ابن آدم،بمشیتی کنت أنت الذی تشاء و تقول،و بقوتی أدیت إلی فریضتی،و بنعمتی قویت علی معصیتی،ما أصابک من حسنه فمن الله،و ما أصابک من سیئه فمن نفسک، و ذاک أنی أولی بحسناتک منک،و أنت أولی بسیئاتک منی،و ذاک أنی لا أسأل عما أفعل،و هم یسألون.

أقول و قد تقدم نقل الروایه بلفظ آخر فی الجزء الأول من هذا الکتاب فی ذیل قوله تعالی« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلاً» : (البقره:۲۶)و تقدم البحث عنها هناک.

و فی الکافی،بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: ذکر عند أبی عبد الله(ع) البلاء و ما یخص الله به المؤمن،فقال:سئل رسول الله ص من أشد الناس بلاء فی الدنیا،؟ فقال النبیون ثم الأمثل فالأمثل،و یبتلی المؤمن بعد علی قدر إیمانه و حسن أعماله،: فمن صح إیمانه و حسن عمله اشتد بلاؤه،و من سخف إیمانه و ضعف عمله قل بلاؤه.

أقول:و من الروايات المشهوره

قوله(ص): الدنيا سجن المؤمن و جنه الكافر.

و فيه،أيضا بعده طرق عنهما(ع): أن الله عز و جل إذا أحب عبدا غثه بالبلاء غثا.

(۱)

و فيه،أيضا عن الصادق(ع): إنما المؤمن بمنزله كفه الميزان،كلما زيد فى إيمانه زيد فى بلائه.

و فيه،أيضا عن الباقر(ع)قال: إن الله عز و جل ليتعاهد المؤمن بالبلاء،كما يتعاهد الرجل أهله بالهديه من الغيبه،و يحميه الدنيا كما يحمى الطبيب المريض.

و فيه،أيضا عن الصادق(ع)قال:قال رسول الله ص: لا حاجه لله فيمن ليس له فى ماله و بدنه نصيب.

و فى العلل،عن على بن الحسين عن أبيه(ع)قال:قال رسول الله ص:

و لو كان المؤمن على جبل،لقيض الله عز و جل له من يؤذيه ليأجره على ذلك.

و فى كتاب التمحيص،عن الصادق(ع)قال: لا تزال الهموم و الغموم بالمؤمن حتى لا تدع له ذنبا.

و عنه(ع) قال: لا يمضى على المؤمن أربعون ليله،إلا عرض له أمر يحزنه يذكر ربه.

و فى النهج،قال(ع): لو أحبنى جبل لتهافت

و قال(ع): من أحبنا أهل البيت فليستعد للبلاء جلبابا.

أقول:قال ابن أبى الحديد فى شرحه،قد ثبت

أن النبى ص قال له: لا يحبك إلا مؤمن،و لا يبغضك إلا منافق»

و قد ثبت أن النبى ص قال: إن البلوى أسرع إلى المؤمن من الماء إلى الحدور» هاتان المقدمتان يلزمهما نتيجه صادقه هى أنه لو أحبه جبل لتهافت(انتهى).

و اعلم أن الأخبار فى هذه المعانى كثيره،و هى تؤيد ما قدمناه من البيان.

و فى الدر المنثور،:أخرج ابن المنذر و الخطيب عن ابن عمر،قال: كنا عند رسول الله ص فى نفر من أصحابه،فقال:يا هؤلاء أ لستم تعلمون أنى رسول الله إليكم،قالوا:بلى قال:أ لستم تعلمون أن الله أنزل فى كتابه،أنه من أطاعنى فقد أطاع الله،؟قالوا:بلى

١- ١) الغث هو الغمس.

نشهد أنه من أطاعک فقد أطاع الله،و أن من طاعته طاعتک،قال:فإن من طاعه الله أن تطيعونی،و إن من طاعتی أن تطيعوا أئمتکم،و إن صلوا قعودا فصلوا قعدوا أجمعين.

أقول:قوله(ص):و إن صلوا(إلخ)کنايه عن وجوب کمال الاتباع.

[سوره النساء (۴): الآيات ۸۱ الی ۸۴]

اشاره

وَ يَقُولُونَ طٰاعَةٌ فَإِذٰا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ اَلَّذِی تَقُولُ وَ اَللّٰهُ يَكْتُبُ مٰا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَی اَللّٰهِ وَ كَفیٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً (۸۱) أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اَللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اِخْتِلاٰفاً كَثِيراً (۸۲) وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ اَلْأَمْنِ أَوِ اَلْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی اَلرَّسُولِ وَ إِلیٰ أُولِی اَلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ اَلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ اَلشَّيْطٰانَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۸۳) فَقٰاتِلْ فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ لاٰ تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِينَ عَسَی اَللّٰهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اَللّٰهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلاً (۸۴)

بيان

الآيات لا تأبی عن الاتصال بما قبلها فکأنها من تتمه القول فی ملامه الضعفاء من المسلمين و فائدتها وعظهم بما يتبصرون به لو تدبروا و استبصروا.

قوله تعالی وَ يَقُولُونَ طٰاعَةٌ إلخ طٰاعَةٌ مرفوع علی الخبريه علی ما قيل و التقدير أمرنا طاعه أی نطيعک طاعه و البروز الظهور و الخروج و التبييت من البيتوته و معناه إحکام الأمر و تدبيره ليلا و الضمير فی تَقُولُ راجع إلی طٰائِفَةٌ أو إلی النبی ص.

و المعنی و الله أعلم و يقول هؤلاء مجيبين لک فيما تدعوهم إليه من الجهاد أمرنا طاعه فإذا أخرجوا من عندک دبروا ليلا أمرا غير ما أجابوک به و قالوا لک أو غير ما

قلته أنت لهم و هو كنايه عن عقدهم النيه على مخالفه رسول الله ص.

ثم أمر الله رسوله بالإعراض عنهم و التوكل فى الأمر و العزيمه فقال فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً و لا دليل فى الآيه يدل على كون المحكى عنهم هم المنافقين كما ذكره بعضهم بل الأمر بالنظر إلى اتصال السياق على خلاف ذلك.

قوله تعالى أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الآيه تحضيض فى صوره الاستفهام التدبير هو أخذ الشىء بعد الشىء و هو فى مورد الآيه التأمل فى الآيه عقيب الآيه أو التأمل بعد التأمل فى الآيه لكن لما كان الغرض بيان أن القرآن لا اختلاف فيه و ذلك إنما يكون بين أزيد من آيه واحده كان المعنى الأول أعنى التأمل فى الآيه عقيب الآيه هو العمده و إن كان ذلك لا ينفى المعنى الثانى أيضا.

فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا فى الآيات القرآنيه و يراجعوا فى كل حكم نازل أو حكمه مبينه أو قصه أو عظه أو غير ذلك جميع الآيات المرتبطه به مما نزلت مكيتها و مدينتها و محكمها و متشابهها و يضموا البعض إلى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها فالآيات يصدق قديمها حديثها و يشهد بعضها على بعض من غير أن يكون بينها أى اختلاف مفروض لا اختلاف التناقض بأن ينفى بعضها بعضا أو يتدافعا و لا اختلاف التفاوت بأن يتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان أو متانه المعانى و المقاصد بكون البعض أحكم بيانا و أشد ركنا من بعض كتابا متشابها مثانى تقشعر منه الجلود.

فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم إلى أنه كتاب منزل من الله و ليس من عند غيره إذ لو كان من عند غيره لم يسلم من كثره الاختلاف و ذلك أن غيره تعالى من هذه الموجودات الكونيه و لا سيما الإنسان الذى يرتاب أهل الريب أنه من كلامه كلها موضوعه بحسب الكينونه الوجوديه و طبيعه الكون على التحرك و التغير و التكامل فما من واحد منها إلا أن امتداد زمان وجوده مختلف الأطراف متفاوت الحالات.

ما من إنسان إلا و هو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس و أن ما ينشئه من عمل أو صنعه أو ما أشبه ذلك أو يدبره من رأى أو نظر أو نحوهما أخيرا أحكم و أمتن مما أتى به أولا حتى العمل الواحد الذى فيه شىء من الامتداد الوجودى كالكتاب يكتبه الكاتب و الشعر يقوله الشاعر و الخطبه يخطبها الخطيب و هكذا يوجد عند الإمعان آخره خيرا من أوله و بعضه أفضل من بعض.

ص :١٩

فالواحـد من الإنسان لا يسـلم فی نفسه و ما يأتی به من العمل من الاختلاف،و ليس هو بالواحـد و الاثنين من التفاوت و التناقض بل الاختلاف الكثير،و هذا ناموس كلی جار فی الإنسان و ما دونه من الكائنات الواقعه تحت سـيطره التحول و التكامل العامين لا تری واحدا من هذه الموجودات يبقی آنين متواليين علی حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته و أحواله.

و من هنا يظهر وجه التقييـد بالكثير فی قوله:« اِخْتِلافاً كَثِيراً» فالوصف وصف توضـيحی لا احترازی،و المعنی:لو كان من عند غير الله لوجـدوا فيه اختلافـا و كـان ذلـك الاختلاـف كثيرا علی حـد الاختلاف الكثير الـذی فی كل ما هو من عنـد غير الله، و ليس المعنی أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير.

و بالجمله لا يلبث المتـدبرون أن يشاهـد أن القرآن كتاب يداخل جميع الشـئون المرتبطه بالإنسانيه من معارف المبدأ و المعاد و الخلق و الإيجـاد،ثم الفضائـل العـامه الإنسـانيه،ثم القوانين الاجتماعيه و الفرديه الحاكمه فی النوع حكومه لا يشـذ منها دقيق و لا جليل،ثم القصـص و العبر و المواعظ ببيان دعا إلی مثلها أهل الدنيا،و بآيات نازله نجوما فی مده تعدل ثلاثا و عشـرين سـنه علی اختلاف الأحوال من ليل و نهار،و من حضـر و سـفر،و من حرب و سـلم،و من ضـراء و سراء،و من شده و رخاء،فلم يختلف حاله فی بلاـغته الخارقه المعجزه،و لا فی معارفه العاليه و حكمه الساميه،و لا فی قوانينه الاجتماعيه و الفرديه، بل ينعطف آخره إلی ما قر عليه أوله،و ترجع تفاصـيله و فروعه إلی ما ثبت فيه أعراقه و أصوله،يعود تفاصـيل شـرائعه و حكمه بالتحليل إلی حاق التوحيد الخالص، و ينقلب توحيده الخالص بالتركيب إلی أعيان ما أفاده من التفاصيل،هذا شأن القرآن.

و الإنسان المتدبر فيه هذا التدبر يقضـی بشعوره الحی،و قضائه الجبلی أن المتكلم بهذا الكلام ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام و التحول و التكامل العاملان فی الأكوان بل هو الله الواحد القهار.

و قد تبين من الآيه(أولا):أن القرآن مما يناله الفهم العادی.و(ثانيا):أن الآيات القرآنيه يفسر بعضها بعضا.و(ثالثا):أن القرآن كتاب لا يقبل نسـخا و لا إبطالا و لا تكميلا و لا تهذيبا،و لا أی حاكم يحكم عليه أبدا،و ذلك أن ما يقبل شيئا منها لا مناص من كونه يقبل نوعا من التحول و التغير بالضروره،و إذ كان القرآن لا يقبل الاختلاف

فليس يقبل التحول و التغير فليس يقبل نسخا و لا إبطالا و لا غير ذلك،و لازم ذلك أن الشريعه الإسلاميه مستمره إلى يوم القيامه.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ» الإذاعه هى النشر و الإشاعه،و فى الآيه نوع ذم و تعيير لهم فى شأن هذه الإذاعه،و فى قوله فى ذيل الآيه «وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ» (إلخ)دلاله على أن المؤمنين كانوا على خطر الضلال من جهه هذه الإذاعه،و ليس إلا خطر مخالفه الرسول فإن الكلام فى هذه الآيات موضوع فى ذلك، و يؤيد ذلك ما فى الآيه التاليه من أمر الرسول بالقتال و لو بقى وحده بلا ناصر.

و يظهر به أن الأمر الذى جاءهم من الأمن أو الخوف كان بعض الأراجيف التى كانت تأتى بها أيدى الكفار و رسلهم المبعوثون لإيجاد النفاق و الخلاف بين المؤمنين فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر و تبصر فيوجب ذلك وهنا فى عزيمه المؤمنين،غير أن الله سبحانه وقاهم من اتباع هؤلاء الشياطين الجائين بتلك الأخبار لإخزاء المؤمنين.

فتنطبق الآيه على قصه بدر الصغرى،و قد تقدم الكلام فيها فى سوره آل عمران، و الآيات هاهنا تشابه الآيات هناك مضمونا كما يظهر للمتدبر فيها،قال تعالى فى سوره آل عمران:« اَلَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مٰا أَصٰابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ اَلَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ إِنَّ النّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ -Xإلى قوله-X إِنَّمٰا ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» :(آل عمران:-۱۷۵).

الآيات كما ترى تذكر أن رسول الله ص كان يدعو الناس بعد ما أصابهم القرح -و هو محنه-أحد-إلى الخروج إلى الكفار،و أن أناسا كانوا يخزلون الناس و يخذلونهم عن النبى ص و يخوفونهم جمع المشركين.

ثم تذكر أن ذلك كله تخويفات من الشيطان يتكلم بها من أفواه أوليائه،و تعزم على المؤمنين أن لا يخافوهم و يخافوا الله أن كانوا مؤمنين.

و المتدبر فيها و فى الآيات المبحوث عنها أعنى قوله« وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ» (الآيه)لا يرتاب فى أن الله سبحانه فى هذه الآيه يذكر قصه بدر-الصغرى و يعدها فى جمله ما يعد من الخلال التى يلوم هؤلاء الضعفاء عليها كقوله« فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتٰالُ» (الآيه)و قوله« وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتٰالَ» (الآيه)و قوله« وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ»

(الآیه)و قوله «وَ يَقُولُونَ طٰاعَةٌ» (الآیه)ثم یجری علی هذا المجری قوله «وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ» (الآیه).

قوله تعالی: «وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» لم یذکر هاهنا الرد إلی الله کما ذکر فی قوله «فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ»: XالآیهXالنساء:۵۹)لأن الرد المذکور هناک هو رد الحکم الشرعی المتنازع فیه،و لا صنع فیه لغیر الله و رسوله.

و أما الرد المذکور هاهنا فهو رد الخبر الشائع بین الناس من أمن أو خوف،و لا معنی لرده إلی الله و کتابه،بل الصنع فیه للرسول و لأولی الأمر منهم،لو رد إلیهم أمکنهم أن یستنبطوه و یذکروا للرادین صحته أو سقمه و صدقه أو کذبه.

فالمراد بالعلم التمییز تمییز الحق من الباطل،و الصدق من الکذب علی حد قوله تعالی «لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَخٰافُهُ بِالْغَيْبِ» : (المائده:۹۴)«و قوله وَ لَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰافِقِينَ» :(العنکبوت.-۱۱).

و الاستنباط استخراج القول من حال الإبهام إلی مرحله التمییز و المعرفه،و أصله من النبط(محرکه)،و هو أول ما یخرج من ماء البئر،و علی هذا یمکن أن یکون الاستنباط وصفا للرسول و أولی الأمر بمعنی أنهم یحققون الأمر فیحصلون علی الحق و الصدق و أن یکون وصفا لهؤلاء الرادین لو ردوا فإنهم یعلمون حق الأمر و صدقه بإنباء الرسول و أولی الأمر لهم.

فیعود معنی الآیه إن کان المراد بالذین یستنبطونه منهم الرسول و أولی الأمر کما هو الظاهر من الآیه:لعلمه من أراد الاستنباط من الرسول و أولی الأمر أی إذا استصوبه المسئولون و رأوه موافقا للصلاح، و إن کان المراد بهم الرادین:لعلمه الذین یستفسرونه و یبالغون فی الحصول علی أصل الخبر من هؤلاء الرادین.

و أما أولوا الأمر فی قوله: وَ إِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ «فالمراد بهم هو المراد بأولی الأمر فی قوله «أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» :(النساء:۵۹)علی ما تقدم من اختلاف المفسرین فی تفسیره و قد تقدم أن أصول الأقوال فی ذلک ترجع إلی خمسه غیر أن الذی استفدناه من المعنی أظهر فی هذه الآیه.

أما القول بأن أولی الأمر هم أمراء السرایا فإن هؤلاء لم یکن لهم شأن إلا الإماره علی

سريه فى واقعه خاصه لا تتجاوزها خبرتهم و دائره عملهم،و أما أمثال ما هو مورد الآيه و هو الإخلال فى الأمن و إيجاد الخوف و الوحشه العامه التى كان يتوسل إليها المشركون ببعث العيون و إرسال الرسل السريه الذين يذيعون من الأخبار ما يخزلون به المؤمنين فلا شأن لأمراء السرايا فى ذلك حتى يمكنهم أن يبينوا وجه الحق فيه للناس إذا سألوهم عن أمثال تلك الأخبار.

و أما القول بأن أولى الأمر هم العلماء فعدم مناسبته للآيه أظهر،إذ العلماء و هم يومئذ المحدثون و الفقهاء و القراء و المتكلمون فى أصول الدين-إنما خبرتهم فى الفقه و الحديث و نحو ذلك،و مورد قوله« وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ»، هى الأخبار التى لها أعراق سياسيه ترتبط بأطراف شتى ربما أفضى قبولها أو ردها أو الإهمال فيها من المفاسد الحيويه و المضار الاجتماعيه إلى ما يمكن أن لا يستصلح بأى مصلح آخر،أو يبطل مساعى أمه فى طريق سعادتها،أو يذهب بسؤددهم و يضرب بالذل و المسكنه و القتل و الأسر عليهم، و أى خبره للعلماء من حيث إنهم محدثون أو فقهاء أو قراء أو نحوهم فى هذه القضايا حتى يأمر الله سبحانه بإرجاعها و ردها إليهم؟و أى رجاء فى حل أمثال هذه المشكلات بأيديهم؟ و أما القول بأن أولى الأمر هم الخلفاء الراشدون أعنى أبا بكر و عمر و عثمان و عليا فمع كونه لا دليل عليه من كتاب أو سنه قطعيه،يرد عليه أن حكم الآيه إما مختص بزمان النبى ص أو عام يشمله و ما بعده،و على الأول كان من اللازم أن يكونوا معروفين بهذا الشأن بما أنهم هؤلاء الأربعه من بين الناس و من بين الصحابه خاصه،و الحديث و التاريخ لا يضبطان لهم بخصوصهم شأنا من هذا القبيل،و على الثانى كان لازمه انقطاع حكم الآيه بانقطاع زمان حياتهم،و كان لازمه أن تتصدى الآيه لبيان ذلك كما فى جميع الأحكام الخاصه بشطر من الزمان المذكوره فى القرآن كالأحكام الخاصه بالنبى ص و لا أثر فى الآيه من ذلك.

و أما القول بأن المراد بأولى الأمر أهل الحل و العقد،و هذا القائل لما رأى أنه لم يكن فى عهد النبى ص جماعه مشخصه هم أهل الحل و العقد على حد ما يوجد بين الأمم المتمدنه ذوات المجتمعات المتشكله كهيئه الوزراء،و جمعيه المبعوثين إلى المنتدى و غير ذلك فإن الأمه لم يكن يجرى فيها إلا حكم الله و رسوله،اضطر إلى تفسيره بأهل الشورى من الصحابه و خاصه النبى ص منهم.

و كيف كان،يرد عليه أن النبى ص كان يجمع فى مشاورته المؤمنين و المنافقين كعبد الله

بن أبی و أصحابه،و حدیث مشاورته یوم أحد معروف،و کیف یمکن أن یأمر الله سبحانه بالرد إلی أمثاله.

علی أن ممن لا کلام فی کونه ذا هذا الشأن عند النبی ص و بعده عبد الرحمن بن عوف،و هذه الآیات المسروده فی ذم ضعفاء المؤمنین و تعییرهم علی ما وقع منهم إنما ابتدأت به و بأصحابه أعنی قوله« أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا» (الآیات)فقد ورد فی الصحیح أنها نزلت فی عبد الرحمن بن عوف و أصحاب له،رواه النسائی فی صحیحه و رواه الحاکم فی مستدرکه و صححه و رواه الطبری و غیره فی تفاسیرهم،و قد مرت الروایه فی البحث الروائی السابق.و إذا کان الأمر علی هذه الوتیره فکیف یمکن أن یؤمر فی الآیه بإرجاع الأمر و رده إلی مثل هؤلاء؟.

فالمتعین هو الذی رجحناه فی قوله تعالی «أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ» (الآیه).

قوله تعالی:« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّیْطٰانَ إِلاّٰ قَلِیلاً» قد تقدم أن الأظهر کون الآیات مشیره إلی قصه بدر الصغری،و بعث أبی سفیان نعیم بن مسعود الأشجعی إلی المدینه لبسط الخوف و الوحشه بین الناس و إخزائهم فی الخروج إلی بدر فالمراد باتباع الشیطان التصدیق بما جاء به من النبإ،و اتباعه فی التخلف عن الخروج إلی بدر.

و بذلک یظهر استقامه معنی الاستثناء من غیر حاجه إلی تکلف أو تمحل فإن نعیما کان یخبرهم أن أبا سفیان جمع الجموع و جهز الجیوش فاخشوهم و لاٰ تلقوا بأنفسکم إلی حیاض القتل الذریع،و قد أثر ذلک فی قلوب الناس فتعللوا عن الخروج إلی موعدهم ببدر،و لم یسلم من ذلک إلا النبی ص و بعض خاصته و هو المراد بقوله تعالی« إِلاّٰ قَلِیلاً»، فقد کان الناس تزلزلوا إلا القلیل منهم ثم لحقوا بذلک القلیل و ساروا.

و هذا الذی استظهرناه من معنی الاستثناء هو الذی یؤیده ما مر ذکره من القرائن، علی ما فیه من الاستقامه.

و للمفسرین فی أمر هذا الاستثناء مذاهب شتی لا یخلو شیء منها من فساد أو تکلف، فقد قیل:المراد بالفضل و الرحمه ما هداهم الله إلیه من إیجاب طاعته و طاعه رسوله و أولی الأمر منهم،و المراد بالمستثنی هم المؤمنون أولو الفطره السلیمه و القلوب الطاهره، و معنی الآیه:و لو لا هذا الذی هداکم الله إلیه من وجوب الطاعه،و إرجاع الأمر إلی

الرسول و إلى أولى الأمر لاتبعتم الشيطان جميعا بالوقوع فى الضلال إلا قليلا منكم من أهل الفطره السليمه فإنهم لا يزيغون عن الحق و الصلاح.و فيه أنه تخصيص الفضل و الرحمه بحكم خاص من غير دليل يدل عليه،و هو بعيد من البيان القرآنى،مع أن ظاهر الآيه أنه امتنان فى أمر ماض منقض.

و قيل،إن الآيه على ظاهرها،و المؤمنون غير المخلصين يحتاجون إلى فضل و رحمه زائدين و إن كان المخلصون أيضا لا يستغنون عن العنايه الإلهيه،و فيه أن الذى يوهمه الظاهر حينئذ مما يجب فى بلاغه القرآن دفعه و لم يدفع فى الآيه.و قد قال تعالى:« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» :(النور:۲۱)و قال مخاطبا لنبيه(ص) و هو خير الناس: «وَ لَوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْنٰاكَ ضِعْفَ الْحَيٰاهِ وَ ضِعْفَ الْمَمٰاتِ» :(الإسراء:۷۵).

و قيل:إن المراد بالفضل و الرحمه القرآن و النبى ص.و قيل:المراد بهما الفتح و الظفر،فيستقيم الاستثناء لأن الأكثرين إنما يثبتون على الحق بما يستطاب به قلوبهم من فتح و ظفر و ما أشبههما من العنايات الظاهريه الإلهيه،و لا يصبر على مر الحق إلا القليل من المؤمنين الذين هم على بصيره من أمرهم.و قيل)الاستثناء إنما هو من قوله «أَذٰاعُوا بِهِ»، و قيل)الاستثناء من قوله« اَلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ»،. و قيل:إن الاستثناء إنما هو فى اللفظ و هو دليل على الجمع و الإحاطه فمعنى الآيه:و لو لا فضل الله عليكم و رحمته لاتبعتم الشيطان جميعا،و هذا نظير قوله تعالى « سَنُقْرِئُكَ فَلاٰ تَنْسىٰ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ» :(الأعلى:۷)فاستثناء المشيه يفيد عموم الحكم بنفى النسيان،و جميع هذه الوجوه لا تخلو من تكلف ظاهر.

قوله تعالى: «فَقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لاٰ تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ»، التكليف من الكلفه بمعنى المشقه لما فيه من تحميل المشقه على المكلف،و التنكيل من النكال،و هو على ما فى المجمع:،ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب فهو عقاب المتخلف لئلا يعود إلى مثله و ليعتبر به غيره من المكلفين.

و الفاء فى قوله «فَقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ»،. للتفريع و الأمر بالقتال متفرع على المتحصل من مضامين الآيات السابقه.و هو تثاقل القوم فى الخروج إلى العدو و تبطئتهم فى ذلك، و يدل عليه ما يتلوه من الجمل أعنى قوله «لاٰ تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ» (إلخ)فإن المعنى:فإذا

كـانوا يتثـاقلون فی أمر الجهـاد و يكرهون القتـال فقاتـل أنت يـا رسول الله بنفسـك،و لا يشق عليك تثاقلهم و مخالفتهم لأمر الله سبحانه فإن تكليف غيرك لا يتوجه إليك،و إنما يتوجه إليك تكليف نفسك لا تكليفهم،و إنما عليك فی غيرك أن تحرضهم فقاتـل وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَـى اللّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا. و قوله« لاـ تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ» أی لا تكلف أنت شـيئا إلا عمل نفسك فالاستثناء بتقدير مضاف.

و قوله «عَسَـى اللّهُ أَنْ يَكُفَّ»(إلـخ)قـد تقـدم أن«عسـى»تـدل على الرجاء أعم من أن يكون ذلك الرجاء قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بمقام التخاطب فلا حاجه إلى ما ذكروه من أن«عسى»من الله حتم.

و فی الآيه دلاله على زياده تعيير من الله سـبحانه للمتثاقلين من الناس حيث أدى تثاقلهم إلى أن أمر الله نبيه بالقيام بالقتال بنفسه،و أن يعرض عن المتثـاقلين و لاـ يلـح عليهم بالإجـابه و يخليهم و شـأنهم،و لا يضـيق بـذلك صـدره فليس عليه إلا تكليف نفسه و تحريض المؤمنين أطاع من أطاع،و عصى من عصى.

بحث روائی

فی الكـافی،بإسـناده عن محمـد بن عجلاـن قال:سـمعت أبا عبـد الله(ع)يقول: إن الله عير أقواما بالإذاعه فی قوله عز و جل:« وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ» فإياكم و الإذاعه.

و فيه،بإسـناده عن عبـد الحميـد بن أبی الـديلم عن أبی عبـد الله(ع)قـال: قال الله عز و جل:،« أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، -و قال« وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ وَ إِلی أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ،لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، -فرد أمر الناس إلى أولی الأمر منهم، الذين أمر بطاعتهم و الرد إليهم.

أقول و الروايه تؤيد ما قدمناه من أن المراد بأولی الأمر فی الآيه الثانيه هم المذكورون فی الآيه الأولی.

و فی تفسـير العياشـی،عن عبـد الله بن عجلان عن أبی جعفر(ع): فی قوله «وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ وَ إِلی أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ» قال:هم الأئمه.

أقول:و روى هذا المعنى أيضا عن عبد الله بن جندب عن الرضا(ع)فى كتاب كتبه إليه فى أمر الواقفيه،و روى هذا المعنى أيضا المفيد فى الاختصاص،عن إسحاق بن عمار عن الصادق(ع)فى حديث طويل.

و فى تفسير العياشى،عن محمد بن الفضيل عن أبى الحسن(ع): فى قوله« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ» ،قال:الفضل رسول الله،و رحمته أمير المؤمنين.

و فيه،عن زراره عن أبى جعفر(ع)،و حمران عن أبى عبد الله(ع)قال: « لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ»، -قال:فضل الله رسوله،و رحمته ولايه الأئمه.

و فيه،عن محمد بن الفضيل عن العبد الصالح(ع)قال: الرحمه رسول الله ص، و الفضل على بن أبى طالب(ع).

أقول:و الروايات من باب الجرى،و المراد النبوه و الولايه فإنهما السببان المتصلان اللذان أنقذنا الله بهما من مهبط الضلال و مصيده الشيطان،إحداهما:سبب مبلغ،و الأخرى:سبب مجر،و الروايه الأخيره أقرب من الاعتبار فإن الله سمى رسوله ص فى كتابه بالرحمه حيث قال:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ» :(الآيه)(الأنبياء:١٠٧).

و فى الكافى،بإسناده عن على بن حديد عن مرازم قال قال أبو عبد الله(ع): إن الله كلف رسول الله ص ما لم يكلف به أحدا من خلقه،ثم كلفه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه،و إن لم يجد فئه تقاتل معه،و لم يكلف هذا أحدا من خلقه لا قبله و لا بعده،ثم تلا هذه الآيه:« فَقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لاٰ تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ» .

ثم قال:و جعل الله له أن يأخذ ما أخذ لنفسه فقال عز و جل:« مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا» و جعل الصلاه على رسول الله ص بعشر حسنات

و فى تفسير العياشى،عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبى عبد الله(ع)قول الناس لعلى(ع)،إن كان له حق فما منعه أن يقوم به،؟قال فقال إن الله لا يكلف هذا لإنسان واحد إلا رسول الله ص،قال:« فَقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لاٰ تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ» فليس هذا إلا للرسول،و قال لغيره:« إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ» -فلم يكن يومئذ فئه يعينونه على أمره.

و فيه،عن زيد الشحام عن جعفر بن محمد(ع)قال: ما سئل رسول الله ص شيئا

قط-فقال:لا،إن كان عنده أعطاه،و إن لم يكن عنده-قال:يكون إن شاء الله،و لا كافى بالسيئه قط،و ما لقى سريه مذ نزلت عليه،« فَقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللّهِ لا تُکَلَّفُ إِلاّ نَفْسَکَ» إلا ولى بنفسه.

أقول:و فى هذه المعانى روايات أخر.

[سوره النساء (۴): الآيات ۸۵ الى ۹۱]

اشاره

مَنْ یَشْفَعْ شَفاعَهً حَسَنَهً یَکُنْ لَهُ نَصِیبٌ مِنْها وَ مَنْ یَشْفَعْ شَفاعَهً سَیِّئَهً یَکُنْ لَهُ کِفْلٌ مِنْها وَ کانَ اَللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ مُقِیتاً (۸۵) وَ إِذا حُیِّیتُمْ بِتَحِیَّهٍ فَحَیُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اَللّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ حَسِیباً (۸۶) اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلی یَوْمِ اَلْقِیامَهِ لا رَیْبَ فِیهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ حَدِیثاً (۸۷) فَما لَکُمْ فِی اَلْمُنافِقِینَ فِئَتَیْنِ وَ اَللّهُ أَرْکَسَهُمْ بِما کَسَبُوا أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اَللّهُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً (۸۸) وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ کَما کَفَرُوا فَتَکُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِیاءَ حَتّی یُهاجِرُوا فِی سَبِیلِ اَللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۸۹) إِلاَّ اَلَّذِینَ یَصِلُونَ إِلی قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ أَوْ جاؤُکُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ یُقاتِلُوکُمْ أَوْ یُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اَللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَیْکُمْ فَلَقاتَلُوکُمْ فَإِنِ اِعْتَزَلُوکُمْ فَلَمْ یُقاتِلُوکُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَیْکُمُ اَلسَّلَمَ فَما جَعَلَ اَللّهُ لَکُمْ عَلَیْهِمْ سَبِیلاً (۹۰) سَتَجِدُونَ آخَرِینَ یُرِیدُونَ أَنْ یَأْمَنُوکُمْ وَ یَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ کُلَّما رُدُّوا إِلَی اَلْفِتْنَهِ أُرْکِسُوا فِیها فَإِنْ لَمْ یَعْتَزِلُوکُمْ وَ یُلْقُوا إِلَیْکُمُ اَلسَّلَمَ وَ یَکُفُّوا أَیْدِیَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِکُمْ جَعَلْنا لَکُمْ عَلَیْهِمْ سُلْطاناً مُبِیناً (۹۱)

بيان

الآيـات متصـله بما قبلها من حيث تتعرض جميعا(۸۵-۹۱)لمـا يرتبـط بأمر القتال مع طائفه من المشـركين و هم المنافقون منهم،و يظهر من التـدبر فيهـا أنهـا نزلت فى قوم من المشـركين أظهروا الإيمـان للمؤمنين ثم عـادوا إلى مقرهم و شاركوا المشـركين فى شركهم فوقع الريب فى قتالهم،و اختلفت أنظار المسلمين فى أمرهم،فمن قائل يرى قتالهم،و آخر يمنع منه و يشفع لهم لتظاهرهم بالإيمان،و الله سبحانه يكتب عليهم إما المهاجره أو القتال و يحذر المؤمنين الشفاعه فى حقهم.

و يلحق بهم قوم آخرون ثم آخرون يكتب عليهم إما إلقاء السـلم أو القتال،و يستهل لما فى الآيات من المقاصد فى صدر الكلام ببيان حال الشفاعه فى آيه،و ببيان حال التحيه لمناسبتها إلقاء السلم فى آيه أخرى.

قوله تعالى:« مَنْ يَشْـفَعْ شَـفٰاعَةً حَسَـنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهٰا»، النصيب و الكفل بمعنى واحد،و لما كانت الشفاعه نوع توسط لترميم نقيصه أو لحيـازه مزيه و نحـو ذلـک کـانت لهـا نـوع سـببيه لإصـلاح شـأن فلهـا شـىء من التبعه و المثوبه المتعلقـتين بمـا لأـجله الشـفاعه،و هو مقصد الشفيع و المشفوع له فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشر المترتب على الشفاعه،و هو قوله تعالى «مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً» (إلخ).

و فى ذكر هـذه الحقيقه تذكره للمؤمنين،و تنبيه لهم أن يتيقظوا عند الشـفاعه لما يشـفعون له،و يجتنبوها إن كان المشـفوع لأجله مما فيه شـر و فساد كالشـفاعه للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا،فإن فى ترک الفساد القليل على حاله،و إمهاله فى أن ينمو و يعظم فسادا معقبا لا يقوم له شىء،و يهلک به الحرث و النسل فالآيه فى معنى النهى عن الشفاعه السيئه و هى شفاعه أهل الظلم و الطغيان و النفاق و الشرک المفسدين فى الأرض.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا» (الآيه)أمر بالتحيه قبال

التحيه بما يزيد عليها أو يماثلها،و هو حكم عام لكل تحيه حيى بها،غير أن مورد الآيات هو تحيه السلم و الصلح التى تلقى إلى المسلمين على ما يظهر من الآيات التاليه.

قوله تعالى:« اَللّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ» (إلخ)معنى الآيه ظاهر،و هى بمنزله التعليل لما تشتمل عليه الآيتان السابقتان من المضمون كأنه قيل:خذوا بما كلفكم الله فى أمر الشفاعه الحسنه و السيئه،و لا تبطلوا تحيه من يحييكم بالإعراض و الرد فإن أمامكم يوما يجمعكم الله فيه و يجازيكم على إجابه ما دعاكم إليه و رده.

قوله تعالى:« فَمٰا لَكُمْ فِي الْمُنٰافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللّٰهُ أَرْكَسَهُمْ» (الآيه) الفئه الطائفه، و الإركاس الرد.

و الآيه بما لها من المضمون كأنها متفرعه على ما تقدم من التوطئه و التمهيد أعنى قوله «مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً» (الآيه)،و المعنى:فإذا كانت الشفاعه السيئه تعطى لصاحبها كفلا من مساءتها فما لكم أيها المؤمنون تفرقتم فى أمر المنافقين فئتين،و تحزبتهم حزبين:فئه ترى قتالهم،و فئه تشفع لهم و تحرض على ترك قتالهم،و الإغماض عن شجره الفساد التى تنمو بنمائهم،و تثمر برشدهم،و الله ردهم إلى الضلال بعد خروجهم منه جزاء بما كسبوا من سيئات الأعمال،أ تريدون بشفاعتكم أن تهدوا هؤلاء الذين أضلهم الله؟و من يضلل الله فما له من سبيل إلى الهدى.

و فى قوله« وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً» التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب رسول الله ص إشاره إلى أن من يشفع لهم من المؤمنين لا يتفهم حقيقه هذا الكلام حق التفهم،و لو فقهه لم يشفع فى حقهم فأعرض عن مخاطبتهم به و ألقى إلى من هو بين واضح عنده و هو النبى ص.

قوله تعالى:« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمٰا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوٰاءً» (إلخ)هو بمنزله البيان لقوله« وَ اللّٰهُ أَرْكَسَهُمْ بِمٰا كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ»، و المعنى:أنهم كفروا و زادوا عليه أنهم ودوا و أحبوا أن تكفروا مثلهم فتستووا.

ثم نهاهم عن ولايتهم إلا أن يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فليس عليكم فيهم إلا أخذهم و قتلهم حيث وجدتموهم،و الاجتناب عن ولايتهم و نصرتهم،و فى قوله« فَإِنْ تَوَلَّوْا»،.

دلاله على أن على المؤمنين أن يكلفوهم بالمهاجره فإن أجابوا فليوالوهم،و إن تولوا فيقتلوهم.

قوله تعالى:« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» استثنى الله سبحانه من قوله« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ»، طائفتين:(إحداهما) اَلَّذِينَ يَصِلُونَ (إلخ)أى بينهم و بين بعض أهل الميثاق ما يوصلهم بهم من حلف و نحوه،و(الثانيه) الذين يتحرجون من مقاتله المسلمين و مقاتله قومهم لقتلهم أو لعوامل أخر،فيعتزلون المؤمنين و يلقون إليهم السلم لا للمؤمنين و لا عليهم بوجه، فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور،و قوله« حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»، أى ضاقت.

قوله تعالى:« سَتَجِدُونَ آخَرِينَ»، إخبار بأنه سيواجهكم قوم آخرون ربما شابهوا الطائفه الثانيه من الطائفتين المستثناتين حيث إنهم يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم غير أن الله سبحانه يخبر أنهم منافقون غير مأمونين فى مواعدتهم و موادعتهم،و لذا بدل الشرطين المثبتين فى حق غيرهم أعنى قوله« فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ» بالشرط المنفى أعنى قوله «فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ» (إلخ) و هذا فى معنى تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم و معنى الآيه ظاهر.

كلام فى معنى التحيه

الأمم و الأقوام على اختلافها فى الحضاره و التوحش و التقدم و التأخر لا تخلو فى مجتمعاتهم من تحيه يتعارفونها عند الملاقاه ملاقاه البعض البعض على أقسامها و أنواعها من الإشاره بالرأس و اليد و رفع القلانس و غير ذلك،و هى مختلفه باختلاف العوامل المختلفه العامله فى مجتمعاتهم.

و أنت إذا تأملت هذه التحيات الدائره بين الأمم على اختلافها و على اختلافهم وجدتها حاكيه مشيره إلى نوع من الخضوع و الهوان و التذلل يبديه الدانى للعالى،و الوضيع للشريف،و المطيع لمطاعه،و العبد لمولاه،و بالجمله تكشف عن رسم الاستعباد الذى لم يزل رائجا بين الأمم فى أعصار الهمجيه فما دونها،و إن اختلفت ألوانه،و لذلك ما نرى أن هذه التحيه تبدأ من المطيع و تنتهى إلى المطاع،و تشرع من الدانى الوضيع و تختتم فى العالى الشريف، فهى من ثمرات الوثنيه التى ترتضع من ثدى الاستعباد.

و الإسلام-كما تعلم-أكبر همه إمحاء الوثنيه و كل رسم من الرسوم ينتهى إليها،

و يتولد،منها و لذلک أخذ لهذا الشأن طريقه سويه و سنه مقابله لسنه الوثنيه و رسم الاستعباد،و هو إلقاء السلام الذى هو بنحو أمن المسلم عليه من التعدى عليه،و دحض حريته الفطريه الإنسانيه الموهوبه له فإن أول ما يحتاج إليه الاجتماع التعاونى بين الأفراد هو أن يأمن بعضهم بعضا فى نفسه و عرضه و ماله،و كل أمر يئول إلى أحد هذه الثلاثه.

و هذا هو السلام الذى سن الله تعالى إلقاؤه عند كل تلاق من متلاقيين قال تعالى:

«فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً» (النور:۶۱) و قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» :(النور:۲۷)و قد أدب الله رسوله ص بالتسليم للمؤمنين و هو سيدهم فقال: «وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» :(الأنعام:۵۴) و أمره بالتسليم لغيرهم فى قوله:

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» :(الزخرف:۸۹).

و التحيه بإلقاء السلام كانت معمولا بها عند عرب الجاهليه على ما يشهد به المأثور عنهم من شعر و نحوه،و فى لسان العرب:و كانت العرب فى الجاهليه يحيون بأن يقول أحدهم لصاحبه:أنعم صباحا،و أبيت اللعن،و يقولون سلام عليكم فكأنه علامه المسالمه،و أنه لا حرب هنالک.ثم جاء الله بالإسلام فقصروا على السلام،و أمروا بإفشائه.(انتهى).

إلا أن الله سبحانه يحكيه فى قصص إبراهيم عنه(ع)كثيرا: و لا يخلو ذلک من شهاده على أنه كان من بقايا دين إبراهيم الحنيف عند العرب كالحج و نحوه قال تعالى:

حكايه عنه فيما يحاور أباه:« قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي» :(مريم:۴۷)و قال تعالى« وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ» :(هود:۶۹) و القصه واقعه فى غير مورد من القرآن الكريم.

و لقد أخذه الله سبحانه تحيه لنفسه،و استعمله فى موارد من كلامه،قال تعالى:

«سَلامٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ» :(الصافات:۷۹)و قال:« سَلامٌ عَلىٰ إِبْراهِيمَ:» (الصافات:

۱۰۹)و قال:« سَلامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هارُونَ» :(الصافات:۱۲۰)و قال« سَلامٌ عَلىٰ إِلْ ياسِينَ» :(الصافات:۱۳۰)و قال:« وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» :(الصافات:۱۸۱).

و ذکر تعالی أنه تحیه ملائکته المکرمین قال:« اَلَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِکَهُ طَیِّبِینَ یَقُولُونَ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ» :(النحل:۳۲)و قال:« وَ الْمَلاٰئِکَهُ یَدْخُلُونَ عَلَیْهِمْ مِنْ کُلِّ بٰابٍ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ» :(الرعد:۲۴)و ذکر أیضا أنه تحیه أهل الجنه قال:« وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیهٰا سَلاٰمٌ» :(یونس:۱۰)،و قال تعالی: لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً وَ لاٰ تَأْثِیماً إِلاّٰ قِیلاً سَلاٰماً سَلاٰماً» :(الواقعه:۲۶).

(بحث روائی)

فی المجمع،: فی قوله تعالی« وَ إِذٰا حُیِّیتُمْ (الآیه):قال:ذکر علی بن إبراهیم فی تفسیره،عن الصادقین:أن المراد بالتحیه فی الآیه السلام و غیره من البر.

و فی الکافی،بإسناده عن السکونی قال:قال رسول الله ص: السلام تطوع و الرد فریضه.

و فیه،بإسناده عن جراح المدائنی عن أبی عبد الله(ع)قال: یسلم الصغیر علی الکبیر،و المار علی القاعد،و القلیل علی الکثیر.

و فیه،بإسناده عن عیینه (۱)عن مصعب عن أبی عبد الله(ع)قال: القلیل یبدءون الکثیر بالسلام،و الراکب یبدأ الماشی،و أصحاب البغال یبدءون أصحاب الحمیر،و أصحاب الخیل یبدءون أصحاب البغال.

و فیه،بإسناده عن ابن بکیر عن بعض أصحابه عن أبی عبد الله(ع)قال:سمعته یقول: یسلم الراکب علی الماشی،و الماشی علی القاعد،و إذا لقیت جماعه سلم الأقل علی الأکثر،و إذا لقی واحد جماعه سلم الواحد علی الجماعه:

أقول:و روی ما یقرب منه فی الدر المنثور،عن البیهقی عن زید بن أسلم عن النبی ص.

و فیه،بالإسناد عنه(ع)قال: إذا مرت الجماعه بقوم أجزأهم أن یسلم واحد منهم،

۱- ۱) عنبسه(خ ل)

و إذا سلم على القوم و هم جماعه،أجزأهم أن يرد واحد منهم.

و فى التهذيب،بإسناده عن محمد بن مسلم قال: دخلت على أبى جعفر(ع)و هو فى الصلاه فقلت:السلام عليك،فقال:السلام عليك،فقلت:كيف أصبحت؟فسكت، فلما انصرف قلت:أ يرد السلام و هو فى الصلاه؟قال:نعم،مثل ما قيل له.

و فيه،بإسناده عن منصور بن حازم عن أبى عبد الله(ع)قال: إذا سلم عليك الرجل و أنت تصلى،قال:ترد عليه خفيا كما قال

و فى الفقيه،بإسناده عن مسعده بن صدقه عن جعفر بن محمد عن أبيه(ع)قال:

لا تسلموا على اليهود،و لا على النصارى،و لا على المجوس،و لا على عبده الأوثان،و لا على موائد شراب الخمر،و لا على صاحب الشطرنج و النرد،و لا على المخنث،و لا على الشاعر الذى يقذف المحصنات،و لا على المصلى لأن المصلى لا يستطيع أن يرد السلام،لأن التسليم من المسلم تطوع و الرد فريضه،و لا على آكل الربا،و لا على رجل جالس على غائط-و لا على الذى فى الحمام،و لا على الفاسق المعلن بفسقه.

أقول:و الروايات فى معنى ما تقدم كثيره،و الإحاطه بما تقدم من البيان توضح معنى الروايات فالسلام تحيه مؤذنه ببسط السلم،و نشر الأمن بين المتلاقين على أساس المساواه و التعادل من استعلاء و إدحاض،و ما فى الروايات من ابتداء الصغير بالتسليم للكبير،و القليل للكثير،و الواحد للجمع لا ينافى مسأله المساواه و إنما هو مبنى على وجوب رعايه الحقوق فإن الإسلام لم يأمر أهله بإلغاء الحقوق،و إهمال أمر الفضائل و المزايا بل أمر غير صاحب الفضل أن يراعى فضل ذى الفضل،و حق صاحب الحق،و إنما نهى صاحب الفضل أن يعجب بفضله،و يتكبر على غيره فيبغى على الناس بغير حق فيبطل بذلك التوازن بين أطراف المجتمع الإنسانى.

و أما النهى الوارد عن التسليم على بعض الأفراد فإنما هو متفرع على النهى عن توليهم و الركون إليهم كما قال تعالى:« لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ» :(المائده:۵۱) و قال: «لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ» (الممتحنه:۱)و قال وَ لاٰ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» :(هود:۱۱۳)إلى غير ذلک من الآيات.

نعم ربما اقتضت مصلحه التقرب من الظالمين لتبليغ الدين أو إسماعهم كلمه الحق

التسليم عليهم ليحصل به تمام الأنس و تمتزج النفوس كما أمر النبى ص بذلك فى قوله «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ» : (الزخرف:٨٩)و كما فى قوله يصف المؤمنين «وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً» :(الفرقان:٦٣).

و تفسير الصافى،عن النبى ص: إن رجلا قال له:السلام عليك،فقال:

و عليك السلام و رحمه الله،و قال آخر:السلام عليك و رحمه الله،فقال:و عليك السلام و رحمه الله و بركاته،و قال آخر:السلام عليك و رحمه الله و بركاته،فقال:و عليك، فقال الرجل:نقصتنى فأين ما قال الله« وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا» (الآيه) فقال(ص):إنك لم تترك فضلا و رددت عليك مثله:

أقول:و روى مثله فى الدر المنثور،عن أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه بسند حسن عن سلمان الفارسى.

و فى الكافى،عن الباقر(ع)قال: مر أمير المؤمنين(ع)بقوم فسلم عليهم فقالوا:

عليك السلام و رحمه الله و بركاته و مغفرته و رضوانه،فقال لهم أمير المؤمنين(ع):، لا تجاوزوا بنا مثل ما قالت الملائكه لأبينا إبراهيم،قالوا:رحمه الله و بركاته عليكم أهل البيت.

أقول:و فيه إشاره إلى أن السنه فى التسليم التام،و هو قول المسلم«السلام عليك و رحمه الله و بركاته»مأخوذه من حنيفيه إبراهيم،(ع)و تأييد لما تقدم أن التحيه بالسلام من الدين الحنيف.

و فيه،عن الصادق(ع): أن من تمام التحيه للمقيم المصافحه،و تمام التسليم على المسافر المعانقه.

و فى الخصال،عن أمير المؤمنين(ع): إذا عطس أحدكم قولوا يرحمكم الله،و هو يقول:يغفر الله لكم و يرحمكم،قال الله تعالى: «وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا» (الآيه

و فى المناقب: جاءت جاريه للحسن(ع)بطاق ريحان،فقال لها،أنت حره لوجه الله،فقيل له فى ذلك،فقال(ع):،أدبنا الله تعالى فقال:،« إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا» (الآيه)و كان أحسن منها إعتاقها.

أقول:و الروايات كما ترى تعمم معنى التحيه فى الآيه.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ» (الآيه)قال اختلفوا فى من نزلت هذه الآيه فيه، فقيل،:نزلت فى قوم قدموا المدينه من مكه،فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكه-لأنهم استوخموا المدينه فأظهروا الشرك،ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامه،فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا،:فقال بعضهم لا نفعل فإنهم مؤمنون،و قال آخرون:إنهم مشركون،فأنزل الله فيهم الآيه:قال:و هو المروى عن أبى جعفر(ع).

و فى تفسير القمى،فى قوله تعالى« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا» (الآيه)أنها نزلت فى أشجع و بنى ضمره،و هما قبيلتان،و كان من خبرهم أنه لما خرج رسول الله ص إلى غزاه الحديبيه مر قريبا من بلادهم،و قد كان رسول الله ص هادن بنى ضمره،و واعدهم قبل ذلک فقال أصحاب رسول الله ص:يا رسول الله هذه بنو ضمره قريبا منا،و نخاف أن يخالفونا إلى المدينه أو يعينوا علينا قريشا فلو بدأنا بهم،فقال رسول الله ص كلا إنهم أبر العرب بالوالدين،و أوصلهم للرحم،و أوفاهم بالعهد.

و كان أشجع بلادهم قريبا من بلاد بنى ضمره،و هم بطن من كنانه،و كانت أشجع بينهم و بين بنى ضمره حلف بالمراعاه و الأمان،فأجدبت بلاد أشجع و أخصبت بلاد بنى ضمره فسارت أشجع إلى بلاد بنى ضمره فلما بلغ رسول الله ص مسيرهم إلى بنى ضمره تهيأ للمسير إلى أشجع ليغزوهم للموادعه التى كانت بينه و بين بنى ضمره فأنزل الله:« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لاَ نَصِيراً .

ثم استثنى بأشجع فقال:« إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً» .

و كانت أشجع محالها البيضاء و الحل و المستباح،و قد كانوا قربوا من رسول الله ص فهابوا لقربهم من رسول الله ص أن يبعث إليهم من يغزوهم،و كان رسول الله ص قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئا فهم بالمسير إليهم فبينما هو على ذلک إذ جاءت أشجع و رئيسها مسعود بن رجيله،و هم سبعمائه فنزلوا شعب سلع،و ذلک فى شهر ربيع الأول

سنه ست من الهجره فدعا رسول الله ص أسيد بن حصين و قال له:اذهب فى نفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع.

فخرج أسيد و معه ثلاثه نفر من أصحابه فوقف عليهم فقال:ما أقدمكم؟فقام إليه مسعود بن رجيله و هو رئيس أشجع فسلم على أسيد و على أصحابه فقالوا:جئنا لنوادع محمدا، فرجع أسيد إلى رسول الله ص فأخبره،فقال رسول الله ص:خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بينى و بينهم.ثم بعث إليهم بعشره أحمال تمر فقدمها أمامه،ثم قال:نعم الشىء الهديه أمام الحاجه،ثم أتاهم فقال:يا معشر أشجع ما أقدمكم؟قالوا:قربت دارنا منك،و ليس فى قومنا أقل عددا منا فضقنا لحربك لقرب دارنا منك،و ضقنا لحرب قومنا لقلتنا فيهم فجئنا لنوادعكم،فقبل النبى ص منهم و وادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم،و فيهم نزلت هذه الآيه «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ -إلى قوله- فَمٰا جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ».

و فى الكافى،بإسناده عن الفضل أبى العباس عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله عز و جل «أَوْ جٰاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقٰاتِلُوكُمْ أَوْ يُقٰاتِلُوا قَوْمَهُمْ» قال:نزلت فى بنى مدلج،لأنهم جاءوا إلى رسول الله ص فقالوا،:إنا قد حصرت صدورنا أن نشهد إنك لرسول الله،فلسنا معكم و لا مع قومنا عليك،قال:قلت:كيف صنع بهم رسول الله ص، قال:وادعهم إلى أن يفرغ من العرب،ثم يدعوهم فإن أجابوا،و إلا قاتلهم.

و فى تفسير العياشى،عن سيف بن عميره قال: سألت أبا عبد الله(ع)- «أَنْ يُقٰاتِلُوكُمْ أَوْ يُقٰاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقٰاتَلُوكُمْ» قال:كان أبى يقول:،نزلت فى بنى مدلج اعتزلوا فلم يقاتلوا النبى ص،و لم يكونوا مع قومهم.قلت:فما صنع بهم،:قال لم يقاتلهم النبى ص حتى فرغ من عدوه،ثم نبذ إليهم على سواء.قال،:و «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» هو الضيق.

و فى المجمع:المروى عن أبى جعفر(ع)أنه قال: المراد بقوله تعالى «قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ» هو هلال بن عويمر السلمى واثق عن قومه رسول الله ص،و قال فى موادعته،:على أن لا نخيف يا محمد من أتانا و لا تخيف من أتاك-فنهى الله أن يتعرض لأحد عهد إليهم:

أقول:و قد روى هذه المعانى و ما يقرب منها فى الدر المنثور بطرق مختلفه عن ابن عباس و غيره.

و فى الدر المنثور،أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و البيهقى فى سننه عن ابن عباس": فى قوله« إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلىٰ قَوْمٍ»، (الآيه)قال:نسختها براءه،:

«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» .

[سوره النساء (۴): الآيات ۹۲ الى ۹۴]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ مُتَتٰابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللّٰهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً (۹۳) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ السَّلاٰمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا فَعِنْدَ اللّٰهِ مَغٰانِمُ كَثِيرَةٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

(بيان)

قوله تعالى:« وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً» الخطأ بفتحتين من غير مد، و مع المد على فعال:خلاف الصواب،و المراد به هنا ما يقابل التعمد لمقابلته بما فى الآيه

التاليه «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً» .

و المراد بـالنفى فى قوله «وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً»، نفى الاقتضاء أى ليس و لا يوجد فى المؤمن بعد دخوله فى حريم الإيمان و حماه اقتضاء لقتل مؤمن هو مثله فى ذلك أى قتل كان إلا قتل الخطإ،و الاستثناء متصل فيعود معنى الكلام إلى أن المؤمن لا يريد قتل المؤمن بما هو مؤمن بأن يقصد قتله مع العلم بأنه مؤمن،و نظير هذه الجمله فى سوقها لنفى الاقتضاء قوله تعالى «وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ» :(الشورى:۵۱)و قوله «مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰا» :(النمل:۶۰)و قوله« فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» :(يونس:

۷۴)إلى غير ذلك.

و الآيه مع ذلك مسوقه كنايه عن التكليف بالنهى التشريعى بمعنى أن الله تعالى لم يبح قط،و لا يبيح أبدا أن يقتل مؤمن مؤمنا و حرم ذلك إلا فى قتل الخطإ فإنه لما لم يقصد هناك قتل المؤمن إما لكون القتل غير مقصود أصلا أو قصد و لكن بزعم أن المقتول كافر جائز القتل مثلا فلا حرمه مجعوله هناك.

و قد ذكر جمع من المفسرين:أن الاستثناء فى قوله «إِلاّٰ خَطَأً» منقطع،قالوا:

و إنما لم يحمل قوله «إِلاّٰ خَطَأً» على حقيقه الاستثناء لأن ذلك يؤدى إلى الأمر بقتل الخطإ أو إباحته.(انتهى)و قد عرفت أن ذلك لا يؤدى إلا إلى رفع الحرمه عن قتل الخطإ،أو عدم وضع الحرمه فيه،و لا محذور فيه قطعا.فالحق أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى:« وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً- إلى قوله- يَصَّدَّقُوا» التحرير جعل المملوك حرا!و الرقبه هى العنق شاع استعمالها فى النفس المملوكه مجازا!و الديه ما يعطى من المال عوضا عن النفس أو العضو أو غيرهما،و المعنى:و من قتل مؤمنا بقتل الخطإ وجب عليه تحرير نفس مملوكه مؤمنه،و إعطاء ديه يسلمها إلى أهل المقتول إلا أن يتصدق أولياء القتيل الديه على معطيها و يعفوا عنها فلا تجب الديه.

قوله تعالى:« فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ»، الضمير يرجع إلى المؤمن المقتول، و القوم العدو هم الكفار المحاربون،و المعنى:إن كان المقتول خطأ مؤمنا و أهله كفار محاربون لا يرثون وجب التحرير و لا ديه إذ لا يرث الكافر المحارب من المؤمن شيئا.

قوله تعالى:« وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ»، الضمير فى« كٰانَ» يعود إلى

المؤمن المقتول أيضا على ما يفيده السياق،و الميثاق مطلق العهد أعم من الذمه و كل عهد، و المعنى:و إن كان المؤمن المقتول من قوم بينكم و بينهم عهد وجبت الديه و تحرير الرقبه، و قد قدم ذكر الديه تأكيدا فى مراعاه جانب الميثاق.

قوله تعالى:« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ»، أى من لم يستطع التحرير-لأنه هو الأقرب بحسب اللفظ-وجب عليه صيام شهرين متتابعين.

قوله تعالى:« تَوْبَةً مِنَ اللّٰهِ»(إلخ)أى هذا الحكم و هو إيجاب الصيام توبه و عطف رحمه من الله لفاقد الرقبه،و ينطبق على التخفيف فالحكم تخفيف من الله فى حق غير المستطيع،و يمكن أن يكون قوله «تَوْبَةً» قيدا راجعا إلى جميع ما ذكر فى الآيه من الكفاره أعنى قوله« فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» (إلخ)و المعنى:أن جعل الكفاره للقاتل خطأ توبه و عنايه من الله للقاتل فيما لحقه من درن هذا الفعل قطعا.و ليتحفظ على نفسه فى عدم المحاباه فى المبادره إلى القتل نظير قوله تعالى «وَ لَكُمْ فِي الْقِصٰاصِ حَيٰاةٌ» : (البقره:۱۷۹).

و كذا هو توبه من الله للمجتمع و عنايه لهم حيث يزيد به فى أحرارهم واحد بعد ما فقدوا واحدا،و يرمم ما ورد على أهل المقتول من الضرر المالى بالديه المسلمه.

و من هنا يظهر أن الإسلام يرى الحريه حياه و الاسترقاق نوعا من القتل،و يرى المتوسط من منافع وجود الفرد هو الديه الكامله.و سنوضح هذا المعنى فى ما سيأتى من المباحث.

و أما تشخيص معنى الخطإ و العمد و التحرير و الديه و أهل القتيل و الميثاق و غيره المذكورات فى الآيه فعلى السنه.من أراد الوقوف عليها فليراجع الفقه.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ»، التعمد هو القصد إلى الفعل بعنوانه الذى له،و حيث إن الفعل الاختيارى لا يخلو من قصد العنوان و كان من الجائز أن يكون لفعل أكثر من عنوان واحد أمكن أن يكون فعل واحد عمديا من جهه خطائيا من أخرى فالرامى إلى شبح و هو يزعم أنه من الصيد و هو فى الواقع إنسان إذا قتله كان متعمدا إلى الصيد خاطئا فى قتل الإنسان،و كذا إذا ضرب إنسانا بالعصا قاصدا تأديبه فقتلته الضربه كان القتل قتل خطإ،و على هذا فمن يقتل مؤمنا متعمدا هو الذى يقصد بفعله قتل المؤمن عن علم بأنه قتل و أن المقتول مؤمن.

و قد أغلظ الله سبحانه و تعالى فى وعيد قاتل المؤمن متعمدا بالنار الخالده غير أنك عرفت فى الكلام على قوله تعالى «إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» :(النساء:٤٨)أن تلك الآيه،و كذا قوله تعالى «إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» :(الزمر:٥٣)تصلحان لتقييد هذه الآيه فهذه الآيه توعد بالنار الخالده لكنها ليست بصريحه فى الحتم فيمكن العفو بتوبه أو شفاعه.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُوا» الضرب هو السير فى الأرض و المسافره،و تقييده بسبيل الله يدل على أن المراد به هو الخروج للجهاد، و التبين هو التمييز و المراد به التمييز بين المؤمن و الكافر بقرينه قوله «وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً» و المراد بإلقاء السلام إلقاء التحيه تحيه أهل الإيمان،و قرئ:« لمن ألقى إليكم السلم» بفتح اللام و هو الاستسلام.

و المراد بابتغاء عرض الحياه الدنيا طلب المال و الغنيمه،و قوله« فَعِنْدَ اللّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» جمع مغنم و هو الغنيمه أى ما عند الله من المغانم أفضل من مغنم الدنيا الذى يريدونه لكثرتها و بقائها فهى التى يجب عليكم أن تؤثروها.

قوله تعالى:« كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا» (إلخ)أى على هذا الوصف.و هو ابتغاء عرض الحياه الدنيا-كنتم من قبل أن تؤمنوا فمن الله عليكم بالإيمان الصارف لكم عن ابتغاء عرض الحياه الدنيا إلى ما عند الله من المغانم الكثيره فإذا كان كذلك فيجب عليكم أن تبينوا،و فى تكرار الأمر بالتبين تأكيد فى الحكم.

و الآيه مع اشتمالها على العظه و نوع من التوبيخ لا تصرح بكون هذا القتل الذى ظاهرها وقوعه قتل مؤمن متعمدا،فالظاهر أنه كان قتل خطأ من بعض المؤمنين لبعض من ألقى السلم من المشركين لعدم وثوق القاتل بكونه مؤمنا حقيقه بزعم أنه إنما يظهر الإيمان خوفا على نفسه،و الآيه توبخه بأن الإسلام إنما يعتبر بالظاهر،و يحل أمر القلوب إلى اللطيف الخبير.

و على هذا فقوله «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا» موضوع فى الكلام على اقتضاء الحال، أى حالكم فى قتل من يظهر لكم الإيمان من غير اعتناء بأمره و تبين فى شأنه حال من يريد المال و الغنيمه فيقتل المؤمن المتظاهر بالإيمان بأدنى ما يعتذر به من غير أن يكون من

موجه العذر،و هذا هو الحال الذى كان عليه المؤمنون قبل إيمانهم لا يبتغون إلا الدنيا فإذا أنعم الله عليهم بالإيمان،و من عليهم بالإسلام كان الواجب عليهم أن يتبينوا فيما يصنعون و لا ينقادوا لأخلاق الجاهليه و ما بقى فيهم من إثارتها.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور،": فى قوله تعالى« وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً» (الآيه)":أخرج ابن جرير عن عكرمه قال":كان الحارث بن يزيد بن نبيشه،من بنى عامر بن لؤى يعذب، عياش بن أبى ربيعه مع أبى جهل،ثم خرج مهاجرا إلى النبى ص فلقيه عياش بالحره،فعلاه بالسيف و هو يحسب أنه كافر،ثم جاء إلى النبى ص فأخبره فنزلت،« وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً» (الآيه)،فقرأها عليه،ثم قال له:قم فحرر.

أقول:و روى هذا المعنى بغيره من الطرق،و فى بعضها أنه قتله بمكه يوم الفتح حين خرج عياش و كان فى وثاق المشركين إلى ذلك اليوم و هم يعذبونه و لقى حارثا و قد أسلم و عياش لا يعلم بإسلامه فقتله عياش إذ ذاك.و ما أثبتناه من روايه عكرمه أوفق بالاعتبار و أنسب لتأريخ نزول سوره النساء.

و روى الطبرى فى تفسيره عن ابن زيد": أن الذى نزلت فيه الآيه هو أبو الدرداء،كان فى سريه فعدل إلى شعب يريد حاجه له،فوجد رجلا من القوم فى غنم له،فحمل عليه بالسيف فقال لا إله إلا الله،فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم،ثم وجد فى نفسه شيئا فأتى النبى ص،فأخبره فنزلت الآيه

و روى فى الدر المنثور،أيضا عن الرويانى و ابن منده و أبى نعيم عن بكر بن حارثه الجهنى": أنه هو الذى نزلت فيه الآيه،لقصه نظيره قصه أبى الدرداء، و الروايات على أى حال لا تزيد على التطبيق.

و فى التهذيب،بإسناده عن الحسين بن سعيد عن رجاله عن أبى عبد الله(ع)قال:

قال رسول الله ص: كل العتق يجوز له المولود إلا فى كفاره القتل،فإن الله تعالى يقول:

« فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ»، -يعنى بذلك مقره قد بلغت الحنث الحديث.

ص: ۴۲

و فی تفسیر العیاشی،عن موسی بن جعفر(ع): سئل کیف تعرف المؤمنه؟قال:

علی الفطره.

و فی الفقیه،عن الصادق(ع): فی رجل مسلم فی أرض الشرک،فقتله المسلمون ثم علم به الإمام بعد،فقال(ع):یعتق مکانه رقبه مؤمنه و ذلک قول الله عز و جل:« فَإِنْ کٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَکُمْ». :

أقول:و روی مثله العیاشی. و فی قوله«یعتق مکانه»،إشعار بأن حقیقه العتق إضافه واحد إلی أحرار المسلمین حیث نقص واحد من عددهم کما تقدمت الإشاره إلیه.

و ربما استفید من ذلک أن مصلحه مطلق العتق فی الکفارات هو إضافه حر غیر عاص إلی عددهم حیث نقص واحد منهم بالمعصیه.فافهم ذلک.

و فی الکافی،عن الصادق(ع): إن کان علی رجل صیام شهرین متتابعین،فأفطر أو مرض فی الشهر الأول فإن علیه أن یعید الصیام،و إن صام الشهر الأول،و صام من الشهر الثانی شیئا،ثم عرض له ما له فیه عذر فعلیه أن یقضی.

أقول:أی یقضی ما بقی علیه کما قیل،و قد استفید من التتابع.

و فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عنه(ع): أنه سئل عن المؤمن یقتل المؤمن متعمدا له توبه؟فقال:إن کان قتله لإیمانه فلا توبه له،و إن کان قتله لغضب أو لسبب شیء من أشیاء الدنیا،فإن توبته أن یقاد منه،و إن لم یکن علم به انطلق إلی أولیاء المقتول،فأقر عندهم بقتل صاحبهم،فإن عفوا عنه فلم یقتلوه أعطاهم الدیه،و أعتق نسمه و صام شهرین متتابعین،و أطعم ستین مسکینا توبه إلی الله عز و جل.

و فی التهذیب،بإسناده عن أبی السفاتج عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل «وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ» قال:جزاؤه جهنم إن جازاه.:

أقول:و روی هذا المعنی فی الدر المنثور،عن الطبرانی و غیره عن أبی هریره عن النبی ص. و الروایات کما تری تشتمل علی ما قدمناه من نکات الآیات،و فی باب القتل و القود روایات کثیره من أرادها فلیراجع جوامع الحدیث.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی «وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً،فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ» (الآیه)قال،

نزلت فی مقیس بن ضبابه الکنانی،وجد أخاه هشاما قتیلا فی بنی النجار،فذکر ذلک لرسول الله ص،فأرسل معه قیس بن هلال الفهری،و قال له:قل لبنی النجار،:إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلی أخیه لیقتص منه،و إن لم تعلموا فادفعوا إلیه دیته،.فبلغ الفهری الرساله فأعطوه الدیه،فلما انصرف و معه الفهری وسوس إلیه الشیطان،فقال:ما صنعت شیئا أخذت دیه أخیک فتکون سبه علیک،اقتل الذی معک لتکون نفس بنفس و الدیه فضل،فرماه بصخره فقتله و رکب بعیرا،و رجع إلی مکه کافرا،و أنشد یقول، قتلت به فهرا و حملت عقله سراه بنی النجار أرباب فارع فأدرکت ثاری و اضطجعت موسدا و کنت إلی الأوثان أول راجع فقال النبی ص:لا أؤمنه فی حل و لا حرم":رواه الضحاک و جماعه من المفسرین (انتهی.

أقول:و روی ما یقرب منه عن ابن عباس و سعید بن جبیر و غیرهما.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی(«یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ» (الآیه) أنها نزلت لما رجع رسول الله ص من غزاه خیبر،و بعث أسامه بن زید فی خیل إلی بعض قری الیهود،فی ناحیه فدک لیدعوهم إلی الإسلام،کان رجل یقال له مرداس بن نهیک الفدکی فی بعض القری،فلما أحس بخیل رسول الله ص،جمع أهله و ماله فی ناحیه الجبل فأقبل یقول،أشهد أن لا إله إلا الله،و أن محمدا رسول الله،فمر به أسامه بن زید فطعنه فقتله،فلما رجع إلی رسول الله ص أخبره بذلک،فقال له رسول الله ص:

قتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله،و أنی رسول الله،؟فقال:یا رسول الله إنما قالها تعوذا من القتل،فقال رسول الله ص:فلا کشفت الغطاء عن قلبه،و لا ما قال بلسانه قبلت، و لا ما کان فی نفسه علمت.فحلف أسامه بعد ذلک،أن لا یقتل أحدا شهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله،فتخلف عن أمیر المؤمنین(ع)فی حروبه فأنزل فی ذلک:

«وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقیٰ إِلَیْکُمُ السَّلاٰمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا»

الآیه:

أقول:و روی هذا المعنی الطبری فی تفسیره عن السدی،و روی فی الدر المنثور، روایات کثیره فی سبب نزول الآیه، فی بعضها:أن القصه لمقداد بن الأسود و فی بعضها لأبی الدرداء،و فی بعضها لمحلم بن جثامه،و فی بعضها لم یذکر اسم للقاتل و لا المقتول

و أبهمت القصه إبهاما،هذا،و لكن حلف أسامه بن زيد و اعتذاره إلى علی(ع)فی تخلفه عن حروبه معروف مذكور فی كتب التاريخ و الله أعلم

[سوره النساء (۴): الآیات ۹۵ الی ۱۰۰]

اشاره

لاٰ يَسْتَوِي اَلْقٰاعِدُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي اَلضَّرَرِ وَ اَلْمُجٰاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اَللّٰهُ اَلْمُجٰاهِدِينَ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى اَلْقٰاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلاًّ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلْحُسْنىٰ وَ فَضَّلَ اَللّٰهُ اَلْمُجٰاهِدِينَ عَلَى اَلْقٰاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (۹۵) دَرَجٰاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۹۶) إِنَّ اَلَّذِينَ تَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِكَةُ ظٰالِمِي أَنْفُسِهِمْ قٰالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قٰالُوا كُنّٰا مُسْتَضْعَفِينَ فِي اَلْأَرْضِ قٰالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اَللّٰهِ وٰاسِعَةً فَتُهٰاجِرُوا فِيهٰا فَأُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سٰاءَتْ مَصِيراً (۹۷) إِلاَّ اَلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ اَلرِّجٰالِ وَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْوِلْدٰانِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (۹۸) فَأُولٰئِكَ عَسَى اَللّٰهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹) وَ مَنْ يُهٰاجِرْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ يَجِدْ فِي اَلْأَرْضِ مُرٰاغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَى اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ اَلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اَللّٰهِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۰)

(بیان)

قوله تعالى:« لاٰ يَسْتَوِي اَلْقٰاعِدُونَ -إلى قوله -وَ أَنْفُسِهِمْ» الضرر هو النقصان فی الوجود المانع من القيام بأمر الجهاد و القتال كالعمى و العرج و المرض،و المراد بالجهاد بالأموال

إنفاقها فی سبیل الله للظفر علی أعداء الدین،و بالأنفس القتال.

و قوله «وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ»، یدل علی أن المراد بهؤلاء القاعدین هم التارکون للخروج إلی القتال عند ما لا حاجه إلی خروجهم لخروج غیرهم علی حد الکفایه فالکلام مسوق لترغیب الناس و تحریضهم علی القیام بأمر الجهاد و التسابق فیه و المسارعه إلیه.

و من الدلیل علی ذلک أن الله سبحانه استثنی أولی الضرر ثم حکم بعدم الاستواء مع أن أولی الضرر کالقاعدین فی عدم مساواتهم المجاهدین فی سبیل الله و إن قلنا:إن الله سبحانه یتدارک ضررهم بنیاتهم الصالحه فلا شک أن الجهاد و الشهاده أو الغلبه علی عدو الله من الفضائل التی فضل بها المجاهدون فی سبیل الله علی غیرهم،و بالجمله ففی الکلام تحضیض للمؤمنین و تهییج لهم،و إیقاظ لروح إیمانهم لاستباق الخیر و الفضیله.

قوله تعالی:« فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی الْقاعِدِینَ دَرَجَةً» الجمله فی مقام التعلیل لقوله« لاٰ یَسْتَوِی»، و لذا لم توصل بعطف و نحوه،و الدرجه هی المنزله، و الدرجات المنزله بعد المنزله،و قوله« وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ» أی وعد الله کلا من القاعدین و المجاهدین،أو کلا من القاعدین غیر أولی الضرر و القاعدین أولی الضرر و المجاهدین الحسنی،و الحسنی وصف محذوف الموصوف أی العاقبه الحسنی أو المثوبه الحسنی أو ما یشابه ذلک،و الجمله مسوقه لدفع الدخل فإن القاعد من المؤمنین ربما أمکنه أن یتوهم من قوله «لاٰ یَسْتَوِی- إلی قوله- دَرَجَةً» إنه صفر الکف لا فائده تعود إلیه من إیمانه و سائر أعماله فدفع ذلک بقوله« وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ» .

قوله تعالی :«وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ عَلَی الْقاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً» هذا التفضیل بمنزله البیان و الشرح لإجمال التفضیل المذکور أولا،و یفید مع ذلک فائده أخری،و هی الإشاره إلی أنه لا ینبغی للمؤمنین أن یقنعوا بالوعد الحسن الذی یتضمنه قوله «وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ» فیتکاسلوا فی الجهاد فی سبیل الله و الواجب من السعی فی إعلاء کلمه الحق و إزهاق الباطل فإن فضل المجاهدین علی القاعدین بما لا یستهان به من درجات المغفره و الرحمه.

و أمر الآیه فی سیاقها عجیب،أما أولا-فلأنها قیدت المجاهدین(أولا)بقوله «فِی سَبِیلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و(ثانیا)بقوله «بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و(ثالثا)أوردته من

غير تقييد.و أما ثانيا:فلأنها ذكرت فی التفضيل(أولا)أنها درجه،و(ثانيا)أنها درجات منه.

أما الأول فلأن الكلام فی الآيه مسوق لبيان فضل الجهاد علی القعود،و الفضل إنما هو للجهاد إذا كان فی سبيل الله لا فی سبيل هوی النفس،و بالسماحه و الجود بأعز الأشياء عند الإنسان و هو المال،و بما هو أعز منه،و هو النفس،و لذلك قيل أولا:« وَ الْمُجاهِدُونَ فِی سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» ليتبين بذلك الأمر كل التبين،و يرتفع به اللبس،ثم لما قيل :«فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی الْقاعِدِينَ دَرَجَةً»، لم تكن حاجه إلی ذكر القيود من هذه الجهه لأن اللبس قد ارتفع بما تقدمه من البيان غير أن الجمله لما قارنت قوله «وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنی» مست حاجه الكلام إلی بيان سبب الفضل،و هو إنفاق المال و بذل النفس علی حبهما فلذا اكتفی بذكرهما قيدا للمجاهدين فقيل:« اَلْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و أما قوله ثالثا« وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَی الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً» فلم يبق فيه حاجه إلی ذكر القيود أصلا لا جميعها و لا بعضها و لذلك تركت كلا.

و أما الثانی فقوله« فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی الْقاعِدِينَ دَرَجَةً» «دَرَجَةً» منصوب علی التمييز،و هو يدل علی أن التفضيل من حيث الدرجه و المنزله من غير أن يعترض أن هذه الدرجه الموجبه للفضيله واحده أو أكثر، و قوله «وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَی الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجاتٍ مِنْهُ» كان لفظه «فَضَّلَ» فيه مضمنه معنی الإعطاء أو ما يشابهه، و قوله« دَرَجاتٍ مِنْهُ» بدل أو عطف بيان لقوله «أَجْراً عَظِيماً» و المعنی:و أعطی الله المجاهدين أجرا عظيما مفضلا إياهم علی القاعدين معطيا أو مثيبا لهم أجرا عظيما و هو الدرجات من الله،فالكلام يبين بأوله أن فضل المجاهدين علی القاعدين بالمنزله من الله مع السكوت عن بيان أن هذه المنزله واحده أو كثيره،و يبين بآخره أن هذه المنزله ليست منزله واحده بل منازل و درجات كثيره،و هی الأجر العظيم الذی يثاب به المجاهدون.

و لعل ما ذكرنا يدفع به ما استشكلوه من إيهام التناقض فی قوله أولا «دَرَجَةً» و ثانيا «دَرَجاتٍ مِنْهُ»، و قد ذكر المفسرون للتخلص من الإشكال وجوها لا يخلو جلها أو كلها من تكلف.

ص :۴۷

منها:أن المراد بالتفضيل فى صدر الآيه تفضيل المجاهدين على القاعدين أولى الضرر بدرجه و فى ذيل الآيه تفضيل المجاهدين على القاعدين غير أولى الضرر بدرجات.

و منها:أن المراد بالدرجه فى صدر الآيه المنزله الدنيويه كالغنيمه و حسن الذكر و نحوهما و بالدرجات فى آخر الآيه المنازل الأخرويه و هى أكثر بالنسبه إلى الدنيا،قال تعالى.

«وَ لَلْآخِرَهُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ» :(إسراء-٢١).

و منها:أن المراد بالدرجه فى صدر الآيه المنزله عند الله،و هى أمر معنوى، و بالدرجات فى ذيل الآيه منازل الجنه و درجاتها الرفيعه و هى حسيه،و أنت خبير بأن هذه الأقوال لا دليل عليها من جهه اللفظ.

و الضمير فى قوله «مِنْهُ» لعله راجع إلى الله سبحانه،و يؤيده«قوله وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» بناء على كونه بيانا للدرجات،و المغفره و الرحمه من الله،و يمكن رجوع الضمير إلى الأجر المذكور قبلا.

و قوله «وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» ظاهره كونه بيانا للدرجات فإن الدرجات و هى المنازل من الله سبحانه أيا ما كانت فهى مصداق المغفره و الرحمه،و قد علمت فى بعض المباحث السابقه أن الرحمه-و هى الإفاضه الإلهيه للنعمه-تتوقف على إزاله الحاجب و رفع المانع من التلبس بها،و هى المغفره،و لازمه أن كل مرتبه من مراتب النعم،و كل درجه و منزله رفيعه مغفره بالنسبه إلى المرتبه التى بعدها،و الدرجه التى فوقها،فصح بذلك أن الدرجات الأخرويه كائنه ما كانت مغفره و رحمه من الله سبحانه،و غالب ما تذكر الرحمه و ما يشابهها فى القرآن تذكر معها المغفره كقوله «مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (المائده:٩)و قوله «وَ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» :(الأنفال:۴)،و قوله «مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ» :(هود:١١)،و قوله «وَ مَغْفِرَهٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰانٌ» :(الحديد:٢٠)،و قوله «وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا» :(البقره:٢٨۶) إلى غير ذلك من الآيات.

ثم ختم الآيه بقوله: «وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً» و مناسبه الاسمين مع مضمون الآيه ظاهره لا سيما بعد قوله فى ذيلها« وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» .

قوله تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَهُ ظٰالِمِي أَنْفُسِهِمْ» لفظ «تَوَفّٰاهُمُ» صيغه ماض أو صيغه مستقبل-و الأصل تتوفاهم حذفت إحدى التاءين من اللفظ تخفيفا-نظير قوله

تعالی «الَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما کُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ» :(النحل:۲۸).

و المراد بالظلم کما تؤیده الآیه النظیره هو ظلمهم لأنفسهم بالإعراض عن دین الله و ترک إقامه شعائره من جهه الوقوع فی بلاد الشرک و التوسط بین الکافرین حیث لا وسیله یتوسل بها إلی تعلم معارف الدین،و القیام بما تندب إلیه من وظائف العبودیه،و هذا هو الذی یدل علیه السیاق فی قوله «قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ» إلی آخر الآیات الثلاث.

و قد فسر الله سبحانه الظالمین(إذا أطلق)فی قوله «لَعْنَهُ اللّهِ عَلَی الظّالِمِینَ الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً» : (الأعراف:۴۵)،و محصل الآیتین تفسیر الظلم بالإعراض عن دین الله و طلبه عوجا و محرفا،و ینطبق علی ما یظهر من الآیه التی نحن فیها.

قوله تعالی:« قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ» أی فیما ذا کنتم من الدین،و کلمه«م»هی ما الاستفهامیه حذفت عنها الألف تخفیفا.

و فی الآیه دلاله فی الجمله علی ما تسمیه الأخبار بسؤال القبر،و هو سؤال الملائکه عن دین المیت بعد حلول الموت کما یدل علیه أیضا قوله تعالی :«الَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما کُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلی إِنَّ اللّهَ عَلِیمٌ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها فَلَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ وَ قِیلَ لِلَّذِینَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قالُوا خَیْراً: XالآیاتX(النحل:۳۰).

قوله تعالی :«قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِیها» کان سؤال الملائکه (فِیمَ کُنْتُمْ) سؤالا عن الحال الذی کانوا یعیشون فیه من الدین،و لم یکن هؤلاء المسئولون علی حال یعتد به من جهه الدین فأجابوا بوضع السبب موضع المسبب و هو أنهم کانوا یعیشون فی أرض لا یتمکنون فیها من التلبس بالدین لکون أهل الأرض مشرکین أقویاء فاستضعفوهم فحالوا بینهم و بین الأخذ بشرائع الدین و العمل بها.

ص :۴۹

و لما كان هـذا الـذى ذكروه من الاستضـعاف-لو كانوا صادقين فيه-إنما حل بهم من حيث إخلادهم إلى أرض الشـرك،و كان استضـعافهم مـن جهـه تسـلط المشـركين على الأـرض الـتى ذكروهـا،و لـم تكن لهم سـلطه على غيرهـا من الأـرض فلم يكونـوا مستضـعفين على أى حال بل فى حال لهم أن يغيروه بالخروج و المهاجره كـذبتهم الملائكه فى دعوى الاستضـعاف بأن الأرض أرض الله كـانت أوسـع ممـا وقعـوا فيـه و لزمـوه،و كـان يمكنهم أن يخرجـوا من حـومه الاستضـعاف بالمهـاجره،فهم لم يكونـوا بمستضعفين حقيقه لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف،و إنما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم.

فقـوله «أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَةً فَتُهٰاجِرُوا فِيهٰا» الاسـتفهام فيـه للتوبيـخ كمـا فى قـوله «فِيـمَ كُنْتُمْ» و يمكن أن يكـون أول الاسـتفهامين للتقرير كمـا هو ظـاهر مـا مر نقله من آيـات سوره النحـل لكون السؤال فيهـا عن الظـالمين و المتقين جميعـا،و ثانى الاستفهامين للتوبيخ على أى حال.

و قـد أضـافت الملائكه الأرض إلى الله،و لا يخلو من إيماء إلى أن الله سـبحانه هيأ فى أرضه سـعه أولا ثم دعاهم إلى الإيمان و العمل كما يشعر به أيضا قوله بعد آيتين« وَ مَنْ يُهٰاجِرْ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرٰاغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً» (الآيه).

و وصف الأـرض بالسـعه هو الموجب للتعبير عن الهجره بقوله «فَتُهٰاجِرُوا فِيهٰا» أى تهاجروا من بعضـها إلى بعضـها،و لو لا فرض السعه لكان يقال:فتهاجروا منها.

ثم حكم الله فى حقهم بعد إيراد المساءله بقوله« فَأُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سٰاءَتْ مَصِيراً» .

قوله تعـالى:« إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ»، الاسـتثناء منقطع، و فى إطلاق المستضـعفين على هؤلاء بالتفسير الـذى فسـره به دلاله على أن الظالمين المـذكورين لم يكونوا مستضـعفين لتمكنهم من رفع قيد الاستضـعاف عن أنفسـهم و إنما الاستضعاف وصف هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه، و فى تفصيل بيانهم بالرجال و النساء و الولدان إيضاح للحكم الإلهى و رفع للبس.و قوله« لاٰ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً» الحيله كأنها بناء نوع من الحيلوله ثم اسـتعملت استعمال الآله فهى ما يتوسل به إلى الحيلوله بين شـىء و شـىء أو حال للحصول على شىء أو حال آخر،و غلب استعماله فى ما يكون على خفيه و فى الأمور المذمومه،و فى مادتها على أى حال معنى التغير على ما ذكره الراغب فى مفرداته.

و المعنى:لا يستطيعون و لا يتمكنون أن يحتالوا لصرف ما يتوجه إليهم من استضعاف

المشركين عن أنفسهم،و لا يهتدون سبيلا يتخلصون بها عنهم فالمراد من السبيل على ما يفيده السياق أعم من السبيل الحسى كطريق المدينه لمن يريد المهاجره إليها من مسلمى مكه،و السبيل المعنوى و هو كل ما يخلصهم من أيدى المشركين،و استضعافهم لهم بالعذاب و الفتنه.

(كلام فى المستضعف)

يتبين بالآيه أن الجهل بمعارف الدين إذا كان عن قصور و ضعف ليس فيه صنع للإنسان الجاهل كان عذرا عند الله سبحانه.

توضيحه:أن الله سبحانه يعد الجهل بالدين و كل ممنوعيه عن إقامه شعائر الدين ظلما لا يناله العفو الإلهى،ثم يستثنى من ذلك المستضعفين و يقبل منهم معذرتهم بالاستضعاف ثم يعرفهم بما يعمهم و غيرهم من الوصف،و هو عدم تمكنهم مما يدفعون به المحذور عن أنفسهم،و هذا المعنى كما يتحقق فيمن أحيط به فى أرض لا سبيل فيها إلى تلقى معارف الدين لعدم وجود عالم بها خبير بتفاصيلها،أو لا سبيل إلى العمل بمقتضى تلك المعارف للتشديد فيه بما لا يطاق من العذاب مع عدم الاستطاعه من الخروج و الهجره إلى دار الإسلام و الالتحاق بالمسلمين لضعف فى الفكر أو لمرض أو نقص فى البدن أو لفقر مالى و نحو ذلك كذلك يتحقق فيمن لم ينتقل ذهنه إلى حق ثابت فى المعارف الدينيه و لم يهتد فكره إليه مع كونه ممن لا يعاند الحق و لا يستكبر عنه أصلا بل لو ظهر عنده حق اتبعه لكن خفى عنه الحق لشىء من العوامل المختلفه الموجبه لذلك.

فهذا مستضعف لا يستطيع حيله و لا يهتدى سبيلا لا لأنه أعيت به المذاهب بكونه أحيط به من جهه أعداء الحق و الدين بالسيف و السوط،بل إنما استضعفته عوامل أخر سلطت عليه الغفله،و لا قدره مع الغفله،و لا سبيل مع هذا الجهل.

هذا ما يقتضيه إطلاق البيان فى الآيه الذى هو فى معنى عموم العله،و هو الذى يدل عليه غيرها من الآيات كقوله تعالى «لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ» :(البقره:۲۸۶)فالأمر المغفول عنه ليس فى وسع الإنسان كما أن الممنوع من الأمر بما يمتنع معه ليس فى وسع الإنسان.

و هـذه الآـيه أعنى آيه البقره كما ترفع التكليف بارتفاع الوسع كـذلك تعطى ضابطا كليا فى تشـخيص مورد العـذر و تمييزه من غيره،و هو أن لا يسـتند الفعل إلى اكتساب الإنسان،و لا يكون له فى امتناع الأمر الذى امتنع عليه صـنع،فالجاهل بالدين جمله أو، بشـىء من معـارفه الحقه إذا اسـتند جهله إلى مـا قصـر فيه و أسـاء الاختيار اسـتند إليه الترك و كان معصـيه،و إذا كان جهله غير مسـتند إلى تقصـيره فيه أو فى شيء من مقدماته بل إلى عوامل خارجه عن اختياره أوجبت له الجهل أو الغفله أو ترك العمل لم يسـتند الترك إلى اختيـاره،و لم يعـد فاعلاـ للمعصـيه،متعمـدا فى المخالفه،مسـتكبرا عن الحق جاحـدا له، فله ما كسب و عليه ما اكتسب،و إذا لم يكسب فلا له و لا عليه.

و من هنا يظهر أن المستضـعف صـفر الكف لا شـىء له و لا عليه لعدم كسـبه أمرا بل أمره إلى ربه كما هو ظاهر قوله تعالى بعد آيه المستضعفين« فَأُولٰئِكَ عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوراً» و قوله تعالى «وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّٰهِ إِمّٰا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» :(براءه:۱۰۶)و رحمته سبقت غضبه.

[بيان]

قوله تعالى:« فَأُولٰئِكَ عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ»، هؤلاء و إن لم يكسبوا سيئه لمعذوريتهم فى جهلهم لكنا بينا سابقا أن أمر الإنسان يدور بين السـعاده و الشقاوه و كفى فى شقائه أن لا يجوز لنفسه سعاده،فالإنسان لا غنى له فى نفسه عن العفو الإلهى الذى يعفى به أثر الشقاء سواء كان صالحا أو طالحا أو لم يكن،و لذلك ذكر الله سبحانه رجاء عفوهم.

و إنما اختير ذكر رجاء عفوهم ثم عقب ذلك بقوله« وَ كٰانَ اللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوراً» اللائـح منه شـمول العفو لهم لكونهم مذكورين فى صوره الاستثناء من الظالمين الذين أوعدوا بأن مأواهم جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى :«وَ مَنْ يُهٰاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرٰاغَماً كَثِيراً وَ سَـعَةً» قال الراغب: الرغام (بفتح الراء)التراب الرقيق،و رغم أنف فلان رغما وقع فى الرغام، و أرغمه غيره،و يعبر بذلك عن السخط كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم أرضها

و لم أطلب العتبى و لكن أزيدها

فمقابلته بالإرضاء مما ينبه على دلالته على الإسخاط،و على هذا قيل:أرغم الله

أنفه،و أرغمه أسخطه،و راغمه ساخطه،و تجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر ثم يستعار المراغمه للمنازعه قال الله تعالى :«يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرٰاغَماً كَثِيراً» أى مذهبا يذهب إليه إذا رأى منكرا يلزمه أن يغضب منه كقولك:غضبت إلى فلان من كذا و رغمت إليه(انتهى).

فالمعنى :وَ مَنْ يُهٰاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ، أى طلبا لمرضاته فى التلبس بالدين علما و عملا يجد فى الأرض مواضع كثيره كلما منعه مانع فى بعضها من إقامه دين الله استراح إلى بعض آخر بالهجره إليه لإرغام المانع و إسخاطه أو لمنازعته المانع و مساخطته،و يجد سعه فى الأرض.

و قد قال تعالى فى سابق الآيات:« أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَةً»، و لازم التفريع عليه أن يقال:و من يهاجر يجد فى الأرض سعه إلا أنه لما زيد قوله« مُرٰاغَماً كَثِيراً» و هو من لوازم سعه الأرض لمن يريد سلوك سبيل الله قيدت المهاجره أيضا بكونها فى سبيل الله لينطبق على الغرض من الكلام،و هو موعظه المؤمنين القاطنين فى دار الشرك و تهييجهم و تشجيعهم على المهاجره و تطييب نفوسهم.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» (إلخ)المهاجره إلى الله و رسوله كنايه عن المهاجره إلى أرض الإسلام التى يتمكن فيها من العلم بكتاب الله و سنه رسوله،و العمل به.

و إدراك الموت استعاره بالكنايه عن وقوعه أو مفاجاته فإن الإدراك هو سعى اللاحق بالسير إلى السابق ثم وصوله إليه،و كذا وقوع الأجر على الله استعاره بالكنايه عن لزوم الأجر و الثواب له تعالى و أخذه ذلك فى عهدته،فهناك أجر جميل و ثواب جزيل سيوافى به العبد لا محاله،و الله سبحانه يوافيه بألوهيته التى لا يعزها شىء و لا يعجزها شىء و لا يمتنع عليها ما أرادته،و لا تخلف الميعاد.و ختم الكلام بقوله «وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً» تأكيدا للوعد الجميل بلزوم توفيه الأجر و الثواب.

و قد قسم الله سبحانه فى هذه الآيات المؤمنين أعنى المدعين للإيمان من جهه الإقامه فى دار الإيمان و دار الشرك إلى أقسام،و بين جزاء كل طائفه من هذه الطوائف بما يلائم حالها ليكون عظه و تنبيها ثم ترغيبا فى الهجره إلى دار الإيمان،و الاجتماع هناك،و تقويه

المجتمع الإسلامی،و الاتحاد و التعاون علی البر و التقوی و إعلاء کلمه الحق و رفع رایه التوحید و أعلام الدین.

فطائفه أقامت فی دار الإسلام من مجاهدین فی سبیل الله بأموالهم و أنفسهم،و قاعدین غیر أولی الضرر،و قاعدین أولی الضرر،و کلا وعد الله الحسنی و فضل الله المجاهدین علی القاعدین درجه.

و طائفه أقامت فی دار الشرک،و هی ظالمه لا تهاجر فی سبیل الله و مأواهم جهنم و ساءت مصیرا،و طائفه منهم مستضعفه غیر ظالمه لا یستطیعون حیله و لا یهتدون سبیلا فأولئک عسی الله أن یعفو عنهم،و طائفه منهم غیر مستضعفه خرجت من بیتها مهاجره إلی الله و رسوله ثم أدرکها الموت فقد وقع أجرها علی الله.

و الآیات تجری بمضامینها علی المسلمین فی جمیع الأوقات و الأزمنه و إن کان سبب نزولها حال المسلمین فی جزیره العرب فی عهد النبی ص بین هجرته إلی المدینه و فتح مکه و کانت الأرض منقسمه یومئذ إلی أرض الإسلام و هی المدینه و ما والاها فیها جماعه المسلمین أحرار فی دینهم و جماعه من المشرکین و غیرهم لا یزاحمون فی أمرهم لعهد و نحوه،و إلی أرض الشرک و هی مکه و ما والاها هی تحت سلطه المشرکین مقیمین علی وثنیتهم، و یزاحمون المسلمین فی أمر دینهم یسومونهم سوء العذاب،و یفتنونهم لردهم عن دینهم.

لکن الآیات تحکم علی المسلمین بملاکها دائما فعلی المسلم أن یقیم حیث یتمکن فیه من تعلم معالم الدین،و یستطیع إقامه شعائره و العمل بأحکامه،و أن یهجر الأرض التی لا علم فیها بمعارف الدین،و لا سبیل إلی العمل بأحکامه من غیر فرق بین أن تسمی الیوم دار الإسلام أو دار شرک فإن الأسماء تغیرت الیوم و هجرت مسمیاتها و صار الدین جنسیه، و الإسلام مجرد تسم من غیر أن یراعی فی تسمیته الاعتقاد بمعارفه أو العمل بأحکامه.

و القرآن الکریم إنما یرتب الأثر علی حقیقه الإسلام دون اسمه و یکلف الناس من العمل ما فیه شیء من روحه لا ما هو صورته،قال تعالی:« لَیسَ بِأَمانِیِّکُمْ وَ لاٰ أَمانِیِّ أَهْلِ الْکِتابِ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لاٰ یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِیًّا وَ لاٰ نَصِیراً وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ نَقِیراً» :(النساء: ۱۲۴)،و قال تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هٰادُوا وَ النَّصٰاریٰ وَ الصّابِئِینَ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ

وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ» :(البقره:۶۲).

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن ابن عباس قال": کان قوم من أهل مکه أسلموا،و کانوا یستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشرکون معهم یوم بدر،فأصیب بعضهم،و قتل بعض،فقال المسلمون:قد کان أصحابنا هؤلاء مسلمین،و أکرهوا فاستغفروا لهم فنزلت هذه الآیه،:« إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِکَهُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ» -إلی آخر الآیه،.

قال:فکتب إلی من بقی بمکه من المسلمین بهذه الآیه،و أنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشرکون،فأعطوهم الفتنه فأنزلت فیهم هذه الآیه،« وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ،فَإِذٰا أُوذِیَ فِی اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَهَ النّٰاسِ کَعَذٰابِ اللّٰهِ،» -إلی آخر الآیه،فکتب المسلمون إلیهم بذلک فحزنوا،و أیسوا من کل خیر فنزلت فیهم،« ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا،ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ، -فکتبوا إلیهم بذلک أن الله قد جعل لکم مخرجا،فاخرجوا فخرجوا فأدرکهم المشرکون-فقاتلوهم حتی نجا من نجا و قتل من قتل.

و فیه،أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن الضحاک": فی الآیه قال هم أناس من المنافقین، تخلفوا عن رسول الله ص بمکه،فلم یخرجوا معه إلی المدینه،و خرجوا مع مشرکی قریش إلی بدر،فأصیبوا یوم بدر فیمن أصیب،فأنزل الله فیهم هذه الآیه.

و فیه،أخرج ابن جریر عن ابن زید": فی الآیه قال:لما بعث النبی ص و ظهر،و نبع الإیمان نبع النفاق معه،فأتی إلی رسول الله ص رجال،فقالوا:یا رسول الله لو لا أنا نخاف هؤلاء القوم یعذبونا،و یفعلون و یفعلون لأسلمنا،و لکن نشهد أن لا إله إلا الله، و أنک رسول الله فکانوا یقولون ذلک له،فلما کان یوم بدر قام المشرکون،فقالوا لا یتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره و استبحنا ماله،فخرج أولئک الذین کانوا یقولون ذلک القول للنبی ص،معهم فقتلت طائفه منهم،و أسرت طائفه.

قال:فأما الذين قتلوا فهم الذين قال الله:، إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ»، - (الآیه)کلها، أ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِیها، -و تترکوا،هؤلاء الذین یستضعفونکم، فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً»، -.

ثم عذر الله أهل الصدق فقال:« إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ،لا یَسْتَطِیعُونَ حِیلَةً وَ لا یَهْتَدُونَ سَبِیلاً، -یتوجهون له،لو خرجوا لهلکوا، فَأُولئِکَ عَسَی اللّهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ» -إقامتهم بین ظهری المشرکین،.

و قال الذین أسروا:یا رسول الله،إنک تعلم أنا کنا نأتیک فنشهد أن لا إله إلا الله، و أنک رسول الله،و أن هؤلاء القوم خرجنا معهم خوفا،فقال الله:« یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ الْأَسْری،إِنْ یَعْلَمِ اللّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً،مِمّا أُخِذَ مِنْکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ - صنیعکم الذی صنعتم،خروجکم مع المشرکین علی النبی ص، وَ إِنْ یُرِیدُوا خِیانَتَکَ فَقَدْ خانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ، -خرجوا مع المشرکین-فأمکن منهم.

و فیه،أخرج عبد بن حمید و ابن أبی حاتم و ابن جریر عن عکرمه":فی قوله «إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ،قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ -إلی قوله- وَ ساءَتْ مَصِیراً »،قال:

نزلت فی قیس بن الفاکه بن المغیره،و الحارث بن زمعه بن الأسود،و قیس بن الولید بن المغیره،و أبی العاص بن منبه بن الحجاج،و علی بن أمیه بن خلف،.

قال:لما خرج المشرکون من قریش و أتباعهم،لمنع أبی سفیان بن حرب و عیر قریش،من رسول الله ص و أصحابه،و أن یطلبوا ما نیل منهم یوم نخله،خرجوا معهم بشبان کارهین کانوا قد أسلموا،و اجتمعوا ببدر علی غیر موعد فقتلوا ببدر کفارا، و رجعوا عن الإسلام و هم هؤلاء الذین سمیناهم.

أقول:و الروایات فی ما یقرب من هذه المعانی من طرق القوم کثیره،و هی و إن کان ظاهرها أشبه بالتطبیق لکنه تطبیق حسن.

و من أهم ما یستفاد منها،و کذا من الآیات بعد التدبر وجود منافقین بمکه قبل الهجره و بعدها.فإن لذلک تأثیرا فی البحث عن حال المنافقین علی ما سیأتی فی سوره البراءه إن شاء الله العزیز.

و فیه،أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال": کان بمکه

رجل يقال له ضمره من بنى بكر،و كان مريضا،فقال لأهله أخرجونى من مكه فإنى أجد الحر،فقالوا:أين نخرجك؟فأشار بيده نحو طريق المدينه،فخرجوا به فمات على ميلين من مكه فنزلت هذه الآيه،« وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ» .

أقول:و الروايات فى هذا المعنى كثيره إلا أن فيها اختلافا شديدا فى تسميه هذا الذى أدركه الموت،ففى بعضها ضمره بن جندب،و فى بعضها أكثم بن صيفى،و فى بعضها أبو ضمره بن العيص الزرقى،و فى بعضها ضمره بن العيص من بنى ليث،و فى بعضها جندع بن ضمره الجندعى،و فى بعضها أنها نزلت فى خالد بن حزام خرج مهاجرا إلى حبشه فنهشته حيه فى الطريق فمات.

و فى بعض الروايات عن ابن عباس:أنه أكثم بن صيفى.قال الراوى:قلت فأين الليثى؟قال:هذا قبل الليثى بزمان،و هى خاصه عامه.

أقول:يعنى أنها نزلت فى أكثم خاصه ثم جرت فى غيره عامه،و المتحصل من الروايات أن ثلاثه من المسلمين أدركهم الموت فى سبيل الهجره:أكثم بن صيفى،و ليثى، و خالد بن حزام،و أما نزول الآيه فى أى منهم فكأنه تطبيق من الراوى.

و فى الكافى،عن زراره قال: سألت أبا جعفر(ع)عن المستضعف،فقال:هو الذى لا يستطيع حيله إلى الكفر فيكفر،و لا يهتدى سبيلا إلى الإيمان،لا يستطيع أن يؤمن،و لا يستطيع أن يكفر فمنهم الصبيان،و من الرجال و النساء،على مثل عقول الصبيان مرفوع عنهم القلم:

أقول و الحديث مستفيض عن زراره،رواه الكلينى،و الصدوق،و العياشى،بعده طرق عنه.

و فيه،بإسناده عن إسماعيل الجعفى قال: سألت أبا جعفر(ع)عن الدين الذى لا يسع العباد جهله،.قال:الدين واسع،و لكن الخوارج ضيقوا على أنفسهم من جهلهم، قلت:جعلت فداك فأحدثك بدينى الذى أنا عليه؟فقال:نعم،.فقلت:أشهد أن لا إله إلا الله،و أن محمدا عبده و رسوله،و الإقرار بما جاء به من عند الله تعالى،و أتولاكم، و أبرأ من أعدائكم و من ركب رقابكم،و تأمر عليكم،و ظلمكم حقكم.فقال:و الله ما

جهلت شيئا،هو و الله الذى نحن عليه،.فقلت:فهل يسلم أحد لا يعرف هذا الأمر؟ فقال:إلا المستضعفين.قلت:من هم؟قال نساؤكم و أولادكم،.

ثم قال:أ رأيت أم أيمن؟،فإنى أشهد أنها من أهل الجنه،و ما كانت تعرف ما أنتم عليه.

و فى تفسير العياشى،عن سليمان بن خالد عن أبى جعفر(ع)قال: سألته عن المستضعفين.فقال:البلهاء فى خدرها،و الخادم تقول لها:،صلى فتصلى لا- تدرى إلا- ما قلت لها،و الجليب الذى لا يدرى إلا ما قلت له،و الكبير الفانى،و الصبى،و الصغير، هؤلاء المستضعفون،فأما رجل شديد العنق جدل خصم يتولى الشراء و البيع،لا تستطيع أن تعينه فى شىء تقول،:هذا المستضعف؟لا، و لا كرامه

و فى المعانى،عن سليمان:عن الصادق(ع) فى الآيه قال،:يا سليمان،فى هؤلاء المستضعفين من هو أثخن رقبه منك،المستضعفون قوم يصومون،و يصلون،تعف بطونهم و فروجهم،و لا يرون أن الحق فى غيرنا آخذين بأغصان الشجره،فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم،إذا كانوا آخذين بالأغصان،و أن يعرفوا أولئك فإن عفا الله عنهم فبرحمته، و إن عذبهم فبضلالتهم.

أقول:قوله«لا يرون أن الحق فى غيرنا»،يريد صوره النصب أو التقصير المؤدى إليه كما يدل عليه الروايات الآتيه.

و فيه،عن الصادق(ع): أنه ذكر أن المستضعفين ضروب يخالف بعضهم بعضا، و من لم يكن من أهل القبله ناصبا فهو مستضعف

و فيه،و فى تفسير العياشى،:عن الصادق(ع) فى الآيه قال،:لا يستطيعون حيله إلى النصب فينصبون،و لا يهتدون سبيلا إلى الحق فيدخلون فيه،هؤلاء يدخلون الجنه بأعمال حسنه،و باجتناب المحارم التى نهى الله عنها،و لا ينالون منازل الأبرار

و فى تفسير القمى،عن ضريس الكناسى عن أبى جعفر(ع)قال: قلت له:

جعلت فداك ما حال الموحدين،المقرين بنبوه محمد ص من المذنبين،الذين يموتون و ليس لهم إمام، و لا- يعرفون ولايتكم،؟فقال:أما هؤلاء فإنهم فى حفرهم لا يخرجون منها،.

فمن كان له عمل صالح،و لم يظهر منه عداوه،فإنه يخد له خد إلى الجنه التى خلقها الله بالمغرب،فيدخل عليه الروح فى حفرته إلى يوم القيامه،حتى يلقى الله فيحاسبه

بحسناته و سيئاته،فإما إلى الجنه،و إما إلى النار،فهؤلاء الموقوفون لأمر الله،.قال و كذلك يفعل بالمستضعفين و البله،و الأطفال و أولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم.

فأما النصاب من أهل القبله،فإنه يخد لهم خد إلى النار التى خلقها الله بالمشرق،فيدخل عليه اللهب و الشرر و الدخان،و فوره الحميم إلى يوم القيامه ثم مصيرهم إلى الجحيم

و فى الخصال،عن الصادق عن أبيه عن جده عن على(ع)قال: إن للجنه ثمانيه أبواب، باب يدخل منه النبيون و الصديقون،و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون،و خمسه أبواب يدخل منها شيعتنا و محبونا،إلى أن قال و باب يدخل منه سائر المسلمين-ممن يشهد أن لا إله إلا الله،و لم يكن فى قلبه مثقال ذره من بغضنا أهل البيت(ع).

و فى المعانى،و تفسير العياشى،عن حمران قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ»، ،قال:هم أهل الولايه.قلت:أى ولايه،؟قال:أما إنها ليست بولايه فى الدين، و لكنها الولايه فى المناكحه و الموارثه و المخالطه،و هم ليسوا بالمؤمنين و لا بالكفار،و هم المرجون لأمر الله عز و جل.

أقول:و هو إشاره إلى قوله تعالى« وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمّٰا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ»: Xالآيه X(التوبه:۱۰۶)و سيأتى ما يتعلق به من الكلام إن شاء الله.

و فى النهج،قال(ع): و لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجه،فسمعتها أذنه،و وعاها قلبه.

و فى الكافى،عن الكاظم(ع): أنه سئل عن الضعفاء،فكتب(ع):الضعيف من لم ترفع له حجه،.و لم يعرف الاختلاف فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف

و فيه،عن الصادق(ع): أنه سئل:ما تقول فى المستضعفين،؟فقال شبيها بالفزع فتركتم أحدا يكون مستضعفا،؟و أين المستضعفون،فوالله لقد مشى بأمركم هذا العواتق، إلى العواتق فى خدورهن،و تحدثت به السقاءات فى طريق المدينه

و فى المعانى،عن عمر بن إسحاق قال: سئل أبو عبد الله(ع)،ما حد المستضعف الذى ذكره الله عز و جل،؟قال:من لا يحسن سوره من سور القرآن،و قد خلقه الله عز و جل خلقه ما ينبغى لأحد أن لا يحسن.

أقول:و هاهنا روايات أخر غير ما أوردناه لكن ما مر منها حاو لمجامع ما فيها من المقاصد،و الروايات و إن كانت بحسب بادئ النظر مختلفه لكنها مع قطع النظر عن خصوصيات بياناتها بحسب خصوصيات مراتب الاستضعاف تتفق فی مدلول واحد هو مقتضى إطلاق الآيه على ما قدمناه،و هو أن الاستضعاف عدم الاهتداء إلى الحق من غير تقصير

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴]

اشاره

وَ إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِی اَلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ اَلصَّلاٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اَلْكٰافِرِينَ كٰانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (۱۰۱) وَ إِذٰا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ اَلصَّلاٰةَ فَلْتَقُمْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذٰا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرٰائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طٰائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كٰانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ أَعَدَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً (۱۰۲) فَإِذٰا قَضَيْتُمُ اَلصَّلاٰةَ فَاذْكُرُوا اَللّٰهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اِطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ إِنَّ اَلصَّلاٰةَ كٰانَتْ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ كِتٰاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳) وَ لاٰ تَهِنُوا فِی اِبْتِغٰاءِ اَلْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمٰا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَرْجُونَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

(بیان)

الآیات تشرع صلاه الخوف و القصر فی السفر،و تنتهی إلی ترغیب المؤمنین فی تعقیب المشرکین و ابتغائهم،و هی مرتبطه بالآیات السابقه المتعرضه للجهاد و ما لها من مختلف الشئون.

قوله تعالی: «وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاهِ» الجناح الإثم و الحرج و العدول،و القصر النقص من الصلاه،قال فی المجمع:،فی قصر الصلاه ثلاث لغات:قصرت الصلاه أقصرها و هی لغه القرآن،و قصرتها تقصیرا، أقصرتها إقصارا.

و المعنی:إذا سافرتم فلا مانع من حرج و إثم أن تنقصوا شیئا من الصلاه،و نفی الجناح الظاهر وحده فی الجواز لا ینافی وروده فی السیاق للوجوب کما فی قوله تعالی «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَهَ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما» :(البقره:۱۵۸)مع کون الطواف واجبا،و ذلک أن المقام مقام التشریع، و یکفی فیه مجرد الکشف عن جعل الحکم من غیر حاجه إلی استیفاء جمیع جهات الحکم و خصوصیاته،و نظیر الآیه بوجه قوله تعالی «وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ» XالآیهX:

(البقره:۱۸۴).

قوله تعالی :«إِنْ خِفْتُمْ أَنْ یَفْتِنَکُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا»، الفتنه و إن کانت ذات معان کثیره مختلفه لکن المعهود من إطلاقها فی القرآن فی خصوص الکفار و المشرکین التعذیب من قتل أو ضرب و نحوهما،و قرائن الکلام أیضا تؤید ذلک فالمعنی:

إن خفتم أن یعذبوکم بالحمله و القتل.

و الجمله قید لقوله «فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ»،جُناحٌ و تفید أن بدء تشریع القصر فی الصلاه إنما کان عند خوف الفتنه،و لا ینافی ذلک أن یعم التشریع ثانیا جمیع صور السفر الشرعی و إن لم یجامع الخوف فإنما الکتاب بین قسما منه،و السنه بینت شموله لجمیع الصور کما سیأتی فی الروایات.

قوله تعالی:« وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ- إلی قوله- وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ»

الآيه،تذکر کیفیه صلاه الخوف،و توجه الخطاب إلی النبی ص بفرضه إماما فی صلاه الخوف،و هذا من قبیل البیان بإیراد المثال لیکون أوضح فی عین أنه أوجز و أجمل.

فالمراد بقوله« فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاٰهَ» هو الصلاه جماعه،و المراد بقوله «فَلْتَقُمْ طٰائِفَهٌ مِنْهُمْ مَعَکَ» قیامهم فی الصلاه مع النبی ص بنحو الایتمام،و هم المأمورون بأخذ الأسلحه،و المراد بقوله« فَإِذٰا سَجَدُوا (إلخ)إذا سجدوا و أتموا الصلاه لیکون هؤلاء بعد إتمام سجدتهم من وراء القوم،و کذا المراد بقوله «وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» أن تأخذ الطائفه الثانیه المصلیه مع النبی ص حذرهم و أسلحتهم.

و المعنی-و الله أعلم-:و إذا کنت أنت یا رسول الله فیهم و الحال حال الخوف فأقمت لهم الصلاه أی صلیتهم جماعه فأممتهم فیها،فلا یدخلوا فی الصلاه جمیعا بل لتقم طائفه منهم معک بالاقتداء بک و لیأخذوا معهم أسلحتهم،و من المعلوم أن الطائفه الأخری یحرسونهم و أمتعتهم فإذا سجد المصلون معک و فرغوا من الصلاه فلیکونوا وراءکم یحرسونکم و الأمتعه و لتأت طائفه أخری لم یصلوا فلیصلوا معک،و لیأخذ هؤلاء المصلون أیضا کالطائفه الأولی المصلیه حذرهم و أسلحتهم.

و توصیف الطائفه بالأخری،و إرجاع ضمیر الجمع المذکر إلیها رعایه تاره لجانب اللفظ و أخری لجانب المعنی،کما قیل.و فی قوله تعالی« وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» نوع من الاستعاره لطیف،و هو جعل الحذر آله للدفاع نظیر السلاح حیث نسب إلیه الأخذ الذی نسب إلی الأسلحه،کما قیل.

قوله تعالی:« وَدَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ- إلی قوله- وٰاحِدَهً» فی مقام التعلیل للحکم المشرع،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی :«وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ» إلی آخر الآیه.تخفیف آخر و هو أنهم إن کانوا یتأذون من مطر ینزل علیهم أو کان بعضهم مرضی فلا مانع من أن یضعوا أسلحتهم لکن یجب علیهم مع ذلک أن یأخذوا حذرهم،و لا یغفلوا عن الذین کفروا فهم مهتمون بهم.

قوله تعالی:« فَإِذٰا قَضَیْتُمُ الصَّلاٰهَ فَاذْکُرُوا اللّٰهَ قِیٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلیٰ جُنُوبِکُمْ» و القیام و القعود جمعان أو مصدران، و هما حالان و کذا قوله «عَلیٰ جُنُوبِکُمْ» و هو کنایه

عن الذكر المستمر المستوعب لجميع الأحوال.

قوله تعالى:« فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاٰةَ» (إلخ)المراد بالاطمينان الاستقرار،و حيث قوبل به قوله« وَ إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ»، على ما يؤيده السياق كان الظاهر أن المراد به الرجوع إلى الأوطان،و على هذا فالمراد بإقامه الصلاه إتمامها فإن التعبير عن صلاه الخوف بالقصر من الصلاه يلوح إلى ذلك.

قوله تعالى:« إِنَّ الصَّلاٰةَ كٰانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتٰاباً مَوْقُوتاً» الكتابه كنايه عن الفرض و الإيجاب كقوله تعالى «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيٰامُ كَمٰا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ:

(البقره:۱۸۳)و الموقوت من وقت كذا أى جعلت له وقتا فظاهر اللفظ أن الصلاه فريضه موقته منجمه تؤدى فى أوقاتها و نجومها.

و الظاهر أن الوقت فى الصلاه كنايه عن الثبات و عدم التغير بإطلاق الملزوم على لازمه فالمراد بكونها كتابا موقوتا أنها مفروضه ثابته غير متغيره أصلا فالصلاه لا تسقط بحال،و ذلك أن إبقاء لفظ الموقوت على بادئ ظهوره لا يلائم ما سبقه من المضمون إذ لا حاجه تمس إلى التعرض لكون الصلاه عباده ذات أوقات معينه مع أن قوله «إِنَّ الصَّلاٰةَ»، فى مقام التعليل لقوله« فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاٰةَ» فالظاهر أن المراد بكونها موقوته كونها ثابته لا تسقط بحال،و لا تتغير و لا تتبدل إلى شىء آخر كالصوم إلى الفديه مثلا.

قوله تعالى:« وَ لاٰ تَهِنُوا فِي ابْتِغٰاءِ الْقَوْمِ»، الوهن الضعف،و الابتغاء الطلب،و الألم مقابل اللذه،و قوله «وَ تَرْجُونَ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَرْجُونَ» حال من ضمير الجمع الغائب،و المعنى:أن حال الفريقين فى أن كلا منهما يألم واحد،فلستم أسوأ حالا من أعدائكم،بل أنتم أرفه منهم و أسعد حيث إن لكم رجاء الفتح و الظفر و المغفره من ربكم الذى هو وليكم، و أما أعداؤكم فلا مولى لهم و لا رجاء لهم من جانب يطيب نفوسهم،و ينشطهم فى عملهم.و يسوقهم إلى مبتغاهم،و كان الله عليما بالمصالح، حكيما متقنا فى أمره و نهيه.

ص :۶۳

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،": نزلت-یعنی آیه صلاه الخوف،لما خرج رسول الله ص إلی الحدیبیه یرید مکه،فلما وقع الخبر إلی قریش،بعثوا خالد بن الولید فی مائتی فارس،لیستقبل رسول الله ص،فکان یعارض رسول الله ص علی الجبال،فلما کان فی بعض الطریق، و حضرت صلاه الظهر أذن بلال،و صلی رسول الله ص بالناس،فقال خالد بن الولید:

لو کنا حملنا علیهم و هم فی الصلاه لأصبناهم،فإنهم لا یقطعون صلاتهم،و لکن یجیء لهم الآن صلاه أخری-هی أحب إلیهم من ضیاء أبصارهم،فإذا دخلوا فی الصلاه أغرنا علیهم- فنزل جبرائیل علی رسول الله ص بصلاه الخوف فی قوله «وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ»

و فی المجمع،": فی قوله« وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ إِنْ کٰانَ بِکُمْ أَذیً مِنْ مَطَرٍ» -(الآیه) أنها نزلت و النبی بعسفان و المشرکون بضجنان-فتواقفوا فصلی النبی ص و أصحابه صلاه الظهر-بتمام الرکوع و السجود-فهم المشرکون بأن یغیروا علیهم،فقال بعضهم:إن لهم صلاه أخری أحب إلیهم من هذه،یعنون صلاه العصر،فأنزل الله علیه هذه الآیه فصلی بهم العصر صلاه الخوف،و کان ذلک سبب إسلام خالد بن الولید(القصه.

و فیه:، ذکر أبو حمزه-یعنی الثمالی-فی تفسیره:أن النبی ص غزا محاربا ببنی أنمار فهزمهم الله،و أحرزوا الذراری و المال،فنزل رسول الله ص و المسلمون- و لا یرون من العدو واحدا فوضعوا أسلحتهم-و خرج رسول الله ص لیقضی حاجته، و قد وضع سلاحه فجعل بینه و بین أصحابه الوادی،فإلی أن یفرغ من حاجته،و قد درأ الوادی،و السماء ترش-فحال الوادی بین رسول الله ص و بین أصحابه-و جلس فی ظل شجره فبصر به الغورث بن الحارث المحاربی-فقال له أصحابه:یا غورث هذا محمد قد انقلع من أصحابه.فقال:قتلنی الله إن لم أقتله،و انحدر من الجبل و معه السیف، و لم یشعر به رسول الله ص إلا و هو قائم علی رأسه-و معه السیف قد سله من غمده، و قال:یا محمد من یعصمک منی الآن؟فقال الرسول ص:الله.فانکب عدو الله لوجهه-فقام رسول الله ص فأخذ سیفه،و قال:یا غورث من یمنعک منی الآن؟قال.

لا أحد.قال:أ تشهد أن لا إله إلا الله،و أنی عبد الله و رسوله؟قال:لا،و لکنی أعهد أن لا أقاتلک أبدا،و لا أعین علیک عدوا،فأعطاه رسول الله ص سیفه،فقال

له غورث:و الله لأنت خير منى.قال(ص)إنى أحق بذلك.

و خرج غورث إلى أصحابه فقالوا:يا غورث لقد رأيناك قائما على رأسه بالسيف- فما منعك منه؟قال:الله،أهويت له بالسيف لأضربه فما أدرى من زلجنى بين كتفى؟ فخررت لوجهى،و خر سيفى،و سبقنى إليه محمد و أخذه،و لم يلبث الوادى أن سكن- فقطع رسول الله ص إلى أصحابه فأخبرهم الخبر،و قرأ عليهم« إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ» الآيه كلها.

و فى الفقيه،بإسناده عن عبد الرحمن بن أبى عبد الله عن الصادق(ع)أنه قال:

صلى النبى ص بأصحابه فى غزاه ذات الرقاع،ففرق أصحابه فرقتين،فأقام فرقه بإزاء العدو و فرقه خلفه،فكبر و كبروا،فقرأ و أنصتوا،فركع و ركعوا،فسجد و سجدوا،ثم استمر رسول الله ص قائما-فصلوا لأنفسهم ركعه ثم سلم بعضهم على بعض،ثم خرجوا إلى أصحابهم فقاموا بإزاء العدو.

و جاء أصحابهم فقاموا خلف رسول الله ص فكبر و كبروا،و قرأ فأنصتوا، و ركع فركعوا،و سجد و سجدوا،ثم جلس رسول الله ص فتشهد ثم سلم عليهم- فقاموا فقضوا لأنفسهم ركعه ثم سلم بعضهم على بعض،و قد قال تعالى لنبيه«و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاه-إلى قوله- كِتاباً مَوْقُوتاً» -فهذه صلاه الخوف التى أمر الله عز و جل بها نبيه ص.

و قال:من صلى المغرب فى خوف بالقوم-صلى بالطائفه الأولى ركعه،و بالطائفه الثانيه ركعتين (الحديث).

و فى التهذيب،بإسناده عن زراره قال: سألت أبا جعفر(ع)عن صلاه الخوف و صلاه السفر تقصران جميعا؟قال:نعم،و صلاه الخوف أحق أن تقصر من صلاه السفر ليس فيه خوف

و فى الفقيه،بإسناده عن زراره و محمد بن مسلم. أنهما قالا:قلنا لأبى جعفر(ع):

ما تقول فى صلاه السفر؟كيف هى و كم هى؟فقال:إن الله عز و جل يقول:« وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ-فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ» -فصار التقصير فى السفر

واجبا کوجوب التام فی الحضر.قالا:قلنا:إنما قال الله عز و جل« فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» و لم يقل:افعلوا،کيف أوجب ذلک کما أوجب التمام فی الحضر؟فقال(ع):

أ و ليس قد قال الله« إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» -أ لا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟لأن الله عز و جل ذکره فی کتابه،و صنعه نبيه،و کذلک التقصير فی السفر شیء-صنعه النبی ص ذکره الله تعالی فی کتابه.

قالا:فقلنا له:فمن صلی فی السفر أربعا أ يعيد أم لا؟قال:إن کان قد قرئت عليه آيه التقصير-و فسرت له فصلی أربعا أعاد،و إن لم تکن قرئت عليه و لم يکن يعلمها فلا إعاده عليه.

و الصلوات کلها فی السفر الفريضه رکعتان-کل صلاه إلا المغرب فإنها ثلاث ليس فيها تقصير-ترکها رسول الله ص فی السفر و الحضر ثلاث رکعات (الحديث).

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شيبه و عبد بن حميد و أحمد و مسلم و أبو داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجه و ابن الجارود و ابن خزيمه و الطحاری و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و النحاس فی ناسخه و ابن حبان عن يعلی بن أميه قال: سألت عمر بن الخطاب،قلت:« فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ کَفَرُوا» و قد أمن الناس؟فقال لی عمر:عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ص عن ذلک-فقال:صدقه تصدق الله بها عليکم فاقبلوا صدقته.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و النسائی و ابن ماجه و ابن حبان و البيهقی فی سننه عن أميه بن خالد بن أسد": أنه سأل ابن عمر:أ رأيت قصر الصلاه فی السفر؟إنا لا نجدها فی کتاب الله،إنما نجد ذکر صلاه الخوف.فقال ابن عمر:يا ابن أخی إن الله أرسل محمدا ص و لا نعلم شيئا،فإنما نفعل کما رأينا رسول الله ص يفعل-و قصر الصلاه فی السفر سنه سنها رسول الله ص.

و فيه:،أخرج ابن أبی شيبه و الترمذی و صححه و النسائی عن ابن عباس قال": صلينا مع رسول الله ص بين مکه و المدينه-و نحن آمنون لا نخاف شيئا رکعتين.

و فيه:أخرج ابن أبی شيبه و أحمد و البخاری و مسلم و أبو داود و الترمذی و النسائی

عن حارثه بن وهب الخزاعی قال": صلیت مع النبی ص الظهر و العصر بمنی- أکثر ما کان الناس و آمنه رکعتین.

و فی الکافی،بإسناده عن داود بن فرقد قال: قلت لأبی عبد الله (ع):قوله تعالی- «إِنَّ الصَّلاٰةَ کٰانَتْ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ کِتٰاباً مَوْقُوتاً»؟ قال:کتابا ثابتا،و لیس إن عجلت قلیلا أو أخرت قلیلا-بالذی یضرک ما لم تضع تلک الإضاعه-فإن الله عز و جل یقول.

« أَضٰاعُوا الصَّلاٰةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا» .

أقول:إشاره إلی أن الفرائض موسعه من جهه الوقت کما یدل علیه روایات أخر.

و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن مسلم عن أحدهما(ع): قال فی صلاه المغرب فی السفر:لا تترک إن تأخرت ساعه،ثم تصلیها إن أحببت أن تصلی العشاء الآخره، و إن شئت مشیت ساعه إلی أن یغیب الشفق،أن رسول الله ص صلی صلاه الهاجره و العصر جمیعا،و المغرب و العشاء الآخره جمیعا،و کان یؤخر و یقدم أن الله تعالی قال:

« إِنَّ الصَّلاٰةَ کٰانَتْ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ کِتٰاباً مَوْقُوتاً» إنما عنی وجوبها علی المؤمنین،لم یعن غیره، إنه لو کان کما یقولون لم یصل رسول الله ص هکذا،و کان أعلم و أخبر و کان کما یقولون،و لو کان خیرا لأمر به محمد رسول الله ص.

و قد فات الناس مع أمیر المؤمنین(ع)یوم صفین-صلاه الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخره،و أمرهم علی أمیر المؤمنین(ع)فکبروا و هللوا و سبحوا رجالا و رکبانا لقول الله« فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجٰالاً أَوْ رُکْبٰاناً» فأمر علی(ع)فصنعوا ذلک.

أقول:و الروایات کما تری توافق ما قدمناه فی البیان السابق و الروایات فی المعانی السابقه و خاصه من طرق أئمه أهل البیت(ع)کثیره جدا،و إنما أوردنا أنموذجا مما ورد منها.

و اعلم أن هناک من طرق أهل السنه روایات أخری تعارض ما تقدم،و هی مع ذلک تتدافع فی أنفسها،و النظر فیها و فی سائر الروایات الحاکیه لکیفیه صلاه الخوف خاصه و صلاه القصر فی السفر عامه مما هو راجع إلی الفقه.

و فی تفسیر القمی،فی قوله «وَ لاٰ تَهِنُوا فِی ابْتِغٰاءِ الْقَوْمِ» (الآیه)إنه معطوف علی قوله

فی سوره آل عمران «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ». و قد ذكرنا هناك سبب نزول الآيه

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۰۵ الى ۱۲۶]

اشاره

إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ اَلْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ اَلنّاسِ بِما أَراكَ اَللّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (۱۰۵) وَ اِسْتَغْفِرِ اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ كانَ غَفُوراً
رَحِيماً (۱۰۶) وَ لا تُجادِلْ عَنِ اَلَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اَللّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أَثِيماً (۱۰۷) يَسْتَخْفُونَ مِنَ اَلنّاسِ وَ لا
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اَللّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ اَلْقَوْلِ وَ كانَ اَللّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (۱۰۸) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ
فِي اَلْحَياهِ اَلدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اَللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (۱۰۹) وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اَللّهَ
يَجِدِ اَللّهَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۱۰) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اَللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَهً أَوْ
إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ اِحْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۱۱۲) وَ لَوْ لا فَضْلُ اَللّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَهٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما
يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اَللّهُ عَلَيْكَ اَلْكِتابَ وَ اَلْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اَللّهِ
عَلَيْكَ عَظِيماً (۱۱۳) لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ اَلنّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ اِبْتِغاءَ
مَرْضاتِ اَللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۱۴) وَ مَنْ يُشاقِقِ اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ اَلْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما
تَوَلّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۱۱۵) إِنَّ اَللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ
ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (۱۱۶) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاّ شَيْطاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اَللّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ
نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ اَلْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اَللّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ اَلشَّيْطانَ وَلِيًّا
مِنْ دُونِ اَللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ اَلشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا
يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اَللّهِ
حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ قِيلاً (۱۲۲) لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ اَلْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَلِيًّا
وَ لا نَصِيراً (۱۲۳) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ اَلصّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّهَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (۱۲۴) وَ مَنْ
أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اِتَّبَعَ مِلَّهَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اِتَّخَذَ اَللّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (۱۲۵) وَ لِلّهِ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ ما
فِي اَلْأَرْضِ وَ كانَ اَللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (۱۲۶)

ص: ۶۸

(بيان)

الذى يفيده التدبر فى الآيات أنها ذات سياق واحد تتعرض للتوصيه بالعدل فى

ص :۶۹

القضاء،و النهى عن أن يميل القاضى فى قضائه،و الحاكم فى حكمه إلى المبطلين،و يجور على المحقين كائنين من كانوا.

و ذلك بالإشاره إلى بعض الحوادث الواقعه عند نزول الآيات،ثم البحث فيما يتعلق بذلك من الحقائق الدينيه و الأمر بلزومها و رعايتها،و تنبيه المؤمنين أن الدين إنما هو حقيقه لا اسم،و إنما ينفع التلبس به دون التسمى.

و الظاهر أن هذه القصه هى التى يشير إليها قوله تعالى «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» حيث يدل على أنه كان هناك شىء من المعاصى التى تقبل الرمى كسرقه أو قتل أو إتلاف أو إضرار و نحوها،و أنه كان من المتوقع أن يهتموا بإضلال النبى ص فى حكمه و الله عاصمه.

و الظاهر أن هذه القصه أيضا هى التى تشير إليها الآيات الأول كما فى قوله تعالى «وَ لاٰ تَكُنْ لِلْخٰائِنِينَ خَصِيماً» (الآيه)و قوله «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّٰاسِ» (الآيه)و قوله «هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ» (إلخ)فإن الخيانه و إن كان ظاهرها ما يكون فى الودائع و الأمانات لكن سياق قوله «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ خَوّٰاناً أَثِيماً يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّٰاسِ» كما سيجىء بيانه يعطى أن المراد بها ما يتحقق فى سرقه و نحوها بعنايه أن المؤمنين كنفس واحده،و ما لبعضهم من المال مسئول عنه البعض الآخر من حيث رعايه احترامه،و الاهتمام بحفظه و حمايته،فتعدى بعضهم إلى مال البعض خيانه منهم لأنفسهم.

فالتدبر يقرب أن القصه كأنها سرقه وقعت من بعضهم ثم رفع الأمر إلى النبى ص فرمى بها السارق غيره ممن هو برىء منها،ثم ألح قوم السارق عليه(ص)أن يقضى لهم،و بالغوا فى أن يغيروه(ص)على المتهم البرىء فأنزلت الآيات و برأه الله مما قالوا.

فالآيات أشد انطباقا على ما روى فى سبب النزول من قصه سرقه أبى طعمه بن الأبيرق،و إن كانت أسباب النزول-كما سمعت مرارا-فى أغلب ما رويت من قبيل تطبيق القصص المأثوره على ما يناسبها من الآيات القرآنيه.

و يستفاد من الآيات حجيه قضائه(ص)،و عصمته و حقائق أخر سيأتى بيانها

ص:٧٠

إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى :«إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ» ظاهر الحكم بين الناس هو القضاء بينهم فى مخاصماتهم و منازعاتهم مما يرجع إلى الأمور القضائيه و رفع الاختلافات بالحكم،و قد جعل الله تعالى الحكم بين الناس غايه لإنزال الكتاب فينطبق مضمون الآيه على ما يتضمنه قوله تعالى «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» :(الآيه)(البقره:٢١٣)و قد مر تفصيل القول فيه.

فهذه الآيه (إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ) (إلخ)فى خصوص موردها نظيره تلك الآيه (كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً)، فى عمومها،و تزيد عليها فى أنها تدل على جعل حق الحكم لرسول الله ص و الحجيه لرأيه و نظره فإن الحكم و هو القطع فى القضاء و فصل الخصومه لا ينفك عن إعمال نظر من القاضى الحاكم و إظهار عقيده منه مضافا إلى ما عنده من العلم بالأحكام العامه و القوانين الكليه فى موارد الخصومه فإن العلم بكليات الأحكام و حقوق الناس أمر،و القطع و الحكم بانطباق مورد النزاع على بعضها دون بعض أمر آخر.

فالمراد بالإراءه فى قوله «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ» إيجاد الرأى و تعريف الحكم لا تعليم الأحكام و الشرائع كما احتمله بعضهم.

و مضمون الآيه على ما يعطيه السياق أن الله أنزل إليك الكتاب و علمك أحكامه و شرائعه و حكمه لتضيف إليها ما أوجد لك من الرأى و عرفك من الحكم فتحكم بين الناس،و ترفع بذلك اختلافاتهم.

قوله تعالى :«وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» عطف على ما تقدمه من الجمله الخبريه لكونها فى معنى الإنشاء كأنه قيل:فاحكم بينهم و لا تكن للخائنين خصيما.

و الخصيم هو الذى يدافع عن الدعوى و ما فى حكمها،و فيه نهيه(ص)عن أن يكون خصيما للخائنين على من يطالبهم بحقوقه فيدافع عن الخائنين و يبطل حقوق المحقين من أهل الدعوى.

و ربما أمكن أن يستفاد من عطف قوله «وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ»، على ما تقدمه

و هو أمره(ص)أمرا مطلقا بالحكم أن المراد بالخيانه مطلق التعدى على حقوق الغير ممن لا ينبغى منه ذلك لا خصوص الخيانه للودائع و إن كان ربما عطف الخاص على العام لعنايه ما بشأنه لكن المورد كالخالى عن العنايه،و سيجىء لهذا الكلام تتمه.

قوله تعالى :«وَ اسْتَغْفِرِ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً» الظاهر أن الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من الله سبحانه الستر على ما فى طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق و الميل إلى الهوى و مغفره ذلك،و قد مر مرارا أن العفو و المغفره يستعملان فى كلامه تعالى فى شئون مختلفه يجمعها جامع الذنب،و هو التباعد من الحق بوجه.فالمعنى-و الله أعلم-:و لا تكن للخائنين خصيما و لا تمل إليهم،و اطلب من الله سبحانه أن يوفقك لذلك و يستر على نفسك أن تميل إلى الدفاع عن خيانتهم و يتسلط عليك هوى النفس.

و الدليل على إراده ذلك ما فى ذيل الآيات«الكريمه وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» فإن الآيه تنص على أنهم لا يضرون النبى ص و إن بذلوا غايه جهدهم فى تحريك عواطفه إلى إيثار الباطل و إظهاره على الحق فالنبى ص فى أمن إلهى من الضرر،و الله يعصمه فهو لا يجور فى حكمه و لا يميل إلى الجور،و لا يتبع الهوى،و من الجور و الميل إلى الهوى المذموم أن يفرق فى حكمه بين قوى و ضعيف،أو صديق و عدو،أو مؤمن و كافر ذمى،أو قريب و بعيد،فأمره بأن يستغفر ليس لصدور ذنب ذى وبال و تبعه منه، و لا لإشرافه على ما لا يحمد منه بل ليسأل من الله أن يظهره على هوى النفس،و لا ريب فى حاجته فى ذلك إلى ربه و عدم استغنائه عنه و إن كان على عصمه،فإن لله سبحانه أن يفعل ما يشاء.

و هذه العصمه مدار عملها ما يعد طاعه و معصيه،و ما يحمد أو يذم عليه من الأعمال لا ما هو الواقع الخارجى،و بعباره أخرى الآيات تدل على أنه(ص)فى أمن من اتباع الهوى،و الميل إلى الباطل،و أما إن الذى يحكم و يقضى به بما شرعه من القواعد و قوانين القضاء الظاهريه كقوله«البينه على المدعى و اليمين على من أنكر»و نحو ذلك يصادف دائما ما هو الحق فى الواقع فينتج دائما غلبه المحق،و مغلوبيه المبطل فى دعواه، فالآيات لا تدل على ذلك أصلا،و لا أن القوانين الظاهريه فى استطاعتها أن تهدى إلى ذلك قطعا فإنها أمارات مميزه بين الحق و الباطل غالبا لا دائما،و لا معنى لاستلزام

الغالب الدائم و هو ظاهر.

و مما تقدم یظهر ما فی کلام بعض المفسرین حیث ذکر فی قوله تعالی «وَ اسْتَغْفِرِ اللّهَ ،إنه أمر بالاستغفار عما هم به النبی ص من الدفاع و الذب عن هذا الخائن المذکور فی الآیه،و قد سأله قومه أن یدفع عنه و یکون خصیما له علی یهودی.

و ذلک أن هذا القدر أیضا تأثیر منهم بأثر مذموم،و قد نفی الله سبحانه عنه(ص) کل ضرر.

قوله تعالی «وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِینَ یَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ»، قیل:إن نسبه الخیانه إلی النفس لکون وبالها راجعا إلیها،أو یعد کل معصیه خیانه للنفس کما عد ظلما لها،و قد قال تعالی.« عَلِمَ اللّهُ أَنَّکُمْ کُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَکُمْ» :(البقره:۱۸۷).

و یمکن أن یستفاد من الآیه بمعونه ما یدل علیه القرآن من أن المؤمنین کنفس واحده، و أن مال الواحد منهم مال لجمیعهم یجب علی الجمیع حفظه و صونه عن الضیعه و التلف، کون تعدی بعضهم علی بعض بسرقه و نحوها اختیانا لأنفسهم.

و فی قوله تعالی« إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ مَنْ کانَ خَوّاناً أَثِیماً» دلاله علی استمرار هؤلاء الخائنین فی خیانتهم،و یؤکده قوله «أَثِیماً» فإن الأثیم آکد فی المعنی من الإثم و هو صفه مشبهه تدل علی الثبوت.علی أن قوله «یَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ» لا تخلو عن دلاله علی الاستمرار،و کذا قوله «لِلْخائِنِینَ» حیث عبر بالوصف و لم یعبر بمثل قولنا:للذین خانوا، کما عبر بذلک فی قوله «فَقَدْ خانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْکَنَ مِنْهُمْ» :(الأنفال:۷۱).

فمن هذه القرائن و أمثالها یظهر أن معنی الآیه-بالنظر إلی مورد النزول-:و لا تکن خصیما لهؤلاء،و لا تجادل عنهم فإنهم مصرون علی الخیانه مبالغون فیها ثابتون علی الإثم،و الله لا یحب من کان خوانا أثیما.و هذا یؤید ما ورد فی أسباب النزول من نزول الآیات فی أبی طعمه بن الأبیرق. کما سیجیء.

و معنی الآیه-مع قطع النظر عن المورد-:و لا تدافع فی قضائک عن المصرین علی الخیانه المستمرین علیها،فإن الله لا یحب الخوان الأثیم،و کما أنه تعالی لا یحب کثیر الخیانه لا یحب قلیلها،و لو أمکن أن یحب قلیلها أمکن أن یحب کثیرها و إذا کان کذلک فالله ینهی أن یدافع عن قلیل الخیانه کما ینهی عن أن یدافع عن کثیرها و أما

من خان فی أمر ثم نازع فی أمر آخر و هو محق فی نزاعه،فالدفاع عنه دفاع غیر محظور و لا ممنوع منه،و لا ینهی عنه قوله «وَ لاٰ تَکُنْ لِلْخٰائِنِینَ خَصِیماً» (الآیه).

قوله تعالی:« یَسْتَخْفُونَ مِنَ النّٰاسِ وَ لاٰ یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّٰهِ»، و هذا أیضا من الشواهد علی ما قدمناه من أن الآیات(۱۰۵ ۱۲۶)جمیعا ذات سیاق واحد،نازله فی قصه واحده،و هی التی یشیر إلیها قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً» (الآیه)،و ذلک أن الاستخفاء إنما یناسب الأعمال التی یمکن أن یرمی بها الغیر کالسرقه و أمثال ذلک فیتأید به أن الذی تشیر إلیه هذه الآیه و ما تقدمها من الآیات هو الذی یشیر إلیه قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ» (الآیه).

و الاستخفاء من الله أمر غیر مقدور إذ لا یخفی علی الله شیء فی الأرض و لا فی السماء فطرفه المقابل له أعنی عدم الاستخفاء أیضا أمر اضطراری غیر مقدور،و إذا کان غیر مقدور لم یتعلق به لوم و لا تعییر کما هو ظاهر الآیه.لکن الظاهر أن الاستخفاء کنایه عن الاستحیاء و لذلک قید قوله «وَ لاٰ یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّٰهِ» (أولا)بقوله «وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ یُبَیِّتُونَ مٰا لاٰ یَرْضیٰ مِنَ الْقَوْلِ» فدل علی أنهم کانوا یدبرون الحیله لیلا للتبری من هذه الخیانه المذمومه،و یبیتون فی ذلک قولا لا یرضی به الله سبحانه ثم قیده(ثانیا)بقوله «وَ کٰانَ اللّٰهُ بِمٰا یَعْمَلُونَ مُحِیطاً» و دل علی إحاطته تعالی بهم فی جمیع الأحوال و منها حال الجرم الذی أجرموه،و التقیید بهذین القیدین أعنی قوله «وَ هُوَ مَعَهُمْ»، و قوله «وَ کٰانَ اللّٰهُ»، تقیید بالعام بعد الخاص،و هو فی الحقیقه تعلیل لعدم استخفائهم من الله بعله خاصه ثم بأخری عامه.

قوله تعالی :«هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا» (الآیه)بیان لعدم الجدوی فی الجدال عنهم،و أنهم لا ینتفعون بذلک فی صوره الاستفهام و المراد أن الجدال عنهم لو نفعهم فإنما ینفعهم فی الحیاه الدنیا،و لا قدر لها عند الله،و أما الحیاه الأخرویه التی لها عظیم القدر عند الله أو ظرف الدفاع فیها یوم القیامه فلا مدافع هناک عن الخائنین و لا مجادل عنهم بل لا وکیل لهم یومئذ یتکفل تدبیر أمورهم و إصلاح شئونهم.

قوله تعالی .«وَ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً أَوْ یَظْلِمْ نَفْسَهُ» (الآیه)فیه ترغیب و حث لأولئک الخائنین أن یرجعوا إلی ربهم بالاستغفار،و الظاهر أن التردید بین السوء و ظلم النفس

و التـدرج من السوء إلى الظلم لكون المراد بـالسوء التعـدى على الغير،و بالظلم التعـدى على النفس،أو أن السوء أهون من الظلم كالمعصيه الصغيره بالنسبه إلى الكبيره، و الله أعلم.

و هـذه الآيه و الآيتان بعـدها جميعا كلام مسوق لغرض واحد،و هو بيان أمر الإثم الذى يكسـبه الإنسان بعمله،يتكفل كل واحده من الآيـات الثلاث بيان جهه من جهاته،فالآيه الأولى تبين أن المعصـيه التى يقترفها الإنسان فيتأثر بتبعتها نفسه و تكتب فى كتاب أعماله،للعبد أن يتوب إلى الله منها و يستغفره فلو فعل ذلك وجد الله غفورا رحيما.

و الآيه الثانيه تـذكر الإنسان أن الإثم الـذى يكسـبه إنما يكسبه على نفسه و ليس بالـذى يمكن أن يتخطاه و يلحق غيره برمى أو افتراء و نحو ذلك.

و الآيه الثالثه توضح أن الخطيئه أو الإثم الذى يكسـبه الإنسان لو رمى به بريئا غيره كان الرمى به إثما آخر وراء أصل الخطيئه أو الإثم.

قوله تعـالى:« وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْمـاً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» قـد تقـدم أن الآيه مرتبطه مضـمونا بالآيه التاليه المتعرضه للرمى بالخطيئه و الإثم فهـذه كالمقـدمه لتلك،و على هـذا فقوله «فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ» مسوق لقصـر التعيين، و فى الآـيه عظه لمن يكسب الإثم ثم يرمى به بريئا غيره.و المعنى-و الله أعلم-:أنه يجب على من يكسب إثما أن يتـذكر أن ما يكسـبه من الإـثم فإنما يكسـبه على نفسه لا على غيره،و أنه هو الـذى فعله لا غيره و إن رماه به أو تعهـد له هو أن يحمل إثمه و كان الله عليمـا يعلم أنه فعـل هـذا الكاسب،و أنه الـذى فعله لا غيره المرمى به،حكيما لا يؤاخـذ بالإثم إلا آثمه،و بالوزر غير وازرتها كما قال تعالى:« لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ» (البقره:۲۸۶)،و قال:« وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» (الأنعام:۱۶۴)و قال:

«وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (العنكبوت:۱۲).

قوله تعـالى:« وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمـاً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئـاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً»، قال الراغب فى المفردات،:إن من أراد شيئا فاتفق منه غيره يقال:أخطأ

و إن وقع منه كما أراده يقال أصاب،و قد يقال لمن فعل فعلا ـ لا يحسن أو أراد إراده لا تجمل:إنه أخطأ.و لهذا يقال:أصاب الخطأ،و أخطأ الصواب،و أصاب الصواب،و أخطأ الخطأ.و هذه اللفظه مشتركه كما ترى،متردده بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها.

قال:و الخطيئه و السيئه تتقاربان لكن الخطيئه أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصودا إليه فى نفسه بل يكون القصد سببا لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمى صيدا فأصاب إنسانا،أو شرب مسكرا فجنى جنايه فى سكره،و السبب سببان:سبب محظور فعله كشرب المسكر و ما يتولد عنه من الخطإ غير متجاف عنه،و سبب غير محظور كرمى الصيد،قال تعالى:، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» و قال تعالى:« وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً» فالخطيئه هاهنا هى التى لا ـ تكون عن قصد إلى فعلها(انتهى).

و أظن أن الخطيئه من الأوصاف التى استغنى عن موصوفاتها بكثره الاستعمال كالمصيبه و الرزيه و السليقه و نحوها،و وزن فعيل يدل على اختزان الحدث و استقراره، فالخطيئه هى العمل الذى اختزن و استقر فيه الخطأ و الخطأ،الفعل الواقع الذى لا يقصده الإنسان كقتل الخطإ،هذا فى الأصل،ثم وسع إلى ما لا ـ ينبغى للإنسان أن يقصده لو كانت نفسه على سلامتها الفطريه،فكل معصيه و أثر معصيه من مصاديق الخطإ على هذا التوسع،و الخطيئه هى العمل أو أثر العمل الذى لم يقصده الإنسان(و لا يعد حينئذ معصيه)أو لم يكن ينبغى أن يقصده(و يعد حينئذ معصيه أو وبال معصيه).

لكن الله سبحانه لما نسبها فى قوله «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً» إلى الكسب كان المراد بها الخطيئه التى هى المعصيه،فالمراد بالخطيئه فى الآيه هى التى تكون عن قصد إلى فعلها و إن كان من شأنها أن لا يقصد إليها.

و قد مر فى قوله تعالى «قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ» :(البقره:۲۱۹)أن الإثم هو العمل الذى يوجب بوباله حرمان الإنسان عن خيرات كثيره كشرب الخمر و القمار و السرقه مما يصد الإنسان عن حيازه الخيرات الحيويه،و يوجب انحطاطا اجتماعيا يسقط الإنسان

عن وزنه الاجتماعی و یسلب عنه الاعتماد و الثقه العامه.

و علی هذا فاجتماع الخطیئه و الإثم علی نحو التردید و نسبتهما جمیعا إلی الکسب فی قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً» (الآیه)یوجب اختصاص کل منهما بما یختص به من المعنی،و المعنی-و الله أعلم-:أن من یکسب معصیه لا تتجاوز موردها وبالا کترک بعض الواجبات کالصوم أو فعل بعض المحرمات کأکل الدم أو یکسب معصیه یستمر وبالها کقتل النفس من غیر حق و السرقه ثم یرم بها بریئا بنسبتها إلیه فقد احتمل بهتانا و إثما مبینا.

و فی تسمیه نسبه العمل السیئ إلی الغیر رمیا-و الرمی یستعمل فی مورد السهم- و کذا فی إطلاق الاحتمال علی قبول وزر البهتان استعاره لطیفه کان المفتری یفتک بالمتهم البریء برمیه بالسهم فیوجب له فتکه أن یتحمل حملا یشغله عن کل خیر مدی حیاته من غیر أن یفارقه.

و من ما تقدم یظهر وجه اختلاف التعبیر عن المعصیه فی الآیات الکریمه تاره بالإثم و أخری بالخطیئه و السوء و الظلم و الخیانه و الضلال،فکل واحد من هذه الألفاظ هو المناسب بمعناه لمحله الذی حل فیه.

قوله تعالی:« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَیْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ» (إلی آخر الآیه)السیاق یدل علی أن المراد بهمهم بإضلال النبی ص هو همهم أن یرضوه بالدفاع عن الذین سماهم الله تعالی فی صدر الآیات بالخائنین و الجدال عنهم و علی هذا فالمراد بهذه الطائفه أیضا هم الذین عدل الله سبحانه إلی خطابهم بقوله «هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا» (الآیه)و ینطبق علی قوم أبی طعمه علی ما سیجیء.

و أما قوله« وَ مٰا یُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ» فالمراد به بقرینه قوله بعده «وَ مٰا یَضُرُّونَکَ مِنْ شَیْءٍ»، إن إضلال هؤلاء لا یتعدی أنفسهم و لا یتجاوزهم إلیک،فهم الضالون بما هموا به لأنه معصیه و کل معصیه ضلال.

و لهذا الکلام معنی آخر تقدمت الإشاره إلیه فی الکلام علی قوله «وَ مٰا یُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ :(آل عمران:۶۹)فی الجزء الثالث من هذا الکتاب،لکنه لا یناسب هذا المقام.

و أما قوله «وَ مٰا يَضُرُّونَکَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْکَ»، ففيه نفى إضرارهم النبى ص نفيا مطلقا غير أن ظاهر السياق أنه مقيد بقوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْکَ الْکِتٰابَ»، على أن يكون جمله حاليه عن الضمير فى قوله «يَضُرُّونَکَ» و إن كان الأغلب مقارنه الجمله الفعليه المصدره بالماضى بقد على ما ذكره النحاه،و على هذا فالكلام مسوق لنفى إضرار الناس مطلقا بالنبى ص فى علم أو عمل.

قوله تعالى:« وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْکَ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَکَ مٰا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ»، ظاهر الكلام كما أشرنا إليه أنه فى مقام التعليل لقوله «وَ مٰا يَضُرُّونَکَ مِنْ شَيْءٍ» أو لمجموع قوله «وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَکَ مِنْ شَيْءٍ» و كيف كان فهذا الإنزال و التعليم هو المانع من تأثيرهم فى إضلاله(ص)،فهو الملاك فى عصمته.

(كلام فى معنى العصمه)

ظاهر الآيه أن الأمر الذى تتحقق به العصمه نوع من العلم يمنع صاحبه عن التلبس بالمعصيه و الخطإ، و بعباره أخرى علم مانع عن الضلال،كما أن سائر الأخلاق كالشجاعه و العفه و السخاء كل منها صوره علميه راسخه موجبه لتحقق آثارها،مانعه عن التلبس بأضدادها من آثار الجبن و التهور و الخمود و الشره و البخل و التبذير.

و العلم النافع و الحكمه البالغه و إن كانا يوجبان تنزه صاحبهما عن الوقوع فى مهالك الرذائل،و التلوث بأقذار المعاصى،كما نشاهده فى رجال العلم و الحكمه و الفضلاء من أهل التقوى و الدين،غير أن ذلك سبب غالبى كسائر الأسباب الموجوده فى هذا العالم المادى الطبيعى فلا تكاد تجد متلبسا بكمال يحجزه كماله من النواقص و يصونه عن الخطإ صونا دائميا من غير تخلف،سنه جاريه فى جميع الأسباب التى نراها و نشاهدها.

و الوجه فى ذلك أن القوى الشعوريه المختلفه فى الإنسان يوجب بعضها ذهوله عن حكم البعض الآخر أو ضعف التفاته إليه كما أن صاحب ملكه التقوى ما دام شاعرا بفضيله تقواه لا يميل إلى اتباع الشهوه غير المرضيه،و يجرى على مقتضى تقواه،غير أن اشتعال نار الشهوه و انجذاب نفسه إلى هذا النحو من الشعور ربما حجبه عن تذكر فضيله التقوى أو ضعف شعور التقوى فلا يلبث دون أن يرتكب ما لا يرتضيه التقوى

و يختار سفساف الشره،و على هذا السبيل سائر الأسباب الشعوريه فى الإنسان و إلا فالإنسان لا يحيد عن حكم سبب من هذه الأسباب ما دام السبب قائما على ساق،و لا مانع يمنع من تأثيره،فجميع هذه التخلفات تستند إلى مغالبه التقوى و الأسباب،و تغلب بعضها على بعض.

و من هنا يظهر أن هذه القوه المسماه بقوه العصمه سبب شعورى علمى غير مغلوب البته، و لو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور و الإدراك لتسرب إليها التخلف، و خبطت فى أثرها أحيانا،فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم و الإدراكات المتعارفه التى تقبل الاكتساب و التعلم.

و قد أشار الله تعالى إليه فى خطابه الذى خص به نبيه ص بقوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» و هو خطاب خاص لا نفقهه حقيقه الفقه إذ لا ذوق لنا فى هذا النحو من العلم و الشعور غير أن الذى يظهر لنا من سائر كلامه تعالى بعض الظهور كقوله «قُلْ مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ» :(البقره:٩٧) و قوله «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» :(الشعراء:

١٩٥)أن الإنزال المذكور من سنخ العلم،و يظهر من جهه أخرى أن ذلك من قبيل الوحى و التكليم كما يظهر من قوله «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ»: XالآيهX(الشورى:١٣) و قوله «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» :(النساء:١٦٣)و قوله «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ» :(الأنعام:٥٠)،و قوله «إِنَّمٰا أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ»:

(الأعراف:٢٠٣).

و يستفاد من الآيات على اختلافها أن المراد بالإنزال هو الوحى وحى الكتاب و الحكمه و هو نوع تعليم إلهى لنبيه(ص)غير أن الذى يشير إليه بقوله «وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» ليس هو الذى علمه بوحى الكتاب و الحكمه فقط فإن مورد الآيه قضاء النبى ص فى الحوادث الواقعه و الدعاوى التى ترفع إليه برأيه الخاص،و ليس ذلك من الكتاب و الحكمه بشىء و إن كان متوقفا عليهما بل رأيه و نظره الخاص به.

و من هنا يظهر أن المراد بالإنزال و التعليم فى قوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ

وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»

نوعـان اثنـان من العلم،أحـدهما التعليم بـالوحى و نزول الروح الأـمين على النبى ص و،الآـخر:التعليم بنوع من الإلقاء فى القلب و الإلهام الخفى الإلهى من غير إنزال الملك و هذا هو الذى تؤيده الروايات الوارده فى علم النبى ص.

و على هـذا فـالمراد بقوله «وَ عَلَّمَـكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» آتـاک نوعـا من العلم لو لم يؤتـک إيـاه من لـدنه لم يكفـك فى إيتـائه الأسباب العاديه التى تعلم الإنسان ما يكتسبه من العلوم.

فقد بان من جميع ما قدمناه أن هذه الموهبه الإلهيه التى نسميها قوه العصمه نوع من العلم و الشعور يغاير سائر أنواع العلوم فى أنه غير مغلوب لشـىء من القوى الشعوريه البته بـل هى الغـالبه القـاهره عليهـا المسـتخدمه إياها،و لـذلک كانت تصون صاحبها من الضـلال و الخطيئه مطلقـا،و قـد ورد فى الروايات أن للنبى و الإمام روحا تسـمى روح القـدس تسـدده و تعصـمه عن المعصـيه و الخطيئه،و هى التى يشـير إليهـا قوله تعالى« وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَـدْرِى مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا» :(الشورى:۵۲) بتنزيـل الآيه على ظاهرها من إلقاء كلمه الروح المعلمه الهاديه إلى النبى ص و نظيره قوله تعـالى «وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰةِ وَ إِيتٰاءَ الزَّكٰاةِ وَ كٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ» :(الأنبياء:۷۳) بنـاء على مـا سيجىء من بيـان معنى الآيه إن شاء الله العزيز أن المراد به تسديـد روح القـدس الإمام بفعل الخيرات و عباده الله سبحانه.

و بـان مما مر أيضا أن المراد بالكتاب فى قوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» هو الوحى النازل لرفع اختلافات الناس على حد قوله تعالى «كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»: Xالآيه X(البقره:۲۱۳)و قد تقدم بيانه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

و المراد بـالحكمه سـائر المعـارف الإلهيه النـازله بـالوحى،النافعه للـدنيا و الآخره، و المراد بقوله «وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» غير المعارف الكليه العامه من الكتاب و الحكمه.

و بذلک يظهر ما فى كلمات بعض المفسـرين فى تفسـير الآيه.فقد فسـر بعضهم الكتاب بالقرآن،و الحكمه بما فيه من الأحكام،و «مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» بالأحكام و الغيب

ص :۸۰

و فسر بعضهم الكتاب و الحكمه بالقرآن و السنه،و «مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» بالشرائع و أنباء الرسل الأولين و غير ذلك من العلوم إلى غير ذلك مما ذكروه،و قد تبين وجه ضعفها بما مر فلا نعيد.

[بيان]

قوله تعالى: «وَ كٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» امتنان على النبى ص-.

قوله تعالى: «لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ» قال الراغب:و ناجيته أى ساررته و أصله أن تخلو به فى نجوه من الأرض(انتهى) فالنجوى المساره فى الحديث،و ربما أطلق على نفس المتناجين قال تعالى:

«وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ» :(الإسراء:۴۷)أى متناجون.

و فى الكلام أعنى قوله «لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ» عود إلى ما تقدم من قوله تعالى «إِذْ يُبَيِّتُونَ مٰا لاٰ يَرْضىٰ مِنَ الْقَوْلِ» (الآيه)بناء على اتصال الآيات و قد عمم البيان لمطلق المساره فى القول سواء كان ذلك بطريق التبييت أو بغيره لأن الحكم المذكور و هو انتفاء الخير فيه إنما هو لمطلق المساره و إن لم تكن على نحو التبييت،و نظيره قوله «وَ مَنْ يُشٰاقِقِ»، دون أن يقول: و من يناج للمشاقه،لأن الحكم المذكور لمطلق المشاقه أعم من أن يكون نجوى أو لا.

و ظاهر الاستثناء أنه منقطع، و المعنى:لكن من أمر بكذا و كذا فيه ففيما أمر به شىء من الخير،و قد سمى دعوه النجوى إلى الخير أمرا و ذلك من قبيل الاستعاره، و قد عد تعالى هذا الخير الذى يأمر به النجوى ثلاثه:الصدقه،و المعروف،و الإصلاح بين الناس.و لعل إفراد الصدقه عن المعروف مع كونها من أفراده لكونها الفرد الكامل فى الاحتياج إلى النجوى بالطبع،و هو كذلك غالبا.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ»، تفصيل لحال النجوى ببيان آخر من حيث التبعه من المثوبه و العقوبه ليتبين به وجه الخير فيما هو خير من النجوى، و عدم الخير فيما ليس بخير منه.

و محصله أن فاعل النجوى على قسمين:(أحدهما)من يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله،و لا محاله ينطبق على ما يدعو إلى معروف أو إصلاح بين الناس تقربا إلى الله،

و سوف يثيبه الله سبحانه بعظيم الأجر،و(ثانيهما)أن يفعل ذلك لمشاقه الرسول و اتخاذ طريق غير طريق المؤمنين و سبيلهم،و جزاؤه الإملاء و الاستدراج الإلهى ثم إصلاء جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى :«وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، المشاقه من الشق و هو القطعه المبانه من الشىء فالمشاقه و الشقاق كونك فى شق غير شق صاحبك،و هو كنايه عن المخالفه،فالمراد بمشاقه الرسول بعد تبين الهدى مخالفته و عدم إطاعته،و على هذا فقوله «وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» بيان آخر لمشاقه الرسول،و المراد بسبيل المؤمنين إطاعه الرسول فإن طاعته طاعه الله قال تعالى :«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّٰهَ» (النساء:٨٠).

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الإيمان هو الاجتماع على طاعه الله و رسوله-و إن شئت فقل على طاعه رسوله-فإن ذلك هو الحافظ لوحده سبيلهم كما قال تعالى:

«وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّٰهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَ لاَ تَفَرَّقُوا» :(آل عمران:١٠٣)و قد تقدم الكلام فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب،و قال تعالى :«وَ أَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (الأنعام:١٥٣) و إذا كان سبيله سبيل التقوى،و المؤمنون هم المدعوون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى :«وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ» :

(المائده:٢)و الآيه-كما ترى-تنهى عن معصيه الله و شق عصا الاجتماع الإسلامى، و هو ما ذكرناه من معنى سبيل المؤمنين.

فمعنى الآيه أعنى قوله «وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ»، يعود إلى معنى قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَهِ الرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ» :(الآيه)(المجادله:٩).

و قوله «نُوَلِّهِ مَا تَوَلّٰى»، أى نجره على ما جرى عليه،و نساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: «كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَ مَا

كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» :(الإسراء:٢٠).

و قوله «وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً» عطفه بالواو يدل على أن الجميع أى توليته ما تولى و إصلاءه جهنم أمر واحد إلهى بعض أجزائه دنيوى و هو توليته ما تولى،و بعضها أخروى و هو إصلاؤه جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» (إلى آخر الآيه)ظاهر الآيه أنها فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه «نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ»، بناء على اتصال الآيات فالآيه تدل على أن مشاقه الرسول شرك بالله العظيم،و أن الله لا يغفر أن يشرك به،و ربما استفيد ذلك من قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ» :(محمد:٣۴)فإن ظاهر الآيه الثالثه أنها تعليل لما فى الآيه الثانيه من الأمر بطاعه الله و طاعه رسوله فيكون الخروج عن طاعه الله و طاعه رسوله كفرا لا يغفر أبدا،و هو الشرك.

و المقام يعطى أن إلحاق قوله «وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ» بقوله «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» إنما هو لتتميم البيان،و إفاده عظمه هذه المعصيه المشئومه أعنى مشاقه الرسول،و قد تقدم بعض الكلام فى الآيه فى آخر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

قوله تعالى :«إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ إِنٰاثاً» الإناث جمع أنثى يقال:أنث الحديد أنثا أى انفعل و لان،و أنث المكان أسرع فى الإنبات و جاد،ففيه معنى الانفعال و التأثر، و بذلك سميت الأنثى من الحيوان أنثى و قد سميت الأصنام و كل معبود من دون الله إناثا لكونها قابلات منفعلات ليس فى وسعها أن تفعل شيئا مما يتوقعه عبادها منها-كما قيل-قال تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبٰابُ شَيْئاً لاٰ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّٰالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» :(الحج:٧۴)و قال:« وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ لاٰ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لاٰ حَيٰاةً وَ لاٰ نُشُوراً» :(الفرقان:٣).

فالظاهر أن المراد بالأنوثه الانفعال المحض الذى هو شأن المخلوق إذا قيس إلى الخالق

عز اسـمه،و هذا الوجه أولى مما قيل:إن المراد هو اللات و العزى و منات الثالثه و نحوها، و قد كان لكل حى صـنم يسمونه أنثى بنى فلان إما لتأنيث أسمائها أو لأنها كانت جمادات و الجمادات تؤنث فى اللفظ.

و وجه الأولويه أن ذلك لا يلائم الحصـر الواقع فى قوله «إِنْ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً» كثير ملاءمه،و بين من يدعى من دون الله من هو ذكر غير أنثى كعيسى المسيح و برهما و بوذا.

قوله تعالى: «وَ إِنْ يَـدْعُونَ إِلاّ شَـيْطاناً مَرِيداً» المريد هو العارى من كل خير أو مطلق العارى،قال البيضاوى: المارد و المريد الذى لا يعلق بخير،و أصل التركيب للملامسه،و منه صرح ممرد،و غلام أمرد،و شجره مرداء للتى تناثر ورقها(انتهى).

و الظاهر أن الجمله بيان للجمله السابقه فإن الدعوه كنايه عن العباده لكون العباده إنما نشأت بين الناس للدعوه على الحاجه،و قد سمى الله تعالى الطاعه عباده قال تعالى:

«أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِى آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِى» :

(يس:۶۱)فيئول معنى الجمله إلى أن عبادتهم لكل معبود من دون الله عباده و دعوه منهم للشيطان المريد لكونها طاعه له.

قوله تعالى: «لَعَنَهُ اللّهُ» اللعن هو الإبعاد عن الرحمه،و هو وصف ثان للشيطان و بمنزله التعليل للوصف الأول.

قوله تعـالى:« وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِکَ نَصِيباً مَفْرُوضـاً» كـأنه إشـاره إلى مـا حكـاه الله تعالى عنه من قوله «فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» :(-ص:۸۳) و فى قـوله «مِنْ عِبادِکَ» تقرير أنهم مع ذلـك عبـاده لا ينسـلخون عن هـذا الشأن،و هو ربهم يحكم فيهم بما شاء.

قوله تعـالى: «وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ» (إلى آخر)الآيه التبتيـل هو الشق، و ينطبق على مـا نقـل:أن عرب الجاهليه كانت تشق آذان البحائر و السوائب لتحريم لحومها.

و هـذه الأمور المعـدوده جميعها ضـلال فـذكر الإضـلال معهـا مـن قبيـل ذكر العـام ثـم ذكر بعض أفراده لعنـايه خـاصه بـه، يقول:لأضـلنهم بالاشـتغال بعبـاده غير الله و اقتراف المعاصـى،و لأغرنهم بالاشـتغال بالآمال و الأمانى التى تصـرفهم عن الاشـتغال بواجب شأنهم

ص :۸۴

و ما يهمهم من أمرهم،و لآمرنهم بشق آذان الأنعام و تحريم ما أحل الله سبحانه،و لآمرنهم بتغيير خلق الله و ينطبق على مثل الإخصاء و أنواع المثله و اللواط و السحق.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفطره و ترك الدين الحنيف،قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :(الروم:٣٠).

ثم عد تعالى دعوه الشيطان و هى طاعته فيما يأمر به اتخاذا له وليا فقال: «وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» و لم يقل:و من يكن الشيطان له وليا إشعارا بما تشعر به الآيات السابقه أن الولى هو الله،و لا ولايه لغيره على شىء و إن اتخذ وليا.

قوله تعالى: «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً» ظاهر السياق أنه تعليل لقوله فى الآيه السابقه «فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» و أى خسران أبين من خسران من يبدل السعاده الحقيقيه و كمال الخلقه بالمواعيد الكاذبه و الأمانى الموهومه،قال تعالى: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَهٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَ اللّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ» :(النور.٣٩).

أما المواعيد فهى الوساوس الشيطانيه بلا واسطه،و أما الأمانى فهى المتفرعه على وساوسه مما يستلذه الوهم من المتخيلات،و لذلك قال :«وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً» فعد الوعد غرورا دون التمنيه على ما لا يخفى.

ثم بين عاقبه حالهم بقوله «أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً» أى معدلا و مفرا من «حاص» إذا عدل.

ثم ذكر ما يقابل حالهم و هو حال المؤمنين تتميما للبيان فقال تعالى: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ» (إلى آخر الآيه)و فى الآيات التفات من سياق التكلم مع الغير إلى الغيبه، و الوجه العام فيه الإيماء إلى جلاله المقام و عظمته بوضع لفظ الجلاله موضع ضمير المتكلم مع الغير فيما يحتاج إلى هذا الإشعار حتى إذا استوفى الغرض رجع إلى سابق السياق الذى كان هو الأصل،و ذلك فى قوله «سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ»، و فى ذلك نكته أخرى،و هى الإيماء إلى قرب الحضور و عدم احتجابه تعالى عن عباده المؤمنين و هو وليهم.

قوله تعالى:« وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلًا» فيه مقابله لما ذكر فى وعد الشيطان أنه ليس إلا غرورا فكان وعد الله حقا،و قوله صدقا.

قوله تعالى:« لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ» عود إلى بدء الكلام و بمنزله النتيجه المحصله الملخصه من تفصيل الكلام،و ذلك أنه يتحصل من المحكى من أعمال بعض المؤمنين و أقوالهم،و إلحاحهم على النبى ص أن يراعى جانبهم،و يعاضدهم و يساعدهم على غيرهم فيما يقع بينهم من النزاع و المشاجره أنهم يرون أن لهم بإيمانهم كرامه على الله سبحانه و حقا على النبى ص يجب به على الله و رسوله مراعاه جانبهم،و تغليب جهتهم على غيرهم على الحق كانوا أو على الباطل،عدلا كان الحكم أو ظلما على حد ما يراه اتباع أئمه الضلال،و حواشى رؤساء الجور و بطائنهم و أذنابهم،فالواحد منهم يمتن على متبوعه و رئيسه فى عين أنه يخضع له و يطيعه،و يرى أن له عليه كرامه تلتزمه على مراعاه جانبه و تقديمه على غيره تحكما.

و كذا كان يراه أهل الكتاب على ما حكاه الله تعالى فى كتابه عنهم قال تعالى:

« وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ» :(المائده:١٨)،و قال تعالى:

« وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا» :(البقره:١٣٥)،و قال تعالى:« قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» :(آل عمران:٧٥).

فرد الله على هذه الطائفه من المؤمنين فى مزعمتهم،و أتبعهم بأهل الكتاب و سمى هذه المزاعم بالأمانى استعاره لأنها كالأمانى ليست إلا صورا خياليه ملذه لا أثر لها فى الأعيان فقال:ليس بأمانيكم معاشر المسلمين أو معشر طائفه من المسلمين و لا بأمانى أهل الكتاب بل الأمر يدور مدار العمل إن خيرا فخير و إن شرا فشر،و قدم ذكر السيئه على الحسنه لأن عمده خطإهم كانت فيها.

قوله تعالى :«مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» جىء فى الكلام بالفصل من غير وصل لأنه فى موضع الجواب عن سؤال مقدر،تقديره إذا لم يكن الدخول فى حمى الإسلام و الإيمان يجر للإنسان كل خير،و يحفظ منافعه فى الحياه، و كذا اليهوديه و النصرانيه فما هو السبيل؟و إلى ما ذا ينجر حال الإنسان؟فقيل:« مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ» (إلخ).

و قوله «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» مطلق يشمل الجزاء الدنيوى الذى تقرره الشريعه الإسلاميه كالقصاص للجانى،و القطع للسارق،و الجلد أو الرجم للزانى إلى غير ذلك من أحكام السياسات و غيرها و يشمل الجزاء الأخروى الذى أوعده الله تعالى فى كتابه و بلسان نبيه.

و هذا التعميم هو المناسب لمورد الآيات الكريمه و المنطبق عليه،و قد ورد فى سبب النزول أن الآيات نزلت فى سرقه ارتكبها بعض،و رمى بها يهوديا أو مسلما ثم ألحوا على النبى ص أن يقضى على المتهم.

و قوله «وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً» يشمل الولى و النصير فى صرف الجزاء السيئ عنه فى الدنيا كالنبى ص أو ولى الأمر و كالتقرب منهما و كرامه الإسلام و الدين،فالجزاء المشرع من عند الله لا يصرفه عن عامل السوء صارف،و يشمل الولى و النصير الصارف عنه سوء الجزاء فى الآخره إلا ما تشمله الآيه التاليه.

قوله تعالى :«وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ نَقِيراً» هذا هو الشق الثانى المتضمن لجزاء عامل العمل الصالح و هو الجنه،غير أن الله سبحانه شرط فيه شرطا يوجب تضييقا فى فعليه الجزاء و عمم فيه من جهه أخرى توجب السعه.

فشرط فى المجازاه بالجنه أن يكون الآتى بالعمل الصالح مؤمنا إذ الجزاء الحسن إنما هو بإزاء العمل الصالح و لا عمل للكافر،قال تعالى: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» :(الأنعام:٨٨)،و قال تعالى:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقٰائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَلاٰ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ وَزْناً» :(الكهف:١٠٥).

قال تعالى: «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ» فأتى بمن التبعيضيه،و هو توسعه فى الوعد بالجنه،و لو قيل:و من يعمل الصالحات-و المقام مقام الدقه فى الجزاء-أفاد أن الجنه لمن آمن و عمل كل عمل صالح،لكن الفضل الإلهى عمم الجزاء الحسن لمن آمن و أتى ببعض الصالحات فهو يتداركه فيما بقى من الصالحات أو اقترف من المعاصى بتوبه أو شفاعه كما قال تعالى: «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ»: (النساء:١١۶) و قد تقدم تفصيل الكلام فى التوبه و فى قوله تعالى :«إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَى اللّٰهِ» :(النساء:١٧)

فى الجزء الرابع،و فى الشفاعه فى قوله تعالى «وَ اتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً» :

(البقره:۴۸)فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

و قال تعالى: «مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ» فعمم الحكم للذكر و الأنثى من غير فرق أصلا خلافا لما كانت تزعمه القدماء من أهل الملل و النحل كالهند و مصر و سائر الوثنيين أن النساء لا عمل لهن و لا ثواب لحسناتهن،و ما كان يظهر من اليهوديه و النصرانيه أن الكرامه و العزه للرجال،و أن النساء أذلاء عند الله نواقص فى الخلقه خاسرات فى الأجر و المثوبه، و العرب لا تعدو فيهن هذه العقائد فسوى الله تعالى بين القبيلين بقوله «مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ» .

و لعل هذا هو السر فى تعقيب قوله «فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ» بقوله «وَ لاٰ يُظْلَمُونَ نَقِيراً» لتدل الجمله الأولى على أن النساء ذوات نصيب فى المثوبه كالرجال،و الجمله الثانيه على أن لا فرق بينهما فيها من حيث الزياده و النقيصه كما قال تعالى: «فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاٰ أُضِيعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» :(آل عمران:۱۹۵).

قوله تعالى:« وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (إلى آخر الآيه) كأنه دفع لدخل مقدر،تقديره:أنه إذا لم يكن لإسلام المسلم أو لإيمان أهل الكتاب تأثير فى جلب الخير إليه و حفظ منافعه و بالجمله إذا كان الإيمان بالله و آياته لا يعدل شيئا و يستوى وجوده و عدمه فما هو كرامه الإسلام و ما هى مزيه الإيمان؟.

فأجيب بأن كرامه الدين أمر لا يشوبه ريب،و لا يداخله شك و لا يخفى حسنه على ذى لب و هو قوله «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً»، حيث قرر بالاستفهام على طريق إرسال المسلم فإن الإنسان لا مناص له عن الدين،و أحسن الدين إسلام الوجه لله الذى له ما فى السماوات و ما فى الأرض،و الخضوع له خضوع العبوديه،و العمل بما يقتضيه مله إبراهيم حنيفا و هو المله الفطريه،و قد اتخذ الله سبحانه إبراهيم الذى هو أول من أسلم وجهه لله محسنا و اتبع المله الحنيفيه خليلا.

لكن لا ـ ينبغى أن يتوهم أن الخله الإلهيه كالخله الدائره بين الناس الحاكمه بينهم على كل حق و باطل التى يفتح لهم باب المجازفه و التحكم فالله سبحانه مالك غير مملوك و محيط غير محاط بخلاف الموالى و الرؤساء و الملوك من الناس فإنهم لا يملكون من عبيدهم و رعاياهم شيئا إلا و يملكونهم من أنفسهم شيئا بإزائه،و يقهرون البعض بالبعض،

و یحکمون علی طائفه بالأعضاد من طائفه أخری و لذلک لا یثبتون فی مقامهم إذا خالفت إرادتهم إراده الکل بل سقطوا عن مقامهم و بان ضعفهم.

و من هنا یظهر الوجه فی تعقیب قوله «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً (إلخ)بقوله« وَ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ کٰانَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطاً» .

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،: أن سبب نزولها(یعنی قوله تعالی« إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ» الآیات)أن قوما من الأنصار من بنی أبیرق-إخوه ثلاثه کانوا منافقین:بشیر،و بشر، و مبشر.فنقبوا علی عم قتاده بن النعمان-و کان قتاده بدریا-و أخرجوا طعاما کان أعده لعیاله و سیفا و درعا.

فشکا قتاده ذلک إلی رسول الله ص فقال:یا رسول الله إن قوما نقبوا علی عمی، و أخذوا طعاما کان أعده لعیاله و سیفا و درعا،و هم أهل بیت سوء،و کان معهم فی الرأی رجل مؤمن یقال له:«لبید بن سهل»فقال بنو أبیرق لقتاده هذا عمل لبید بن سهل،فبلغ ذلک لبیدا فأخذ سیفه و خرج علیهم-فقال:یا بنی أبیرق أ ترموننی بالسرقه؟ و أنتم أولی به منی، و أنتم المنافقون تهجون رسول الله،و تنسبون إلی قریش،لتبینن ذلک أو لأملأن سیفی منکم،فداروه-و قالوا له:ارجع یرحمک الله فإنک بریء من ذلک.

فمشی بنو أبیرق إلی رجل من رهطهم یقال له:«أسید بن عروه»و کان منطقیا بلیغا فمشی إلی رسول الله ص-فقال یا رسول الله-إن قتاده بن النعمان عمد إلی أهل بیت منا-أهل شرف و حسب و نسب فرماهم بالسرق-و اتهمهم بما لیس فیهم فاغتم رسول الله ص لذلک،و جاءه قتاده فأقبل علیه رسول الله ص فقال له:عمدت إلی أهل بیت شرف و حسب و نسب فرمیتهم بالسرقه،و عاتبه عتابا شدیدا فاغتم قتاده من ذلک، و رجع إلی عمه و قال له:یا لیتنی مت و لم أکلم رسول الله فقد کلمنی بما کرهته.فقال عمه:الله المستعان.

فأنزل الله فی ذلک علی نبیه ص« إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ- -إلی أن قال- إِذْ یُبَیِّتُونَ مٰا لاٰ یَرْضیٰ مِنَ الْقَوْلِ »(قال القمی)یعنی الفعل) فوقع القول مقام الفعل

ص:٨٩

«هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا-

إلی أن قال- وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً» (قال القمی)لبید بن سهل «فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِیناً» .

و فی تفسیر القمی:فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): أن إنسانا من رهط بشیر الأدنین-قالوا:انطلقوا بنا إلی رسول الله ص،و قالوا:نکلمه فی صاحبنا-أو نعذره أن صاحبنا بریء فلما أنزل الله- یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّٰهِ- إلی قوله -وَکِیلاً» أقبلت رهط بشر فقالوا:یا بشر استغفر الله و تب إلیه من الذنوب.فقال:و الذی أحلف به ما سرقها إلا لبید فنزلت« وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً-فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِیناً ».

ثم إن بشرا کفر و لحق بمکه،و أنزل الله فی النفر الذین أعذروا بشرا-و أتوا النبی ص لیعذروه قوله« وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَیْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَهٌ مِنْهُمْ أَنْ یُضِلُّوکَ -إلی قوله- وَ کٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَیْکَ عَظِیماً» .

و فی الدر المنثور:أخرج الترمذی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و الحاکم و صححه عن قتاده بن النعمان قال": کان أهل بیت منا یقال لهم«بنو أبیرق»،بشر،و بشیر،و مبشر.و کان بشر رجلا منافقا یقول الشعر-یهجو به أصحاب رسول الله ص ثم ینحله بعض العرب-ثم یقول:قال فلان کذا و کذا،قال فلان کذا و کذا،و إذا سمع أصحاب رسول الله ص ذلک الشعر-قالوا:و الله ما یقول هذا الشعر إلا هذا الخبیث-فقال:

أ و کلما قال الرجال قصیده

أضموا فقالوا ابن الأبیرق قالها

قال:و کانوا أهل بیت حاجه-و فاقه فی الجاهلیه و الإسلام،و کان الناس إنما طعامهم بالمدینه التمر و الشعیر،و کان الرجل إذا کان له یسار-فقدمت ضافطه (۱)من الشام من الدرمک (۲)ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه،أما العیال فإنما طعامهم التمر و الشعیر.

فقدمت ضافطه من الشام فابتاع عمی رفاعه بن زید-حملا من الدرمک فجعله فی

۱- ۱) الضافطه:الإبل الحموله.

۲- ۲) الدرمک:الدقیق الحواری أی الأبیض الناهم.

مشربه له، (۱)و فی المشربه سلاح له:درعان،و سیفاهما، و ما یصلحهما.فعدا عدی من تحت اللیل فنقب المشربه،و أخذ الطعام و السلاح،فلما أصبح أتانی عمی رفاعه فقال:

یا ابن أخی-تعلم أنه قد عدی علینا فی لیلتنا هذه-فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا و سلاحنا؟.

قال:فتجسسنا فی الدار و سألنا،فقیل لنا:قد رأینا بنی أبیرق قد استوقدوا فی هذه اللیله،و لا نری فیما نری إلا علی بعض طعامکم،قال:و قد کان بنو أبیرق قالوا -و نحن نسأل فی الدار:و الله ما نری صاحبکم إلا لبید بن سهل-رجلا منا له صلاح و إسلام-فلما سمع ذلک لبید اخترط سیفه-ثم أتی بنو أبیرق و قال:أنا أسرق؟فوالله لیخالطنکم هذا السیف-أو لتبینن هذه السرقه.قالوا:إلیک عنا أیها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها،فسألنا فی الدار حتی لم نشک أنهم أصحابها،فقال لی عمی:یا ابن أخی-لو أتیت رسول الله ص فذکرت ذلک له!.

قال قتاده:فأتیت رسول الله ص-فقلت:یا رسول الله إن أهل بیت منا أهل جفاء-عمدوا إلی عمی رفاعه بن زید فنقبوا مشربه له،و أخذوا سلاحه و طعامه فلیردوا علینا سلاحنا-فأما الطعام فلا حاجه لنا فیه،فقال رسول الله ص:سأنظر فی ذلک.

فلما سمع ذلک بنو أبیرق أتوا رجلا منهم-یقال له«أسیر بن عروه»فکلموه فی ذلک و اجتمع إلیه ناس من أهل الدار-فأتوا رسول الله ص فقالوا:یا رسول الله-إن قتاده بن النعمان و عمه عمدا إلی أهل بیت منا-أهل إسلام و صلاح یرمیانهم بالسرقه من غیر بینه و لا ثبت.

قال قتاده:فأتیت رسول الله ص فکلمته،فقال:عمدت إلی أهل بیت ذکر منهم إسلام و صلاح- ترمیهم بالسرقه من غیر بینه و لا ثبت؟.

قال قتاده:فرجعت و لوددت أنی خرجت من بعض مالی،و لم أکلم رسول الله ص فی ذلک،فأتانی عمی رفاعه فقال،یا ابن أخی ما صنعت؟فأخبرته بما قال لی رسول الله ص فقال:الله المستعان.

فلم نلبث أن نزل القرآن «إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ-لِتَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ بِمٰا أَرٰاکَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَکُنْ لِلْخٰائِنِینَ خَصِیماً» -بنی أبیرق- وَ اسْتَغْفِرِ اللّٰهَ- أی مما قلت لقتاده-

---

۱- ۱) المشربه:الغرفه التی یشرب فیها.

إِنَّ اللّهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً- وَ لاٰ تُجٰادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتٰانُونَ أَنْفُسَهُمْ

-إلى قوله ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَحِيماً -أى إنهم لو استغفروا الله لغفر لهم- وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً- إلى قوله- فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً- -قولهم للبيد- وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ- -يعنى أسير بن عروه و أصحابه إلى قوله- فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» -فلما نزل القرآن أتى رسول الله ص بالسلاح-فرده إلى رفاعه-.

قال قتاده:فلما أتيت عمى بالسلاح،و كان شيخا قد عسا فى الجاهليه-و كنت أرى إسلامه مدخولا-فلما أتيته بالسلاح قال:يا ابن أخى هو سبيل الله-فعرفت أن إسلامه كان صحيحا.

فلما نزل القرآن لحق بشر بالمشركين-فنزل على سلافه بنت سعد فأنزل الله: «وَ مَنْ يُشٰاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ-وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّى -إلى قوله- ضَلاٰلاً بَعِيداً» -فلما نزل على سلافه رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر- فأخذت رحله فوضعته على رأسها-ثم خرجت فرمت به فى الأبطح-ثم قالت:أهديت لى شعر حسان؟ ما كنت تأتينى بخير.

أقول:و هذا المعنى مروى بطرق أخر.

و فيه:أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآيه قال": كان رجل سرق درعا من حديد فى زمان النبى ص-طرحه على يهودى:فقال اليهودى-و الله ما سرقتها يا أبا القاسم،و لكن طرحت على-و كان الرجل الذى سرق جيران يبرءونه-و يطرحونه على اليهودى-و يقولون:

يا رسول الله إن هذا اليهودى خبيث-يكفر بالله و بما جئت به-حتى مال عليه النبى ص ببعض القول-.

فعاتبه الله فى ذلك فقال: «إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ-لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ بِمٰا أَرٰاكَ اللّهُ وَ لاٰ تَكُنْ لِلْخٰائِنِينَ خَصِيماً- وَ اسْتَغْفِرِ اللّهَ- مما قلت لهذا اليهودى- إِنَّ اللّهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً» -ثم أقبل على جيرانه فقال:« هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ -إلى قوله- وَكِيلاً» ثم عرض التوبه فقال:« وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ-يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَحِيماً- وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ» -فما أدخلكم أنتم أيها الناس على خطيئه هذا-تكلمون دونه «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً-ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً- و إن كان

مشركا- فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً- إلى قوله- وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ» - قال:أبى أن يقبل التوبه التى عرض الله له،و خرج إلى المشركين بمكه فنقب بيتا يسرقه- فهدمه الله عليه فقتله.

أقول:و هذا المعنى أيضا مروى بطرق كثيره مع اختلاف يسير فيها.

و فى تفسير العياشى،عن رسول الله ص: ما من عبد أذنب ذنبا فقام و توضأ- و استغفر الله من ذنبه-إلا كان حقيقا على الله أن يغفر له لأنه يقول:« مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّٰهَ-يَجِدِ اللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً ».

و قال:إن الله ليبتلى العبد و هو يحبه ليسمع تضرعه،و قال ما كان الله ليفتح باب الدعاء-و يغلق باب الإجابه لأنه يقول:« اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و ما كان ليفتح باب التوبه-و يغلق باب المغفره و هو يقول:« مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ-ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّٰهَ يَجِدِ اللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً».

و فيه،عن عبد الله بن حماد الأنصارى عن عبد الله بن سنان قال:قال أبو عبد الله (ع): الغيبه أن تقول فى أخيك ما هو فيه-مما قد ستره الله عليه،فأما إذا قلت ما ليس فيه فذلك قول الله« فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً»

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى« لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ» (الآيه):قال:

حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن حماد عن الحلبى عن أبى عبد الله(ع)قال:إن الله فرض التمحل فى القرآن-قلت:و ما التمحل جعلت فداك؟قال:أن يكون وجهك أعرض من وجه أخيك فتمحل له،و هو قول الله «لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ»

و فى الكافى،بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبى الجارود قال:قال أبو جعفر (ع): إذا حدثتكم بشىء فاسألونى عنه من كتاب الله.ثم قال فى بعض حديثه:

إن رسول الله ص نهى عن القيل و القال،و فساد المال و كثره السؤال.فقيل له:يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟قال:إن الله عز و جل يقول:« لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ-أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ» -و قال:« وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ قِيٰاماً» -و قال: «لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».

و فى تفسير العياشى،عن إبراهيم بن عبد الحميد عن بعض المعتمدين عن أبى عبد الله (ع): فى قوله «لاّ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ-أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ» -يعنى بالمعروف القرض.

أقول:و رواه القمى أيضا فى تفسيره بهذا الإسناد،و هذا المعنى مروى من طرق أهل السنه أيضا،و على أى حال فهو من قبيل الجرى و ذكر بعض المصاديق.

و فى الدر المنثور:أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و البيهقى عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت:يا رسول الله مرنى بأمر أعتصم به فى الإسلام-قال:قل:

آمنت بالله ثم استقم،قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على؟قال:هذا،و أخذ رسول الله ص بطرف لسان نفسه.

أقول:و الأخبار فى ذم كثره الكلام و مدح الصمت و السكوت و ما يتعلق بذلك كثيره جدا مرويه فى جوامع الشيعه و أهل السنه.

و فيه:أخرج أبو نصر السجزى فى«الإبانه»عن أنس قال: جاء أعرابى إلى النبى ص فقال له النبى ص:إن الله أنزل على فى القرآن يا أعرابى« لاٰ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ -إلى قوله- فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» -يا أعرابى الأجر العظيم الجنه.قال الأعرابى:الحمد لله الذى هدانا للإسلام

و فيه: فى قوله تعالى «وَ مَنْ يُشٰاقِقِ الرَّسُولَ» (الآيه):أخرج الترمذى و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عمر قال:قال رسول الله ص:لا يجمع الله هذه الأمه على الضلاله أبدا-و يد الله على الجماعه فمن شذ شذ فى النار

و فيه:أخرج الترمذى و البيهقى عن ابن عباس أن النبى ص قال: لا يجمع الله أمتى-أو قال-هذه:الأمه-على الضلاله أبدا-و يد الله على الجماعه.

أقول:الروايه من المشهورات و قد رواها الهادى(ع)عن النبى ص فى رسالته إلى أهل الأهواز على ما فى ثالث البحار،و قد تقدم الكلام فى معنى الروايه فى البيان السابق.

و فى تفسير العياشى،عن حريز عن بعض أصحابنا عن أحدهما(ع)قال: لما

كـان أمير المؤمنين(ع)فى الكوفه أتـاه النـاس فقـالوا:اجعـل لنـا إماما يؤمنا فى شـهر رمضان.فقال:لا، و نهاهم أن يجتمعوا فيه.فلما أمسوا جعلوا يقولون:ابكوا فى رمضـان،وا رمضانـاه،فأتـاه الحـارث الأ-عور فى أنـاس فقـال:يـا أمير المؤمنين ضـج الناس و كرهوا قولك،فقال عند ذلك:دعوهم و ما يريدون ليصلى بهم من شاء و ائتم-قال:

فمن «يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلّی-وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِيراً».

و فى الـدر المنثـور، فى قـوله تعـالى «وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ قِيلاً» (الآ-يه):أخرج الـبيهقى فى الـدلائل عـن عقبـه بن عـامر-فى حديث:خروج رسول الله ص إلى غزوه تبوك، و فيه-فأصبح بتبوك فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهله ثم قال.

أما بعـد فإن أصـدق الحـديث كتاب الله،و أوثق العرى كلمه التقوى،و خير الملل مله إبراهيم،و خير السـنن سنه محمد،و أشـرف الحـديث ذكر الله،و أحسن القصـص هـذا القرآن،و خير الأمور عوازمها،و شـر الأمور محـدثاتها،و أحسن الهدى هدى الأنبياء، و أشـرف الموت قتـل الشـهداء،و أعمى العمى الضـلاله بعـد الهـدى،و خير العلم مـا نفع، و خير الهـدى مـا اتبع،و شـر العمى عمى القلب،و اليد العليا خير من اليد السـفلى،و ما قل و كفى خير مما كثر و ألهى،و شـر المعذره حين يحضر الموت،و شر الندامه يوم القيـامه، و من الناس من لا يأتى الصـلاه إلا دبرا-و منهم من لا يـذكر الله إلا هجرا،و أعظم الخطايا اللسان الكـذوب،و خير الغنى غنى النفس،و خير الزاد التقـوى،و رأس الحكمـه مخـافه الله عز و جـل،و خير مـا وقر فى القلـوب اليقيـن،و الارتيـاب من الكفر،و النيـاحه من عمـل الجـاهليه،و الغلول من جثا جهنم،و الكنز كى من النار،و الشـعر من مزامير إبليس، و الخمر جماع الإثم،و النساء حباله الشـيطان،و الشـباب شعبه من الجنون،و شر المكاسب كسب الربا،و شر المأكل مال اليتيم،و السعيد من وعظ بغيره،و الشقى من شـقى فى بطن أمه،و إنمـا يصـير أحـدكم إلى موضع أربع أذرع،و الأ-مر بـآخره،و ملا-ك العمـل خواتمه،و شـر الروايـا روايا الكـذب،و كـل مـا هو آت قريب،و سـباب المؤمن فسوق، و قتـال المؤمن كفر،و أكل لحمه من معصـيه الله،و حرمه ماله كحرمه دمه،و من يتـأل على الله يكـذبه،و من يغفر يغفر له،و من يعف يعف الله عنه،و من يكظم الغيـظ يأجره الله،و من يصبر على الرزيه يعوضه الله،و من يبتغ السمعه يسمع الله به،و من يصبر يضعف الله له و من يعص الله يعذبه الله،اللهم اغفر لى و لأمتى-قالها ثلاثا-

أستغفر الله لی و لكم.

و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن یونس عن بعض أصحابه عن أبی عبد الله(ع) و عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قول الله «وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّٰهِ» -قال:

أمر الله بما أمر به.

و فیه،عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قول الله: «وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّٰهِ »قال:دین الله.

أقول:و مآل الروایتین واحد،و هو ما تقدم فی البیان السابق أنه دین الفطره.

و فی المجمع،: فی قوله «فَلَيُبَتِّكُنَّ آذٰانَ الْأَنْعٰامِ »قال:لیقطعوا الأذان من أصلها.

قال:و هو المروی عن أبی عبد الله(ع)

و فی تفسیر العیاشی،: فی قوله تعالی «لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ» (الآیه):عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع)قال:لما نزلت هذه الآیه «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ »قال بعض أصحاب رسول الله ص:ما أشدها من آیه،فقال لهم رسول الله ص-أ ما تبتلون فی أموالكم و أنفسكم و ذراریكم؟قالوا:بلی،قال:مما یكتب الله لكم به الحسنات و یمحو به السیئات.

أقول:و هذا المعنی مروی بطرق كثیره فی جوامع أهل السنه عن الصحابه.

و فی الدر المنثور:أخرج أحمد و البخاری و مسلم و الترمذی عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول الله ص: ما یصیب المؤمن من نصب و لا وصب و لا هم- و لا حزن و لا أذی و لا غم-حتی الشوكه یشاكها إلا كفر الله من خطایاه.

أقول:و هذا المعنی مستفیض عن النبی و أئمه أهل البیت(ع).

و فی العیون،بإسناده عن الحسین بن خالد عن أبی الحسن الرضا(ع)قال:سمعت أبی یحدث عن أبیه(ع)أنه قال: إنما اتخذ الله إبراهیم خلیلا لأنه لم یرد أحدا،و لم یسأل أحدا قط غیر الله عز و جل.

أقول:و هذا أصح الروایات فی تسمیته(ع)بالخیل لموافقته لمعنی اللفظ،و هو الحاجه فخلیلك من رفع إلیك حوائجه،و هناك وجوه أخر مرویه

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۲۷ الی ۱۳۴]

اشاره

وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی اَلنِّسٰاءِ قُلِ اَللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی اَلْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی اَلنِّسٰاءِ اَللاّٰتِی لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ وَ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلْوِلْدٰانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْیَتٰامیٰ بِالْقِسْطِ وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِهِ عَلِیماً (۱۲۷) وَ إِنِ اِمْرَأَةٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْهِمٰا أَنْ یُصْلِحٰا بَیْنَهُمٰا صُلْحاً وَ اَلصُّلْحُ خَیْرٌ وَ أُحْضِرَتِ اَلْأَنْفُسُ اَلشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۱۲۸) وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ اَلنِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلاٰ تَمِیلُوا کُلَّ اَلْمَیْلِ فَتَذَرُوهٰا کَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۲۹) وَ إِنْ یَتَفَرَّقٰا یُغْنِ اَللّٰهُ کُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ وٰاسِعاً حَکِیماً (۱۳۰) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیّٰاکُمْ أَنِ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَنِیًّا حَمِیداً (۱۳۱) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً (۱۳۲) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا اَلنّٰاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلیٰ ذٰلِکَ قَدِیراً (۱۳۳) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ ثَوٰابَ اَلدُّنْیٰا فَعِنْدَ اَللّٰهِ ثَوٰابُ اَلدُّنْیٰا وَ اَلْآخِرَةِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۱۳۴)

ص: ۹۷

(بیان)

الکلام معطوف إلی ما فی أول السوره من الآیات النازله فی أمر النساء من آیات الازدواج و التحریم و الإرث و غیر ذلک،الذی یفیده السیاق أن هذه الآیات إنما نزلت بعد تلک الآیات،و أن الناس کلموا رسول الله ص فی أمر النساء حیثما نزلت آیات أول السوره فأحیت ما أماته الناس من حقوق النساء فی الأموال و المعاشرات و غیر ذلک.

فأمره الله سبحانه أن یجیبهم أن الذی قرره لهن علی الرجال من الأحکام إنما هو فتیا إلهیه لیس له فی ذلک من الأمر شیء،و لا ذاک وحده بل ما یتلی علیهم فی الکتاب فی یتامی النساء أیضا حکم إلهی لیس لرسول الله ص فیه شیء من الأمر،و لا ذاک وحده بل الله یأمرهم أن یقوموا فی الیتامی بالقسط.

ثم ذکر شیئا من أحکام الاختلاف بین المرأه و بعلها یعم به البلوی.

قوله تعالی .«وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّسَاءِ قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ» قال الراغب: الفتیا و الفتوی الجواب عما یشکل من الأحکام،و یقال:استفتیته فأفتانی بکذا(انتهی).

و المحصل من موارد استعماله أنه جواب الإنسان عن الأمور المشکله بما یراه باجتهاد من نظره أو هو نفس ما یراه فیما یشکل بحسب النظر البدائی الساذج کما یفیده نسبه الفتوی إلیه تعالی.

و الآیه و إن احتملت معانی شتی مختلفه بالنظر إلی ما ذکروه من مختلف الوجوه فی ترکیب ما یتلوها من قوله «وَ مَا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتَابِ فِی یَتَامَی النِّسَاءِ» (إلخ)إلا أن ضم الآیه إلی الآیات الناظره فی أمر النساء فی أول السوره یشهد بأن هذه الآیه إنما نزلت بعد تلک.

و لازم ذلک أن یکون استفتاؤهم فی النساء فی عامه ما أحدثه الإسلام و أبدعه من أحکامهن مما لم یکن معهودا معروفا عندهم فی الجاهلیه و لیس إلا ما یتعلق بحقوق النساء فی الإرث و الازدواج دون أحکام یتاماهن و غیر ذلک مما یختص بطائفه منهن دون جمیعهن فإن هذا المعنی إنما یتکفله قوله «وَ مَا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتَابِ فِی یَتَامَی النِّسَاءِ» إلخ فالاستفتاء إنما کان فی ما یعم النساء بما هن نساء من أحکام الإرث.

و علی هذا فالمراد بما أفتاه الله فیهن فی قوله «قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ» ما بینه تعالی

فی آیات أول السوره،و یفید الکلام حینئذ إرجاع أمر الفتوی إلی الله سبحانه و صرفه عن النبی ص و المعنی:یسألونک أن تفتیهم فی أمرهن قل:الفتوی إلی الله و قد أفتاکم فیهن بما أفتی فیما أنزل من آیات أول السوره.

قوله تعالی: «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ- إلی قوله- وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الْوِلْدٰانِ» تقدم أن ظاهر السیاق أن حکم یتامی النساء و المستضعفین من الولدان أنما تعرض له لاتصاله بحکم النساء کما وقع فی آیات صدر السوره لا لکونه داخلا فیما استفتوا عنه و إنهم إنما استفتوا فی النساء فحسب.

و لازمه أن یکون قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ»، معطوفا علی الضمیر المجرور فی قوله «فِیهِنَّ» علی ما جوزه الفراء و إن منع عنه جمهور النحاه،و علی هذا یکون المراد من قوله «مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ» (إلخ)الأحکام و المعانی التی تتضمنها الآیات النازله فی یتامی النساء و الولدان،المودعه فی أول السوره.و التلاوه کما یطلق علی اللفظ یطلق علی المعنی إذا کان تحت اللفظ،و المعنی:قل الله یفتیکم فی الأحکام التی تتلی علیکم فی الکتاب فی یتامی النساء.

و ربما یظهر من بعضهم أنه یعطف قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ»، علی موضع قوله «فِیهِنَّ» بعنایه أن المراد بالإفتاء هو التبیین،و المعنی:قل الله یبین لکم ما یتلی علیکم فی الکتاب.

و ربما ذکروا للکلام تراکیب أخر لا تخلو عن تعسف لا یرتکب فی کلامه تعالی مثله کقول بعضهم:إن قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» معطوف علی موضع اسم الجلاله فی قوله «قُلِ اللّٰهُ»، أو علی ضمیر المستکن فی قوله «یُفْتِیکُمْ»، و قول بعضهم:إنه معطوف علی «النِّسٰاءِ» فی قوله «فِی النِّسٰاءِ»، و قول بعضهم:إن الواو فی قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ» للاستیناف،و الجمله مستأنفه،و مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» مبتدأ خبره قوله «فِی الْکِتٰابِ» و الکلام مسوق للتعظیم،و قول بعضهم إن الواو فی قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» للقسم و یکون قوله فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ» بدلا من قوله «فِیهِنَّ» و المعنی:قل الله یفتیکم-أقسم بما یتلی علیکم فی الکتاب-فی یتامی النساء(إلخ)و لا یخفی ما فی جمیع هذه الوجوه من التعسف الظاهر.

و أما قوله «اللاّٰتِی لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ» فوصف لیتامی

النساء،و فيه إشاره إلى نوع حرمانهن،الذى هو السبب لتشريع ما شرع الله تعالى لهن من الأحكام فألغى السنه الجائره الجاريه عليهن،و رفع الحرج بذلك عنهن،و ذلك أنهم كانوا يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فإن كانت ذات جمال و حسن تزوجوا بها فاستمتعوا من جمالها و مالها،و إن كانت شوهاء دميمه لم يتزوجوا بها و عضلوها عن التزوج بالغير طمعا فى مالها.

و من هنا يظهر(أولا).أن المراد بقوله «مٰا كُتِبَ لَهُنَّ» هو الكتابه التكوينيه و هو التقدير الإلهى فإن الصنع و الإيجاد هو الذى يخد للإنسان سبيل الحياه فيعين له أن يتزوج إذا بلغ مبلغه،و أن يتصرف حرا فى ماله من المال و القنيه،فمنعه من الازدواج و التصرف فى مال نفسه منع له مما كتب الله له فى خلقه هذه الخلقه.

و(ثانيا):أن الجار المحذوف فى قوله «أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» هو لفظه«عن» و المراد الراغبه عن نكاحهن،و الإعراض عنهن لا الرغبه فى نكاحهن فإن التعرض لذكر الرغبه عنهن هو الأنسب للإشاره إلى حرمانهن على ما يدل عليه قوله قبله «لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ»، و قوله بعده «وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدٰانِ» .

و أما قوله «وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدٰانِ» فمعطوف على قوله «يَتٰامَى النِّسٰاءِ» و قد كانوا يستضعفون الولدان من اليتامى،و يحرمونهم من الإرث معتذرين بأنهم لا يركبون الخيل،و لا يدفعون عن الحريم.

قوله تعالى:« وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتٰامىٰ بِالْقِسْطِ» معطوف على محل قوله «فِيهِنَّ» و المعنى:قل الله يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط،و هذا بمنزله الإضراب عن الحكم الخاص إلى ما هو أعم منه أعنى الانتقال من حكم بعض يتامى النساء و الولدان إلى حكم مطلق اليتيم فى ماله و غير ماله.

قوله تعالى:« وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِهِ عَلِيماً» تذكره لهم بأن ما عزم الله عليهم فى النساء و فى اليتامى من الأحكام فيه خيرهم،و أن الله عليم به لتكون ترغيبا لهم فى العمل به لأن خيرهم فيه،و تحذيرا عن مخالفته لأن الله عليم بما يعملون.

قوله تعالى: «وَ إِنِ امْرَأَةٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً»، حكم خارج عما استفتوا فيه لكنه متصل به بالمناسبه نظير الحكم المذكور فى الآيه التاليه «وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا

أَنْ تَعْدِلُوا»

.

و إنما اعتبر خوف النشوز و الإعراض دون نفس تحققهما لأن الصلح يتحقق موضوعه من حين تحقق العلائم و الآثار المعقبه للخوف،و السياق يدل على أن المراد بالصلح هو الصلح بغض المرأه عن بعض حقوقها فى الزوجيه أو جميعها لجلب الأنس و الألفه و الموافقه، و التحفظ عن وقوع المفارقه،و الصلح خير.

و قوله ،وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» الشح هو البخل،معناه:أن الشح من الغرائز النفسانيه التى جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها،و تصونها عن الضيعه،فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها،فالمرأه تبخل بما لها من الحقوق فى الزوجيه كالكسوه و النفقه و الفراش و الوقاع،و الرجل يبخل بالموافقه و الميل إذا أحب المفارقه،و كره المعاشره، و لا جناح عليهما حينئذ أن يصلحا ما بينهما بإغماض أحدهما أو كليهما عن بعض حقوقه.

ثم قال تعالى:« وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» و هو موعظه للرجال أن لا يتعدوا طريق الإحسان و التقوى و ليتذكروا أن الله خبير بما يعملونه،و لا يحيفوا فى المعاشره،و لا يكرهوهن على إلغاء حقوقهن الحقه و إن كان لهن ذلك.

قوله تعالى :«وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» بيان الحكم العدل بين النساء الذى شرع لهن على الرجال فى قوله تعالى فى أول السوره «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً» :(النساء:٣) و كذا يومئ إليه قوله فى الآيه السابقه «وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا» (إلخ)فإنه لا يخلو من شوب تهديد،و هو يوجب الحيره فى تشخيص حقيقه العدل بينهن،و العدل هو الوسط بين الإفراط و التفريط،و من الصعب المستصعب تشخيصه،و خاصه من حيث تعلق القلوب تعلق الحب بهن فإن الحب القلبى مما لا يتطرق إليه الاختيار دائما.

فبين تعالى أن العدل بين النساء بحقيقه معناه،و هو اتخاذ حاق الوسط حقيقه مما لا يستطاع للإنسان و لو حرص عليه،و إنما الذى يجب على الرجل أن لا يميل كل الميل إلى أحد الطرفين و خاصه طرف التفريط فيذر المرأه كالمعلقه لا هى ذات زوج فتستفيد من زوجها،و لا هى أرمله فتتزوج أو تذهب لشأنها.

فالواجب على الرجل من العدل بين النساء أن يسوى بينهن عملا بإيتائهن حقوقهن

من غیر تطرف،و المندوب علیه أن یحسن إلیهن و لا یظهر الکراهه لمعاشرتهن و لا یسیء إلیهن خلقا،و کذا کانت سیره رسول الله ص.

و هذا الذیل أعنی قوله« فَلاٰ تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوهٰا کَالْمُعَلَّقَهِ» هو الدلیل علی أن لیس المراد بقوله« وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» نفی مطلق العدل حتی ینتج بانضمامه إلی قوله تعالی «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَهً» (الآیه)إلغاء تعدد الأزواج فی الإسلام کما قیل.

و ذلک أن الذیل یدل علی أن المنفی هو العدل الحقیقی الواقعی من غیر تطرف أصلا بلزوم حاق الوسط حقیقه،و أن المشرع هو العدل التقریبی عملا من غیر تحرج.

علی أن السنه النبویه و رواج الأمر بمرأی و مسمع من النبی ص و السیره المتصله بین المسلمین یدفع هذا التوهم.

علی أن صرف قوله تعالی فی أول آیه تعدد الأزواج «فَانْکِحُوا مٰا طٰابَ لَکُمْ مِنَ النِّسٰاءِ مَثْنیٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ» :(النساء:۳)إلی مجرد الفرض العقلی الخالی عن المصداق لیس إلا تعمیه یجل عنها کلامه سبحانه.

ثم قوله «وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّٰهَ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً» تأکید و ترغیب للرجال فی الإصلاح عند بروز أمارات الکراهه و الخلاف ببیان أنه من التقوی،و التقوی یستتبع المغفره و الرحمه،و هذا بعد قوله «وَ الصُّلْحُ خَیْرٌ»، و قوله« وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا»، تأکید علی تأکید.

قوله تعالی:« وَ إِنْ یَتَفَرَّقٰا یُغْنِ اللّٰهُ کُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ»، أی و إن تفرق الرجل و المرأه بطلاق یغن الله کلا منهما بسعته،و الإغناء بقرینه المقام إغناء فی جمیع ما یتعلق بالازدواج من الایتلاف و الاستیناس و المس و کسوه الزوجه و نفقتها فإن الله لم یخلق أحد هذین الزوجین للآخر حتی لو تفرقا لم یوجد للواحد منهما زوج مدی حیاته بل هذه السنه سنه فطریه فاشیه بین أفراد هذا النوع یمیل إلیها کل فرد بحسب فطرته.

و قوله «وَ کٰانَ اللّٰهُ وٰاسِعاً حَکِیماً وَ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» تعلیل للحکم المذکور فی قوله «یُغْنِ اللّٰهُ کُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ» .

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ»، تأکید فی دعوتهم إلی مراعاه صفه التقوی فی جمیع مراحل المعاشره الزوجیه،و فی کل حال،و أن فی ترکه کفرا بنعمه الله بناء علی أن التقوی الذی یحصل بطاعه الله لیس إلا شکرا لأنعمه،أو أن ترک تقوی الله تعالی لا منشأ له إلا الکفر إما کفر ظاهر کما فی الکفار و المشرکین،أو کفر مستکن مستبطن کما فی الفساق من المؤمنین.

و بهذا الذی بیناه یظهر معنی قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»، أی إن لم تحفظوا ما وصینا به إیاکم و الذین من قبلکم و أضعتم هذه الوصیه و لم تتقوا و هو کفر بالله،أو عن کفر بالله فإن ذلک لا یضر الله سبحانه إذ لا حاجه له إلیکم و إلی تقواکم،و له ما فی السماوات و الأرض،و کان الله غنیا حمیدا.

فإن قلت:ما وجه تکرار قوله «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»؟ فقد أورد ثلاث مرات.

قلت:أما الأول فإنه تعلیل لقوله «وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً»، و أما الثانی فإنه واقع موقع جواب الشرط فی قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا»، و التقدیر:و إن تکفروا فإنه غنی عنکم،و تعلیل للجواب و قد ظهر فی قوله «وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً» .

و أما الثالث فإنه استیناف و تعلیل بوجه لقوله «إِنْ يَشَأْ» .

قوله تعالی:« وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً» قد مر بیان معنی ملکه تعالی مکررا،و هو تعالی وکیل یقوم بأمور عباده و شئونهم و کفی به وکیلا لا یحتاج فیه إلی اعتضاد و إسعاد،فلو لم یرتض أعمال قوم و أسخطه جریان الأمر بأیدیهم أمکنه أن یذهب بهم و یأتی بآخرین،أو یؤخرهم و یقدم آخرین،و بهذا المعنی الذی یؤیده بل یدل علیه السیاق یرتبط بما فی هذه الآیه قوله فی الآیه التالیه «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ .

قوله تعالی :«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ ،السیاق و هو الدعوه إلی ملازمه التقوی الذی أوصی الله به هذه الأمه و من قبلهم من أهل الکتاب یدل علی أن إظهار الاستغناء و عدم الحاجه المدلول علیه بقوله «إِنْ يَشَأْ»، إنما هو فی أمر التقوی.

و المعنی أن الله وصاکم جمیعا بملازمه التقوی فاتقوه،و إن کفرتم فإنه غنی عنکم

و هو المالک لکل شیء المتصرف فیه کیفما شاء و لما شاء إن یشأ أن یعبد و یتقی و لم تقوموا بذلک حق القیام فهو قادر أن یؤخرکم و یقدم آخرین یقومون لما یحبه و یرتضیه،و کان الله علی ذلک قدیرا.

و علی هذا فالآیه ناظره إلی تبدیل الناس إن کانوا غیر متقین بآخرین من الناس یتقون الله،و قد روی (۱)أن الآیه لما نزلت ضرب رسول الله ص یده علی ظهر سلمان و قال:

إنهم قوم هذا.و هو یؤید هذا المعنی،و علیک بالتدبر فیه.

و أما ما احتمله بعض المفسرین.أن المعنی:إن یشأ یفنکم و یوجد قوما آخرین مکانکم أو خلقا آخرین مکان الإنس،فمعنی بعید عن السیاق.نعم،لا بأس به فی مثل قوله تعالی:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ بِعَزِیزٍ» :(إبراهیم:۲۰).

قوله تعالی:« مَنْ کٰانَ یُرِیدُ ثَوٰابَ الدُّنْیٰا فَعِنْدَ اللّٰهِ ثَوٰابُ الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ سَمِیعاً بَصِیراً» بیان آخر یوضح خطأ من یترک تقوی الله و یضیع وصیته بأنه إن فعل ذلک ابتغاء ثواب الدنیا و مغنمها فقد اشتبه علیه الأمر فإن ثواب الدنیا و الآخره معا عند الله و بیده،فما له یقصر نظره بأخس الأمرین و لا یطلب أشرفهما أو إیاهما جمیعا؟کذا قیل.

و الأظهر أن یکون المراد-و الله أعلم-أن ثواب الدنیا و الآخره و سعادتهما معا إنما هو عند الله سبحانه فلیتقرب إلیه حتی من أراد ثواب الدنیا و سعادتها فإن السعاده لا توجد للإنسان فی غیر تقوی الله الحاصل بدینه الذی شرعه له فلیس الدین إلا طریق السعاده الحقیقیه،فکیف ینال نائل ثوابا من غیر إیتائه تعالی و إفاضته من عنده و کان الله سمیعا بصیرا.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن سعید بن جبیر قال": کان لا یرث إلا الرجل الذی قد بلغ-أن یقوم فی المال و یعمل فیه،لا یرث الصغیر و لا المرأه شیئا-فلما

۱- ۱) أوردها البیضاوی فی تفسیره.

نزلت المواريث فى سوره النساء-شق ذلک على الناس و قالوا:أ يرث الصغير الذى لا يقوم فى المال،و المرأه التى هى كذلک فيرثان كما يرث الرجل؟فرجوا أن يأتى فى ذلک حدث من السماء فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد،ثم قالوا:سلوا فسألوا النبى ص فأنزل الله« وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسٰاءِ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ-وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتٰابِ- فى أول السوره- فِى يَتٰامَى النِّسٰاءِ اللاّٰتِى لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ-وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» (الحديث).

و فيه:أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن إبراهيم فى الآيه قال": كانوا إذا كانت الجاريه يتيمه دميمه-لم يعطوها ميراثها،و حبسوها من التزويج حتى تموت-فيرثوها فأنزل الله هذا.

أقول:و هذه المعانى مرويه بطرق كثيره من طرق الشيعه و أهل السنه،و قد مر بعضها فى أوائل السوره.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى« لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ» (الآيه).ما كتب لهن من الميراث: قال:و هو المروى عن أبى جعفر(ع):

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى« وَ إِنِ امْرَأَةٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً» »الآيه):

نزلت فى بنت محمد بن مسلمه-كانت امرأه رافع بن خديج،و كانت امرأه قد دخلت فى السن،و تزوج عليها امرأه شابه-و كانت أعجب إليه من بنت محمد بن مسلمه-فقالت له بنت محمد بن مسلمه:أ لا أراک معرضا عنى مؤثرا على؟فقال رافع:هى امرأه شابه، و هى أعجب إلى-فإن شئت أقررت على أن لها يومين أو ثلاثا منى-و لک يوم واحد-فأبت بنت محمد بن مسلمه أن ترضى-فطلقها تطليقه ثم طلقها أخرى-فقالت:لا و الله لا أرضى أو تسوى بينى و بينها-يقول الله: «وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» -و ابنه محمد لم تطلب نفسها بنصيبها،و شحت عليه،فأعرض عليها رافع إما أن ترضى،و إما أن يطلقها الثالثه فشحت على زوجها و رضيت-فصالحته على ما ذكرت فقال الله: فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا أَنْ يُصْلِحٰا بَيْنَهُمٰا صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ» -فلما رضيت و استقرت لم يستطع أن يعدل بينهما-فنزلت.

«وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ-فَلاٰ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَهِ»

- أن يأتى واحده،و يذر الأخرى-لا أيم و لا ذات بعل-و هذه السنه فيما كان كذلک-إذا

أقرت المرأه و رضيت على ما صالحها عليه زوجها،فلا جناح على الزوج و لا على المرأه، و إن أبت هى طلقها أو تساوى بينهما لا يسعه إلا ذلك:

أقول:و رواها فى الدر المنثور،عن مالك و عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم-و صححه-باختصار.

و فى الدر المنثور:أخرج الطيالسى و ابن أبى شيبه و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن على بن أبى طالب: أنه سئل عن هذه الآيه فقال:هو الرجل عنده امرأتان فتكون إحداهما قد عجزت-أو تكون دميمه فيريد فراقها-فتصالحه على أن يكون عندها ليله-و عند الأخرى ليالى و لا يفارقها،فما طابت به نفسها فلا بأس به فإن رجعت سوى بينهما.

و فى الكافى،بإسناده عن الحلبى عن أبى عبد الله(ع)قال: سألته عن قول الله عز و جل« وَ إِنِ امْرَأَةٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً» فقال:هى المرأه تكون عند الرجل فيكرهها فيقول لها:إنى أريد أن أطلقك.فتقول له:لا تفعل إنى أكره أن تشمت بى-و لكن انظر فى ليلتى فاصنع بها ما شئت،و ما كان سوى ذلك من شيء فهو لك،و دعنى على حالتى فهو قوله تبارك و تعالى« فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا أَنْ يُصْلِحٰا بَيْنَهُمٰا صُلْحاً و هذا هو الصلح.

أقول:و فى هذا المعنى روايات أخر رواها فى الكافى،و فى تفسير العياشى.

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى «وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» قال:قال:أحضرت الشح فمنها ما اختارته،و منها ما لم تختره.

و فى تفسير العياشى،عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» قال:فى الموده.

و فى الكافى،بإسناده عن نوح بن شعيب و محمد بن الحسن قال: سأل ابن أبى العوجاء هشام بن الحكم،قال له.أ ليس الله حكيما؟قال:بلى هو أحكم الحاكمين.قال:فأخبرنى عن قوله« فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ-فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً» أ ليس هذا فرض؟قال:بلى،قال:فأخبرنى عن قوله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ-فَلاٰ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَةِ» -أى حكيم يتكلم

بهذا؟فلم يكن عنده جواب.

فرحل إلى المدينه إلى أبى عبد الله(ع)،فقال:فى غير وقت حج و لا عمره، قال:نعم جعلت فداك لأمر أهمنى-إن ابن أبى العوجاء سألنى عن مسأله لم يكن عندى فيها شىء،قال:و ما هى؟قال:فأخبره بالقصه-.

فقال له أبو عبد الله(ع)أما قوله عز و جل- «فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ-فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً» »يعنى فى النفقه،و أما قوله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ-فَلاٰ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَةِ» يعنى فى الموده.

قال.فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب و أخبره-قال:و الله ما هذا من عندك أقول:و

روى أيضا نظير الحديث عن القمى،: أنه سأل بعض الزنادقه أبا جعفر الأحول-عن المسأله بعينها فسافر إلى المدينه-فسأل أبا عبد الله(ع)عنها،فأجابه بمثل الجواب-فرجع أبو جعفر إلى الرجل فأخبره-فقال هذا حملته من الحجاز.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى «فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَةِ» -أى تذرون التى لا تميلون إليها-كالتى هى لا ذات زوج و لا أيم:قال:و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع):

و فيه،عن النبى ص: أنه كان يقسم بين نسائه و يقول:اللهم هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك و لا أملك.

أقول:و رواه الجمهور بعده طرق-و المراد بقوله«ما تملك و لا أملك»المحبه القلبيه لكن الروايه لا تخلو عن شىء فإن الله أجل من أن يلوم أحدا فى ما لا يملكه أصلا و قد قال تعالى. «لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ مٰا آتٰاهٰا» :(الطلاق:٧)و النبى ص أعرف بمقام ربه من أن يسأله أن يوجد ما هو موجود.

و فى الكافى،مسندا عن ابن أبى ليلى قال:حدثنى عاصم بن حميد قال: كنت عند أبى عبد الله(ع)فأتاه رجل-فشكا إليه الحاجه فأمره بالتزويج-قال:فاشتدت به الحاجه- فأتى أبا عبد الله(ع)فسأله عن حاله-فقال:اشتدت بى الحاجه قال:فارق.ففارق- قال:ثم أتاه فسأله عن حاله-فقال:أثريت و حسن حالى فقال أبو عبد الله(ع):إنى أمرتك بأمرين أمر الله بهما قال الله عز و جل:« وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ

مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكَمْ -إلی قوله -وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ» -و قال:« وَ إِنْ يَتَفَرَّقٰا يُغْنِ اللّٰهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ» .

[سوره النساء (۴): آیه ۱۳۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ وَ لَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ اَلْوٰالِدَيْنِ وَ اَلْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّٰهُ أَوْلىٰ بِهِمٰا فَلاٰ تَتَّبِعُوا اَلْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۳۵)

(بیان)

قوله تعالی :«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ» القسط هو العدل،و القيام بالقسط العمل به و التحفظ له،فالمراد بالقوامين بالقسط القائمون به أتم قيام و أكمله، من غير انعطاف و عدول عنه إلی خلافه لعامل من هوی و عاطفه أو خوف أو طمع أو غير ذلک.

و هذه الصفه أقرب العوامل و أتم الأسباب لاتباع الحق و حفظه عن الضيعه،و من فروعها ملازمه الصدق فی أداء الشهاده و القيام بها.

و من هنا يظهر أن الابتداء بهذه الصفه فی هذه الآيه المسوقه لبيان حكم الشهاده ثم ذكر صفه الشهاده من قبيل التدرج من الوصف العام إلی بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل.كونوا شهداء لله،و لا يتيسر لكم ذلک إلا بعد أن تكونوا قوامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتی تكونوا شهداء لله.

و قوله «شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ» اللام فيه للغايه أی كونوا شهداء تكون شهادتكم لله كما قال تعالی:« وَ أَقِيمُوا الشَّهٰادَةَ لِلّٰهِ» :(الطلاق:۲)و معنی كون الشهاده لله كونها اتباعا للحق و لأجل إظهاره و إحيائه كما يوضحه قوله «فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا».

قوله تعالی.« وَ لَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوٰالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ» أی و لو كانت علی خلاف نفع

أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم فلا يحملنكم حب منافع أنفسكم أو حب الوالدين و الأقربين أن تحرفوها أو تتركوها،فالمراد بكون الشهاده على النفس أو على الوالدين و الأقربين أن يكون ما تحمله من الشهاده لو أدى مضرا بحاله أو بحال والديه و أقربيه سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلا واسطه كما إذا تخاصم أبوه و إنسان آخر فشهد له على أبيه، أو يكون التضرر مع الواسطه كما إذا تخاصم اثنان و كان الشاهد متحملا لأحدهما ما لو أداه لتضرر به نفس الشاهد أيضا-كالمتخاصم الآخر-.

قوله تعالى:« إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّٰهُ أَوْلىٰ بِهِمٰا» إرجاع ضمير التثنيه إلى الغنى و الفقير مع وجود«أو»الترديديه لكون المراد بالغنى و الفقير هو المفروض المجهول الذى يتكرر بحسب وقوع الوقائع و تكررها فيكون غنيا فى واقعه،و فقيرا فى أخرى، فالترديد بحسب فرض البيان و ما فى الخارج تعدد،كذا ذكره بعضهم،فالمعنى أن الله أولى بالغنى فى غناه،و بالفقير فى فقره:و المراد-و الله أعلم-:لا يحملنكم غنى الغنى أن تميلوا عن الحق إليه،و لا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقيموا الشهاده لله سبحانه ثم خلوا بينه و بين الغنى و الفقير فهو أولى بهما و أرحم بحالهما،و من رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع،و القسط هو المندوب إلى إقامته،و فى قيام القسط و ظهور الحق سعاده النوع التى يقوم بها صلب الغنى،و يصلح بها حال الفقير.

و الواحد منهما و إن انتفع بشهاده محرفه أو متروكه فى شخص واقعه أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق و يميت العدل،و فى ذلك قوه الباطل و حياه الجور و الظلم،و فى ذلك الداء العضال و هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى:« فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا»، أى مخافه أن تعدلوا عن الحق و القسط باتباع الهوى و ترك الشهاده لله فقوله «أَنْ تَعْدِلُوا» مفعول لأجله و يمكن أن يكون مجرورا بتقدير اللام متعلقا بالاتباع أى لأن تعدلوا.

قوله تعالى:« وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» اللى بالشهاده كنايه عن تحريفها من لى اللسان.و الإعراض ترك الشهاده من رأس.

و قرئ «وَ إِنْ تَلُوُوا» بضم اللام و إسكان الواو من ولى يلى ولايه،و المعنى:و إن وليتم أمر الشهاده و أتيتم بها أو أعرضتم فإن الله خبير بأعمالكم يجازيكم بها.

ص :۱۰۹

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،قال أبو عبد الله(ع): إن للمؤمن علی المؤمن سبع حقوق،فأوجبها أن یقول الرجل حقا-و لو کان علی نفسه أو علی والدیه فلا یمیل لهم عن الحق،ثم قال:

«فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَویٰ-أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا»

یعنی عن الحق.

أقول:و فیه تعمیم معنی الشهاده لقول الحق مطلقا بمعرفه عموم قوله« کُونُوا قَوّٰامِینَ بِالْقِسْطِ» .

و فی المجمع: ،قیل:معناه إن تلووا أی تبدلوا الشهاده- أو تعرضوا أی تکتموها:قال:

و هو المروی عن أبی جعفر(ع)

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۳۶ الی ۱۴۷]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلْکِتٰابِ اَلَّذِی نَزَّلَ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ اَلْکِتٰابِ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِیداً (۱۳۶) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ اِزْدٰادُوا کُفْراً لَمْ یَکُنِ اَللّٰهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِیَهْدِیَهُمْ سَبِیلاً (۱۳۷) بَشِّرِ اَلْمُنٰافِقِینَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِیماً (۱۳۸) اَلَّذِینَ یَتَّخِذُونَ اَلْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِینَ أَ یَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ اَلْعِزَّهَ فَإِنَّ اَلْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً (۱۳۹) وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَیْکُمْ فِی اَلْکِتٰابِ أَنْ إِذٰا سَمِعْتُمْ آیٰاتِ اَللّٰهِ یُکْفَرُ بِهٰا وَ یُسْتَهْزَأُ بِهٰا فَلاٰ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّٰی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ إِنَّکُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ جٰامِعُ اَلْمُنٰافِقِینَ وَ اَلْکٰافِرِینَ فِی جَهَنَّمَ جَمِیعاً (۱۴۰) اَلَّذِینَ یَتَرَبَّصُونَ بِکُمْ فَإِنْ کٰانَ لَکُمْ فَتْحٌ مِنَ اَللّٰهِ قٰالُوا أَ لَمْ نَکُنْ مَعَکُمْ وَ إِنْ کٰانَ لِلْکٰافِرِینَ نَصِیبٌ قٰالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَیْکُمْ وَ نَمْنَعْکُمْ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ فَاللّٰهُ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ لَنْ یَجْعَلَ اَللّٰهُ لِلْکٰافِرِینَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ سَبِیلاً (۱۴۱) إِنَّ اَلْمُنٰافِقِینَ یُخٰادِعُونَ اَللّٰهَ وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَی اَلصَّلاٰهِ قٰامُوا کُسٰالیٰ یُرٰاؤُنَ اَلنّٰاسَ وَ لاٰ یَذْکُرُونَ اَللّٰهَ إِلاّٰ قَلِیلاً (۱۴۲) مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذٰلِکَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ وَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً (۱۴۳) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِینَ أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَیْکُمْ سُلْطٰاناً مُبِیناً (۱۴۴) إِنَّ اَلْمُنٰافِقِینَ فِی اَلدَّرْکِ اَلْأَسْفَلِ مِنَ اَلنّٰارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِیراً (۱۴۵) إِلاَّ اَلَّذِینَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اِعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّٰهِ فَأُولٰئِکَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ سَوْفَ یُؤْتِ اَللّٰهُ اَلْمُؤْمِنِینَ أَجْراً عَظِیماً (۱۴۶) مٰا یَفْعَلُ اَللّٰهُ بِعَذٰابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ کٰانَ اَللّٰهُ شٰاکِراً عَلِیماً (۱۴۷)

(بيان)

قوله تعالى:«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلىٰ رَسُولِهِ»، أمر المؤمنين بالإيمان ثانيا بقرينه التفصيل فی متعلق الإيمان الثانی أعنی قوله «بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ» (إلخ)و أيضا بقرينه الإيعاد و التهديد على ترك الإيمان بكل واحد من هذا التفاصيل إنما هو أمر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف

ص :١١١

مرتبطه بعضها ببعض،مستلزمه بعضها ببعض،فالله سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی و الصفات العلیا،و هی الموجبه لأن یخلق خلقا و یهدیهم إلی ما یرشدهم و یسعدهم ثم یبعثهم لیوم الجزاء،و لا یتم ذلک إلا بإرسال رسل مبشرین و منذرین،و إنزال کتب تحکم بینهم فیما اختلفوا فیه،و تبین لهم معارف المبدأ و المعاد،و أصول الشرائع و الأحکام.

فالإیمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا یتم إلا مع الإیمان بجمیعها من غیر استثناء، و الرد لبعضها مع الأخذ ببعض آخر کفر لو أظهر،و نفاق لو کتم و أخفی،و من النفاق أن یتخذ المؤمن مسیرا ینتهی به إلی رد بعض ذلک، کأن یفارق مجتمع المؤمنین و یتقرب إلی مجتمع الکفار و یوالیهم،و یصدقهم فی بعض ما یرمون به الإیمان و أهله،أو یعترضوا أو یستهزءون به الحق و خاصته،و لذلک عقب تعالی هذه الآیه بالتعرض لحال المنافقین و وعیدهم بالعذاب الألیم.

و ما ذکرناه من المعنی هو الذی یقضی به ظاهر الآیه و هو أوجه مما ذکره بعض المفسرین أن المراد بقوله «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا»،: یا أیها الذین آمنوا فی الظاهر بالإقرار بالله و رسوله آمنوا فی الباطن لیوافق ظاهرکم باطنکم.و کذا ما ذکره بعضهم أن معنی «آمَنُوا» اثبتوا علی إیمانکم،و کذا ما ذکره آخرون أن الخطاب لمؤمنی أهل الکتاب أی یا أیها الذین آمنوا من أهل الکتاب آمنوا بالله و رسوله و الکتاب الذی نزل علی رسوله و هو القرآن.

و هذه المعانی و إن کانت فی نفسها صحیحه لکن القرائن الکلامیه ناهضه علی خلافها، و أردأ الوجوه آخرها.

قوله تعالی:« وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِیداً» لما کان الشطر الأول من الآیه أعنی قوله «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا -إلی قوله- مِنْ قَبْلُ» دعوه إلی الجمع بین جمیع ما ذکر فیه بدعوی أن أجزاء هذا المجموع مرتبطه غیر مفارق بعضها بعضا کان هذا التفصیل ثانیا فی معنی التردید و المعنی:و من یکفر بالله أو ملائکته أو کتبه أو رسله أو الیوم الآخر أی من یکفر بشیء من أجزاء الإیمان فقد ضل ضلالا بعیدا.

و لیس المراد بالعطف بالواو الجمع فی الحکم لیتم الجمیع موضوعا واحدا له حکم

واحد بمعنی أن الکفر بالمجموع من حیث إنه مجموع ضلال بعید دون الکفر بالبعض دون البعض.علی أن الآیات القرآنیه ناطقه بکفر من کفر بکل واحد مما ذکر فی الآیه علی وجه التفصیل.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَمْ یَکُنِ اللّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ سَبِیلاً» الآیه لو أخذت وحدها منقطعه عما قبلها و ما بعدها کانت داله علی ما یجازی به الله تعالی أهل الرده إذا تکررت منهم الرده بأن آمنوا ثم کفروا ثم آمنوا ثم کفروا ثم ازدادوا کفرا فالله سبحانه یوعدهم-و حالهم هذا الحال- بأنه لا یغفر لهم،و لا یهدیهم سبیلا،و لیس من المرجو منه المتوقع من رحمته ذلک لعدم استقرارهم علی إیمان،و جعلهم أمر الله ملعبه یلعبون بها،و من کان هذا حاله لم یثبت بالطبع علی إیمان جدی یقبل منه،و إن کانوا لو آمنوا إیمانا جدیا شملتهم المغفره و الهدایه فإن التوبه بالإیمان بالله حقیقه مما لا یرده الله فی حال علی ما وعد الله تعالی عباده،و قد تقدم الکلام فیه فی قوله تعالی «إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَی اللّهِ»: XالآیهX(النساء:١٧)فی الجزء الرابع من هذا الکتاب.

فالآیه تحکم بحرمانهم علی ما یجری علیه الطبع و العاده،و لا تأبی الاستثناء لو اتفق إیمان و استقامه علیه من هذه الطائفه نادرا کما یستفاد من نظیر الآیه،قال تعالی:

«کَیْفَ یَهْدِی اللّهُ قَوْماً کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَیِّناتُ وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ إلی أن قال إِلاَّ الَّذِینَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الضّالُّونَ» :(آل عمران:٩٠).

و الآیات-کما تری-تستثنی ممن کفر بعد إیمانه،و قوبل بنفی المغفره و الهدایه، و هی مع ذلک تنفی قبول توبه من ازداد کفرا بعد الإیمان،صدر الآیات فیمن کفر بعد الإیمان و الشهاده بحقیه الرسول و ظهور الآیات البینات،فهو رده عنادا و لجاجا، و الازدیاد فیه لا یکون إلا مع استقرار العناد و العتو فی قلوبهم،و تمکن الطغیان و الاستکبار فی نفوسهم،و لا یتحقق الرجوع و التوبه ممن هذا حاله عاده.

ص:١١٣

هـذا ما يقتضـيه سـياق الآيه لو أخذت وحدها كما تقدم،لكن الآيات جميعا لا تخلو عن ظهور ما أو دلاله على كونها ذات سـياق واحـد متصـلا بعضـها ببعض،و على هذا التقدير يكون قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، فی مقام التعليل«لقوله وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ - إلى قوله -فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِيداً» و يكون الآيتان ذواتى مصـداق واحـد أى إن من يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسـله و اليوم الآخر هو الـذى آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفرا،و يكون أيضا هو من المنافقين الذين تعرض تعالى لهم فی قوله بعد «بَشِّرِ الْمُنٰافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً» إلى آخر الآيات.

و على هـذا يختلف المعنى المراد بقوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا» (إلى آخر الآيات) بحسب ما فسـر به قوله «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ»وَ رَسُولِهِ على ما تقدم من تفاسيره المختلفه:

فـإن فسـر بـأن آمنوا بالله و رسوله فی الباطن كما آمنتم به فی الظاهر كان معنى الإيمان ثم الكفر ثم الإيمان ثم الكفر ما يبتلى به المنافقون من اختلاف الحال دائما إذا لقوا المؤمنين و إذا لقوا الكفار.

و إن فسر بأن اثبتوا على الإيمان الذى تلبستم به كان المراد من الإيمان ثم الكفر و هكذا هو الرده بعد الرده المعروفه.

و إن فسـر بأن المراد دعوه أهل الكتاب إلى الإيمان بالله و رسوله كان المراد بالإيمان ثم الكفر و هكذا الإيمان بموسى ثم الكفر به بعباده العجل ثم الإيمان بعزير أو بعيسى ثم الكفر به ثم الازدياد فيه بالكفر بمحمد ص و ما جاء به من عند ربه،كما قيل.

و إن فسـر بـأن ابسـطوا إجمال إيمانكم على تفاصـيل الحقائق كما اسـتظهرناه كان قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، تعليلا منطبقا على حـال المنـافقين المـذكورين فيمـا بعـد، المفسـرين بقوله «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» فإن من اتصـل بالكفار منفصـلا عن مجتمع المؤمنين لا يخلو عن الحضور فی محاضـرهم و الاستيناس بهم،و الشـركه فی محاوراتهم،و التصديق لبعض ما يتذاكرونه من الكلام الذى لا يرتضيه الله سبحانه، و ينسبونه إلى الدين و أوليائه من المطاعن و المساوئ و يستهزءون و يسخرون به.

فهو كلما لقی المؤمنين و اشترک معهم فی شیء من شعائر الدين آمن به،و كلما لقی

الكفار و أمضى بعض ما يتقولونه كفر،فلا يزال يؤمن زمانا و يكفر زمانا حتى إذا استحكم فيه هذه السجيه كان ذلك منه ازديادا فى الكفر و الله أعلم.

و إذ كان مبتلى باختلاف الحال و عدم استقراره فلا توبه له لأنه غير ثابت على حال الندامه لو ندم على ما فعله،إلا أن يتوب و يستقر على توبته استقرارا لا يزلزله اختلاف الأحوال،و لا تحركه عواصف الأهواء،و لذا قيد الله سبحانه التوبه المقبوله من مثل هذا المنافق بقيود لا تبقى مجالا للتغير و التحول فقال فى الاستثناء الآتى:« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ (الآيه).

قوله تعالى:« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ» (إلخ)تهديد للمنافقين،و قد وصفهم بموالاه الكافرين دون المؤمنين،و هذا وصف أعم مصداقا من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم،و إنما يتظاهرون بالإيمان فإن طائفه من المؤمنين لا يزالون مبتلين بموالاه الكفار،و الانقطاع عن جماعه المؤمنين،و الاتصال بهم باطنا و اتخاذ الوليجه منهم حتى فى زمن الرسول ص.

و هذا يؤيد بعض التأييد أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفه من المؤمنين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين،و يؤيده ظاهر قوله فى الآيه اللاحقه« وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ إلى قوله- إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ» فإن ذلك تقرير لتهديد المنافقين، و الخطاب فيه للمؤمنين،و يؤيده أيضا ما سيصف تعالى حالهم فى نفاقهم بقوله« وَ لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاّ قَلِيلاً» فأثبت لهم شيئا من ذكر الله تعالى،و هو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط.

قوله تعالى:« أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» استفهام إنكارى ثم جواب بما يقرر الإنكار فإن العزه من فروع الملك،و الملك لله وحده،قال تعالى «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» :(آل عمران:۲۶).

قوله تعالى: « وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ- إلى قوله- مِثْلُهُمْ» يريد ما نزله فى سوره الأنعام:« وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ :

(الأنعام:)۶۸ فإن سوره الأنعام مكيه،و سوره النساء مدنيه.

و يستفاد من إشاره الآيه إلى آيه الأنعام أن بعض الخطابات القرآنيه وجه إلى النبى ص خاصه،و المراد بها ما يعم الأمه.

و قوله« إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ تعليل للنهى أى بما نهيناكم لأنكم إذا قعدتم معهم -و الحال هذه-تكونون مثلهم،و قوله «إِنَّ اللّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ».

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللّهِ»، التربص:

الانتظار.و الاستحواذ: الغلبه و التسلط،و هذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم إنما حفظوا رابطه الاتصال بالفريقين جميعا:المؤمنين و الكافرين،يستدرون الطائفتين و يستفيدون ممن حسن حاله منهما،فإن كان للمؤمنين فتح قالوا:إنا كنا معكم فليكن لنا سهم مما أوتيتموه من غنيمه و نحوها،و إن كان للكافرين نصيب قالوا:أ لم نغلبكم و نمنعكم من المؤمنين؟أى من الإيمان بما آمنوا به و الاتصال بهم فلنا سهم مما أوتيتموه من النصيب أو منه عليكم حيث جررنا إليكم النصيب.

قيل:عبر عما للمؤمنين بالفتح لأنه هو الموعود لهم،و للكافرين بالنصيب تحقيرا له فإنه لا يعبأ به بعد ما وعد الله المؤمنين أن لهم الفتح و أن الله وليهم،و لعله لذلك نسب الفتح إلى الله دون النصيب.

قوله تعالى :«فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً» الخطاب للمؤمنين و إن كان ساريا إلى المنافقين و الكافرين جميعا،و أما قوله« وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّهُ»، فمعناه أن الحكم يومئذ للمؤمنين على الكافرين،و لن ينعكس الأمر أبدا، و فيه إياس للمنافقين،أى ليبئس هؤلاء المنافقون فالغلبه للمؤمنين على الكافرين بالآخره.

و يمكن أن يكون نفى السبيل أعم من النشأتين:الدنيا و الآخره،فإن المؤمنين غالبون بإذن الله دائما ما داموا ملتزمين بلوازم إيمانهم، قال تعالى :«وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» :(آل عمران:۱۳۹).

قوله تعالى :«إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» المخادعه هى الإكثار أو التشديد فى الخدعه بناء على أن زياده المبانى تدل على زياده المعانى.

و قوله «وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ» فی موضع الحال أی یخادعون الله فی حال هو یخدعهم و یئول المعنی إلی أن هؤلاء یریدون بأعمالهم الصادره عن النفاق من إظهار الإیمان،و الاقتراب من المؤمنین،و الحضور فی محاضرهم و مشاهدهم أن یخادعوا الله أی النبی ص و المؤمنین فیستدروا منهم بظاهر إیمانهم و أعمالهم من غیر حقیقه،و لا یدرون أن هذا الذی خلی بینهم و بین هذه الأعمال و لم یمنعهم منها هو الله سبحانه،و هو خدعه منه لهم و مجازاه لهم بسوء نیاتهم و خباثه أعمالهم فخدعتهم له بعینها خدعته لهم.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَی الصَّلاٰهِ قٰامُوا کُسٰالیٰ یُرٰاؤُنَ النّٰاسَ وَ لاٰ یَذْکُرُونَ اللّٰهَ إِلاّٰ قَلِیلاً» هذا وصف آخر من أوصافهم و هو القیام إلی الصلاه-إذا قاموا إلیها- کسالی یراءون الناس،و الصلاه أفضل عباده یذکر فیها الله،و لو کانت قلوبهم متعلقه بربهم مؤمنه به لم یأخذهم الکسل و التوانی فی التوجه إلیه و ذکره،و لم یعملوا عملهم لمراءاه الناس،و لذکروا الله تعالی کثیرا علی ما هو شأن تعلق القلب و اشتغال البال.

قوله تعالی:« مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذٰلِکَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ وَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ»، قال فی المجمع:

یقال :ذبذبته فذبذب أی حرکته فتحرک فهو کتحریک شیء معلق(انتهی).فکون الشیء مذبذبا أن یتردد بین جانبین من غیر تعلق بشیء منهما،و هذا نعت المنافقین، یتذبذبون بین ذلک-أی الذی ذکر من الإیمان و الکفر-لا إلی هؤلاء أی لا إلی المؤمنین فقط کالمؤمنین بالحقیقه،و لا إلی الکفار فقط کالکافرین محضا.

و قوله «وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً» فی مقام التعلیل لما سبقه من حدیث الذبذبه،فسبب ترددهم بین الجانبین من غیر تعلق بأحدهما أن الله أضلهم عن السبیل فلا سبیل لهم یردونه.

و لهذه العله بعینها قیل:« مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذٰلِکَ» و لم یقل:متذبذبین أی القهر الإلهی هو الذی یجر لهم هذا النوع من التحریک الذی لا ینتهی إلی غایه ثابته مطمئنه.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ» (إلی آخر الآیتین) السلطان هو الحجه.و الدرک بفتحتین-و قد یسکن الراء-قال الراغب:الدرک کالدرج لکن الدرج یقال اعتبارا بالصعود،و الدرک اعتبارا بالحدور،و لهذا قیل:درجات الجنه و درکات النار،و لتصور الحدور فی النار سمیت هاویه(انتهی).

و الآیه-کما تری-تنهی المؤمنین عن الاتصال بولایه الکفار و ترک ولایه المؤمنین، ثم الآیه الثانیه تعلل ذلک بالوعید الشدید المتوجه إلی المنافقین،و لیس إلا أن الله سبحانه یعد هذا الصنیع نفاقا یحذر المؤمنین من الوقوع فیه.

و السیاق یدل علی أن قوله «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا»، کالنتیجه المستنتجه مما تقدم أو الفرع المتفرع علیه،و هذا کالصریح فی أن الآیات السابقه إنما تتعرض لحال مرضی القلوب و ضعفاء الإیمان من المؤمنین و یسمیهم المنافقین،و لا أقل من شمولها لهم ثم یعظ المؤمنین أن لا یقربوا هذا الحمی و لا یتعرضوا لسخط الله،و لا یجعلوا الله تعالی علی أنفسهم حجه واضحه فیضلهم و یخدعهم و یذبذبهم فی الحیاه الدنیا،ثم یجمع بینهم و بین الکافرین فی جهنم جمیعا،ثم یسکنهم فی أسفل درک من النار،و یقطع بینهم و بین کل نصیر ینصرهم،و شفیع یشفع لهم.

و یظهر من الآیتین أولا:أن الإضلال و الخدعه و کل سخط إلهی من هذا القبیل إنما عن حجه واضحه تعطیها أعمال العباد،فهی إخزاء علی طریق المقابله و المجازاه، و حاشا الجناب الإلهی أن یبدأهم بالشر و الشقوه من غیر تقدم ما یوجب ذلک من قبلهم، فقوله «أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَیْکُمْ سُلْطٰاناً مُبِیناً»؟ یجری مجری قوله «وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ» :(البقره:۲۶).

و ثانیا:أن فی النار لأهلها مراتب تختلف فی السفاله،و لا محاله یشتد بحسبها عذابهم یسمیها الله تعالی بالدرکات.

قوله تعالی:« إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّٰهِ» استثناء من الوعید الذی ذکر فی المنافقین بقوله:« إِنَّ الْمُنٰافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ» (الآیه)و لازم ذلک خروجهم من جماعه المنافقین،و لحوقهم بصف المؤمنین،و لذلک ذیل الاستثناء بذکر کونهم مع المؤمنین،و ذکر ثواب المؤمنین جمیعا فقال تعالی:« فَأُولٰئِکَ مَعَ الْمُؤْمِنِینَ وَ سَوْفَ یُؤْتِ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِینَ أَجْراً عَظِیماً .

و قد وصف الله هؤلاء الذین استثناهم من المنافقین بأوصاف عدیده ثقیله،و لیست تنبت أصول النفاق و أعراقه إلا بها،فذکر التوبه و هی الرجوع إلی الله تعالی،و لا ینفع الرجوع و التوب وحده حتی یصلحوا کل ما فسد منهم من نفس و عمل،و لا ینفع الإصلاح

إلا أن يعتصموا بالله أى يتبعوا كتابه و سنه نبيه ص إذ لا سبيل إلى الله إلا ما عينه و ما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.

و لا ينفع الاعتصام المذكور إلا إذا أخلصوا دينهم-و هو الذى فيه الاعتصام- لله،فإن الشرك ظلم لا يعفى عنه و لا يغفر،فإذا تابوا إلى الله و أصلحوا كل فاسد منهم و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله كانوا عند ذلك مؤمنين لا يشوب إيمانهم شرك،فآمنوا النفاق و اهتدوا قال تعالى:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» :(الأنعام:٨٢).

و يظهر من سياق الآيه أن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضا المخلصون للإيمان،و قد عرفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله،و هذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده الله تعالى فى كتابه من صفاتهم و نعوتهم كقوله تعالى «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» (Xإلى آخر الآيات)X: (المؤمنون:٣)،و قوله تعالى «وَ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيٰاماً» Xالآيات X(الفرقان:

٦٤)،و قوله «فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» : (النساء:٦٥).

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين إذا أطلق اللفظ إطلاقا من غير قرينه تدل على خلافه.

و قد قال تعالى:« فَأُولٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل:فأولئك من المؤمنين لأنهم بتحقق هذه الأوصاف فيهم أول تحققها يلحقون بهم،و لن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها،فافهم ذلك.

قوله تعالى:« مٰا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ»، ظاهره أنه خطاب للمؤمنين،لأن الكلام جار على خطابهم و إنما يخاطبون بهذا الخطاب مع الغض عن إيمانهم و فرضهم كالعارى عنه على ما هو شأن مثل هذا الخطاب.

و هو كنايه عن عدم حاجته تعالى إلى عذابهم،و أنهم لو لم يستوجبوا العذاب بتركهم الشكر و الإيمان لم يكن من قبله تعالى ما يوجب عذابهم،لأنه لا ينتفع بعذابهم حتى يؤثره، و لا يستضر بوجودهم حتى يدفعه عن نفسه بعذابهم،فالمعنى:لا موجب لعذابكم إن شكرتم

نعمه الله بأداء واجب حقه و آمنتم به و كان الله شاكرا لمن شكره و آمن به،عليما لا يجهل مورده.

و فى الآيه دلاله على أن العذاب الشامل لأهله إنما هو من قبلهم لا من قبله،و كذا كل ما يستوجب العذاب من ضلال أو شرك أو معصيه،و لو كان شيء من ذلك من قبله تعالى لكان العذاب الذى يستتبعه أيضا من قبله لأن المسبب يستند إلى من استند إليه السبب.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى،عن زراره و حمران و محمد بن مسلم:عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) فى قول الله« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا-ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً» قال:نزلت فى عبد الله بن أبى سرح-الذى بعثه عثمان إلى مصر-ثم ازداد كفرا حين لم يبق فيه من الإيمان شيء

و فيه،عن أبى بصير قال: سمعته يقول:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»

(الآيه)من زعم أن الخمر حرام ثم شربها،و من زعم أن الزنا حرام ثم زنى،و من زعم أن الزكاه حق و لم يؤدها.

أقول:فيه تعميم للآيه على الكفر بجميع مراتبه،و من مراتبه ترك الواجبات و فعل المحرمات،و تأييد لما تقدم فى البيان.

و فيه،عن محمد بن الفضيل:عن أبى الحسن الرضا(ع) فى قول الله« وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللّهِ- -إلى قوله- إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ» قال:إذا سمعت الرجل يجحد الحق و يكذب به-و يقع فى أهله فقم من عنده و لا تقاعده.

أقول:و فى هذا المعنى روايات أخر.

و فى العيون،بإسناده عن أبى الصلت الهروى:عن الرضا(ع) فى قول الله جل جلاله «وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً» قال:فإنه يقول:و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين حجه،و لقد أخبر الله تعالى عن كفار قتلوا نبيهم بغير الحق-و مع قتلهم إياهم لم يجعل الله لهم على أنبيائه سبيلا.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر عن علی:

«وَ لَنْ یَجْعَلَ اللّهُ لِلْکافِرِینَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ سَبِیلاً»

-قال:فی الآخره.

أقول:و قد تقدم أن ظاهر السیاق هو الآخره و لو عمم لغیرها بأخذ الجمله وحدها شملت الحجه فی الدنیا.

و فی العیون،بإسناده عن الحسن بن فضال قال: سألت علی بن موسی الرضا(ع) عن قوله« یُخادِعُونَ اللّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» فقال الله تبارک و تعالی:لا یخادع،و لکنه یجازیهم جزاء الخدیعه.

و فی تفسیر العیاشی،عن مسعده بن زیاد عن جعفر بن محمد عن أبیه: أن رسول الله ص سئل:فیما النجاه غدا؟فقال:النجاه أن لا تخادعوا الله فیخدعکم-فإنه من یخادع الله یخدعه،و یخلع منه الإیمان و نفسه یخدع لو یشعر.

فقیل:فکیف یخادع الله؟قال:یعمل بما أمر الله ثم یرید به غیره-فاتقوا الرئاء فإنه شرک بالله،إن المرائی یدعی یوم القیامه بأربعه أسماء:یا کافر،یا فاجر،یا غادر،یا خاسر،حبط عملک،و بطل أجرک،و لا خلاق لک الیوم،فالتمس أجرک ممن کنت تعمل له.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی المعزی الخصاف رفعه قال:قال أمیر المؤمنین(ع):

من ذکر الله عز و جل فی السر فقد ذکر الله کثیرا،إن المنافقین کانوا یذکرون الله علانیه، و لا یذکرونه فی السر فقال الله عز و جل: «یُراؤُنَ النّاسَ وَ لا یَذْکُرُونَ اللّهَ إِلاّ قَلِیلاً» أقول:و هذا معنی آخر لقله الذکر لطیف.

و فی الدر المنثور:أخرج ابن المنذر عن علی قال: لا یقل عمل مع تقوی،و کیف یقل ما یتقبل؟.

أقول:و هذا أیضا معنی لطیف،و مرجعه بالحقیقه إلی ما مر فی الخبر السابق.

و فیه:أخرج مسلم و أبو داود و البیهقی فی سننه عن أنس قال:قال رسول الله ص: تلک صلاه المنافق،یجلس یرقب الشمس حتی إذا کانت بین قرنی الشیطان-قام فنقر أربعا لا یذکر الله فیها إلا قلیلا.

أقول:و هذا معنى آخر لقله الذكر فإن لمثل هذا المصلى من الذكر مجرد التوجه إلى الله بقيامه إلى الصلاه،و كان يمكنه أن يستغرق فى ذكره بالحضور و الطمأنينه فى صلاته.

و المراد بكون الشمس بين قرنى الشيطان دنوها من أفق الغروب كأنه يجعل النهار و الليل قرنين للشيطان ينطح بهما ابن آدم أو يظهر لابن آدم.

و فيه:أخرج عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر قال:قال رسول الله ص: مثل المنافق مثل الشاه العائره بين الغنمين-تعير إلى هذه مره و إلى هذه مره لا تدرى أيهما تتبع

و فيه:أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال": كل سلطان فى القرآن فهو حجه

و فيه:و أخرج ابن أبى شيبه و المروزى فى زوائد الزهد و أبو الشيخ بن حبان عن مكحول قال:بلغنى أن النبى ص قال: ما أخلص عبد لله أربعين صباحا-إلا ظهرت ينابيع الحكمه من قلبه على لسانه.

أقول:و الروايه من المشهورات،و قد رويت بلفظها أو بمعناها بطرق أخرى.

و فيه:أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن زيد بن أرقم قال:قال رسول الله ص: من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنه،قيل:يا رسول الله و ما إخلاصها؟ قال:أن تحجزه عن المحارم.

أقول:و الروايه مستفيضه معنى و قد رويت بطرق مختلفه فى جوامع أهل السنه و الشيعه عن النبى و أئمه أهل البيت(ص)،و سنورد عمده ألفاظها المنقوله فى موضع يناسبها إن شاء الله تعالى.

و فى ذيل هذه الآيات روايات فى أسباب النزول مختلفه متشتته،تركنا إيرادها لظهورها فى الجرى و تطبيق المصداق.و الله أعلم.

ص:١٢٢

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹]

اشاره

لا يُحِبُّ اَللّٰهُ اَلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ اَلْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ سَمِيعاً عَلِيماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَفُوًّا قَدِيراً (۱۴۹)

(بيان)

قوله تعالى: «لاٰ يُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ»، قال الراغب فى ماده «جهر» يقال لظهور الشىء بإفراط لحاسه البصر أو حاسه السمع،أما البصر فنحو رأيته جهارا،قال الله تعالى: « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً»« أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً» - إلى أن قال-و أما السمع فمنه قوله تعالى:« سَوٰاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ».

و السوء من القول كل كلام يسوء من قيل فيه كالدعاء عليه،و شتمه بما فيه من المساوئ و العيوب و بما ليس فيه،فكل ذلك لا يحب الله الجهر به و إظهاره،و من المعلوم أنه تعالى منزه من الحب و البغض على حد ما يوجد فينا معشر الإنسان و ما يجانسنا من الحيوان، إلا أنه لما كان الأمر و النهى عندنا بحسب الطبع صادرين عن حب و بغض كنى بهما عن الإراده و الكراهه و عن الأمر و النهى.

فقوله «لاٰ يُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ» كنايه عن الكراهه التشريعيه أعم من التحريم و الإعانه.

و قوله «إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ» استثناء منقطع أى لكن من ظلم لا بأس بأن يجهر بالسوء من القول فيمن ظلمه من حيث ظلم،و هذه هى القرينه على أنه إنما يجوز له الجهر بالسوء من القول يبين فيه ما ظلمه،و يظهر مساوئه التى فيه مما ظلمه به،و أما التعدى إلى غيره مما ليس فيه،أو ما لا يرتبط بظلمه فلا دليل على جواز الجهر به من الآيه.

و المفسرون و إن اختلفوا فى تفسير السوء من القول فمن قائل إنه الدعاء عليه،و من قائل إنه ذكر ظلمه و ما تعدى به عليه و غير ذلك إلا أن الجميع مشمول لإطلاق الآيه

ص: ۱۲۳

فلا موجب لتخصيص الكلام ببعضها.

و قوله «وَ كٰانَ اللّٰهُ سَمِيعاً عَلِيماً» فی مقام التأكيد للنهی المستفاد من قوله «لاٰ يُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ»، أی لا ينبغی الجهر بالسوء من القول من غير المظلوم فإن الله سميع يسمع القول عليم يعلم به.

قوله تعالی:« إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَفُوًّا قَدِيراً» الآيه لا تخلو عن ارتباط بما قبلها فإنها تشمل إظهار الخير من القول شكرا لنعمه أنعمها منعم علی الإنسان،و تشمل العفو عن السوء و الظلم فلا يجهر علی الظالم بالسوء من القول.

فإبداء الخير إظهاره سواء كان فعلا كإظهار الإنفاق علی مستحقه و كذا كل معروف لما فيه من إعلاء كلمه الدين و تشويق الناس إلی المعروف،أو كان قولا كإظهار الشكر علی المنعم و ذكره بجميل القول لما فيه من حسن التقدير و تشويق أهل النعمه.

و إخفاء الخير منصرفه إخفاء فعل المعروف ليكون أبعد من الرئاء و أقرب إلی الخلوص كما قال:« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقٰاتِ فَنِعِمّٰا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوهٰا وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرٰاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئٰاتِكُمْ» :(البقره:۲۷۱).

و العفو عن السوء هو الستر عليه قولا بأن لا يذكر ظالمه بظلمه،و لا يذهب بماء وجهه عند الناس،و لا يجهر عليه بالسوء من القول،و فعلا بأن لا يواجهه بما يقابل ما أساء به،و لا ينتقم عنه فيما يجوز له ذلك كما قال تعالی:« فَمَنِ اعْتَدیٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدیٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ» :(البقره:۱۹۴).

و قوله «فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَفُوًّا قَدِيراً» سبب أقيم مقام المسبب و التقدير:إن تعفوا عن سوء فقد اتصفتم بصفه من صفات الله الكماليه- و هو العفو علی قدره-فإن الله ذو عفو علی قدرته،فالجزاء جزاء بالنسبه إلی بعض الشروط،و أما إبداء الخير و إخفاؤه أی إيتاؤه علی أی حال فهو أيضا من صفاته تعالی بما أنه الله تعالی،و يمكن أن يلوح إليه الكلام.

(بحث روائی)

فی المجمع،قال: لا يحب الله الشتم فی الانتصار إلا من ظلم-فلا بأس له أن ينتصر ممن ظلم مما يجوز الانتصار فی الدين: قال:و هو المروی عن أبی جعفر(ع)

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی الجارود عن أبی عبد الله(ع)قال: الجهر بالسوء من القول أن یذکر الرجل بما فیه.

و فی تفسیر القمی:و فی حدیث آخر فی تفسیر هذا قال: إن جاءک رجل و قال فیک ما لیس فیک من الخیر و الثناء-و العمل الصالح فلا تقبله منه و کذبه فقد ظلمک.

و فی تفسیر العیاشی،بإسناده عن الفضل بن أبی قره:عن أبی عبد الله(ع) فی قول الله: «لاٰ یُحِبُّ اللّٰهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّٰ مَنْ ظُلِمَ» قال:من أضاف قوما فأساء ضیافتهم-فهو ممن ظلم فلا جناح علیهم فیما قالوا فیه:

أقول:و رواه فی المجمع،عنه(ع)مرسلا،و روی من طرق أهل السنه عن مجاهد.

و الروایات علی أی حال داله علی التعمیم کما استفدناه من الآیه.

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۰ الی ۱۵۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اَللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ یَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَّخِذُوا بَیْنَ ذٰلِکَ سَبِیلاً (۱۵۰) أُولٰئِکَ هُمُ اَلْکٰافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنٰا لِلْکٰافِرِینَ عَذٰاباً مُهِیناً (۱۵۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِکَ سَوْفَ یُؤْتِیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۱۵۲)

(بیان)

انعطاف إلی حال أهل الکتاب،و بیان لحقیقه کفرهم،و شرح لعده من مظالمهم، و معاصیهم و مفاسد أقوالهم.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ»، هؤلاء أهل الکتاب من الیهود و النصاری فالیهود تؤمن بموسی و تکفر بعیسی و محمد،و النصاری تؤمن بموسی و عیسی

و تكفر بمحمد صلى الله عليهم أجمعين،و هؤلاء على زعمهم لا يكفرون بالله و ببعض رسله، و إنما يكفرون ببعض الرسل،و قد أطلق الله عليهم أنهم كافرون بالله و رسله جميعا و لذلك احتيج إلى بيان المراد من إطلاق قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ».

و لذلك عطف على قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ»، قوله «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» بعطف التفسير و نفس المعطوف أيضا بعضه يفسر بعضه،فهم كافرون بالله و رسله لأنهم بقولهم: «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله فيؤمنون بالله و بعض رسله و يكفروا ببعض رسله مع كونه رسولا من الله،و الرد عليه رد على الله تعالى.

ثم بين ذلك ببيان آخر بالعطف عليه عطف التفسير فقال:« وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً» أى سبيلا متوسطا بين الإيمان بالله و رسله جميعا،و الكفر بالله و رسله جميعا، و هو الإيمان ببعض و الكفر ببعض،و لا سبيل إلى الله إلا الإيمان به و برسله جميعا فإن الرسول بما أنه رسول ليس له من نفسه شيء و لا له من الأمر شيء،فالإيمان به إيمان بالله و الكفر به كفر بالله محضا.

فالكفر بالبعض و الإيمان بالبعض و بالله ليس إلا تفرقه بين الله و بين رسله،و إعطاء الاستقلال للرسول فيكون الإيمان به غير مرتبط بالإيمان بالله،و الكفر به غير مرتبط بالكفر به فيكون طرفا لا وسطا،و كيف يصح فرض الرساله ممن لا يرتبط الإيمان به و الكفر به بالإيمان بالله و الكفر به.

فمن البين الذى لا مريه فيه أن الإيمان بمن هذا شأنه و الخضوع له شرك بالله العظيم، و لذلك ترى أنه تعالى بعد وصفهم بأنهم يريدون بالإيمان ببعض الرسل و الكفر بالبعض أن يفرقوا بين الله و رسله و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ذكر أنهم كافرون بذلك حقا فقال: «أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا» ثم أوعدهم فقال: «وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً مُهِيناً» .

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ»، لما كفر أولئك المفرقين بين الله و رسله،و ذكر أنهم كافرون بالله و رسله ذكر من يقابلهم بالإيمان بالله و رسله على سبيل عدم التفرقه تتميما للأقسام.

و فى الآيات التفات من الغيبه إلى التكلم مع الغير فى قوله «وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً

مُهِيناً»

ثم إلى الخطاب فى قوله« أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ»، و لعل الوجه فيه أن إسناد الجزاء إلى المتكلم أقرب من الوقوع بحسب لحن الكلام من إسناده إلى الغائب.

و يفيد هذه الفائده أيضا الالتفات الواقع فى الآيه الثانيه فإن توجيه الخطاب إلى النبى ص عند الوعد الجميل و هو يعلم بإنجازه تعالى يفيد القرب من الوقوع

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۵۳ الى ۱۶۹]

اشاره

يَسْئَلُكَ أَهْلُ اَلْكِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰاباً مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقٰالُوا أَرِنَا اَللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ اَلصّٰاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اِتَّخَذُوا اَلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ اَلْبَيِّنٰاتُ فَعَفَوْنٰا عَنْ ذٰلِكَ وَ آتَيْنٰا مُوسىٰ سُلْطٰاناً مُبِيناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنٰا فَوْقَهُمُ اَلطُّورَ بِمِيثٰاقِهِمْ وَ قُلْنٰا لَهُمُ اُدْخُلُوا اَلْبٰابَ سُجَّداً وَ قُلْنٰا لَهُمْ لاٰ تَعْدُوا فِي اَلسَّبْتِ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً (۱۵۴) فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ قَتْلِهِمُ اَلْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنٰا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلَيْهٰا بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۱۵۵) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلىٰ مَرْيَمَ بُهْتٰاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا اَلْمَسِيحَ عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اِتِّبٰاعَ اَلظَّنِّ وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اَللّٰهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۵۸) وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹) فَبِظُلْمٍ مِنَ اَلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ كَثِيراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ اَلرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوٰالَ اَلنّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۶۱) لٰكِنِ اَلرّٰاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ اَلْمُقِيمِينَ اَلصَّلاٰةَ وَ اَلْمُؤْتُونَ اَلزَّكٰاةَ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۱۶۲) إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ اَلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْبٰاطِ وَ عِيسىٰ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هٰارُونَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنٰاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اَللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً (۱۶۴) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اَللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ اَلرُّسُلِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۶۵) لٰكِنِ اَللّٰهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً (۱۶۶) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِيداً (۱۶۷) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اَللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (۱۶۸) إِلاّٰ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيراً (۱۶۹)

(بیان)

الآیات تذکر سؤال أهل الکتاب رسول الله ص تنزیل کتاب من السماء علیهم حیث لم یقنعوا بنزول القرآن بوحی الروح الأمین نجوما،و نجیب عن مسألتهم.

قوله تعالی:« یَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَیْهِمْ کِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ»، أهل الکتاب هم الیهود و النصاری علی ما هو المعهود فی عرف القرآن فی أمثال هذه الموارد و علیه فالسائل هو الطائفتان جمیعا دون الیهود فحسب.

و لا ینافیه کون المظالم و الجرائم المعدوده فی ضمن الآیات مختصه بالیهود کسؤال الرؤیه،و اتخاذ العجل،و نقض المیثاق عند رفع الطور و الأمر بالسجده و النهی عن العدو فی السبت و غیر ذلک.

فإن الطائفتین ترجعان إلی أصل واحد و هو شعب إسرائیل بعث إلیهم موسی و عیسی(ع)و إن انتشرت دعوه عیسی بعد رفعه فی غیر بنی إسرائیل کالروم و العرب و الحبشه و مصر و غیرهم،و ما قوم عیسی بأقل ظلما لعیسی من الیهود لموسی(ع).

و لعد الطائفتین جمیعا ذا أصل واحد یخص الیهود بالذکر فیما یخصهم من الجزاء حیث قال:« فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» و لذلک أیضا عد عیسی بین الرسل المذکورین بعد کما عد موسی(ع)بینهم و لو کان وجه الکلام إلی الیهود فقط لم یصح ذلک،و لذلک أیضا قیل بعد هذه الآیات:« یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لاٰ تَقُولُوا عَلَی اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِیحُ» (إلخ).

و بالجمله السائل هم أهل الکتاب جمیعا و وجه الکلام معهم لاشتراکهم فی الخصیصه القومیه و هو التحکم و القول بغیر الحق و المجازفه و عدم التقید بالعهود و المواثیق،و الکلام جار معهم فیما اشترکوا فإذا اختص منهم طائفه بشیء خص الکلام به.

و الذی سألوه رسول الله ص هو أن ینزل علیهم کتابا من السماء،و لم یسألوه ما سألوه قبل نزول القرآن و تلاوته علیهم کیف و القصه إنما وقعت فی المدینه و قد بلغهم من القرآن ما نزل بمکه و شطر مما نزل بالمدینه؟بل هم ما کانوا یقنعون به دلیلا للنبوه،

و لاـ یعدونه کتابا سماویا مع أن القرآن نزل فیما نزل مشفعا بالتحدی و دعوی الإعجاز کما فی سور:إسراء،و یونس،و هود،و البقره النازله جمیعا قبل سوره النساء.

فسؤالهم تنزیل الکتاب من السماء بعد ما کانوا یشاهدونه من أمر القرآن لم یکن إلا سؤالا جزافیا لا یصدر إلا ممن لا یخضع للحق و لا ینقاد للحقیقه و إنما یلغو و یهذو بما قدمته له أیدی الأهواء من غیر أن یتقید بقید أو یثبت علی أساس،نظیر ما کانت تتحکم به قریش مع نزول القرآن،و ظهور دعوته فتقول علی ما حکاه الله سبحانه عنهم :«لَوْ لاـ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» : (یونس:۲۰) «أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ :(إسراء:۹۳).

و لهذا الذی ذکرناه أجاب الله سبحانه عن مسألتهم(أولا)بأنهم قوم متمادون فی الجهاله و الضلاله لا یأبون عن أنواع الظلم و إن عظمت،و الکفر و الجحود و إن جاءت البینه، و عن نقض المواثیق و إن غلظت و غیر ذلک من الکذب و البهتان و أی ظلم،و من هذا شأنه لا یصلح لإجابه ما سأله و الإقبال علی ما اقترحه.

و(ثانیا)أن الکتاب الذی أنزله الله و هو القرآن مقارن لشهاده الله سبحانه و ملائکته و هو الذی یفصح عن التحدی بعد التحدی بآیاته الکریمه.

فقال تعالی فی جوابهم أولا :«فَقَدْ سَأَلُوا مُوسی أَکْبَرَ مِنْ ذلِکَ» أی مما سألوک من تنزیل کتاب من السماء إلیهم «فَقالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَهً» أی إراءه عیان نعاینه بأبصارنا، و هذه غایه ما یبلغه البشر من الجهاله و الهذر و الطغیان «فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَهُ بِظُلْمِهِمْ» و القصه مذکوره فی سوره البقره(آیه:۵۵-۵۶)و سوره الأعراف(آیه:۱۵۵).

ثم قال تعالی :«ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ» و هذه عباده الصنم بعد ظهور بطلانه أو بیان أن الله سبحانه منزه عن شائبه الجسمیه و الحدوث،و هو من أفظع الجهالات البشریه «فَعَفَوْنا عَنْ ذلِکَ وَ آتَیْنا مُوسی سُلْطاناً مُبِیناً» و قد أمرهم موسی فی ذلک أن یتوبوا إلی بارئهم فیقتلوا أنفسهم فأخذوا فیه فعفا الله عنهم و لما یتم التقتیل و لما یقتل الجمیع،و هو المراد بالعفو،و آتی موسی(ع)سلطانا مبینا حیث سلطه علیهم و علی السامری و عجله،و القصه مذکوره فی سوره البقره(آیه:۵۴).

ثم قال تعالی:« وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِیثاقِهِمْ» و هو المیثاق الذی أخذه الله منهم

ثم رفع فوقهم الطور،و القصه مذکوره مرتین فی سوره البقره(آیه ۹۳،۶۳).

ثم قال تعالی:« وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِی السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً» و القصتان مذکورتان فی سوره البقره(آیه:۵۸-۶۵)و سوره الأعراف(۱۶۱-۱۶۳)و لیس من البعید أن یکون المیثاق المذکور راجعا إلی القصتین و إلی غیرهما فإن القرآن یذکر أخذ المیثاق منهم متکررا کقوله تعالی وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ» XالآیهX: (البقره:۸۳)،و قوله تعالی «وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ لا تَسْفِکُونَ دِماءَکُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» :(البقره:۸۴).

قوله تعالی: «فَبِما نَقْضِهِمْ مِیثاقَهُمْ»، الفاء للتفریع و المجرور متعلق بما سیأتی بعد عده آیات-یذکر فیها جرائمهم-من قوله «حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ» و الآیات مسوقه لبیان ما جازاهم الله به من وخیم الجزاء الدنیوی و الأخروی،و فیها ذکر بعض ما لم یذکر من سننهم السیئه أولا.

و قوله «فَبِما نَقْضِهِمْ مِیثاقَهُمْ» تلخیص لما ذکر منهم من نقض المواثیق و لما لم یذکر من المواثیق المأخوذه منهم.

و قوله «وَ کُفْرِهِمْ بِآیاتِ اللّهِ تلخص لأنواع من الکفر کفروا بها فی زمن موسی(ع) و بعده قص القرآن کثیرا منها،و من جملتها الموردان المذکوران فی صدر الآیات أعنی قوله فَقَدْ سَأَلُوا مُوسی أَکْبَرَ مِنْ ذلِکَ فَقالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَهً»، و قوله «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ» و إنما قدما فی الصدر،و أخرا فی هذه الآیه لأن المقامین مختلفان فیختلف مقتضاهما فإن صدر الآیات متعرض لسؤالهم تنزیل کتاب من السماء و،ذکر سؤالهم أکبر من ذلک و عبادتهم العجل أنسب به و ألصق،و هذه الآیه و ما بعدها متعرضه لمجازاتهم فی قبال أعمالهم بعد ما کانوا أجابوا دعوه الحق و ذکر أسباب ذلک و الابتداء بذکر نقض المیثاق أنسب فی هذا المقام و أقرب.

و قوله «وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِیاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ» یعنی بهم زکریا و یحیی و غیرهما ممن ذکر القرآن قتلهم إجمالا من غیر تسمیه.

و قوله «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ» جمع أغلف أی فی أغشیه تمنعها عن استماع الدعوه النبویه،و قبول الحق لو دعیت إلیه،و هذه کلمه ذکروها یریدون بها رد الدعوه،و إسناد

عدم إجابتهم للدعوه إلى الله سبحانه كأنهم كانوا يدعون أنهم خلقوا غلف القلوب،أو أنهم جعلوا بالنسبه إلى دعوه غير موسى كذلك من غير استناد ذلك إلى اختيارهم و صنعهم.

و لذلك رد الله سبحانه عليهم بقوله «بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهٰا بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً» فبين أن إباء قلوبهم عن استماع الدعوه الحقه مستند إلى صنع الله لكن لا كما يدعون أنهم لا صنع لهم فى ذلك بل إنما فعل ذلك بهم فى مقابل كفرهم و جحودهم للحق،و كان أثر ذلك أن هذا القوم لا يؤمنون إلا قليل منهم.

و قد تقدم الكلام فى هذا الاستثناء،و أن هذه النقمه الإلهيه إنما نزلت بهم بقوميتهم و مجتمعهم،فالمجموع من حيث المجموع مكتوب عليهم النقمه،و مطبوع على قلوبهم محال لهم أن يؤمنوا بأجمعهم،و لا ينافى ذلك إيمان البعض القليل منهم.

قوله تعالى :«بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلىٰ مَرْيَمَ بُهْتٰاناً عَظِيماً» و هو قذفها(ع)فى ولاده عيسى بالزنا،و هو كفر و بهتان معا و قد كلمهم عيسى فى أول ولادته و قال:« إِنِّي عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» :(مريم.٣٠).

قوله تعالى: «وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» قد تقدم فى قصص عيسى(ع)فى سوره آل عمران أنهم اختلفوا فى كيفيه قتله صلبا و غير صلب فلعل حكايته تعالى عنهم دعوى قتله أولا ثم ذكر القتل و الصلب معا فى مقام الرد و النفى لبيان النفى التام بحيث لا يشوبه ريب فإن الصلب لكونه نوعا خاصا فى تعذيب المجرمين لا يلازم القتل دائما،و لا يتبادر إلى الذهن عند إطلاق القتل،و قد اختلف فى كيفيه قتله فمجرد نفى القتل ربما أمكن أن يتأول فيه بأنهم ما قتلوه قتلا عاديا،و لا ينافى ذلك أن يكونوا قتلوه صلبا فلذلك ذكر تعالى بعد قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ» قوله «وَ مٰا صَلَبُوهُ» ليؤدى الكلام حقه من الصراحه،و ينص على أنه(ع)لم يتوف بأيديهم لا صلبا و لا غير مصلوب،بل شبه لهم أمره فأخذوا غير المسيح(ع) مكان المسيح فقتلوه أو صلبوه،و ليس من البعيد عاده،فإن القتل فى أمثال تلك الاجتماعات الهمجيه و الهجمه و الغوغاء ربما أخطأ المجرم الحقيقى إلى غيره و قد قتله الجنديون من الروميين،و ليس لهم معرفه بحاله على نحو الكمال فمن الممكن أن يأخذوا مكانه غيره، و مع ذلك فقد وردت روايات أن الله تعالى ألقى شبهه على غيره فأخذ و قتل مكانه.

ص :١٣٢

و ربما ذکر بعض محققی التاریخ أن القصص التاریخیه المضبوطه فیه(ع)و الحوادث المربوطه بدعوته و قصص معاصریه من الحکام و الدعاه تنطبق علی رجلین اثنین مسمیین بالمسیح-و بینهما ما یزید علی خمسمائه سنه-:المتقدم منهما محق غیر مقتول،و المتأخر منهما مبطل مصلوب، (۱)و علی هذا فما یذکره القرآن من التشبیه هو تشبیه المسیح عیسی بن مریم رسول الله بالمسیح المصلوب.و الله أعلم.

و قوله «وَ إِنَّ الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ» أی اختلفوا فی عیسی أو فی قتله «لَفِی شَکٍّ مِنْهُ» أی فی جهل بالنسبه إلی أمره «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ» و هو التخمین أو رجحان ما بحسب ما أخذه بعضهم من أفواه بعض.

و قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ یَقِیناً» أی ما قتلوه قتل یقین أو ما قتلوه أخبرک خبر یقین،و ربما قیل:إن الضمیر فی قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ» راجع إلی العلم أی ما قتلوا العلم یقینا.و قتل العلم لغه تمحیضه و تخلیصه من الشک و الریب،و ربما قیل:إن الضمیر یعود إلی الظن أی ما محضوا ظنهم و ما تثبتوا فیه،و هذا المعنی علی تقدیر ثبوته معنی غریب لا یحمل علیه لفظ القرآن.

قوله تعالی:« بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَیْهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً» و قد قص الله سبحانه هذه القصه فی سوره آل عمران فقال:« إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسیٰ إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رٰافِعُکَ إِلَیَّ»:

(آل عمران:۵۵)فذکر التوفی ثم الرفع.

و هذه الآیه بحسب السیاق تنفی وقوع ما ادعوه من القتل و الصلب علیه فقد سلم من قتلهم و صلبهم،و ظاهر الآیه أیضا أن الذی ادعی إصابه القتل و الصلب إیاه،و هو عیسی (ع)بشخصه البدنی هو الذی رفعه الله إلیه،و حفظه من کیدهم فقد رفع عیسی بجسمه و روحه لا أنه توفی ثم رفع روحه إلیه تعالی فهذا مما لا یحتمله ظاهر الآیه بمقتضی السیاق فإن الإضراب الواقع فی قوله «بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَیْهِ» لا یتم بمجرد رفع الروح بعد الموت الذی یصح أن یجامع القتل و الموت حتف الأنف.

فهذا الرفع نوع التخلیص الذی خلصه الله به و أنجاه من أیدیهم سواء کان توفی عند ذلک بالموت حتف الأنف أو لم یتوف حتف الأنف و لا قتلا و صلبا بل بنحو آخر لا نعرفه أو کان حیا باقیا بإبقاء الله بنحو لا نعرفه فکل ذلک محتمل.

ص :۱۳۳

۱- ۱) و عند هذا المحقق یکون التاریخ المشتهر فعلا بالمیلادی مشکوکا فی صحته.

و ليس من المستحيل أن يتوفى الله المسيح و يرفعه إليه و يحفظه،أو يحفظ الله حياته على نحو لا ينطبق على العاده الجاريه عندنا فليس يقصر عن ذلك سائر ما يقتصه القرآن الكريم من معجزات عيسى نفسه فى ولادته و حياته بين قومه،و ما يحكيه من معجزات إبراهيم و موسى و صالح و غيرهم،فكل ذلك يجرى مجرى واحدا يدل الكتاب العزيز على ثبوتها دلاله لا مدفع لها إلا ما تكلفه بعض الناس من التأويل تحذرا من لزوم خرق العاده و تعطل قانون العليه العام،و قد مر فى الجزء الأول من هذا الكتاب استيفاء البحث عن الإعجاز و خرق العاده.

و بعد ذلك كله فالآيه التاليه لا تخلو عن إشعار أو دلاله على حياته(ع)و عدم توفيه بعد.

قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً». «إِنْ» نافيه و المبتدأ محذوف يدل عليه الكلام فى سياق النفى، و التقدير:

و إن أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن،و الضمير فى قوله «بِهِ» و قوله «يَكُونُ» راجع إلى عيسى،و أما الضمير فى قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» ففيه خلاف.

فقد قال بعضهم:إن الضمير راجع إلى المقدر من المبتدأ و هو أحد،و المعنى:و كل واحد من أهل الكتاب يؤمن قبل موته بعيسى أى يظهر له قبيل الموت عند الاحتضار أن عيسى كان رسول الله ص و عبده حقا و إن كان هذا الإيمان منه إيمانا لا ينتفع به،و يكون عيسى شهيدا عليهم جميعا يوم القيامه سواء آمنوا به إيمانا ينتفع به أو إيمانا لا ينتفع به كمن آمن به عند موته.

و يؤيده أن إرجاع ضمير «قَبْلَ مَوْتِهِ» إلى عيسى يعود إلى ما ورد فى بعض الأخبار أن عيسى حى لم يمت،و أنه ينزل فى آخر الزمان فيؤمن به أهل الكتاب من اليهود و النصارى،و هذا يوجب تخصيص عموم قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ» من غير مخصص، فإن مقتضى الآيه على هذا التقدير أن يكون يؤمن بعيسى عند ذلك النزول من السماء الموجودون من أهل الكتاب دون المجموع منهم،ممن وقع بين رفع عيسى و نزوله فمات و لم يدرك زمان نزوله،فهذا تخصيص لعموم الآيه من غير مخصص ظاهر.

و قد قال آخرون:إن الضمير راجع إلى عيسى(ع)و المراد به إيمانهم به عند

نزوله فی آخر الزمان من السماء،استنادا إلی الروایه کما سمعت.

هـذا ما ذکروه،و الـذی ینبغی التـدبر و الإمعان فیه هو أن وقوع قوله «وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَـهِیداً» فی سـیاق قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَـهِیداً» ظاهر فی أن عیسی شهید علی جمیعهم یوم القیامه کما أن جمیعهم یؤمنون به قبـل الموت،و قـد حکی سـبحانه قول عیسـی فی خصوص هـذه الشـهاده علی وجه خاص،فقال عنه: «وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ» :(المائده:۱۱۷).

فقصر(ع)شهادته فی أیام حیاته فیهم قبل توفیه،و هذه الآیه أعنی قوله:

«وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ»

(إلـخ)تدل علی شـهادته علی جمیع من یؤمن به فلو کان المؤمن به هو الجمیع کان لازمه أن لا یتوفی إلا بعد الجمیع،و هذا ینتج المعنی الثـانی،و هو کونه (ع)حیا بعـد،و یعود إلیهم ثانیا حتی یؤمنوا به.نهایه الأمر أن یقال:إن من لا یـدرک منهم رجوعه إلیهم ثانیا یؤمن به عند موته، و من أدرک ذلک آمن به إیمانا اضطرارا أو اختیارا.

علی أن الأنسب بوقوع هذه الآیه:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ» فیما وقع فیه من السیاق أعنی بعد قوله تعالی «وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ- إلی أن قال- بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَیْهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً» أن تکون الآیه فی مقام بیان أنه لم یمت و أنه حی بعد إذ لا یتعلق ببیان إیمانهم الاضطراری و شهادته علیهم فی غیر هذه الصوره غرض ظاهر.

فهذا الذی ذکرناه یؤید کون المراد بإیمانهم به قبل الموت إیمانهم جمیعا به قبل موته(ع).

لکن هاهنا آیات أخر لا تخلو من إشعار بخلاف ذلک کقوله تعالی:« إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسیٰ إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رٰافِعُکَ إِلَیَّ وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ جٰاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ» :(آل عمران:۵۵)حیث یـدل علی أن من الکافرین بعیسـی من هو باق إلی یوم القیامه،و کقوله تعالی: «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنٰا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَیْهٰا بِکُفْرِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِیلاً» حیث إن ظاهره أنه نقمه مکتوبه علیهم،فلا یؤمن

مجتمعهم بما هو مجتمع اليهود أو مجتمع أهل الكتاب إلى يوم القيامه.

بل ظاهر ذيل قوله «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» حيث إن ذيله يدل على أنهم باقون بعد توفى عيسى(ع).

لكن الإنصاف أن الآيات لا تنافى ما مر فإن قوله «وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ» لا يدل على بقائهم إلى يوم القيامه على نعت أنهم أهل الكتاب.

و كذا قوله تعالى:« بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهٰا بِكُفْرِهِمْ» (الآيه)إنما يدل على أن الإيمان لا يستوعبهم جميعا،و لو آمنوا فى حين من الأحيان شمل الإيمان منهم قليلا من كثير.على أن قوله« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» لو دل على إيمانهم به قبل موته فإنما يدل على أصل الإيمان،و أما كونه إيمانا مقبولا غير اضطرارى فلا دلاله له على ذلك.

و كذا قوله «فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» (الآيه)مرجع الضمير فيه إنما هو الناس دون أهل الكتاب أو النصارى بدليل قوله تعالى فى صدر الكلام: «وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» XالآيهX:

(المائده:۱۱۶)،و يدل على ذلك أيضا أنه(ع)من أولى العزم من الرسل مبعوث إلى الناس كافه،و شهادته على أعمالهم تعم بنى إسرائيل و المؤمنين به و غيرهم.

و بالجمله،الذى يفيده التدبر فى سياق الآيات و ما ينضم إليها من الآيات المربوطه بها هو أن عيسى(ع)لم يتوف بقتل أو صلب و لا بالموت حتف الأنف على نحو ما نعرفه من مصداقه-كما تقدمت الإشاره إليه-و قد تكلمنا بما تيسر لنا من الكلام فى قوله تعالى «يٰا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ» :(آل عمران:۵۵)فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

و من غريب الكلام فى هذا الباب ما ذكره الزمخشرى فى الكشاف:أنه يجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم فى قبورهم فى ذلك الزمان،و يعلمهم نزوله،و ما أنزل له، و يؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم، و هذا قول بالرجعه.

و فى معنى الآيه بعض وجوه رديئه أخرى:

منها:ما يظهر من الزجاج أن ضمير قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» يرجع إلى الكتابى و أن معنى قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» أن جميعهم يقولون:إن عيسى

الذی یظهر فی آخر الزمان نحن نؤمن به.

و هذا معنی سخیف فإن الآیات مسوقه لبیان دعواهم قتل عیسی(ع)و صلبه و الرد علیهم دون کفرهم به و لا یرتبط ذلک باعترافهم بظهور مسیح فی آخر الزمان یحیی أمر شعب إسرائیل حتی یذیل به الکلام.

علی أنه لو کان المراد به ذلک لم یکن حاجه إلی ذکر قوله:« قَبْلَ مَوْتِهِ» لارتفاع الحاجه بدونه،و کذا قوله «وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» لأنه علی هذا التقدیر فضل من الکلام لا حاجه إلیه.

و منها:ما ذکره بعضهم أن المراد بالآیه:و إن من أهل الکتاب إلا لیؤمنن بمحمد قبل موت ذلک الکتابی.

و هذا فی السخافه کسابقه فإنه لم یجر لمحمد ص ذکر فی سابق الکلام حتی یعود إلیه الضمیر.و لا أن المقام یدل علی ذلک،فهو قول من غیر دلیل.نعم،ورد هذا المعنی فی بعض الروایات مما سیمر بک فی البحث الروائی التالی لکن ذلک من باب الجری کما سنشیر إلیه و هذا أمر کثیر الوقوع فی الروایات کما لا یخفی علی من تتبع فیها.

قوله تعالی: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» الفاء للتفریع،و قد نکر لفظ الظلم و کأنه للدلاله علی تفخیم أمره أو للإبهام،إذ لا یتعلق علی تشخیصه غرض مهم و هو بدل مما تقدم ذکره من فجائعهم غیر أنه لیس بدل الکل من الکل کما ربما قیل،بل بدل البعض من الکل،فإنه تعالی جعل هذا الظلم منهم سببا لتحریم الطیبات علیهم،و لم تحرم علیهم إلا فی شریعه موسی المنزله فی التوراه،و بها تختتم شریعه موسی،و قد ذکر فیما ذکر من فجائعهم و مظالمهم أمور جرت و وقعت بعد ذلک کالبهتان علی مریم و غیر ذلک.

فالمراد بالظلم بعض ما ذکر من مظالمهم الفجیعه فهو السبب لتحریم ما حرم علیهم من الطیبات بعد إحلالها.

ثم ضم إلی ذلک قوله «وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ کَثِیراً» و هو إعراضهم المتکرر عن سبیل الله «وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النّاسِ بِالْباطِلِ».

قوله تعالی:« وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً» معطوف علی قوله «حَرَّمْنا

عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ»

فقد استوجبوا بمظالمهم من الله جزاءين:جزاء دنيوى عام و هو تحريم الطيبات،و جزاء أخروى خاص بالكافرين منهم و هو العذاب الأليم.

قوله تعالى:« لٰكِنِ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» استثناء و استدراك من أهل الكتاب، و اَلرّٰاسِخُونَ» و ما عطف عليه مبتدأ و «يُؤْمِنُونَ» خبره،و قوله «مِنْهُمْ» متعلق بالراسخون و «مِنْ» فيه تبعيضيه.

و الظاهر أن «الْمُؤْمِنُونَ» يشارك «الرّٰاسِخُونَ» فى تعلق قوله «مِنْهُمْ» به معنى و المعنى:لكن الراسخون فى العلم و المؤمنون بالحقيقه من أهل الكتاب يؤمنون بك و بما أنزل من قبلك،و يؤيده التعليل الآتى فى قوله «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» (إلخ)،فإن ظاهر الآيه كما سيأتى بيان أنهم آمنوا بك لما وجدوا أن نبوتك و الوحى الذى أكرمناك به يماثل الوحى الذى جاءهم به الماضون السابقون من أنبياء الله:نوح و النبيون من بعده،و الأنبياء من آل إبراهيم،و آل يعقوب،و آخرون ممن لم نقصصهم عليك من غير فرق.

و هذا المعنى-كما ترى-أنسب بالمؤمنين من أهل الكتاب أن يوصفوا به دون المؤمنين من العرب الذين وصفهم الله سبحانه بقوله «لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ» :(يس:۶).

و قوله« وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰةَ» معطوف على «الرّٰاسِخُونَ» و منصوب على المدح،و مثله فى العطف قوله «وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ» و قوله «وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» مبتدأ خبره قوله «أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً» و لو كان قوله «وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰةَ» مرفوعا كما نقل عن مصحف ابن مسعود كان هو و ما عطف عليه مبتدأ خبره قوله «أُولٰئِكَ» .

قال فى المجمع:اختلف فى نصب المقيمين فذهب سيبويه و البصريون إلى أنه نصب على المدح على تقدير أعنى المقيمين الصلاه،قالوا:إذا قلت،مررت بزيد الكريم و أنت تريد أن تعرف زيدا الكريم من زيد غير الكريم فالوجه الجر،و إذا أردت المدح و الثناء فإن شئت نصبت و قلت:مررت بزيد الكريم كأنك قلت:أذكر الكريم،و إن شئت رفعت فقلت:الكريم،على تقدير هو الكريم.

و قال الكسائى،موضع المقيمين جر،و هو معطوف«على»ما من قوله «بِمٰا أُنْزِلَ

إِلَیْکَ»

أی و بالمقیمین الصلاه.

و قال قوم:إنه معطوف علی الهاء و المیم من قوله «مِنْهُمْ» علی معنی:لکن الراسخون فی العلم منهم و من المقیمین الصلاه،و قال آخرون:إنه معطوف علی الکاف من «قَبْلِکَ» أی مما أنزل من قبلک و من قبل المقیمین الصلاه.

و قیل:إنه معطوف علی الکاف فی «إِلَیْکَ» أو الکاف فی قبلک.و هذه الأقوال الأخیره لا تجوز عند البصریین لأنه لا یعطف بالظاهر علی الضمیر المجرور من غیر إعاده الجار.

قال:و أما ما روی عن عروه عن عائشه قال:سألتها عن قوله «وَ الْمُقِیمِینَ الصَّلاٰهَ» و عن قوله« وَ الصّٰابِئِینَ» و عن قوله «إِنْ هٰذٰانِ» فقالت:یا ابن أختی هذا عمل الکتاب أخطئوا فی الکتاب،و ما روی عن بعضهم:أن فی کتاب الله أشیاء ستصلحها العرب بألسنتها،قالوا:و فی مصحف ابن مسعود: «و المقیمون الصلاه» فمما لا یلتفت إلیه لأنه لو کان کذلک لم یکن لیعلمه الصحابه الناس علی الغلط و هم القدوه و الذین أخذوه عن النبی ص(انتهی).

و بالجمله قوله «لٰکِنِ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ» استثناء من أهل الکتاب من حیث لازم سؤالهم النبی ص أن ینزل علیهم کتابا من السماء کما تقدم أن لازم سؤالهم ذلک أن لا یکفی ما جاءهم النبی ص من الکتاب و الحکمه المصدقین لما أنزل من قبله من آیات الله علی أنبیائه و رسله،فی دعوتهم إلی الحق و إثباته،مع أنه(ص)لم یأتهم إلا مثل ما أتاهم به من قبله من الأنبیاء،و لم یعش فیهم و لم یعاشرهم إلا بما عاشوا به و عاشروا به کما قال تعالی «قُلْ مٰا کُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» :(الأحقاف:۹)و قال تعالی: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ وَ مٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَداً لاٰ یَأْکُلُونَ الطَّعٰامَ وَ مٰا کٰانُوا خٰالِدِینَ X-إلی أن قال-X لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکُمْ کِتٰاباً فِیهِ ذِکْرُکُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ» :(الأنبیاء:۱۰).

فذکر الله سبحانه فی فصل من القول:أن هؤلاء السائلین و هم أهل الکتاب لیست عندهم سجیه اتباع الحق و لا ثبات و لا عزم و لا رأی،و کم من آیه بینه ظلموها،و دعوه حق صدوا عنها،إلا أن الراسخین فی العلم منهم لما کان عندهم ثبات علی علمهم و ما وضح من الحق لدیهم،و کذا المؤمنون حقیقه منهم لما کان عندهم سجیه اتباع الحق یؤمنون بما

أنزل إليـک و مـا أنزل من قبلک لما وجـدوا أن الـذى نزل إليک من الوحى يماثل ما نزل من قبلک على سائر النبيين:نوح و من بعده.

و من هنـا يظهر(أولا)وجه توصـيف من اتبع النبى ص من أهل الكتاب بالراسـخين فى العلم و المؤمنين،فإن الآيات السابقه تقص عنهم أنهم غير راسخين فيما علموا غير مستقرين على شىء من الحق و إن استوثق منهم بأغلظ المواثيق،و أنهم غير مؤمنين بآيات الله صادون عنها و إن جاءتهم البينات،فهؤلاء الذين استثناهم الله راسخون فى العلم أو مؤمنون حقيقه.

و(ثانيـا)وجه ذكر مـا أنزل قبلاـ مع القرآن فى قوله«يؤمنون بمـا أنزل إليـک و مـا أنزل من قبلـک)لأن المقام مقام نفى الفرق بين القبيلين.

و(ثالثا)أن قوله فى الآيه التاليه :«إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا» (إلخ)فى مقام التعليل لإيمان هؤلاء المستثنين.

قوله تعـالى :«إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْـدِهِ» فى مقام التعليل لقوله «يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» كما عرفت آنفـا.و محصـل المعنى-و الله أعلم- أنهم آمنوا بمـا أنزل إليک لأنا لم نؤتک أمرا مبتـدعا يختص من الـدعاوى و الجهات بما لا يوجـد عنـد غيرک من الأنبيـاء السابقين،بل الأمر على نهـج واحـد لا اختلاف فيه،فإنا أوحينا إليک كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعـده،و نوح أول نبى جـاء بكتـاب و شـريعه، و كمـا أوحينـا إلى إبراهيم و من بعـده من آله،و هم يعرفونهم و يعرفون كيفيه بعثتهم و دعوتهم، فمنهم من أوتى بكتاب كداود أوتى زبورا و هو وحى نبوى،و موسى أوتى التكليم و هو وحى نبوى،و غيرهما كإسماعيل و إسحاق و يعقوب أرسلوا بغير كتاب،و ذلک أيضا عن وحى نبوى.

و يجمع الجميع أنهم رسل مبشـرون بثواب الله منذرون بعذابه،أرسـلهم الله لإتمام الحجه على الناس ببيان ما ينفعهم و ما يضـرهم فى أخراهم و دنياهم لئلا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل.

قوله تعالى:« وَ الْأَسْبٰاطِ» تقـدم فى قوله تعالى:« وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ» :(آل عمران:۸۴)أنهم أنبياء من ذريه يعقوب أو من أسـباط بنى إسرائيل.

ص :۱۴۰

قوله تعالى: «وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً» قيل إنه بمعنى المكتوب من قولهم :زبره أى كتبه فالزبور بمعنى المزبور.

قوله تعالى:« رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ» أحوال ثلاثه أو الأول حال و الأخيران وصفان له.و قد تقدم استيفاء البحث عن معنى إرسال الرسل و تمام الحجه من الله على الناس،و أن العقل لا يغنى وحده عن بعثه الأنبياء بالشرائع الإلهيه فى الكلام على قوله تعالى:« كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» :(سوره البقره:۲۱۳)فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قوله تعالى :«وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً» و إذا كانت له العزه المطلقه و الحكمه المطلقه استحال أن يغلبه أحد بحجه بل له الحجه البالغه،قال تعالى:« قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ»:

(الأنعام:۱۴۹).

قوله تعالى:« لكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ»، استدراك آخر فى معنى الاستثناء المنقطع من الرد المتعلق بسؤالهم النبى ص تنزيل كتاب إليهم من السماء،فإن الذى ذكر الله تعالى فى رد سؤالهم بقوله« فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ» (إلى آخر الآيات)لازم معناه أن سؤالهم مردود إليهم،لأن ما جاء به النبى ص بوحى من ربه لا يغاير نوعا ما جاء به سائر النبيين من الوحى،فمن ادعى أنه مؤمن بما جاءوا به فعليه أن يؤمن بما جاء به من غير فرق.

ثم استدرك عنه بأن الله مع ذلك يشهد بما أنزل على نبيه و الملائكه يشهدون و كفى بالله شهيدا.

و متن شهادته قوله« أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» فإن مجرد النزول لا يكفى فى المدعى،لأن من أقسام النزول النزول بوحى من الشياطين،بأن يفسد الشيطان أمر الهدايه الإلهيه فيضع سبيلا باطلا مكان سبيل الله الحق،أو يخلط فيدخل شيئا من الباطل فى الوحى الإلهى الحق فيختلط الأمر،كما يشير إلى نفيه بقوله:« عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً» :(الجن:۲۸) و قال تعالى: «وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ» :(الأنعام.۱۲۱).

و بالجمله فالشهاده على مجرد النزول أو الإنزال لا يخرج الدعوى عن حال الإبهام

لكن تقييده بقوله «بِعِلْمِهِ» يوضح المراد كل الوضوح،و يفيد أن الله سبحانه أنزله إلى رسوله و هو يعلم ما ذا ينزل،و يحيط به و يحفظه من كيد الشياطين.

و إذا كانت الشهاده على الإنزال و الإنزال إنما هو بواسطه الملائكه كما يدل عليه قوله تعالى:« مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ» :(البقره:٩٧)و قال تعالى فى وصف هذا الملك المكرم :«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :(التكوير:٢١)فدل على أن تحت أمره ملائكه أخرى و هم الذين ذكرهم إذ قال:« كَلاّٰ إِنَّهٰا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ ذَكَرَهُ فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرٰامٍ بَرَرَةٍ» :(عبس:١۶).

و بالجمله لكون الملائكه وسائط فى الإنزال فهم أيضا شهداء كما أنه تعالى شهيد و كفى بالله شهيدا.

و الدليل على شهادته تعالى ما أنزله فى كتابه من آيات التحدى كقوله تعالى:« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» :(إسراء:٨٨)و قوله «أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» :(النساء:٨٢)،و قوله« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ :(يونس.٣٨).

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِيداً» لما ذكر تعالى الحجه البالغه فى رساله نبيه و نزول كتابه من عند الله،و أنه من سنخ الوحى الذى أوحى إلى النبيين من قبله و أنه مقرون بشهادته و شهاده ملائكته و كفى به شهيدا حقق ضلال من كفر به و أعرض عنه كائنا من كان من أهل الكتاب.

و فى الآيه تبديل الكتاب الذى كان الكلام فى نزوله من عند الله بسبيل الله حيث قال :«وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ» و فيه إيجاز لطيف كأنه قيل:إن الذين كفروا و صدوا عن هذا الكتاب و الوحى الذى يتضمنه فقد كفروا و صدوا عن سبيل الله و الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله(إلخ).

قوله تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ» (إلخ)تحقيق و تثبيت آخر مقامه التأكيد من الآيه السابقه،و على هذا يكون المراد بالظلم هو الصد عن

سبیل الله کما هو ظاهر.

و یمکن أن یکون الآیه فی مقام التعلیل بالنسبه إلی الآیه السابقه،یبین فیها وجه ضلالهم البعید و المعنی ظاهر.

(بحث روائی)

و فی تفسیر البرهان،:فی قوله تعالی:« وَ قَوْلِهِمْ عَلیٰ مَرْیَمَ بُهْتٰاناً عَظِیماً» :عن ابن بابویه بإسناده عن علقمه عن الصادق(ع)فی حدیث قال: أ لم ینسبوا مریم بنت عمران إلی أنها حملت بصبی-من رجل نجار اسمه یوسف؟

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ-إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» (الآیه)":قال:حدثنی أبی،عن القاسم بن محمد عن سلیمان بن داود المنقری،عن أبی حمزه،عن شهر بن حوشب": قال لی الحجاج:یا شهر آیه فی کتاب الله قد أعیتنی-فقلت:

أیها الأمیر أیه آیه هی؟فقال:قوله« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» و الله إنی لأمر بالیهودی و النصرانی فیضرب عنقه-ثم أرمقه بعینی فما أراه یحرک شفتیه حتی یخمد،فقلت:أصلح الله الأمیر لیس علی ما أولت-قال:کیف هو:قلت:إن عیسی ینزل قبل یوم القیامه إلی الدنیا،فلا یبقی أهل مله یهودی و لا غیره إلا آمن به قبل موته،و یصلی خلف المهدی قال:ویحک أنی لک هذا؟و من أین جئت به؟فقلت:حدثنی به محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب(ع)فقال:و الله جئت بها من عین صافیه

و فی الدر المنثور:أخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب قال: قال لی الحجاج:

یا شهر آیه من کتاب الله ما قرأتها-إلا اعترض فی نفسی منها شیء قال الله:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» و إنی أوتی بالأساری فأضرب أعناقهم-و لا أسمعهم یقولون شیئا،فقلت:رفعت إلیک علی غیر وجهها،إن النصرانی إذا خرجت روحه-ضربته الملائکه من قبله و من دبره-و قالوا:أی خبیث إن المسیح الذی زعمت أنه الله أو ابن الله- أو ثالث ثلاثه عبد الله و روحه و کلمته-فیؤمن حین لا ینفعه إیمانه،و إن الیهودی إذا خرجت نفسه-ضربته الملائکه من قبله و من دبره،و قالوا:أی خبیث إن المسیح الذی زعمت أنک قتلته،عبد الله و روحه فیؤمن به حین لا ینفعه الإیمان،فإذا کان عند نزول عیسی-

آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم:فقال:من أين أخذتها؟فقلت:من محمد بن علی-قال:لقد أخذتها من معدنها.قال شهر:و ايم الله ما حدثنيه إلا أم سلمه،و لكنی أحببت أن أغيظه:

أقول:و رواه أيضا ملخصا عن عبد بن حميد و ابن المنذر،عن شهر بن حوشب، عن محمد بن علی بن أبی طالب و هو ابن الحنفيه ،و الظاهر أنه روی عن محمد بن علی، ثم اختلف الرواه فی تشخيص ابن الحنفيه أو الباقر(ع)،و الروايه-كما تری-تؤيد ما قدمناه فی بيان معنی الآيه

و فيه،أخرج أحمد و البخاری و مسلم و البيهقی فی الأسماء و الصفات قال:قال رسول الله ص: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم؟.

و فيه:أخرج ابن مردويه عن أبی هريره قال: قال رسول الله ص: يوشک أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال،و يقتل الخنزير،و يكسر الصليب،و يضع الجزيه،و يقبض المال،و تكون السجده واحده لله رب العالمين،و اقرءوا إن شئتم:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» -موت عيسی بن مريم.ثم يعيدها أبو هريره ثلاث مرات.

أقول:و الروايات فی نزول عيسی(ع)عند ظهور المهدی(ع)مستفيضه من طرق أهل السنه،و كذا من طرق الشيعه عن النبی و الأئمه من أهل بيته عليهم الصلاه و السلام.

و فی تفسير العياشی،عن الحارث بن مغيره:عن أبی عبد الله(ع) فی قول الله« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ-قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» -قال:هو رسول الله ص.

أقول:ظاهره و إن كان مخالفا لظاهر سياق الآيات المتعرضه لأمر عيسی(ع) لكن يمكن أن يراد به بيان جری القرآن،بمعنی أنه بعد ما بعث رسول الله ص و جاء بكتاب و شريعه ناسخه لشريعه عيسی كان علی كل كتابی أن يؤمن به و يؤمن بعيسی و من قبله فی ضمن الإيمان به،فلو انكشف لكتابی عند الاحتضار مثلا حقيه رساله عيسی بعد بعثه رسول الله محمد ص فإنما ينكشف فی ضمن انكشاف حقيه رساله محمد ص، فإيمان كل كتابی لعيسی(ع)إنما يعد إيمانا إذا آمن بمحمد ص أصاله و بعيسی(ع)

تبعا، فالذی یؤمن به کل کتابی حقیقه و یکون علیهم یوم القیامه شهیدا هو محمد ص بعد بعثته،و إن کان عیسی(ع)کذلک أیضا فلا منافاه،و الخبر التالی لا یخلو من ظهور ما فی هذا المعنی.

و فیه،عن ابن سنان عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله فی عیسی :«وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ-قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» -فقال:إیمان أهل الکتاب إنما هو لمحمد ص.

و فیه،عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ-قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» قال:لیس من أحد من جمیع الأدیان یموت-إلا رأی رسول الله ص و أمیر المؤمنین(ع)-حقا من الأولین و الآخرین.

أقول:و کون الروایه من الجری أظهر.علی أن الروایه غیر صریحه فی کون ما ذکره(ع)ناظرا إلی تفسیر الآیه و تطبیقها،فمن المحتمل أن یکون کلاما أورد فی ذیل الکلام علی الآیه و لذلک نظائر فی الروایات.

و فیه،عن المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» -فقال:هذه نزلت فینا خاصه،إنه لیس رجل من ولد فاطمه یموت و لا یخرج من الدنیا-حتی یقر للإمام و بإمامته،کما أقر ولد یعقوب لیوسف حین قالوا:« تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللّٰهُ عَلَیْنٰا» .

أقول:الروایه من الآحاد،و هی مرسله،و فی معناها روایات مرویه فی ذیل قوله تعالی: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتٰابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَیْرٰاتِ بِإِذْنِ اللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ» (فاطر:۳۲)سنستوفی الکلام فیها إن شاء الله تعالی.

و فیه،:فی قوله تعالی :«إِنّٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ-کَمٰا أَوْحَیْنٰا إِلیٰ نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ» (الآیه):عن زراره و حمران عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع)قال: إنی أوحیت إلیک کما أوحیت إلی نوح و النبیین من بعده-فجمع له کل وحی.

أقول:الظاهر أن المراد أنه لم یشذ عنه(ص)من سنخ الوحی ما یوجب تفرق

السبيل و تفاوت الدعوه،لا أن كل ما أوحى به إلى نبى على خصوصياته فقد أوحى إلى رسول الله ص فهذا مما لا معنى له،و لا أن ما أوحى إليك جامع لجميع الشرائع السابقه، فإن الكلام فى الآيه غير موضوع لإفاده هذا المعنى،و يؤيد ما ذكرناه من المعنى الخبر التالى.

و فى الكافى،بإسناده عن محمد بن سالم عن أبى جعفر(ع): قال الله لمحمد ص:

«إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ»،

و أمر كل نبى بالسبيل و السنه.

و فى تفسير العياشى،عن الثمالى عن أبى جعفر(ع)قال: و كان بين آدم و بين نوح- من الأنبياء مستخفين و مستعلنين،و لذلك خفى ذكرهم فى القرآن فلم يسموا-كما سمى من استعلن من الأنبياء،و هو قول الله عز و جل:« وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً» -يعنى لم أسم المستخفين كما سميت المستعلنين من الأنبياء.

أقول:و رواه فى الكافى،عن على بن إبراهيم،عن أبيه،عن الحسن بن محبوب،عن محمد بن الفضيل،عن أبى حمزه عنه(ع) ،و فيه:من الأنبياء مستخفين،و لذلك خفى ذكرهم فى القرآن-فلم يسموا كما سمى من استعلن من الأنبياء،و هو قول الله عز و جل.

« رُسُلاً قَدْ قَصَصْنٰاهُمْ عَلَيْكَ»مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ -يعنى لم أسم المستخفين-كما سميت المستعلنين من الأنبياء (الحديث).

و المراد بالروايه على أى حال أن الله تعالى لم يذكر قصه المستخفين أصلا و لا سماهم، كما قص بعض قصص المستعلنين و سمى من سمى منهم.و من الجائز أن يكون قوله:«يعنى لم أسم»(إلخ)من كلام الراوى.

و فى تفسير العياشى،عن أبى حمزه الثمالى قال:سمعت أبا جعفر(ع)يقول: لكن الله يشهد بما أنزل إليك فى على-أنزله بعلمه و الملائكه يشهدون و كفى بالله شهيدا.

أقول:و روى هذا المعنى القمى فى تفسيره مسندا عن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع)و هو من قبيل الجرى و التطبيق فإن من القرآن ما نزل فى ولايته(ع)،و ليس المراد به تحريف الكتاب و لا هو قراءه منه(ع).

و نظيره ما رواه فى الكافى،و تفسير العياشى،عن أبى جعفر(ع)،و القمى فى تفسيره،عن أبى عبد الله(ع):

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا

-آل محمد حقهم لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ (الآيه

و ما رواه فى المجمع،عن أبى جعفر(ع): فى قوله «قَدْ جٰاءَكُمُ الرَّسُولُ

بِالْحَقِّ»

-أى بولايه من أمر الله بولايته.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۷۰ الى ۱۷۵]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلنّاسُ قَدْ جاءَكُمُ اَلرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّهِ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ كانَ اَللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰) يا أَهْلَ اَلْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اَللّهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ إِنَّمَا اَلْمَسِيحُ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اَللّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ اِنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اَللّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي اَلسَّماواتِ وَ ما فِي اَلْأَرْضِ وَ كَفى بِاللّهِ وَكِيلاً (۱۷۱) لَنْ يَسْتَنْكِفَ اَلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّهِ وَ لاَ اَلْمَلائِكَةُ اَلْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (۱۷۲) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا اَلَّذِينَ اِسْتَنْكَفُوا وَ اِسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۷۳) يا أَيُّهَا اَلنّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (۱۷۴) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ اِعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَهٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵)

ص: ۱۴۷

(بيان)

بعد ما أجاب عما اقترحه أهل الكتاب من سؤالهم رسول الله ص تنزيل كتاب من السماء ببيان أن رسوله إنما جاء بالحق من عند ربه،و أن الكتاب الذى جاء به من عند ربه حجه قاطعه لا ريب فيها استنتج منه صحه دعوه الناس كافه إلى نبيه و كتابه.

و قد كان بين فيما بين أن جميع رسله و أنبيائه-و قد ذكر فيهم عيسى-على سنه واحده متشابهه الأجزاء و الأطراف،و هى سنه الوحى من الله فاستنتج منه صحه دعوه النصارى و هم أهل كتاب و وحى إلى أن لا يغلوا فى دينهم، و أن يلحقوا بسائر الموحدين من المؤمنين،و يقروا فى عيسى بما أقروا به هم و غيرهم فى سائر الأنبياء أنهم عباد الله و رسله إلى خلقه.

فأخذ تعالى يدعو الناس كافه إلى الإيمان برسوله(ص)لأن المبين أولا هو صدق نبوته فى قوله «إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» (الآيات).

ثم دعا إلى عدم الغلو فى حق عيسى(ع)لأنه المتبين ثانيا فى ضمن الآيات المذكوره ثم دعا إلى اتباع كتابه و هو القرآن الكريم لأنه المبين أخيرا فى قوله تعالى:

«لٰكِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» (الآيه).

قوله تعالى:«يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ»، خطاب عام لأهل الكتاب و غيرهم من الناس كافه،متفرع على ما مر من البيان لأهل الكتاب،و إنما عمم الخطاب لصلاحيه المدعو إليه و هو الإيمان بالرسول كذلك لعموم الرساله.

و قوله «خَيْراً لَكُمْ» حال من الإيمان و هى حال لازمه أى حال كون الإيمان من صفته اللازمه أنه خير لكم.

و قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ»، أى إن تكفروا لم يزد كفركم عليكم شيئا،و لا ينقص من الله سبحانه شيئا،فإن كل شىء مما فى السماوات و الأرض لله فمن المحال أن يسلب منه تعالى شىء من ملكه فإن فى طباع كل شىء مما فى السماوات و الأرض أنه لله لا شريك له فكونه موجودا و كونه مملوكا شىء واحد بعينه،فكيف يمكن أن ينزع من ملكه تعالى شىء و هو شىء؟.

و الآیه من الکلمات الجامعه التی کلما أمعنت فی تدبرها أفادت زیاده لطف فی معناها و سعه عجیبه فی تبیانها،فإحاطه ملکه تعالی علی الأشیاء و آثارها تعطی فی الکفر و الإیمان و الطاعه و المعصیه معانی لطیفه،فعلیک بزیاده التدبر فیها.

قوله تعالی :«یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لاَ تَقُولُوا عَلَی اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ»، ظاهر الخطاب بقرینه ما یذکر فیه من أمر المسیح(ع)أنه خطاب للنصاری،و إنما خوطبوا بأهل الکتاب-و هو وصف مشترک-إشعارا بأن تسمیهم بأهل الکتاب یقتضی أن لا یتجاوزوا حدود ما أنزله الله و بینه فی کتبه،و مما بینه أن لا یقولوا علیه إلا الحق.

و ربما أمکن أن یکون خطابا للیهود و النصاری جمیعا،فإن الیهود أیضا کالنصاری فی غلوهم فی الدین،و قولهم علی الله غیر الحق،کما قال تعالی :«وَ قَالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللّهِ :التوبه:۳۰)،و قال تعالی:« اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ»:

(التوبه:۳۱)،و قال تعالی:« قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ تَعَالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوَاءٍ بَیْنَنَا وَ بَیْنَکُمْ X -إلی أن قال-X وَ لاَ یَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ» :(آل عمران:۶۴).

و علی هذا فقوله :«إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّهِ» (إلخ)تخصیص فی الخطاب بعد التعمیم أخذا بتکلیف طائفه من المخاطبین بما یخص بهم.

هذا،لکن یبعده أن ظاهر السیاق کون قوله: «إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّهِ»، تعلیلا لقوله:« لاَ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ»، و لازمه اختصاص الخطاب بالنصاری و قوله «إِنَّمَا الْمَسِیحُ» أی المبارک «عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ» تصریح بالاسم و اسم الأم لیکون أبعد من التفسیر و التأویل بأی معنی مغایر،و لیکون دلیلا علی کونه إنسانا مخلوقا کأی إنسان ذی أم.« وَ کَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلیٰ مَرْیَمَ» تفسیر لمعنی الکلمه،فإنه کلمه«کن»التی ألقیت إلی مریم البتول،لم یعمل فی تکونه الأسباب العادیه کالنکاح و الأب،قال تعالی:« إِذَا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمَا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ» :(آل عمران:۴۷)فکل شیء کلمه له تعالی غیر أن سائر الأشیاء مختلطه بالأسباب العادیه،و الذی اختص لأجله عیسی(ع)بوقوع اسم الکلمه هو فقدانه بعض الأسباب العادیه فی تولده «وَ رُوحٌ مِنْهُ» و الروح من الأمر،قال تعالی:

«قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» :(إسراء:۸۵)و لما کان عیسی(ع)کلمه«کن»التکوینیه و هی أمر فهو روح.

و قد تقدم البحث عن الآيه فی الکلام علی خلقه المسیح فی الجزء الثالث من هذا الکتاب.

قوله تعالی:« فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَهٌ انْتَهُوا خَیْراً لَکُمْ إِنَّمَا اللّٰهُ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» تفریع علی صدر الکلام بما أنه معلل بقوله:« إِنَّمَا الْمَسِیحُ» (إلخ)أی فإذا کان کذلک وجب علیکم الإیمان علی هذا النحو،و هو أن یکون إیمانا بالله بالربوبیه و لرسله-و منهم عیسی-بالرساله،و لا تقولوا ثلاثه انتهوا حال کون الانتهاء أو حال کون الإیمان بالله و رسله و نفی الثلاثه خیرا لکم.

و الثلاثه هم الأقانیم الثلاثه:الأب و الابن و روح القدس،و قد تقدم البحث عن ذلک فی الآیات النازله فی أمر المسیح(ع)من سوره آل عمران.

قوله تعالی:« سُبْحٰانَهُ أَنْ یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ»، السبحان مفعول مطلق مقدر الفعل،یتعلق به قوله:« أَنْ یَکُونَ»، و هو منصوب بنزع الخافض،و التقدیر:أسبحه تسبیحا و أنزهه تنزیها من أن یکون له ولد،و الجمله اعتراض مأتی به للتعظیم.

و قوله« لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» حال أو جمله استیناف،و هو علی أی حال احتجاج علی نفی الولد عنه سبحانه،فإن الولد کیفما فرض هو الذی یماثل المولد فی سنخ ذاته متکونا منه،و إذا کان کل ما فی السماوات و الأرض مملوکا فی أصل ذاته و آثاره لله تعالی و هو القیوم لکل شیء وحده فلا یماثله شیء من هذه الأشیاء فلا ولد له.

و المقام مقام التعمیم لکل ما فی الوجود غیر الله عز اسمه و لازم هذا أن یکون قوله «مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» تعبیرا کنائیا عن جمیع ما سوی الله سبحانه إذ نفس السماوات و الأرض مشموله لهذه الحجه،و لیست مما فی السماوات و الأرض بل هی نفسها.

ثم لما کان ما فی الآیه من أمر و نهی هدایه عامه لهم إلی ما هو خیر لهم فی دنیاهم و أخراهم ذیل الکلام بقوله «وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً» أی ولیا لشئونکم،مدبرا لأمورکم، یهدیکم إلی ما هو خیر لکم و یدعوکم إلی صراط مستقیم.

قوله تعالی:« لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِکَهُ الْمُقَرَّبُونَ» احتجاج آخر علی نفی ألوهیه المسیح(ع)مطلقا سواء فرض کونه ولدا أو أنه ثالث

ثلاثه،فإن المسيح عبد لله لن يستنكف أبدا عن عبادته،و هذا مما لا ينكره النصارى، و الأناجيل الدائره عندهم صريحه فى أنه كان يعبد الله تعالى،و لا معنى لعباده الولد الذى هو سنخ إله و لا لعباده الشىء لنفسه و لا لعباده أحد الثلاثه لثالثها الذى ينطبق وجوده على كل منها،و قد تقدم الكلام على هذا البرهان فى مباحث المسيح(ع).

و قوله «وَ لاَ الْمَلاٰئِكَهُ الْمُقَرَّبُونَ» تعميم للكلام على الملائكه لجريان الحجه بعينها فيهم و قد قال جماعه من المشركين- كمشركى العرب-:بكونهم بنات الله فالجمله استطراديه.

و التعبير فى الآيه أعنى قوله «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَهُ الْمُقَرَّبُونَ» عن عيسى(ع)بالمسيح،و كذا توصيف الملائكه بالمقربين مشعر بالعليه لما فيهما من معنى الوصف،أى إن عيسى لن يستنكف عن عبادته و كيف يستنكف و هو مسيح مبارك؟و لا الملائكه و هم مقربون؟و لو رجى فيهم أن يستنكفوا لم يبارك الله فى هذا و لا قرب هؤلاء،و قد وصف الله المسيح أيضا بأنه مقرب فى قوله:« وَجِيهاً فِى الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» :(آل عمران:۴۵).

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً» حال.

من المسيح و الملائكه و هو فى موضع التعليل أى و كيف يستنكف المسيح و الملائكه المقربون عن عبادته و الحال أن الذين يستنكفون عن عبادته و يستكبرون من عباده من الإنس و الجن و الملائكه يحشرون إليه جميعا،فيجزون حسب أعمالهم،و المسيح و الملائكه يعلمون ذلك و يؤمنون به و يتقونه.

و من الدليل على أن قوله:« وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ» (إلخ)فى معنى أن المسيح و الملائكه المقربين عالمون بأن المستنكفين يحشرون إليه قوله «وَ يَسْتَكْبِرْ» إنما قيد به قوله «وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ» لأن مجرد الاستنكاف لا يوجب السخط الإلهى إذا لم يكن عن استكبار كما فى الجهلاء و المستضعفين،و أما المسيح و الملائكه فإن استنكافهم لا يكون إلا عن استكبار لكونهم عالمين بمقام ربهم،و لذلك اكتفى بذكر الاستنكاف فحسب فيهم،فيكون معنى تعليل هذا بقوله:« وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ»، أنهم عالمون بأن من يستنكف عن عبادته(إلخ».

و قوله «جَمِيعاً» أى صالحا و طالحا و هذا هو المصحح للتفضيل الذى يتلوه من قوله:

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ»

(إلخ).

قوله تعالى:« وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» التعرض لنفى الولى و النصير مقابله لما قيل به من ألوهيه المسيح و الملائكه.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً قال الراغب:البرهان بيان للحجه،و هو فعلان مثل الرجحان و الثنيان.و قال بعضهم:

هو مصدر بره يبره إذا ابيض.انتهى،فهو على أى حال مصدر.و ربما استعمل بمعنى الفاعل كما إذا أطلق على نفس الدليل و الحجه.

و المراد بالنور هو القرآن لا محاله بقرينه قوله «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ» و يمكن أن يراد بالبرهان أيضا ذلك،و الجملتان إذا تؤكد إحداهما الأخرى.

و يمكن أن يراد به النبى ص،و يؤيده وقوع الآيه فى ذيل الآيات المبينه لصدق النبى فى رسالته،و نزول القرآن من عند الله تعالى،و كون الآيه تفريعا لذلك و يؤيده أيضا قوله تعالى فى الآيه التاليه. «وَ اعْتَصَمُوا بِهِ» لما تقدم فى الكلام على قوله «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» :(آل عمران.١٠١)إن المراد بالاعتصام الأخذ بكتاب الله و الاتباع لرسوله(ص).

قوله تعالى :«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ»، بيان لثواب من اتبع برهان ربه و النور النازل من عنده.

و الآيه كأنها منتزعه من الآيه السابقه المبينه لثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات أعنى قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، و لعله لذلك لم يذكر هاهنا جزاء المتخلف من تبعيه البرهان و النور،لأنه بعينه ما ذكر فى الآيه السابقه،فلا حاجه إلى تكراره ثانيا بعد الإشعار بأن جزاء المتبعين هاهنا جزاء المتبعين هنالك،و ليس هناك إلا فريقان:المتبعون و المتخلفون.

و على هذا فقوله فى هذه الآيه:« فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ» يحاذى قوله فى تلك الآيه:« فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ» و هو الجنه،و أيضا قوله فى هذه الآيه:« وَ فَضْلٍ» يحاذى قوله فى تلك الآيه:« وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أما قوله «وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» فهو

من آثار ما ذکر فیها من الاعتصام بالله کما فی قوله: «وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِیَ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ :(آل عمران:۱۰۱).

[سوره النساء (۴): آیه ۱۷۶]

اشاره

یَسْتَفْتُونَکَ قُلِ اَللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِی اَلْکَلاٰلَهِ إِنِ اِمْرُؤٌ هَلَکَ لَیْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَکَ وَ هُوَ یَرِثُهٰا إِنْ لَمْ یَکُنْ لَهٰا وَلَدٌ فَإِنْ کٰانَتَا اِثْنَتَیْنِ فَلَهُمَا اَلثُّلُثٰانِ مِمّٰا تَرَکَ وَ إِنْ کٰانُوا إِخْوَهً رِجٰالاً وَ نِسٰاءً فَلِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَیَیْنِ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۷۶)

(بیان)

آیه تبین فرائض الکلاله من جهه الأبوین أو الأب علی ما یفسرها به السنه،کما أن ما ذکر من سهام الکلاله فی أول السوره سهام کلاله الأم بحسب البیان النبوی،و من الدلیل علی ذلک أن الفرائض المذکوره هاهنا أکثر مما ذکر هناک، و من المستفاد من الآیات أن سهام الذکور أکثر من سهام الإناث.

قوله تعالی: «یَسْتَفْتُونَکَ قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِی الْکَلاٰلَهِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَکَ لَیْسَ لَهُ وَلَدٌ»، قد تقدم الکلام فی معنی الاستفتاء و الإفتاء و معنی الکلاله فی الآیات السابقه من السوره.

و قوله «لَیْسَ لَهُ وَلَدٌ» ظاهره الأعم من الذکر و الأنثی علی ما یفیده إطلاق الولد وحده.و قال فی المجمع:،فمعناه:لیس له ولد و لا والد،و إنما أضمرنا فیه الوالد للإجماع، انتهی.و لو کان لأحد الأبوین وجود لم تخل الآیه من ذکر سهمه فالمفروض عدمهما.

و قوله «وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَکَ وَ هُوَ یَرِثُهٰا إِنْ لَمْ یَکُنْ لَهٰا وَلَدٌ» سهم الأخت من أخیها،و الأخ من أخته،و منه یظهر سهم الأخت من أختها و الأخ من أخیه،و لو کان للفرضین الأخیرین فریضه أخری لذکرت.

ص:۱۵۳

على أن قوله «وَ هُوَ يَرِثُهٰا» فى معنى قولنا لو انعكس الأمر-أى كان الأخ مكان الأخت-لذهب بالجميع،و على أن قوله «فَإِنْ كٰانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثٰانِ مِمّٰا تَرَكَ وَ إِنْ كٰانُوا إِخْوَةً رِجٰالاً وَ نِسٰاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» و هو سهم الأختين،و سهم الإخوه لم يقيد فيهما الميت بكونه رجلا أو امرأه فلا دخل لذكور الميت و أنوثته فى السهام.

و الذى صرحت به الآيه من السهام سهم الأخت الواحده،و الأخ الواحد،و الأختين، و الإخوه المختلطه من الرجال و النساء،و من ذلك يعلم سهام باقى الفروض:منها:الأخوان يذهبان بجميع المال و يقتسمان بالسويه يعلم ذلك من ذهاب الأخ الواحد بالجميع، و منها الأخ الواحد مع أخت واحده،و يصدق عليهما الإخوه كما تقدم فى أول السوره فيشمله «وَ إِنْ كٰانُوا إِخْوَةً» على أن السنه مبينه لجميع ذلك.

و السهام المذكوره تختص بما إذا كان هناك كلاله الأب وحده،أو كلاله الأبوين وحده، و أما إذا اجتمعا كالأخت لأبوين مع الأخت لأب.لم ترث الأخت لأب و قد تقدم ذكره فى الكلام على آيات أول السوره.

قوله تعالى:« يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا»، أى حذر أن تضلوا،أو لئلا تضلوا و هو شائع فى الكلام،قال عمرو بن كلثوم.

«فعجلنا القرى أن تشتمونا».

(بحث روائى)

فى المجمع،عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: اشتكيت و عندى تسعه أخوات لى-أو سبع-فدخل على النبى ص فنفخ فى وجهى فأفقت،فقلت:يا رسول الله أ لا أوصى لأخواتى بالثلثين؟قال:أحسن،قلت:الشطر؟قال أحسن،ثم خرج و تركنى و رجع إلى- فقال:يا جابر إنى لا أراك ميتا من وجعك هذا،و إن الله قد أنزل فى الذى لأخواتك فجعل لهن الثلثين.

قالوا:و كانوا جابر يقول:أنزلت هذه الآيه فى.

أقول:و روى ما يقرب عنه فى الدر المنثور،

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه و البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی و ابن ضریس و ابن جریر و ابن المنذر و البیهقی فی الدلائل عن البراء قال" :آخر سوره نزلت كاملة:براءه،و آخر آیه نزلت خاتمه سوره النساء: یَسْتَفْتُونَکَ قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِی الْکَلاٰلَهِ .

أقول:و روی فیه عده روایات أن رسول الله ص و الصحابه كانوا یسمون الآیه بآیه الصیف،قال فی المجمع:و ذلک أن الله تعالی أنزل فی الكلاله آیتین:إحداهما فی الشتاء،و هی التی فی أول هذه السوره،و أخری فی الصیف،و هی هذه الآیه.

و فیه،أخرج أبو الشیخ فی الفرائض عن البراء قال: سئل رسول الله ص عن الكلاله-فقال:ما خلا الولد و الوالد.

و فی تفسیر القمی،قال:حدثنی أبی،عن ابن أبی عمیر،عن ابن أذینه،عن بكیر،عن أبی جعفر(ع)قال: إذا مات الرجل و له أخت- لها نصف ما ترک من المیراث بالآیه-كما تأخذ البنت لو كانت،و النصف الباقی یرد علیها بالرحم-إذا لم یكن للمیت وارث أقرب منها،فإن كان موضع الأخت أخ-أخذ المیراث كله لقول الله« وَ هُوَ یَرِثُهٰا إِنْ لَمْ یَکُنْ لَهٰا وَلَدٌ» -فإن كانتا أختین أخذتا الثلثین بالآیه،و الثلث الباقی بالرحم،و إن كانوا إخوه رجالا و نساء فللذكر مثل حظ الأنثیین،و ذلک كله إذا لم یكن للمیت ولد أو أبوان أو زوجه.

أقول:و روی العیاشی فی تفسیره ذیل الروایه فی عده أخبار عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع).

و فی تفسیر العیاشی،عن بكیر قال:دخل رجل علی أبی جعفر(ع) فسأله عن امرأه-تركت زوجها و إخوتها لأمها و أختا لأب،قال:للزوج النصف:ثلاثه أسهم، و للإخوه من الأم الثلث:سهمان،و للأخت للأب سهم.

فقال الرجل:فإن فرائض زید و ابن مسعود-و فرائض العامه و القضاه علی غیر ذا، یا أبا جعفر!یقولون:للأخت للأب و الأم ثلاثه أسهم-نصیب من سته یقول:إلی ثمانیه.

فقال أبو جعفر:و لم قالوا ذلک؟قال لأن الله قال: «وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَکَ» فقال أبو جعفر(ع):فما لكم نقصتم الأخ إن كنتم تحتجون بأمر الله؟فإن الله سمی لها النصف،و إن الله سمی للأخ الكل-فالكل أكثر من النصف فإنه تعالی قال:« فَلَهَا النِّصْفُ» -و قال للأخ:« وَ هُوَ یَرِثُهٰا» یعنی جمیع المال« إِنْ لَمْ یَکُنْ لَهٰا وَلَدٌ» -فلا تعطون

الذی جعل الله له الجمیع-فی بعض فرائضکم شیئا-و تعطون الذی جعل الله له النصف تاما؟.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و الحاکم و البیهقی عن ابن عباس":

أنه سئل عن رجل توفی و ترک ابنته و أخته لأبیه و أمه-فقال:للبنت النصف و لیس للأخت شیء،و ما بقی فلعصبته فقیل:إن عمر جعل للأخت النصف-فقال ابن عباس:أنتم أعلم أم الله؟قال الله:« إِنِ امْرُؤٌ هَلَکَ لَیْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَکَ» - فقلتم أنتم:

لها النصف و إن کان له ولد.

:أقول:و فی المعانی السابقه روایات أخر

(۵)«سوره المائده مدنیه و هی مائه و عشرون آیه»(۱۲۰)

[سوره المائده (۵): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَهُ اَلْأَنْعٰامِ إِلاّٰ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ غَیْرَ مُحِلِّی اَلصَّیْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اَللّٰهَ یَحْکُمُ مٰا یُرِیدُ (۱) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اَللّٰهِ وَ لاَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ لاَ اَلْهَدْیَ وَ لاَ اَلْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّینَ اَلْبَیْتَ اَلْحَرٰامَ یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا وَ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعٰاوَنُوا عَلَی اَلْبِرِّ وَ اَلتَّقْویٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَی اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (۲) حُرِّمَتْ عَلَیْکُمُ اَلْمَیْتَهُ وَ اَلدَّمُ وَ لَحْمُ اَلْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَیْرِ اَللّٰهِ بِهِ وَ اَلْمُنْخَنِقَهُ وَ اَلْمَوْقُوذَهُ وَ اَلْمُتَرَدِّیَهُ وَ اَلنَّطِیحَهُ وَ مٰا أَکَلَ اَلسَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَکَّیْتُمْ وَ مٰا ذُبِحَ عَلَی اَلنُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِکُمْ فِسْقٌ اَلْیَوْمَ یَئِسَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اِخْشَوْنِ اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ اَلْإِسْلاٰمَ دِیناً فَمَنِ اُضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳)

(بيان)

الغرض الجامع فى السوره على ما يعطيه التدبر فى مفتتحها و مختتمها،و عامه الآيات الواقعه فيها،و الأحكام و المواعظ و القصص التى تضمنتها هو الدعوه إلى الوفاء بالعهود و حفظ المواثيق الحقه كائنه ما كانت،و التحذير البالغ عن نقضها و عدم الاعتناء بأمرها، و أن عادته تعالى جرت بالرحمه و التسهيل و التخفيف على من اتقى و آمن ثم اتقى و أحسن و التشديد على من بغى و اعتدى و طغا بالخروج عن ربقه العهد بالطاعه،و تعدى حدود المواثيق المأخوذه عليه فى الدين.

و لذلك ترى السوره تشتمل على كثير من أحكام الحدود و القصاص،و على مثل قصه المائده،و سؤال المسيح،و قصه ابنى آدم،و على الإشاره إلى كثير من مظالم بنى إسرائيل و نقضهم المواثيق المأخوذه منهم، و على كثير من الآيات التى يمتن الله تعالى فيها على الناس بأمور كإكمال الدين،و إتمام النعمه،و إحلال الطيبات،و تشريع ما يطهر الناس من غير أن يريد بهم الحرج و العسر.

و هذا هو المناسب لزمان نزول السوره إذ لم يختلف أهل النقل أنها آخر سوره مفصله نزلت على رسول الله ص فى أواخر أيام حياته و قد ورد فى روايات الفريقين:

أنها ناسخه غير منسوخه،و المناسب لذلك تأكيد الوصيه بحفظ المواثيق المأخوذه لله تعالى على عباده و للتثبت فيها.

قوله تعالى. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» العقود جمع عقد و هو شد أحد شيئين بالآخر نوع شد يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر،كعقد الحبل و الخيط بآخر من مثله،و لازمه التزام أحدهما الآخر،و عدم انفكاكه عنه،و قد كان معتبرا عندهم فى

الأمور المحسوسه أولا ثم أستعير فعمم للأمور المعنويه كعقود المعاملات الدائره بينهم من بيع أو إجاره أو غير ذلك،و كجميع العهود و المواثيق فأطلقت عليها الكلمه لثبوت أثر المعنى الذى عرفت أنه اللزوم و الالتزام فيها.

و لما كان العقد-و هو العهد-يقع على جميع المواثيق الدينيه التى أخذها الله من عباده من أركان و أجزاء كالتوحيد و سائر المعارف الأصليه و الأعمال العباديه و الأحكام المشروعه تأسيسا أو إمضاء،و منها عقود المعاملات و غير ذلك،و كان لفظ العقود أيضا جمعا محلى باللام لا جرم كان الأوجه حمل العقود فى الآيه على ما يعم كل ما يصدق عليه أنه عقد.

و بذلك يظهر ضعف ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالعقود العقود التى يتعاقدها الناس بينهم كعقد البيع و النكاح و العهد،أو يعقدها الإنسان على نفسه كعقد اليمين.

و كذا ما ذكره بعض آخر:أن المراد بها العهود التى كان أهل الجاهليه عاهد بعضهم بعضا فيها على النصره و المؤازره على من يقصدهم بسوء أو يبغى عليهم،و هذا هو الحلف الدائر بينهم.

و كذا ما ذكره آخرون:أن المراد بها المواثيق المأخوذه من أهل الكتاب بالعمل بما فى التوراه و الإنجيل فهذه وجوه لا دليل على شىء منها من جهه اللفظ.على أن ظاهر الجمع المحلى باللام و إطلاق العقد عرفا بالنسبه إلى كل عقد و حكم لا يلائمها،فالحمل على العموم هو الأوجه.

(كلام فى معنى العقد)

يدل الكتاب كما ترى من ظاهر قوله تعالى:« أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» على الأمر بالوفاء بالعقود،و هو بظاهره عام يشمل كل ما يصدق عليه العقد عرفا مما يلائم الوفاء.و العقد هو كل فعل أو قول يمثل معنى العقد اللغوى،و هو نوع ربط شىء بشىء آخر بحيث يلزمه و لا ينفك عنه كعقد البيع الذى هو ربط المبيع بالمشترى ملكا بحيث كان له أن يتصرف فيه ما شاء،و ليس للبائع بعد العقد ملك و لا ـ تصرف،و كعقد النكاح الذى يربط المرأه بالرجل بحيث له أن يتمتع منها تمتع النكاح،و ليس للمرأه أن تمتع غيره من نفسها،و كالعهد

الذى يمكن فيه العاهد المعهود له من نفسه فيما عهده و ليس له أن ينقضه.

و قد أكد القرآن فى الوفاء بالعقد و العهد جميع معانيه و فى جميع معانيه و فى جميع مصاديقه و شدد فيه كل التشديد،و ذم الناقضين للمواثيق ذما بالغا،و أوعدهم إيعادا عنيفا و مدح الموفين بعهدهم إذا عاهدوا فى آيات كثيره لا حاجه إلى نقلها.

و قد أرسلت الآيات القول فيه إرسالا يدل على أن ذلك مما يناله الناس بعقولهم الفطريه،و هو كذلك.

و ليس ذلك إلا لأن العهد و الوفاء به مما لا غنى للإنسان فى حياته عنه أبدا،و الفرد و المجتمع فى ذلك سيان،و إنا لو تأملنا الحياه الاجتماعيه التى للإنسان وجدنا جميع المزايا التى نستفيد منها و جميع الحقوق الحيويه الاجتماعيه التى نطمئن إليها مبنيه على أساس العقد الاجتماعى العام و العقود و العهود الفرعيه التى تترتب عليه،فلا نملك من أنفسنا للمجتمعين شيئا و لا نملك منهم شيئا إلا عن عقد عملى و إن لم نأت بقول فإنما القول لحاجه البيان، و لو صح للإنسان أن ينقض ما عقده و عهد به اختيارا لتمكنه منه بقوه أو سلطه أو بطش أو لعذر يعتذر به كان أول ما انتقض بنقضه هو العدل الاجتماعى،و هو الركن الذى يلوذ به و يأوى إليه الإنسان من إساره الاستخدام و الاستثمار.

و لذلك أكد الله سبحانه فى حفظ العهد و الوفاء به قال تعالى:« وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً» :(إسراء:۳۴)و الآيه تشمل العهد الفردى الذى يعاهد به الفرد الفرد مثل غالب الآيات المادحه للوفاء بالعهد و الذامه لنقضه كما تشمل العهد الاجتماعى الدائر بين قوم و قوم و أمه و أمه،بل الوفاء به فى نظر الدين أهم منه بالعهد الفردى لأن العدل عنده أتم و البليه فى نقضه أعم.

و لذلك أتى الكتاب العزيز فى أدق موارده و أهونها نقضا بالمنع عن النقض بأصرح القول و أوضح البيان قال تعالى:« بَراءَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَ أَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» :(براءه:۵)و الآيات كما يدل سياقها نزلت بعد فتح مكه و قد أذل الله رقاب المشركين،و أفنى قوتهم و أذهب شوكتهم، و هى تعزم على المسلمين أن يطهروا الأرض التى ملكوها و ظهروا عليها من قذاره الشرك، و تهدر دماء المشركين من دون أى قيد و شرط إلا أن يؤمنوا،و مع ذلك تستثنى قوما من المشركين بينهم و بين المسلمين عهد عدم التعرض،و لا تجيز للمسلمين أن يمسوهم بسوء حينما استضعفوا و استذلوا فلا مانع من ناحيتهم يمنع و لا دافع يدفع،كل ذلك احتراما للعهد و مراعاه لجانب التقوى.

نعم على ناقض العهد بعد عقده أن ينقض العهد الذى نقضه و يتلقى هباء باطلا، اعتداء عليه بمثل ما اعتدى به،قال تعالى:« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ X-إلى أن قال-X لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ»:

(براءه:۱۲)،و قال تعالى:« فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللّهَ» :(البقره:۱۹۴)،و قال تعالى:« وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللّهَ»: (المائده:۲).

و جمله الأمر أن الإسلام يرى حرمه العهد و وجوب الوفاء به على الإطلاق سواء انتفع به العاهد أو تضرر بعد ما أوثق الميثاق فإن رعايه جانب العدل الاجتماعى ألزم و أوجب من رعايه أى نفع خاص أو شخصى إلا أن ينقض أحد المتعاهدين عهده فللمتعاهد الآخر نقضه بمثل ما نقضه و الاعتداء عليه بمثل ما اعتدى عليه،فإن فى ذلك خروجا عن رقيه الاستخدام و الاستعلاء المذمومه التى ما نهض ناهض الدين إلا لإماطتها.

و لعمرى إن ذلك أحد التعاليم العاليه التى أتى بها دين الإسلام لهدايه الناس إلى رعايه الفطره الإنسانيه فى حكمها و التحفظ على العدل الاجتماعى الذى لا ينتظم سلك الاجتماع

الإنسانی إلا علی أساسه و إماطه مظلمه الاستخدام و الاستثمار،و قد صرح به الکتاب العزیز و سار به النبی ص فی سیرته الشریفه،و لو لا أن البحث بحث قرآنی لذکرنا لک طرفا من قصصه علیه أفضل الصلاه و السلام فی ذلک،و علیک بالرجوع إلی الکتب المؤلفه فی سیرته و تاریخ حیاته.

و إذا قایست بین ما جرت علیه سنه الإسلام من احترام العهد و ما جرت علیه سنن الأمم المتمدنه و غیر المتمدنه و لا سیما ما نسمعه و نشاهده کل یوم من معامله الأمم القویه مع الضعیفه فی معاهداتهم و معاقداتهم و حفظها لها ما درت لهم أو استوجبته مصالح دولتهم و نقضها بما یسمی عذرا وجدت الفرق بین السنتین فی رعایه الحق و خدمه الحقیقه.

و من الحری بالدین ذاک و بسننهم ذلک فإنما هناک منطقان:منطق یقول:إن الحق تجب رعایته کیفما کان و فی رعایته منافع المجتمع،و منطق یقول:إن منافع الأمه تجب رعایتها بأی وسیله اتفقت و إن دحضت الحق،و أول المنطقین منطق الدین،و ثانیهما منطق جمیع السنن الاجتماعیه الهمجیه أو المتمدنه من السنن الاستبدادیه و الدیموقراطیه و الشیوعیه و غیرها.

و قد عرفت مع ذلک أن الإسلام فی عزیمته فی ذلک لا یقتصر علی العهد المصطلح بل یعمم حکمه إلی کل ما بنی علیه بناء و یوصی برعایته و لهذا البحث أذیال ستعثر علیها فی مستقبل الکلام إن شاء الله تعالی.

[(بیان)]

قوله تعالی:« أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَهُ الْأَنْعٰامِ إِلاّٰ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» (إلخ) الإحلال هو الإباحه و البهیمه اسم لکل ذی أربع من دواب البر و البحر علی ما فی المجمع،و علی هذا فإضافه البهیمه إلی الأنعام من قبیل إضافه النوع إلی أصنافه کقولنا:نوع الإنسان و جنس الحیوان،و قیل:البهیمه جنین الأنعام،و علیه فالإضافه لامیه.و کیف کان فقوله «أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَهُ الْأَنْعٰامِ» أی الأزواج الثمانیه أی أکل لحومها،و قوله «إِلاّٰ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» إشاره إلی ما سیأتی من قوله:« حُرِّمَتْ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللّٰهِ بِهِ» (الآیه).

و قوله «غَیْرَ مُحِلِّی الصَّیْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ» حال من ضمیر الخطاب فی قوله «أُحِلَّتْ لَکُمْ»

و مفاده حرمه هذا الذى أحل إذا كان اصطياده فى حال الإحرام،كالوحشى من الظباء و البقره و الحمر إذا صيدت، و ربما قيل:إنه حال من قوله «أَوْفُوا» أو حال من ضمير الخطاب فى قوله «يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ» و الصيد مصدر بمعنى المفعول،كما أن الحرم بضمتين جمع الحرام بمعنى المحرم اسم فاعل.

قوله تعالى:«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ وَ لاَ الْهَدْيَ وَ لاَ الْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً» خطاب مجدد للمؤمنين يفيد شده العنايه بحرمات الله تعالى.

و الإحلال هو الإباحه الملازمه لعدم المبالاه بالحرمه و المنزله،و يتعين معناه بحسب ما أضيف إليه:فإحلال شعائر الله عدم احترامها و تركها،و إحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمته و القتال فيه،و هكذا.

و الشعائر جمع شعيره و هى العلامه،و كان المراد بها أعلام الحج و مناسكه.و الشهر الحرام ما حرمه الله من شهور السنه القمريه و هى:المحرم و رجب و ذو القعده و ذو الحجه.

و الهدى ما يساق للحج من الغنم و البقر و الإبل.و القلائد جمع قلاده،و هى ما يقلد به الهدى فى عنقه من نعل و نحوه ليعلم أنه هدى للحج فلا يتعرض له.و الآمين جمع آم اسم فاعل من أم إذا قصد،و المراد به القاصدون لزياره البيت الحرام.و قوله «يَبْتَغُونَ فَضْلاً»، حال من «آمِّينَ» و الفضل هو المال،أو الربح المالى فقد أطلق عليه فى قوله تعالى «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّٰهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ» :(آل عمران:۱۷۴)و غير ذلك أو هو الأجر الأخروى أو الأعم من المال و الأجر.

و قد اختلفوا فى تفسير الشعائر و القلائد و غيرهما من مفردات الآيه على أقوال شتى، و الذى آثرنا ذكره هو الأنسب لسياق الآيه،و لا جدوى فى التعرض لتفاصيل الأقوال.

قوله تعالى:«وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا» أمر واقع بعد الحظر لا يدل على أزيد من الإباحه بمعنى عدم المنع،و الحل و الإحلال-مجردا و مزيدا فيه-بمعنى و هو الخروج من الإحرام.

قوله تعالى:«وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا» يقال: جرمه يجرمه أى حمله،و منه الجريمه للمعصيه لأنها محموله من حيث وبالها،و للعقوبه

المـاليه و غيرهـا لأنهـا محمـوله على المجرم.و ذكر الراغب أن الأصـل فى معناهـا القطـع.و الشـنآن العـداوه و البغض.و قـوله «أَنْ صَدُّوكُمْ» أى منعوكم بـدل أو عطـف بيـان من الشـنآن، و محصـل معنى الآـيه:و لاـ يحملنكم عـداوه قوم و هو أن منعوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بعد ما أظهركم الله عليهم.

قوله تعالى:« وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» المعنى واضح،و هذا أساس السنه الإسلاميه، و قد فسر الله سبحانه البر فى كلامه بالإيمان و الإحسان فى العبادات و المعاملات،كما مر فى قوله تعالى:« وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» XالآيهX:(البقره:١٧٧)و قـد تقـدم الكلاـم فيه.و التقـوى مراقبه أمر الله و نهيه،فيعـود معنى التعـاون على الـبر و التقوى إلى الاجتماع على الإيمان و العمل الصالح على أساس تقوى الله،و هو الصلاح و التقوى الاجتماعيان،و يقابله التعاون على الإثم الذى هو العمل السيئ المسـتتبع للتأخر فى أمور الحياه السـعيده،و على العدوان و هو التعدى على حقوق الناس الحقه بسـلب الأمن من نفوسـهم أو أعراضـهم أو أموالهم و قـد مر شـطر من الكلاـم فى هـذا المعنى فى ذيـل قوله تعـالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا» XالآيهX:(آل عمران:٢٠٠)فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ثم أكـد سـبحانه نهيه عن الاجتماع على الإثم و العـدوان بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» و هو فى الحقيقه تأكيـد على تأكيد.

قوله تعالى:« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ» هـذه الأربعه مذكوره فيما نزل من القرآن قبل هذه السوره كسورتى الأنعام و النحل و هما مكيتان،و سوره البقره و هى أول سوره مفصـله نازله بالمـدينه قال تعالى:« قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»:

(الأنعام:١۴۵)و قال تعالى:« إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» :(البقره:١٧٣).

و الآيـات جميعـا-كمـا ترى-تحرم هـذه الأربعه المـذكوره فى صـدر هـذه الآيه و تماثل الآيه أيضا فى الاسـتثناء الواقع فى ذيلها بقوله:« فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ

فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

فآیه المائده بالنسبه إلی هذه المعانی المشترکه بینها و بین تلک مؤکده لتلک الآیات.

بل النهی عنها و خاصه عن الثلاثه الأول أعنی المیته و الدم و لحم الخنزیر أسبق تشریعا من نزول سورتی الأنعام و النحل المکیتین،فإن آیه الأنعام تعلل تحریم الثلاثه أو خصوص لحم الخنزیر بأنه رجس،فتدل علی تحریم أکل الرجز،و قد قال تعالی فی سوره المدثر- و هی من السور النازله فی أول البعثه-: «وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» :(المدثر:۵).

و کذلک ما عده تعالی بقوله «وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مٰا أَكَلَ السَّبُعُ» جمیعا من مصادیق المیته بدلیل قوله «إِلاّٰ مٰا ذَكَّيْتُمْ» فإنما ذکرت فی الآیه لنوع عنایه بتوضیح أفراد المیته و مزید بیان للمحرمات من الأطعمه من غیر أن تتضمن الآیه فیها علی تشریع حدیث.

و کذلک ما عده الله تعالی بقوله «وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ» فإنهما و إن کانا أول ما ذکرا فی هذه السوره لکنه تعالی علل تحریمهما أو تحریم الثانی منهما-علی احتمال ضعیف-بالفسق،و قد حرم الفسق فی آیه الأنعام، و کذا قوله «غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ» یدل علی تحریم ما ذکر فی الآیه لکونه إثما،و قد دلت آیه البقره علی تحریم الإثم،و قال تعالی أیضا:« وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ الْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ» :(الأنعام:

۱۲۰)،و قال تعالی: قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ»:

(الأعراف:۳۳).

فقد اتضح و بان أن الآیه لا تشتمل فیما عدته من المحرمات علی أمر جدید غیر مسبوق بالتحریم فیما تقدم علیها من الآیات المکیه أو المدنیه المتضمنه تعداد محرمات الأطعمه من اللحوم و نحوها.

قوله تعالی:« وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مٰا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَكَّيْتُمْ» المنخنقه هی البهیمه التی تموت بالخنق،و هو أعم من أن یکون عن اتفاق أو بعمل عامل اختیارا،و من أن یکون بأی آله و وسیله کانت کحبل یشد علی عنقها و یسد بضغطه مجری تنفسها،أو بإدخال رأسها بین خشبتین،کما کانت هذه الطریقه و أمثالها دائره بینهم فی الجاهلیه.

و الموقوذه هی التی تضرب حتی تموت،و المترديه هی التی تردت أی سقطت من مکان عال کشاهق جبل أو بئر و نحوهما.

و النطيحه هی التی مـاتت عن نطـح نطحهـا به غيرهـا،و ما أکل السـبع هی التی أکلها أی أکل من لحمها السـبع فإن الأکل يتعلق بالمأکول سواء أفنی جميعه أو بعضه و السبع هو الوحش الضاری کالأسد و الذئب و النمر و نحوها.

و قوله «إِلاّ مٰا ذَکَّيْتُمْ» اسـتثناء لما يقبل التـذکيه بمعنی فری الأوداج الأربعه منها کما إذا کانت فيها بقيه من الحياه يـدل عليها مثل حرکه ذنب أو أثر تنفس و نحو ذلک و الاسـتثناء کما ذکرنا آنفا متعلق بجميع ما يقبله من المعـدودات من دون أن يتقيد بالتعلق بالأخير من غير دليل عليه.

و هـذه الأـمور الخمسه أعنی المنخنقه و الموقوذه و المترديه و النطيحه و مـا أکـل السـبع کـل ذلـک مـن أفراد الميته و مصاديقها،بمعنی أن المترديه أو النطيحه مثلا إنما تحرمان إذا ماتتا بالتردی و النطـح،و الدليل علی ذلک قوله:« إِلاّ مٰا ذَکَّيْتُمْ» فإن من البـديهی أنهما لا تؤکلان ما دامت الروح فی جثمانهما،و إنما تؤکلان بعـد زهوقها و حينئـذ فإما أن تذکيا أو لا،و قد اسـتثنی الله سبحانه التذکيه فلم يبق للحرمه إلا إذا ماتتا عن ترد أو نطح من غير تذکيه،و أما لو تردت شاه-مثلا-فی بئر ثم أخرجت سليمه مسـتقيمه الحال فعاشت قليلا أو کثيرا ثم ماتت حتف أنفها أو ذکيت بذبـح فلا تطلق عليها المترديه، يدل علی ذلک السياق فإن المذکورات فيها ما إذا هلکت،و استند هلاکها إلی الوصف الذی ذکر لها کالانخناق و الوقذ و التردی و النطح.

و الوجه فی تخصـيص هذه المصاديق من الميته بالذکر رفع ما ربما يسبق إلی الوهم أنها ليست ميته بناء علی أنها أفراد نادره منها و الـذهن يسـبق غالبا إلی الفرد الشائع،و هو ما إذا ماتت بمرض و نحوه من غير أن يکون لمفاجاه سـبب من خارج،فصرح تعالی بهذه الأفراد و المصاديق النادره بأسمائها حتی يرتفع اللبس و تتضح الحرمه.

قوله تعالی:« وَ مٰا ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ» قال الراغب فی المفردات:، نصب الشـیء وضـعه وضعا ناتئا کنصب الرمح و البناء و الحجر،و النصيب الحجاره تنصب علی الشیء،و جمعه نصائب و نصب،و کان للعرب حجاره تعبدها و تذبح عليها قال:« کَأَنَّهُمْ إِلیٰ نُصُبٍ

يُوفِضُونَ»، قال:« وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ» و قد يقال فى جمعه:أنصاب قال وَ الْأَنْصٰابُ وَ الْأَزْلاٰمُ». و النصب و النصب: التعب.

فالمراد من النهى عن أكل لحوم ما ذبح على النصب أن يستن بسنن الجاهليه فى ذلک فإنهم كانوا نصبوا حول الكعبه أحجارا يقدسونها و يذبحون عليها،و كان من سنن الوثنيه.

قوله تعالى:« وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ» و الأزلام هى القداح،و الاستقسام بالقداح أن يؤخذ جزور-أو بهيمه أخرى-على سهام ثم يضرب بالقداح فى تشخيص من له سهم ممن لا سهم له،و فى تشخيص نفس السهام المختلفه و هو الميسر،و قد مر شرحه عند قوله تعالى: «يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ» Xالآيه X:(البقره:٢١٩)فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قال الراغب: القسم إفراز النصيب يقال:قسمت كذا قسما و قسمه،و قسمه الميراث و قسمه الغنيمه تفريقهما على أربابهما،قال: «لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ» «وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمٰاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ» و استقسمته سألته أن يقسم،ثم قد يستعمل فى معنى قسم قال:

« وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ»، و ما ذكره من كون استقسم بمعنى قسم إنما هو بحسب الانطباق مصداقا،و المعنى بالحقيقه طلب القسمه بالأزلام التى هى آلات هذا الفعل،فاستعمال الآله طلب لحصول الفعل المترتب عليها فيصدق الاستفعال.فالمراد بالاستقسام بالأزلام المنهى عنه على ظاهر السياق هو ضرب القداح على الجزور و نحوه للذهاب بما فى لحمه من النصيب.

و أما ما ذكره بعضهم أن المراد بالاستقسام بالأزلام الضرب بالقداح لاستعلام الخير و الشر فى الأفعال،و تمييز النافع منها من الضار كمن يريد سفرا أو ازدواجا أو شروعا فى عمل أو غير ذلک فيضرب بالقداح لتشخيص ما فيه الخير منها مما لا خير فيه قالوا:

و كان ذلک دائرا بين عرب الجاهليه،و ذلک نوع من الطيره،و سيأتى زياده شرح له فى البحث الروائى التالى-ففيه:أن سياق الآيه يأبى عن حمل اللفظ على الاستقسام بهذا المعنى،و ذلک أن الآيه-و هى مقام عد محرمات الأطعمه،و قد أشير إليها قبلا فى قوله :«إِلاّٰ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ»- تعد من محرماتها عشرا،و هى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به و المنخنقه و الموقوذه و المترديه و النطيحه و ما أكل السبع و ما ذبح على النصب،ثم تذكر الاستقسام بالأزلام الذى من معناه قسمه اللحم بالمقامره،و من معناه استعلام الخير و الشر فى الأمور،فكيف يشک بعد ذلک السياق الواضح و القرائن المتواليه

فی تعین حمل اللفظ علی استقسام اللحم قمارا و هل یرتاب عارف بالکلام فی ذلک.

نظیر ذلک أن العمره مصدر بمعنی العماره،و لها معنی آخر و هو زیاره البیت الحرام،فإذا أضیف إلی البیت صح کل من المعنیین لکن لا یحتمل فی قوله تعالی:« وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَهَ لِلّهِ» :البقره:۱۱۹ إلا المعنی الأول،و الأمثله فی ذلک کثیره.

و قوله:« ذٰلِکُمْ فِسْقٌ» یحتمل الإشاره إلی جمیع المذکورات،و الإشاره إلی الأخیرین المذکورین بعد قوله:« إِلاّ مٰا ذَکَّیْتُمْ» لحیلوله الاستثناء،و الإشاره إلی الأخیر و لعل الأوسط خیر الثلاثه.

قوله تعالی :«الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» أمر الآیه فی حلولها محلها ثم فی دلالتها عجیب،فإنک إذا تأملت صدر الآیه أعنی قوله تعالی:

«حُرِّمَتْ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهُ وَ الدَّمُ-

إلی قوله:- ذٰلِکُمْ فِسْقٌ» و أضفت إلیه ذیلها أعنی قوله:

«فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ»

وجدته کلاما تاما غیر متوقف فی تمام معناه و إفاده المراد منه إلی شیء من قوله:« اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ» (إلخ)أصلا،و ألفیته آیه کامله مماثله لما تقدم علیها فی النزول من الآیات الواقعه فی سوره الأنعام و النحل و البقره المبینه لمحرمات الطعام،ففی سوره البقره: «إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ بِهِ لِغَیْرِ اللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَلاٰ إِثْمَ عَلَیْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» و یماثله ما فی سورتی الأنعام و النحل.

و ینتج ذلک أن قوله: «الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا» (إلخ)کلام معترض موضوع فی وسط هذه الآیه غیر متوقف علیه لفظ الآیه فی دلالتها و بیانها،سواء قلنا:إن الآیه نازله فی وسط الآیه فتخللت بینها من أول ما نزلت،أو قلنا إن النبی ص هو الذی أمر کتاب الوحی بوضع الآیه فی هذا الموضع مع انفصال الآیتین و اختلافهما نزولا.أو قلنا:

إنها موضوعه فی موضعها الذی هی فیه عند التألیف من غیر أن تصاحبها نزولا،فإن شیئا من هذه الاحتمالات لا یؤثر أثرا فیما ذکرناه من کون هذا الکلام المتخلل معترضا إذا قیس إلی صدر الآیه و ذیلها.

و یؤید ذلک أن جل الروایات الوارده فی سبب النزول-لو لم یکن کلها،و هی أخبار جمه-یخص قوله:« اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا» (إلخ)بالذکر من غیر أن یتعرض

لأصل الآيه أعنى قوله:« حُرِّمَتْ عَلَيْكَمُ الْمَيْتَهُ»، أصلا،و هذا يؤيد أيضا نزول قوله:

«الْيَوْمَ يَئِسَ»

(إلخ)نزولا مستقلا منفصلا عن الصدر و الذيل،و إن وقوع الآيه فى وسط الآيه مستند إلى تأليف النبى ص أو إلى تأليف المؤلفين بعده.

و يؤيده ما رواه فى الدر المنثور،عن عبد بن حميد عن الشعبى قال" :نزل على النبى ص هذه الآيه-و هو بعرفه- :«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» -و كان إذا أعجبته آيات جعلهن صدر السوره،قال:و كان جبرئيل يعلمه كيف ينسك.

ثم إن هاتين الجملتين أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» و قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ متقاربتان مضمونا،مرتبطتان مفهوما بلا ريب،لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين و بين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، و قبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركبا مضمونا واحدا مرتبط الأجزاء،متصل الأطراف بعضها ببعض، مضافا إلى ما بين الجملتين من الاتحاد فى السياق.

و يؤيد ذلك ما نرى أن السلف و الخلف من مفسرى الصحابه و التابعين و المتأخرين إلى يومنا هذا أخذوا الجملتين متصلتين يتم بعضهما،بعضا و ليس ذلك إلا لأنهم فهموا من هاتين الجملتين ذلك،و بنوا على نزولهما معا،و اجتماعهما من حيث الدلاله على مدلول واحد.

و ينتج ذلك أن هذه الآيه المعترضه أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ- إلى قوله:- وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً» كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت سواء قلنا بارتباطه بالآيه المحيطه بها أو لم نقل،فإن ذلك لا يؤثر البته فى كون هذا المجموع كلاما واحدا معترضا لا كلامين ذوى غرضين،و إن اليوم المتكرر فى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا»، و فى قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »،أريد به يوم واحد يئس فيه الكفار و أكمل فيه الدين.

ثم ما المراد بهذا اليوم الواقع فى قوله تعالى :«الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ»؟ فهل المراد به زمان ظهور الإسلام ببعثه النبى ص و دعوته فيكون المراد أن الله أنزل إليكم الإسلام،و أكمل لكم الدين و أتم عليكم النعمه و أيأس منكم الكفار؟.

لا سبيل إلى ذلك لأن ظاهر السياق أنه كان لهم دين كان الكفار يطمعون فى إبطاله أو تغييره،و كان المسلمون يخشونهم على دينهم فأيأس الله الكافرين مما طمعوا فيه و آمن

المسلمين و أنه كان ناقصا فأكمله الله و أتم نعمته عليهم و لم يكن لهم قبل الإسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله الله و يتم نعمته عليهم.

على أن لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدم قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ»، على قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا »،حتى يستقيم الكلام فى نظمه.

أو أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكه حيث أبطل الله فيه كيد مشركى قريش و أذهب شوكتهم،و هدم فيه بنيان دينهم،و كسر أصنامهم فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق،و يضادوا الإسلام و يمانعوا نفوذ أمره و انتشار صيته.

لا سبيل إلى ذلك أيضا فإن الآيه تدل على إكمال الدين و إتمام النعمه و لما يكمل الدين بفتح مكه-و كان فى السنه الثامنه من الهجره-فكم من فريضه نزلت بعد ذلك،و كم من حلال أو حرام شرع فيما بينه و بين رحله النبى ص.

على أن قوله:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا يعم جميع مشركى العرب و لم يكونوا جميعا آيسين من دين المسلمين،و من الدليل عليه أن كثيرا من المعارضات و المواثيق على عدم التعرض كانت باقيه بعد على اعتبارها و احترامها،و كانوا يحجون حجه الجاهليه على سنن المشركين، و كانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العوره حتى بعث رسول الله ص عليا(ع) بآيات البراءه فأبطل بقايا رسوم الجاهليه.

أو أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءه من الزمان حيث انبسط الإسلام على جزيره العرب تقريبا،و عفت آثار الشرك،و ماتت سنن الجاهليه فما كان المسلمون يرون فى معاهد الدين و مناسك الحج أحدا من المشركين،وصفا لهم الأمر،و أبدلهم الله بعد خوفهم أمنا يعبدونه و لا يشركون به شيئا.

لا سبيل إلى ذلك فإن مشركى العرب و إن أيسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءه و طى بساط الشرك من الجزيره و إعفاء رسوم الجاهليه إلا أن الدين لم يكمل بعد و قد نزلت فرائض و أحكام بعد ذلك و منها ما فى هذه السوره:(سوره المائده)،و قد اتفقوا على نزولها فى آخر عهد النبى ص،و فيها شيء كثير من أحكام الحلال و الحرام و الحدود و القصاص.

فتحصل أنه لا سبيل إلى احتمال أن يكون المراد باليوم فى الآيه معناه الوسيع مما

يناسب مفاد الآيه بحسب بادئ النظر كزمان ظهور الدعوه الإسلاميه أو ما بعد فتح مكه من الزمان،أو ما بعد نزول آيات البراءه فلا سبيل إلا أن يقال:إن المراد باليوم يوم نزول الآيه نفسها،و هو يوم نزول السوره إن كان قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا»، معترضا مرتبطا بحسب المعنى بالآيه المحيطه بها،أو بعد نزول سوره المائده فى أواخر عهد النبى ص،و ذلك لمكان قوله تعالى :«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» .

فهل المراد باليوم يوم فتح مكه بعينه؟أو يوم نزول البراءه بعينه؟يكفى فى فساده ما تقدم من الإشكالات الوارده على الاحتمال الثانى و الثالث المتقدمين.

أو أن المراد باليوم هو يوم عرفه من حجه الوداع كما ذكره كثير من المفسرين و به ورد بعض الروايات؟فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركى قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانيه لا يوم عرفه من السنه العاشره،و إن كان المراد يأس مشركى العرب من ذلك فقد كان ذلك عند نزول البراءه و هو فى السنه التاسعه من الهجره،و إن كان المراد به يأس جميع الكفار الشامل لليهود و النصارى و المجوس و غيرهم-و ذلك الذى يقتضيه إطلاق قوله :«الَّذِينَ كَفَرُوا»- فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد،و لما يظهر للإسلام قوه و شوكه و غلبه فى خارج جزيره العرب اليوم.

و من جهه أخرى يجب أن نتأمل فيما لهذا اليوم-و هو يوم عرفه تاسع ذى الحجه سنه عشر من الهجره-من الشأن الذى يناسب قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فى الآيه.

فربما أمكن أن يقال:إن المراد به إكمال أمر الحج بحضور النبى ص بنفسه فيه، و تعليمه الناس تعليما عمليا مشفوعا بالقول.

لكن فيه أن مجرد تعليمه الناس مناسک حجهم-و قد أمرهم بحج التمتع و لم يلبث دون أن صار مهجورا،و قد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاه و صوم و حج و زكاه و جهاد و غير ذلک-لا يصح أن يسمى إكمالا للدين،و كيف يصح أن يسمى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالا لذلك الواجب فضلا عن أن يسمى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين.

على أن هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطه الفقره الأولى أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ بهذه الفقره أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و أى ربط

لیأس الکفار عن الدین بتعلیم رسول الله ص حج التمتع للناس.

و ربما أمکن أن یقال إن المراد به إکمال الـدین بنزول بقایا الحلال و الحرام فی هـذا الیوم فی سوره المائده،فلا حلال بعده و لا حرام،و بإکمال الدین استولی الیأس علی قلوب الکفار،و لاحت آثاره علی وجوهم.

لکن یجب أن نتبصـر فی تمییز هؤلاء الکفار الـذین عبر عنهم فی الآیه بقوله:« اَلَّذِینَ کَفَرُوا» علی هذا التقدیر و أنهم من هم؟فإن أرید بهم کفار العرب فقد کان الإسلام عمهم یومئذ و لم یکن فیهم من یتظاهر بغیر الإسلام و هو الإسلام حقیقه،فمن هم الکفار الآیسون؟.

و إن أرید بهم الکفار من غیرهم کسائر العرب من الأمم و الأجیال فقد عرفت آنفا أنهم لم یکونوا آیسین یومئذ من الظهور علی المسلمین.

ثم نتبصر فی أمر انسداد باب التشریع بنزول سوره المائده و انقضاء یوم عرفه فقد وردت روایات کثیره لا یستهان بها عددا بنزول أحکام و فرائض بعد الیوم کما فی آیه الصیف (۱)و آیات الربا،حتی أنه روی عن عمر أنه قال فی خطبه خطبها:من آخر القرآن نزولا آیه الربا،و إنه مات رسول الله و لم یبینه لنا،فدعوا ما یریبکم إلی ما لا یریبکم، الحدیث

و روی البخاری فی الصحیح،عن ابن عباس قال": آخر آیه نزلت علی النبی ص آیه الربا، إلی غیر ذلک من الروایات.

و لیس للباحث أن یضـعف الروایات فیقـدم الآیه علیها،لأن الآیه لیست بصـریحه و لا ظاهره فی کون المراد بالیوم فیها هـذا الیوم بعینه و إنمـا هو وجه محتمـل یتوقف فی تعینه علی انتفـاء کـل احتمـال ینـافیه،و هـذه الأخبار لا تقصـر عن الاحتمال المجرد عن السند.

أو یقـال:إن المراد بإکمـال الـدین خلوص الـبیت الحرام لهم،و إجلاـء المشـرکین عنه حـتی حجه المسـلمون و هم لاـ یخـالطهم المشرکون.

و فیه:أنه قد کان صفا الأمر للمسلمین فیما ذکر قبل ذلک بسنه،فما معنی تقییده بالیوم فی قوله: «اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ»؟ علی أنه لو سلم کون هذا الخلوص إتماما

۱- ۱) و هی آیه الکلاله المذکوره فی آخر سوره النساء.

للنعمه لم يسلم كونه إكمالا للدين،و أى معنى لتسميه خلوص البيت إكمالا للدين،و ليس الدين إلا مجموعه من عقائد و أحكام،و ليس إكماله إلا أن يضاف إلى عدد أجزائها و أبعاضها عدد؟و أما صفاء الجو لإجرائها،و ارتفاع الموانع و المزاحمات عن العمل بها فليس يسمى إكمالا للدين البته.على أن إشكال يأس الكفار عن الدين على حاله.

و يمكن أن يقال:إن المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرمات بيانا تفصيليا ليأخذ به المسلمون،و يجتنبوها و لا يخشوا الكفار فى ذلك لأنهم قد يئسوا من دينهم بإعزاز الله المسلمين،و إظهار دينهم و تغليبهم على الكفار.

توضيح ذلك أن حكمه الاكتفاء فى صدر الإسلام بذكر المحرمات الأربعه أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به الواقعه فى بعض السور المكيه و ترك تفصيل ما يندرج فيها مما كرهه الإسلام للمسلمين من سائر ما ذكر فى هذه الآيه إلى ما بعد فتح مكه إنما هى التدرج فى تحريم هذه الخبائث و التشديد فيها كما كان التدريج فى تحريم الخمر لئلا ينفر العرب من الإسلام،و لا يروا فيه حرجا يرجون به رجوع من آمن من فقرائهم و هم أكثر السابقين الأولين.

جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوه الإسلام،و توسعه الله على أهله و إعزازهم و بعد أن يئس المشركون بذلك من نفور أهله منه،و زال طمعهم فى الظهور عليهم،و إزاله دينهم بالقوه القاهره،فكان المؤمنون أجدر بهم أن لا يبالوهم بالمداراه،و لا يخافوهم على دينهم و على أنفسهم.

فالمراد باليوم يوم عرفه من عام حجه الوداع،و هو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآيه المبينه لما بقى من الأحكام التى أبطل بها الإسلام بقايا مهانه الجاهليه و خبائثها و أوهامها، و المبشره بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم فى زواله،و لا حاجه معه إلى شىء من مداراتهم أو الخوف من عاقبه أمرهم.

فالله سبحانه يخبرهم فى الآيه أن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم و أنه ينبغى لهم-و قد بدلهم بضعفهم قوه،و بخوفهم أمنا،و بفقرهم غنى- أن لا يخشوا غيره تعالى، و ينتهوا عن تفاصيل ما نهى الله عنه فى الآيه ففيها كمال دينهم.كذا ذكره بعضهم بتلخيص ما فى النقل.

و فیه:أن هذا القائل أراد الجمع بین عده من الاحتمالات المذکوره لیدفع بکل احتمال ما یتوجه إلی الاحتمال الآخر من الإشکال فتورط بین المحاذیر برمتها و أفسد لفظ الآیه و معناها جمیعا.

فذهل عن أن المراد بالیأس إن کان هو الیأس المستند إلی ظهور الإسلام و قوته و هو ما کان بفتح مکه أو بنزول آیات البراءه لم یصح أن یقال یوم عرفه من السنه العاشره:

«الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ»

و قد کانوا یئسوا قبل ذلک بسنه أو سنتین،و إنما اللفظ الوافی له أن یقال:قد یئسوا کما عبر به القائل نفسه فی کلامه فی توضیح المعنی أو یقال:إنهم آیسون.

و ذهل عن أن هذا التدرج الذی ذکره فی محرمات الطعام،و قاس تحریمها بتحریم الخمر إن أرید به التدرج من حیث تحریم بعض الأفراد بعد بعض فقد عرفت أن الآیه لا تشتمل علی أزید مما تشتمل علیه آیات التحریم السابقه نزولا علی هذه الآیه أعنی آیات البقره و الأنعام و النحل،و أن المنخنقه و الموقوذه(إلخ)من أفراد ما ذکر فیها.

و إن أرید به التدرج من حیث البیان الإجمالی و التفصیلی خوفا من امتناع الناس من القبول ففی غیر محله،فإن ما ذکر بالتصریح فی السور السابقه علی المائده أعنی المیته و الدم و لحم الخنزیر و ما أهل لغیر الله به أغلب مصداقا،و أکثر ابتلاء،و أوقع فی قلوب الناس من أمثال المنخنقه و الموقوذه و غیرها،و هی أمور نادره التحقق و شاذه الوجود، فما بال تلک الأربعه و هی أهم و أوقع و أکثر یصرح بتحریمها من غیر خوف من ذلک ثم یتقی من ذکرها ما لا یعبأ بأمره بالإضافه إلیها فیتدرج فی بیان حرمتها،و یخاف من التصریح بها.

علی أن ذلک لو سلم لم یکن إکمالا للدین،و هل یصح أن یسمی تشریع الأحکام دینا و إبلاغها و بیانها إکمالا للدین؟و لو سلم فإنما ذلک إکمال لبعض الدین و إتمام لبعض النعمه لا للکل و الجمیع،و قد قال تعالی:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی» فأطلق القول من غیر تقیید.

علی أنه تعالی قد بین أحکاما کثیره فی أیام کثیره،فما بال هذا الحکم فی هذا الیوم خص بالمزیه فسماه الله أو سمی بیانه تفصیلا بإشمال الدین و إتمام النعمه.

أو أن المراد بإكمال الدين إكماله بسد باب التشريع بعد هذه الآيه المبينه لتفصيل محرمات الطعام،فما شأن الأحكام النازله ما بين نزول المائده و رحله النبى ص؟بل ما شأن سائر الأحكام النازله بعد هذه الآيه فى سوره المائده؟تأمل فيه.

و بعد ذلك كله ما معنى قوله تعالى:« وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً»- و تقديره:

اليوم رضيت(إلخ)-لو كان المراد بالكلام الامتنان بما ذكر فى الآيه من المحرمات يوم عرفه من السنه العاشره؟و ما وجه اختصاص هذا اليوم بأن الله سبحانه رضى فيه الإسلام دينا،و لا أمر يختص به اليوم مما يناسب هذا الرضا؟.

و بعد ذلك كله يرد على هذا الوجه أكثر الإشكالات الوارده على الوجوه السابقه أو ما يقرب منها مما تقدم بيانه و لا نطيل بالإعاده.

أو أن المراد باليوم واحد من الأيام التى بين عرفه و بين ورود النبى ص المدينه على بعض الوجوه المذكوره فى معنى يأس الكفار و معنى إكمال الدين.

و فيه من الإشكال ما يرد على غيره على التفصيل المتقدم.

فهذا شطر من البحث عن الآيه بحسب السير فيما قيل أو يمكن أن يقال فى توجيه معناها،و لنبحث عنها من طريق آخر يناسب طريق البحث الخاص بهذا الكتاب.

قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ»- و اليأس يقابل الرجاء، و الدين إنما نزل من عند الله تدريجا-يدل على أن الكفار قد كان لهم مطمع فى دين المسلمين و هو الإسلام،و كانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد و زمان،و إن أمرهم ذلك كان يهدد الإسلام حينا بعد حين،و كان الدين منهم على خطر يوما بعد يوم،و إن ذلك كان من حقه أن يحذر منه و يخشاه المؤمنون.

فقوله:« فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ»، تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا منه على خطر،و من تسر به على خشيه،قال تعالى:« وَدَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» :(آل عمران:۶۹)،و قال تعالى:« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» :(البقره:۱۰۹).

و الکفار لم یکونوا یتربصون الـدوائر بالمسـلمین إلا لـدینهم،و لم یکن یضـیق صـدورهم و ینصدع قلوبهم إلا من جهه أن الدین کـان یـذهب بسؤددهم و شـرفهم و استرسـالهم فی اقتراف کـل ما تهواه طباعهم،و تألفه و تعتاد به نفوسـهم،و یختم علی تمتعهم بکل ما یشتهون بلا قید و شرط.

فقـد کـان الـدین هو المبغوض عنـدهم دون أهـل الـدین إلاـ من جهه دینهم الحق فلم یکن فی قصـدهم إباده المسـلمین و إفناء جمعهم بل إطفاء نور الله و تحکیم أرکان الشـرک المتزلزله المضطربه به،و رد المؤمنین کفارا کما مر فی قوله:« لَوْ یَرُدُّونَکُمْ مِنْ بَعْدِ إِیمانِکُمْ کُفّاراً» (الآیه)قال تعالی:« یُرِیدُونَ لِیُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ» الصف:۹):(الصف:۹).

و قال تعالی:« فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ» :(المؤمن:۱۴).

و لـذلک لم یکن لهم هم إلاـ أن یقطعوا هـذه الشـجره الطیبه من أصـلها،و یهـدموا هـذا البنیـان الرفیع من أسه بتفتین المؤمنین و تسریه النفاق فی جماعتهم و بث الشبه و الخرافات بینهم لإفساد دینهم.

و قـد کانوا یأخذون بادئ الأمر یفترون عزیمه النبی ص و یسـتمحقون همته فی الدعوه الدینیه بالمال و الجاه،کما یشـیر إلیه قوله تعـالی:« وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلی آلِهَتِکُمْ إِنَّ هذا لَشَیْءٌ یُرادُ» :(-ص:۶)أو بمخالطه أو مداهنه،کما یشـیر إلیه قوله:« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَیُدْهِنُونَ» :(القلم:۹)،و قوله: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلاً» :(إسراء:۷۴)،و قوله:« قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» :(الکافرون:۳)علی ما ورد فی أسباب النزول.

و کان آخر ما یرجونه فی زوال الدین،و موت الدعوه المحقه،أنه سیموت بموت هذا القائم بأمره و لا عقب له،فإنهم کانوا یرون أنه ملک فی صوره النبوه،و سلطنه فی لبـاس الـدعوه و الرساله،فلو مات أو قتل لانقطع أثره و مات ذکره و ذکر دینه علی ما هو المشـهود عـاده من حال السـلاطین و الجبابره أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالی و التجبر و رکوب رقاب الناس فإن ذکرهم یموت بموتهم،و سـننهم و قوانینهم الحاکمه بین الناس و علیهم تـدفن معهم فی قبورهم،یشـیر إلی رجائهم هـذا قوله تعالی:« إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ:» (الکوثر:۳)

على ما ورد فى أسباب النزول.

فقد كان هذه و أمثالها أمانى تمكن الرجاء من نفوسهم،و تطمعهم فى إطفاء نور الدين،و تزين لأوهامهم أن هذه الدعوه الطاهره ليست إلاـ أحدوثه ستكذبه المقادير و يقضى عليها و يعفو أثرها مرور الأيام و الليالى،لكن ظهور الإسلام تدريجا على كل ما نازله من دين و أهله،و انتشار صيته،و اعتلاء كلمته بالشوكه و القوه قضى على هذه الأمانى فيئسوا من إفساد عزيمه النبى ص،و إيقاف همته عند بعض ما كان يريده،و تطميعه بمال أو جاه.

قوه الإسلام و شوكته أيأستهم من جميع تلك الأسباب أسباب:-الرجاء-إلا واحدا،و هو أنه(ص)مقطوع العقب لا ولد له تخلفه فى أمره،و يقوم على ما قام عليه من الدعوه الدينيه فسيموت دينه بموته،و ذلك أن من البديهى أن كمال الدين من جهه أحكامه و معارفه-و إن بلغ ما بلغ-لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه،و أن سنه من السنن المحدثه و الأديان المتبعه لا تبقى على نضارتها و صفائها لاـ بنفسها و لا بانتشار صيتها و لا بكثره المنتحلين بها،كما أنها لا تنمحى و لا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنه أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها و حفظتها و القائمين بتدبير أمرها.

و من جميع ما تقدم يظهر أن تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبى ص فى حفظه و تدبير أمره،و إرشاد الأمه القائمه به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحله القيام بالحامل الشخصى إلى مرحله القيام بالحامل النوعى،و يكون ذلك إكمالاـ للدين بتحويله من صفه الحدوث إلى صفه البقاء،و إتماما لهذه النعمه،و ليس يبعد أن يكون قوله تعالى:« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» :(البقره:١٠٩)باشتماله على قوله:« حَتّٰى يَأْتِيَ»، إشاره إلى هذا المعنى.

و هذا يؤيد ما ورد من الروايات أن الآيه نزلت يوم غدير خم،و هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجه سنه عشر من الهجره فى أمر ولايه على(ع)،و على هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط،و لا يرد عليه شيء من الإشكالات المتقدمه.

ثم إنک بعد ما عرفت معنی الیأس فی الآیه تعرف أن الیوم:«فی قوله اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ ظرف متعلق بقوله :«یَئِسَ» و إن التقدیم للدلاله علی تفخیم أمر الیوم،و تعظیم شأنه،لما فیه من خروج الدین من مرحله القیام بالقیم الشخصی إلی مرحله القیام بالقیم النوعی،و من صفه الظهور و الحدوث إلی صفه البقاء و الدوام.

و لا یقاس الآیه بما سیأتی من قوله:« اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبٰاتُ» (الآیه)فإن سیاق الآیتین مختلف فقوله: «الْیَوْمَ یَئِسَ»، فی سیاق الاعتراض،و قوله:« اَلْیَوْمَ أُحِلَّ»، فی سیاق الاستیناف،و الحکمان مختلفان:فحکم الآیه الأولی تکوینی مشتمل علی البشری من وجه و التحذیر من وجه آخر، و حکم الثانیه تشریعی منبئ عن الامتنان.فقوله:« اَلْیَوْمَ یَئِسَ»، یدل علی تعظیم أمر الیوم لاشتماله علی خیر عظیم الجدوی و هو یأس الذین کفروا من دین المؤمنین،و المراد بالذین کفروا-کما تقدمت الإشاره إلیه-مطلق الکفار من الوثنیین و الیهود و النصاری و غیرهم لمکان الإطلاق.

و أما قوله: «فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فالنهی إرشادی لا مولوی،معناه أن لا موجب للخشیه بعد یأس الذین کنتم فی معرض الخطر من قبلهم-و من المعلوم أن الإنسان لا یهم بأمر بعد تمام الیأس من الحصول علیه و لا یسعی إلی ما یعلم ضلال سعیه فیه-فأنتم فی أمن من ناحیه الکفار،و لا ینبغی لکم مع ذلک الخشیه منهم علی دینکم فلا تخشوهم و اخشونی.

و من هنا یظهر أن المراد بقوله:« وَ اخْشَوْنِ» بمقتضی السیاق أن اخشونی فیما کان علیکم أن تخشوهم فیه لو لا یأسهم و هو الدین و نزعه من أیدیکم،و هذا نوع تهدید للمسلمین کما هو ظاهر،و لهذا لم نحمل الآیه علی الامتنان.

و یؤید ما ذکرنا أن الخشیه من الله سبحانه واجب علی أی تقدیر من غیر أن یتعلق بوضع دون وضع،و شرط دون شرط،فلا وجه للإضراب من قوله:« فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ» إلی قوله: «وَ اخْشَوْنِ» لو لا أنها خشیه خاصه فی مورد خاص.

و لا تقاس الآیه بقوله تعالی :«فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ» :(آل عمران:

۱۷۵)لأن الأمر بالخوف من الله فی تلک الآیه مشروط بالإیمان،و الخطاب مولوی ،و مفاده أنه لا یجوز للمؤمنین أن یخافوا الکفار علی أنفسهم بل یجب أن یخافوا الله سبحانه وحده.

ص :۱۷۷

فالآیه تنهاهم عما لیس لهم بحق و هو الخوف منهم علی أنفسهم سواء أمروا بالخوف من الله أم لا،و لذلک یعلل ثانیا الأمر بالخوف من الله بقید مشعر بالتعلیل،و هو قوله :

«إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ» و هذا بخلاف قوله:« فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فإن خشیتهم هذه خشیه منهم علی دینهم،و لیست بمبغوضه لله سبحانه لرجوعها إلی ابتغاء مرضاته بالحقیقه،بل إنما النهی عنها لکون السبب الداعی إلیها-و هو عدم یأس الکفار منه-قد ارتفع و سقط أثره فالنهی عنه إرشادی،فکذا الأمر بخشیه الله نفسه،و مفاد الکلام أن من الواجب أن تخشوا فی أمر الدین،لکن سبب الخشیه کان إلی الیوم مع الکفار فکنتم تخشونهم لرجائهم فی دینکم و قد یئسوا الیوم و انتقل السبب إلی ما عند الله فاخشوه وحده فافهم ذلک.

فالآیه لمکان قوله:« فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» لا تخلو عن تهدید و تحذیر،لأن فیه أمرا بخشیه خاصه دون الخشیه العامه التی تجب علی المؤمن علی کل تقدیر و فی جمیع الأحوال فلننظر فی خصوصیه هذه الخشیه،و أنه ما هو السبب الموجب لوجوبها و الأمر بها.؟ لا إشکال فی أن الفقرتین أعنی قوله. «اَلْیَوْمَ یَئِسَ»، و قوله:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی»، فی الآیه مرتبطان مسوقتان لغرض واحد،و قد تقدم بیانه فالدین الذی أکمله الله الیوم،و النعمه التی أتمها الیوم-و هما أمر واحد بحسب الحقیقه- هو الذی کان یطمع فیه الکفار و یخشاهم فیه المؤمنون فأیأسهم الله منه و أکمله و أتمه و نهاهم عن أن یخشوهم فیه،فالذی أمرهم بالخشیه من نفسه فیه هو ذاک بعینه و هو أن ینزع الله الدین من أیدیهم،و یسلبهم هذه النعمه الموهوبه.

و قد بین الله سبحانه أن لا سبب لسلب النعمه إلا الکفر بها،و هدد الکفور أشد التهدید،قال تعالی:« ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» :(الأنفال:۵۳)و قال تعالی:« وَ مَنْ یُبَدِّلْ نِعْمَهَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِیدُ الْعِقٰابِ» :(البقره:۲۱۱)و ضرب مثلا کلیا لنعمه و ما یئول إلیه أمر الکفر بها فقال و«ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً قَرْیَهً کٰانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً یَأْتِیهٰا رِزْقُهٰا رَغَداً مِنْ کُلِّ مَکٰانٍ فَکَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّٰهِ فَأَذٰاقَهَا اللّٰهُ لِبٰاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ»:

(النحل:۱۱۲).

فالآیه أعنی قوله: «اَلْیَوْمَ یَئِسَ- إلی قوله- دِیناً» تؤذن بأن دین المسلمین فی أمن

من جهه الکفار،مصون من الخطر المتوجه من قبلهم،و أنه لا یتسرب إلیه شیء من طوارق الفساد و الهلاک إلا من قبل المسلمین أنفسهم،و إن ذلک إنما یکون بکفرهم بهذه النعمه التامه،و رفضهم هذا الدین الکامل المرضی،و یومئذ یسلبهم الله نعمته و یغیرها إلی النقمه، و یذیقهم لباس الجوع و الخوف،و قد فعلوا و فعل.

و من أراد الوقوف علی مبلغ صدق هذه الآیه فی ملحمتها المستفاده من قوله:« فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فعلیه أن یتأمل فیما استقر علیه حال العالم الإسلامی الیوم ثم یرجع القهقری بتحلیل الحوادث التاریخیه حتی یحصل علی أصول القضایا و أعراقها.

و لآیات الولایه فی القرآن ارتباط تام بما فی هذه الآیه من التحذیر و الإیعاد و لم یحذر الله العباد عن نفسه فی کتابه إلا فی باب الولایه،فقال فیها مره بعد مره: « وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ» :(آل عمران:۳۰۲۸)و تعقیب هذا البحث أزید من هذا خروج عن طور الکتاب.

قوله تعالی:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً» الإکمال و الإتمام متقاربا المعنی،قال الراغب: کمال الشیء حصول ما هو الغرض منه.و قال: تمام الشیء انتهاؤه إلی حد لا یحتاج إلی شیء خارج عنه.و الناقص ما یحتاج إلی شیء خارج عنه.

و لک أن تحصل علی تشخیص معنی اللفظین من طریق آخر،و هو أن آثار الأشیاء التی لها آثار علی ضربین.فضرب منها ما یترتب علی الشیء عند وجود جمیع أجزائه- إن کان له أجزاء-بحیث لو فقد شیئا من أجزائه أو شرائطه لم یترتب علیه ذلک الأمر کالصوم فإنه یفسد إذا أخل بالإمساک فی بعض النهار،و یسمی کون الشیء علی هذا الوصف بالتمام،قال تعالی: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیٰامَ إِلَی اللَّیْلِ» :(البقره:۱۸۷)و قال:« وَ تَمَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ صِدْقاً وَ عَدْلاً» :(الأنعام:۱۱۵).

و ضرب آخر:الأثر الذی یترتب علی الشیء من غیر توقف علی حصول جمیع أجزائه،بل أثر المجموع کمجموع آثار الأجزاء،فکلما وجد جزء ترتب علیه من الأثر ما هو بحسبه،و لو وجد الجمیع ترتب علیه کل الأثر المطلوب منه، قال تعالی:« فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ ثَلاٰثَهِ أَیّٰامٍ فِی الْحَجِّ وَ سَبْعَهٍ إِذٰا رَجَعْتُمْ تِلْکَ عَشَرَهٌ کٰامِلَهٌ» :(البقره:۱۹۶)و قال:

«وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» :(البقره:۱۸۵)فإن هـذا العـدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كله،و يقال:تم لفلان أمره و كمل عقله:و لا يقال تم عقله و كمل أمره.

و أمـا الفرق بين الإكمـال و التكميـل،و كـذا بين الإتمـام و التتميم فإنمـا هو الفرق بين بـابى الإفعـال و التفعيـل،و هو أن الإفعـال بحسب الأصـل يـدل على الـدفعه و التفعيـل على التدريـج، و إن كان التوسع الكلامى أو التطور اللغوى ربما يتصـرف فى البابين بتحويلهما إلى ما يبعـد من مجرى المجرد أو من أصـلهما كالإحسان و التحسـين،و الإصـداق و التصـديق،و الإمـداد و التمديـد و الإفراط و التفريط،و غير ذلک،فإنما هى معان طرأت بحسب خصوصيات الموارد ثم تمكنت فى اللفظ بالاستعمال.

و ينتـج مـا تقـدم أن قوله:« أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى» يفيـد أن المراد بالـدين هو مجموع المعارف و الأحكام المشـرعه و قد أضيف إلى عددها اليوم شىء و إن النعمه أيا ما كانت أمر معنوى واحد كأنه كان ناقصا غير ذى أثر فتمم و ترتب عليه الأثر المتوقع منه.

و النعمه بنـاء نوع و هى مـا يلائـم طبع الشـىء من غير امتنـاعه منه،و الأشـياء و إن كـانت بحسب وقوعها فى نظام التـدبير متصله مرتبطه متلائما بعضـها مع بعض،و أكثرها أو جميعها نعم إذا أضيفت إلى بعض آخر مفروض كما قال تعالى:« وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوها» :(إبراهيم:۳۴)و قال:« وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً» :(لقمان:۲۰).

إلا أنه تعالى وصف بعضـها بالشر و الخسه و اللعب و اللهو و أوصاف أخر غير ممدوحه كما قال:« وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» :(آل عمران:۱۷۸)،و قال:« وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ» :(العنكبوت:۶۴)،و قال:« لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» :(آل عمران:۱۹۷)إلى غير ذلک.

و الآيات تـدل على أن هـذه الأشـياء المعدوده نعما إنما تكون نعمه إذا وافقت الغرض الإلهى من خلقتها لأجل الإنسان فإنها إنما خلقـت لتكـون إمـدادا إلهيـا للإنسـان يتصـرف فيهـا فى سبيـل سـعادته الحقيقيـه،و هى القرب منه سـبحانه بـالعبوديه و الخضـوع للربوبيه،قال

تعالی:« وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ» :(الذاريات:۵۶).

فكـل مـا تصـرف فيه الإنسـان للسـلوك به إلى حضـره القرب من الله و ابتغـاء مرضـاته فهو نعمه،و إن انعكس الأمر عاد نقمه فى حقه،فالأشـياء فى نفسها عزل،و إنما هى نعمه لاشتمالها على روح العبوديه،و دخولها من حيث التصرف المذكور تحت ولايه الله التى هى تـدبير الربوبيه لشـئون العبد،و لازمه أن النعمه بالحقيقه هى الولايه الإلهيه،و أن الشـىء إنما يصـير نعمه إذا كان مشـتملا على شـىء منهـا،قـال تعـالى :«اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ» :(البقره:۲۵۷)،و قـال تعـالى:« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ» :(محمـد:۱۱)و قـال فى حق رسوله:« فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» :(النساء:۶۵)إلى غير ذلك.

فالإسلام و هو مجموع ما نزل من عند الله سبحانه ليعبده به عباده دين،و هو من جهه اشتماله-من حيث العمل به-على ولايه الله و ولايه رسوله و أولياء الأمر بعده نعمه.

و لا يتم ولايه الله سـبحانه أى تـدبيره بالـدين لأمور عباده إلا بولايه رسوله،و لا ولايه رسوله إلا بولايه أولى الأمر من بعده،و هى تدبيرهم لأمور الأمه الدينيه بإذن من الله قال تعالى:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (النساء: ۵۹)و قـد مر الكلام فى معنى الآيه،و قـال:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ» :(المائده:۵۵)و سيجىء الكلام فى معنى الآيه إن شاء الله تعالى.

فمحصل معنى الآيه:اليوم-و هو اليوم الـذى يئس فيه الـذين كفروا من دينكم- أكملت لكم مجموع المعارف الدينيه التى أنزلتها إليكم بفرض الولايه،و أتممت عليكم نعمتى و هى الولايه التى هى إداره أمور الدين و تدبيرها تدبيرا إلهيا،فإنها كانت إلى اليوم ولايه الله و رسوله،و هى أنمـا تكفى ما دام الوحى ينزل،و لا تكفى لما بعـد ذلك من زمان انقطاع الوحى،و لا رسول بين الناس يحمى دين الله و يذب عنه بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك،و هو ولى الأمر بعد رسول الله ص القيم على أمور الدين و الأمه.

فالولايه مشروعه واحده،كانت ناقصه غير تامه حتى إذا تمت بنصب ولى الأمر

بعد النبی.

و إذا کمل الدین فی تشریعه،و تمت نعمه الولایه فقد رضیت لکم من حیث الدین الإسلام الذی هو دین التوحید الذی لا یعبد فیه إلا الله و لا یطاع فیه-و الطاعه عباده- إلا الله و من أمر بطاعته من رسول أو ولی.

فالآیه تنبئ عن أن المؤمنین الیوم فی أمن بعد خوفهم،و أن الله رضی لهم أن یتدینوا بالإسلام الذی هو دین التوحید فعلیهم أن یعبدوه و لا یشرکوا به شیئا بطاعه غیر الله أو من أمر بطاعته.و إذا تدبرت قوله تعالی:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ» :(النور:۵۵)ثم طبقت فقرات الآیه علی فقرات قوله تعالی:

«الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ»

(إلخ)وجدت آیه سوره المائده من مصادیق إنجاز الوعد الذی یشتمل علیه آیه سوره النور علی أن یکون قوله:« یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً» مسوقا سوق الغایه کما ربما یشعر به قوله:« وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ» .

و سوره النور قبل المائده نزولا کما یدل علیه اشتمالها علی قصه الإفک و آیه الجد و آیه الحجاب و غیر ذلک.

قوله تعالی:« فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» المخمصه هی المجاعه،و التجانف هو التمایل من الجنف بالجیم و هو میل القدمین إلی الخارج مقابل الحنف بالحاء الذی هو میلهما إلی الداخل.

و فی سیاق الآیه دلاله أولا علی أن الحکم حکم ثانوی اضطراری،و ثانیا علی أن التجویز و الإباحه مقدر بمقدار یرتفع به الاضطرار و یسکن به ألم الجوع،و ثالثا علی أن صفه المغفره و مثلها الرحمه کما تتعلق بالمعاصی المستوجبه للعقاب کذلک یصح أن تتعلق بمنشئها،و هو الحکم الذی یستتبع مخالفته تحقق عنوان المعصیه الذی یستتبع العقاب.

(بحث علمی فی فصول ثلاثه)

۱-العقائد فی أكل اللحم:

لا ریب أن الإنسان كسائر الحیوان و النبات مجهز بجهاز التغذی یجذب به إلی نفسه من الأجزاء المادیه ما یمكنه أن یعمل فیه ما ینضم بذلك إلی بدنه و ینحفظ به بقاؤه،فلا مانع له بحسب الطبع من أكل ما یقبل الازدراد و البلع إلا أن یمتنع منه لتضرر أو تنفر.

أما التضرر فهو كان یجد المأكول یضر ببدنه ضرا جسمانیا لمسمومیه و نحوها فیمتنع عندئذ عن الأكل،أو یجد الأكل یضر ضرا معنویا كالمحرمات التی فی الأدیان و الشرائع المختلفه،و هذا القسم امتناع عن الأكل فكری.

و أما التنفر فهو الاستقذار الذی یمتنع معه الطبع عن القرب منه كما أن الإنسان لا یأكل مدفوع نفسه لاستقذاره إیاه ،و قد شوهد ذلك فی بعض الأطفال و المجانین، و یلحق بذلك ما یستند إلی عوامل اعتقادیه كالمذهب أو السنن المختلفه الرائجه فی المجتمعات المتنوعه مثل أن المسلمین یستقذرون لحم الخنزیر،و النصاری یستطیبونه، و یتغذی الغربیون من أنواع الحیوانات أجناسا كثیره یستقذرها الشرقیون كالسرطان و الضفدع و الفأر و غیرها،و هذا النوع من الامتناع امتناع بالطبع الثانی و القریحه المكتسبه.

فتبین أن الإنسان فی التغذی باللحوم علی طرائق مختلفه ذات عرض عریض من الاسترسال المطلق إلی الامتناع،و أن استباحته ما استباح منها اتباع للطبع كما أن امتناعه عما یمتنع عنه أنما هو عن فكر أو طبع ثانوی.

و قد حرمت سنه بوذا أكل لحوم الحیوانات عامه،و هذا تفریط یقابله فی جانب الإفراط ما كان دائرا بین أقوام متوحشین من إفریقیه و غیرها إنهم كانوا یأكلون أنواع اللحوم حتی لحم الإنسان.

و قد كانت العرب تأكل لحوم الأنعام و غیرها من الحیوان حتی أمثال الفأر و الوزغ، و تأكل من الأنعام ما قتلته بذبح و نحوه،و تأكل غیر ذلك كالمیته بجمیع أقسامها كالمنخنقه

ص :۱۸۳

و الموقوذه و المترديه و النطيحه و ما أكل السبع،و كان القائل منهم يقول:ما لكم تأكلون مما قتلتموه و لا تأكلون مما قتله الله؟!كما ربما يتفوه بمثله اليوم كثيرون؟يقول قائلهم:

ما الفارق بين اللحم و اللحم إذا لم يتضرر به بدن الإنسان و لو بعلاج طبى فنى فجهاز التغذى لا يفرق بين هذا و ذاك.

و كانت العرب أيضا تأكل الدم،كانوا يملئون المعى من الدم و يشوونه و يطعمونه الضيف،و كانوا إذا أجدبوا جرحوا إبلهم بالنصال و شربوا ما ينزل من الدم،و أكل الدم رائج اليوم بين كثير من الأمم غير المسلمه.

و أهل الصين من الوثنيه أوسع منهم سنه،فهم-على ما ينقل-يأكلون أصناف الحيوان حتى الكلب و الهر و حتى الديدان و الأصداف و سائر الحشرات.

و قد أخذ الإسلام فى ذلك طريقا وسطا فأباح من اللحوم ما تستطيعه الطباع المعتدله من الإنسان،ثم فسره فى ذوات الأربع بالبهائم كالضأن و المعز و البقر و الإبل على كراهيه فى بعضها كالفرس و الحمار،و فى الطير-بغير الجوارح-مما له حوصله و دفيف و لا مخلب له،و فى حيوان البحر ببعض أنواع السمك على التفصيل المذكور فى كتب الفقه.

ثم حرم دماءها و كل ميته منها و ما لم يذك بالإهلال به لله عز اسمه،و الغرض فى ذلك أن تحيا سنه الفطره،و هى إقبال الإنسان على أصل أكل اللحم،و يحترم الفكر الصحيح و الطبع المستقيم اللذين يمتنعان من تجويز ما فيه الضرر نوعا،و تجويز ما يستقذر و يتنفر منه.

٢-كيف أمر بقتل الحيوان و الرحمه تأباه؟

ربما يسأل السائل فيقول إن الحيوان ذو روح شاعره بما يشعر به الإنسان من ألم العذاب و مراره الفناء و الموت و غريزه حب الذات التى تبعثنا إلى الحذر من كل مكروه و الفرار من ألم العذاب و الموت تستدعى الرحمه لغيرنا من أفراد النوع لأنه يؤلمهم ما يؤلمنا،و يشق عليهم ما يشق علينا،و النفوس سواء.

و هذا القياس جار بعينه فى سائر أنواع الحيوان،فكيف يسوغ لنا أن نعذبهم بما نتعذب به، و نبدل لهم حلاوه الحياه من مراره الموت،و نحرمهم نعمه البقاء التى هى أشرف نعمه؟و الله سبحانه أرحم الراحمين فكيف يسع رحمته أن يأمر بقتل حيوان ليلتذ به إنسان و هما جميعا فى أنهما خلقه سواء؟.

و الجواب عنه أنه من تحكيم العواطف على الحقائق و التشريع إنما يتبع المصالح الحقيقيه دون العواطف الوهميه.

توضيح ذلك أنك إذا تتبعت الموجودات التى تحت مشاهدتک بالميسور مما عندک وجدتها فى تكونها و بقائها تابعه لناموس التحول،فما من شىء إلا و فى إمكانه أن يتحول إلى آخر،و أن يتحول الآخر إليه بغير واسطه أو بواسطه،لا يوجد واحد إلا و يعدم آخر،و لا يبقى هذا إلا و يفنى ذاک،فعالم الماده عالم التبديل،و التبدل و إن شئت فقل:

عالم الآكل و المأكول.

فالمركبات الأرضيه تأكل الأرض بضمها إلى أنفسها و تصويرها بصوره تناسبها أو تختص بها ثم الأرض تأكلها و تفنيها.

ثم النبات يتغذى بالأرض و يستنشق الهواء ثم الأرض تأكله و تجزئه إلى أجزائه الأصليه و عناصره الأوليه،و لا يزال أحدهما يراجع الآخر.

ثم الحيوان يتغذى بالنبات و الماء و يستنشق الهواء،و بعض أنواعه يتغذى ببعض كالسباع تأكل لحوم غيرها بالاصطياد،و جوارح الطير تأكل أمثال الحمام و العصافير لا يسعها بحسب جهاز التغذى الذى يخصها إلا ذلک،و هى تتغذى بالحبوب و أمثال الذباب و البق و البعوض و هى تتغذى بدم الإنسان و سائر الحيوان و نحوه،ثم الأرض تأكل الجميع.

فنظام التكوين و ناموس الخلقه الذى له الحكومه المطلقه المتبعه على الموجودات هو الذى وضع حكم التغذى باللحوم و نحوها،ثم هدى أجزاء الوجود إلى ذلک،و هو الذى سوى الإنسان تسويه صالحه للتغذى بالحيوان و النبات جميعا.و فى مقدم جهازه الغذائى أسنانه المنضوده نضدا صالحا للقطع و الكسر و النهش و الطحن من ثنايا و رباعيات و أنياب و طواحن،فلا هو مثل الغنم و البقر من الأنعام لا تستطيع قطعا و نهشا،و لا هو كالسباع لا تستطيع طحنا و مضغا.

ثم القوه الذائقه المعده فى فمه التى تستلذ طعم اللحوم ثم الشهوه المودعه فى سائر أعضاء هضمه جميع هذه تستطيب اللحوم و تشتهيها.كل ذلک هدايه تكوينيه و إباحه من مؤتمن الخلقه،و هل يمكن الفرق بين الهدايه التكوينيه،و إباحه العمل المهدى إليه بتسليم أحدهما و إنكار الآخر؟.

و الإسلام دين فطرى لا- هم له إلا- إحياء آثار الفطره التى أعفتها الجهاله الإنسانيه، فلا مناص من أن يستباح به ما تهدى إليه الخلقه و تقضى به الفطره.

و هو كما يحيى بالتشريع هذا الحكم الفطرى يحيى أحكاما أخرى وضعها واضع التكوين،و هو ما تقدم ذكره من الموانع من الاسترسال فى حكم التغذى أعنى حكم العقل بوجوب اجتناب ما فيه ضرر جسمانى أو معنوى من اللحوم،و حكم الإحساسات و العواطف الباطنيه بالتحذر و الامتناع عما يستقذره و يتنفر منه الطباع المستقيمه، و هذان الحكمان أيضا ينتهى أصولهما إلى تصرف من التكوين،و قد اعتبرهما الإسلام فحرم ما يضر نماء الجسم،و حرم ما يضر بمصالح المجتمع الإنسانى،مثل ما أهل به لغير الله،و ما اكتسب من طريق الميسر و الاستقسام بالأزلام و نحو ذلك،و حرم الخبائث التى تستقذرها الطباع.

و أما حديث الرحمه المانعه من التعذيب و القتل فلا شك أن الرحمه موهبه لطيفه تكوينيه أودعت فى فطره الإنسان و كثير مما اعتبرنا حاله من الحيوان،إلا- أن التكوين لم يوجدها لتحكم فى الأمور حكومه مطلقه و تطاع طاعه مطلقه،فالتكوين نفسه لا يستعمل الرحمه استعمالا مطلقا،و لو كان ذلك لم يوجد فى دار الوجود أثر من الآلام و الأسقام و المصائب و أنواع العذاب.

ثم الرحمه الإنسانيه فى نفسها ليست خلقا فاضلا على الإطلاق كالعدل،و لو كان كذلك لم يحسن أن نؤاخذ ظالما على ظلمه أو نجازى مجرما على جرمه و لا أن نقابل عدوانا بعدوان و فيه هلاك الأرض و من عليها.

و مع ذلک لم يهمل الإسلام أمر الرحمه بما أنها من مواهب التكوين،فأمر بنشر الرحمه عموما،و نهى عن زجر الحيوان فى القتل،و نهى عن قطع أعضاء الحيوان المذبوح و سلخه قبل زهاق روحه-و من هذا الباب تحريم المنخنقه و الموقوذه-و نهى عن قتل الحيوان و آخر ينظر إليه، و وضع للتذكيه أرفق الأحكام بالحيوان المذبوح و أمر بعرض الماء عليه و نحو ذلك مما يوجد تفصيله فى كتب الفقه.

و مع ذلک كله الإسلام دين التعقل لا دين العاطفه فلا يقدم حكم العاطفه على الأحكام المصلحه لنظام المجتمع الإنسانى و لا يعتبر منه إلا ما اعتبره العقل،و مرجع ذلک

ص :١٨۶

إلى اتباع حكم العقل.

و أما حديث الرحمه الإلهيه و أنه تعالى أرحم الراحمين،فهو تعالى غير متصف بالرحمه بمعنى رقه القلب أو التأثر الشعورى الخاص الباعث للراحم على التلطف بالمرحوم، فإن ذلك صفه جسمانيه ماديه تعالى عن ذلك علوا كبيرا،بل معناها إفاضته تعالى الخير على مستحقه بمقدار ما يستحقه،و لذلك ربما كان ما نعده عذابا رحمه منه تعالى و بالعكس،فليس من الجائز فى الحكمه أن يبطل مصلحه من مصالح التدبير فى التشريع اتباعا لما تقترحه عاطفه الرحمه الكاذبه التى فينا،أو يساهل فى جعل الشرائع محاذيه للواقعيات.

فتبين من جميع ما مر أن الإسلام يحاكى فى تجويز أكل اللحوم و فى القيود التى قيد بها الإباحه و الشرائط التى اشترطها جميعا أمر الفطره:فطره الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم!.

۳-لما ذا بنى الإسلام على التذكيه؟

و هذا سؤال آخر يتفرع على السؤال المتقدم، و هو أنا سلمنا أن أكل اللحوم مما تبيحه الفطره و الخلقه فهلا اقتصر فى ذلك بما يحصل على الصدفه و نحوها بأن يقتصر فى اللحوم بما يهيئه الموت العارض حتف الأنف،فيجمع فى ذلك بين حكم التكوين بالجواز،و حكم الرحمه بالإمساك عن تعذيب الحيوان و زجره بالقتل أو الذبح من غير أن يعدل عن ذلك إلى التذكيه و الذبح؟.

و قد تبين الجواب عنه مما تقدم فى الفصل الثانى،فإن الرحمه بهذا المعنى غير واجب الاتباع بل اتباعه يفضى إلى إبطال أحكام الحقائق.و قد عرفت أن الإسلام مع ذلك لم يأل جهدا فى الأمر بإعمال الرحمه قدر ما يمكن فى هذا الباب حفظا لهذه الملكه اللطيفه بين النوع.

على أن الاقتصار على إباحه الميته و أمثالها مما لا ينتج التغذى به إلا فساد المزاج و مضار الأبدان هو بنفسه خلاف الرحمه،و بعد ذلك كله لا يخلو عن الحرج العام الواجب نفيه.

(بحث روائی)

فی تفسیر العیاشی،عن عکرمه عن ابن عباس قال": ما نزلت آیه:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» إلا و علی شریفها و أمیرها،و لقد عاتب الله أصحاب محمد ص فی غیر مکان-و ما ذکر علیا إلا بخیر:.

أقول:و روی فی تفسیر البرهان،عن موفق بن أحمد،عن عکرمه، عن ابن عباس ":

مثله إلی قوله:و أمیرها.و رواه أیضا العیاشی عن عکرمه. و قد نقلنا الحدیث سابقا عن الدر المنثور.

و فی بعض الروایات عن الرضا(ع)قال: لیس فی القرآن «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» إلا فی حقنا و هو من الجری أو من باطن التنزیل.

و فیه،عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ قال:العهود:.

أقول:و رواه القمی،أیضا فی تفسیره عنه.

و فی التهذیب،مسندا عن محمد بن مسلم قال: سألت أحدهما(ع)عن قول الله عز و جل:« أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَهُ الْأَنْعٰامِ» فقال:الجنین فی بطن أمه إذا أشعر و أوبر فذکاته ذکاه أمه الذی عنی الله تعالی:.

أقول:و الحدیث مروی فی الکافی،و الفقیه،عنه عن أحدهما،

و روی هذا المعنی العیاشی فی تفسیره عن محمد بن مسلم عن أحدهما،و عن زراره عن الصادق(ع)،و رواه القمی فی تفسیره،و رواه فی المجمع،عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع).

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ» (الآیه) الشعائر:الإحرام و الطواف-و الصلاه فی مقام إبراهیم و السعی بین الصفا و المروه،و المناسک کلها من شعائر الله،و من الشعائر إذا ساق الرجل بدنه فی حج-ثم أشعرها أی قطع سنامها أو جلدها-أو قلدها لیعلم الناس أنها هدی-فلا یتعرض لها أحد.و إنما سمیت الشعائر لیشعر الناس بها فیعرفوها،و قوله:« وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ» -و هو ذو الحجه و هو من الأشهر الحرم، و قوله:« وَ لاَ الْهَدْیَ» -و هو الذی یسوقه إذا أحرم المحرم،و قوله:« وَ لاَ الْقَلاٰئِدَ» قال:

يقلدها النعل التی قد صلی فیها.قوله:« وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ» قال:الذین یحجون البیت

و فی المجمع،قال أبو جعفر الباقر(ع): نزلت هذه الآیه فی رجل من بنی ربیعه یقال له:الحطم.

قال:و قال السدی: أقبل الحطم بن هند البکری حتی أتی النبی ص وحده- و خلف خیله خارج المدینه فقال:إلی ما تدعو؟و قد کان النبی ص قال لأصحابه:

یدخل علیکم الیوم رجل من بنی ربیعه-یتکلم بلسان شیطان-فلما أجابه النبی ص قال؟أنظرنی لعلی أسلم و لی من أشاوره،فخرج من عنده فقال رسول الله ص:لقد دخل بوجه کافر،و خرج بعقب غادر،فمر بسرح من سروح المدینه فساقه-و انطلق به و هو یرتجز و یقول:

قد لفها اللیل بسواق حطم*

لیس براعی إبل و لا غنم

و لا بجزار علی ظهر وضم*

باتوا نیاما و ابن هند لم ینم

بات یقاسیها غلام کالزلم*

خدلج الساقین ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قابل حاجا قد قلد هدیا-فأراد رسول الله ص أن یبعث إلیه فنزلت هذه الآیه:« وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ» .

قال:و قال ابن زید:نزلت یوم الفتح-فی ناس یؤمون البیت من المشرکین یهلون بعمره،فقال المسلمون:یا رسول الله-إن هؤلاء مشرکون مثل هؤلاء دعنا نغیر علیهم- فأنزل الله تعالی الآیه.

أقول:روی الطبری القصه عن السدی و عکرمه،و القصه الثانیه عن ابن زید و روی فی الدر المنثور،القصه الثانیه عن ابن أبی حاتم عن زید بن أسلم و فیه:أنه کان یوم الحدیبیه.و القصتان جمیعا لا توافقان ما هو کالمتسلم علیه عند المفسرین و أهل النقل أن سوره المائده نزلت فی حجه الوداع،إذ لو کان کذلک کان قوله :«إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ فَلاٰ یَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا» :(البراءه:۲۸)،و قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» :(البراءه:۵)الآیتان جمیعا نازلتین قبل قوله:« وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ» و لا محل حینئذ للنهی عن التعرض للمشرکین إذا قصدوا البیت الحرام.

و لعل شیئا من هاتین القصتین أو ما یشابههما هو السبب لما نقل عن ابن عباس و مجاهد

و قتاده و الضحاک:أن قوله:« وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ» منسوب بقوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» (الآیه)و قوله :«إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ» (الآیه)،و قد وقع حدیث النسخ فی تفسیر القمی،و ظاهره أنه روایه.

و مع ذلک کله تأخر سوره المائده نزولا یدفع ذلک کله،و قد ورد من طرق أئمه أهل البیت(ع)أنها ناسخه غیر منسوخه علی أن قوله تعالی فیها:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (الآیه)یأبی أن یطرء علی بعض آیها نسخ و علی هذا یکون مفاد قوله:

«وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ»

کالمفسر بقوله بعد:« وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا»، أی لا تذهبوا بحرمه البیت بالتعرض لقاصدیه لتعرض منهم لکم قبل هذا،و لا غیر هؤلاء ممن صدوکم قبلا عن المسجد الحرام أن تعتدوا علیهم بإثم کالقتل أو عدوان کالذی دون القتل من الظلم بل تعاونوا علی البر و التقوی.

و فی الدر المنثور،:أخرج أحمد و عبد بن حمید: فی هذه الآیه یعنی قوله:« وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ» (الآیه):و البخاری فی تاریخه،عن وابصه قال:أتیت رسول الله ص و أنا لا أرید- أن أدع شیئا من البر و الإثم إلا سألته عنه-فقال لی:یا وابصه أخبرک عما جئت تسأل عنه أم تسأل؟قلت:یا رسول الله أخبرنی-قال:جئت لتسأل عن البر و الإثم، ثم جمع أصابعه الثلاث فجعل ینکت بها فی صدری و یقول:یا وابصه استفت قبلک استفت نفسک البر-ما اطمأن إلیه القلب و اطمأنت إلیه النفس،و الإثم ما حاک فی القلب،و تردد فی الصدر و إن أفتاک الناس و أفتوک.

و فیه:،أخرج أحمد و عبد بن حمید و ابن حبان و الطبرانی و الحاکم و صححه و البیهقی عن أبی أمامه: أن رجلا سأل النبی ص عن الإثم-فقال:ما حاک فی نفسک فدعه.

قال:فما الإیمان؟قال:من ساءته سیئته و سرته حسنته فهو مؤمن.

و فیه:أخرج ابن أبی شیبه و أحمد و البخاری فی الأدب و مسلم و الترمذی و الحاکم و البیهقی فی الشعب عن النواس بن سمعان قال: سئل رسول الله ص عن البر و الإثم فقال:البر حسن الخلق و الإثم ما حاک فی نفسک-و کرهت أن یطلع علیه الناس.

أقول:الروایات-کما تری-تبتنی علی قوله تعالی:« وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا» :(الشمس:۸)و تؤید ما تقدم من معنی الإثم.

و فی المجمع:و اختلف فی هـذا یعنی قوله: وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ) فقیل:منسوخ بقوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» -عن أکثر المفسرین،و قیل:

ما نسخ من هذه السوره شیء،و لا من هذه الآیه،لأنه لا یجوز أن یبتدأ المشرکون-فی الأشهر الحرم بالقتال إلا إذا قاتلوا": ثم قال و هو المروی عن أبی جعفر(ع)

و فی الفقیه،بإسناده عن أبان بن تغلب عن أبی جعفر محمد بن علی الباقر(ص) أنه قال: المیته و الدم و لحم الخنزیر معروف،و ما أهل لغیر الله به یعنی ما ذبح علی الأصنام،و أما المنخنقه فإن المجوس-کانوا لا یأکلون الذبائح و یأکلون المیته،و کانوا یخنقون البقر و الغنم-فإذا خنقت و ماتت أکلوها،و الموقوذه کانوا یشدون أرجلها-و یضربونها حتی تموت فإذا ماتت أکلوها،و المتردیه کانوا یشدون عینها-و یلقونها عن السطح فإذا ماتت أکلوها،و النطیحه کانوا یتناطحون بالکباش-فإذا مات أحدهما أکلوه،و ما أکل السبع إلا ما ذکیتم-فکانوا یأکلون ما یقتله الذئب و الأسد و الدب-فحرم الله عز و جل ذلک،و ما ذبح علی النصب کانوا یذبحون لبیوت النیران،و قریش کانوا یعبدون الشجر و الصخر فیذبحون لهما،و أن تستقسموا بالأزلام ذلکم فسق-قال:کانوا یعمدون إلی جزور فیجتزون عشره أجزاء-ثم یجتمعون علیه فیخرجون السهام-فیدفعونها إلی رجل و السهام عشره،و هی:سبعه لها أنصباء،و ثلاثه لا أنصباء لها.

فالتی لها أنصباء:الفذ و التوأم و المسبل-و النافس و الحلس و الرقیب و المعلی،فالفذ له سهم،و التوأم له سهمان،و المسبل له ثلاثه أسهم،و النافس له أربعه أسهم،و الحلس له خمسه أسهم،و الرقیب له سته أسهم،و المعلی له سبعه أسهم.

و التی لا أنصباء لها:السفیح،و المنیح،و الوغد-و ثمن الجزور علی من لم یخرج له من الأنصباء شیء-و هو القمار فحرمه الله.

أقول:و ما ذکر فی الروایه فی تفسیر المنخنقه و الموقوذه و المتردیه من قبیل البیان بالمثال کما یظهر من الروایه التالیه،و کذا ذکر قوله:، إِلاّٰ مٰا ذَکَّیْتُمْ مع قوله:« وَ مٰا أَکَلَ السَّبُعُ» و قوله:« ذٰلِکُمْ فِسْقٌ مع قوله وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ» لا دلاله فیه علی التقیید.

و فی تفسیر العیاشی،عن عیوق بن قسوط:عن أبی عبد الله(ع) فی قول الله:

«الْمُنْخَنِقَهُ»

قال:التی تنخنق فی رباطها« وَ الْمَوْقُوذَهُ» المریضه التی لا تجد ألم الذبح-و لا تضطرب و لا تخرج لها دم- وَ«الْمُتَرَدِّیَهُ» التی تردی من فوق بیت أو نحوه- «وَ النَّطِیحَهُ» التی تنطح صاحبها.

و فیه،عن الحسن بن علی الوشاء عن أبی الحسن الرضا(ع)قال:سمعته یقول:

المتردیه و النطیحه و ما أکل السبع-أن أدرکت ذکاته فکله.

و فیه،عن محمد بن عبد الله عن بعض أصحابه قال: قلت لأبی عبد الله(ع):

جعلت فداک لم حرم الله المیته و الدم و لحم الخنزیر؟فقال:إن الله تبارک و تعالی لم یحرم ذلک علی عباده-و أحل لهم ما سواه من رغبه منه-تبارک و تعالی-فیما حرم علیهم،و لا زهد فیما أحل لهم،و لکنه خلق الخلق،و علم ما یقوم به أبدانهم و ما یصلحهم-فأحله و أباحه تفضلا منه علیهم لمصلحتهم،و علم ما یضرهم فنهاهم عنه-و حرمه علیهم ثم أباحه للمضطر-و أحله لهم فی الوقت الذی لا یقوم بدنه إلا به-فأمره أن ینال منه بقدر البلغه لا غیر ذلک.

ثم قال:أما المیته فإنه لا یدنو منها أحد-و لا یأکلها إلا ضعف بدنه،و نحل جسمه، و وهنت قوته،و انقطع نسله،و لا یموت آکل المیته إلا فجأه.

و أما الدم فإنه یورث الکلب،و قسوه القلب،و قله الرأفه و الرحمه،لا یؤمن أن یقتل ولده و والدیه،و لا یؤمن علی حمیمه،و لا یؤمن علی من صحبه.

و أما لحم الخنزیر فإن الله مسخ قوما-فی صور شتی شبه الخنزیر و القرد و الدب- و ما کان من الأمساخ-ثم نهی عن أکل مثله-لکی لا ینقع بها و لا یستخف بعقوبته.

و أما الخمر فإنه حرمها لفعلها و فسادها،و قال.إن مدمن الخمر کعابد وثن-و یورثه ارتعاشا و یذهب بنوره،و ینهدم مروته،و یحمله علی أن یکسب علی المحارم-من سفک الدماء و رکوب الزنا،و لا یؤمن إذا سکر أن یثبت علی حرمه و هو لا یعقل ذلک،و الخمر لم یؤد شاربها إلا إلی کل شر.

(بحث روائی آخر)

فی غایه المرام،عن أبی المؤید موفق بن أحمد فی کتاب فضائل علی،قال:أخبرنی

سید الحفاظ شهردار بن شیرویه بن شهردار الدیلمی فیما کتب إلی من همدان،أخبرنا أبو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمدانی کتابه،حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوی،حدثنا الحسین بن علیل الغنوی،حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزراع،حدثنا قیس بن حفص،حدثنا علی بن الحسین،حدثنا أبو هریره عن أبی سعید الخدری: أن النبی ص یوم دعا الناس إلی غدیر خم-أمر بما تحت الشجره من شوک فقم،و ذلک یوم الخمیس-یوم دعا الناس إلی علی و أخذ بضبعه-ثم رفعها حتی نظر الناس إلی بیاض إبطیه- ثم لم یفترقا حتی نزلت هذه الآیه: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ-وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً» -فقال رسول الله ص:الله أکبر علی إکمال الدین و إتمام النعمه-و رضا الرب برسالتی و الولایه لعلی،ثم قال:اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و انصر من نصره،و اخذل من خذله.

و قال حسان بن ثابت:أ تأذن لی یا رسول الله أن أقول أبیاتا؟قال:قل ینزله الله تعالی،فقال حسان بن ثابت:

ینادیهم یوم الغدیر نبیهم

بخم و أسمع بالنبی منادیا

بأنی مولاکم نعم و ولیکم

*فقالوا و لم یبدو هناک التعامیا

إلهک مولانا و أنت ولینا

*و لا تجدن فی الخلق للأمر عاصیا

فقال له قم یا علی فإننی

*رضیتک من بعدی إماما و هادیا

و عن کتاب نزول القرآن،فی أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب للحافظ أبی نعیم رفعه إلی قیس بن الربیع،عن أبی هارون العبدی،عن أبی سعید الخدری": مثله، و قال فی آخر الأبیات:

فمن کنت مولاه فهذا ولیه

*فکونوا له أنصار صدق موالیا

هناک دعا اللهم وال ولیه

*و کن للذی عادی علیا معادیا

و عن نزول القرآن،أیضا یرفعه إلی علی بن عامر عن أبی الحجاف عن الأعمش عن عضه قال": نزلت هذه الآیه علی رسول الله

ص–فی علی بن أبی طالب:«یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أَنْزِلَ إِلَیْکَ» –و قد قال الله تعالی: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکَمْ دِینَکَم–وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکَمْ

نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکَمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً»

.

و عن إبراهیم بن محمد الحموینی قال:أنبأنی الشیخ تاج الدین أبو طالب علی بن الحسین بن عثمان بن عبد الله الخازن،قال:أنبأنا الإمام برهان الدین ناصر بن أبی المکارم المطرزی إجازه،قال:أنبأنا الإمام أخطب خوارزم أبو المؤید موفق بن أحمد المکی الخوارزمی، قال:أنبأنی سید الحفاظ فی ما کتب إلی من همدان،أنبأنا الرئیس أبو الفتح کتابه، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوی،نبأنا الحسن بن عقیل الغنوی،نبأنا محمد بن عبد الله الزراع،نبأنا قیس بن حفص قال:حدثنی علی بن الحسین العبدی عن أبی هارون العبدی عن أبی سعید الخدری،و ذکر مثل الحدیث الأول.

و عن الحموینی أیضا عن سید الحفاظ و أبو منصور شهردار بن شیرویه بن شهردار الدیلمی،قال:أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقرئ الحافظ عن أحمد بن عبد الله بن أحمد،قال:نبأنا محمد بن أحمد بن علی،قال:نبأنا محمد بن عثمان بن أبی شیبه، قال:نبأنا یحیی الحمانی،قال:حدثنا قیس بن الربیع عن أبی هارون العبدی عن أبی سعید الخدری،و ذکر مثل الحدیث الأول.

قال:قال الحموینی عقیب هذا الحدیث:هذا حدیث له طرق کثیره إلی أبی سعید سعد بن مالک الخدری الأنصاری.

و عن المناقب الفاخره،للسید الرضی-رحمه الله-عن محمد بن إسحاق،عن أبی جعفر،عن أبیه عن جده قال: لما انصرف رسول الله ص من حجه الوداع نزل أرضا- یقال له:ضوجان،فنزلت هذه الآیه: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ» -فلما نزلت عصمته من الناس نادی:

الصلاه جامعه فاجتمع الناس إلیه،و قال:من أولی منکم بأنفسکم:فضجوا بأجمعهم فقالوا:الله و رسوله فأخذ بید علی بن أبی طالب،و قال:من کنت مولاه فعلی مولاه،اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و انصر من نصره،و اخذل من خذله-لأنه منی و أنا منه،و هو منی بمنزله هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی-و کانت آخر فریضه فرضها الله تعالی علی أمه محمد-ثم أنزل الله تعالی علی نبیه:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی-وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً» -.

قال أبو جعفر:فقبلوا من رسول الله ص كل ما أمرهم الله-من الفرائض فى الصلاه و الصوم و الزكاه و الحج،و صدقوه على ذلك-.

قال ابن إسحاق:قلت لأبى جعفر:ما كان ذلك؟قال-لتسع (۱)عشره ليله خلت من ذى الحجه سنه عشره-عند منصرفه من حجه الوداع،و كان بين ذلك و بين النبى ص مائه يوم-و كان سمع (۲)رسول الله بغدير خم اثنا عشر.

و عن المناقب،لابن المغازلى يرفعه إلى أبى هريره قال: من صام يوم ثمانيه عشر من ذى الحجه-كتب الله له صيامه ستين شهرا،و هو يوم غدير خم،بها أخذ النبى بيعه على بن أبى طالب،و قال:من كنت مولاه فعلى مولاه- اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره،فقال له عمر بن الخطاب:بخ بخ لك يا ابن أبى طالب-أصبحت مولاى و مولى كل مؤمن و مؤمنه،فأنزل الله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ» .

و عن المناقب،لابن مردويه و كتاب سرقات الشعر،للمرزبانى عن أبى سعيد الخدرى مثل ما تقدم عن الخطيب.

أقول:و روى الحديثين فى الدر المنثور،عن أبى سعيد و أبى هريره و وصف سنديهما بالضعف.و قد روى بطرق كثيره تنتهى من الصحابه(لو دقق فيها)إلى عمر بن الخطاب و على بن أبى طالب و معاويه و سمره:أن الآيه نزلت يوم عرفه من حجه الوداع و كان يوم الجمعه،و المعتمد منها ما روى عن عمر فقد رواه عن الحميدى و عبد بن حميد و أحمد البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و البيهقى فى سننه عن طارق بن شهاب عن عمر،و عن ابن راهويه فى مسنده و عبد بن حميد عن أبى العاليه عن عمر، و عن ابن جرير عن قبيصه بن أبى ذؤيب عن عمر،و عن البزاز عن ابن عباس،و الظاهر أنه يروى عن عمر.

ثم أقول:أما ما ذكره من ضعف سندى الحديثين فلا يجديه فى ضعف المتن شيئا فقد أوضحنا فى البيان المتقدم إن مفاد الآيه الكريمه لا يلائم غير ذلك من جميع الاحتمالات

۱- ۱) سبع فى نسخه البرهان.

۲- ۲) سمى رسول الله بغدير خم اثنا عشر رجلا.نسخه البرهان

و المعانى المذكوره فيها،فهاتان الروايتان و ما فى معناهما هى الموافقه للكتاب من بين جميع الروايات فهى المتعينه للأخذ.

على أن هذه الأحاديث الداله على نزول الآيه فى مسأله الولايه-و هى تزيد على عشرين حديثا من طرق أهل السنه و الشيعه- مرتبطه بما ورد فى سبب نزول قوله تعالى:«يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»: Xالآيه X(المائده:۶۷)و هى تربو على خمسه عشر حديثا رواها الفريقان،و الجميع مرتبط بحديث الغدير:«من كنت مولاه فعلى مولاه» و هو حديث متواتر مروى عن جم غفير من الصحابه،اعترف بتواتره جمع كثير من علماء الفريقين.

و من المتفق عليه أن ذلك كان فى منصرف رسول الله ص من مكه إلى المدينه.

و هذه الولايه(لو لم تحمل على الهزل و التهكم)فريضه من الفرائض كالتولى و التبرى اللذين نص عليهما القرآن فى آيات كثيره،و إذا كان كذلك لم يجز أن يتأخر جعلها نزول الآيه أعنى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ»، فالآيه إنما نزلت بعد فرضها من الله سبحانه،و لا اعتماد على ما ينافى ذلك من الروايات لو كانت منافيه.

و أما ما رواه من الروايه فقد عرفت ما ينبغى أن يقال فيها غير أن هاهنا أمرا يجب التنبه له،و هو أن التدبر فى الآيتين الكريمتين: «يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ» (الآيه)على ما سيجىء من بيان معناه،و قوله:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»

(الآيه)و الأحاديث الوارده من طرق الفريقين فيهما و روايات الغدير المتواتره،و كذا دراسه أوضاع المجتمع الإسلامى الداخليه فى أواخر عهد رسول الله ص و البحث العميق فيها يفيد القطع بأن أمر الولايه كان نازلا قبل يوم الغدير بأيام، و كان النبى ص يتقى الناس فى إظهاره،و يخاف أن لا يتلقوه بالقبول أو يسيئوا القصد إليه فيختل أمر الدعوه،فكان لا يزال يؤخر تبليغه الناس من يوم إلى غد حتى نزل قوله:

«يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ» (الآيه)فلم يمهل فى ذلك.

و على هذا فمن الجائز أن ينزل الله سبحانه معظم السوره و فيه قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (الآيه)و ينزل معه أمر الولايه كل ذلك يوم عرفه فأخر النبى ص بيان الولايه إلى غدير خم،و قد كان تلا آيتها يوم عرفه و أما اشتمال بعض الروايات على

نزولها یوم الغدیر فلیس من المستبعد أن یکون ذلک لتلاوته(ص)الآیه مقارنه لتبلیغ أمر الولایه لکونها فی شأنها.

و علی هذا فلا تنافی بین الروایات أعنی ما دل علی نزول الآیه فی أمر الولایه،و ما دل علی نزولها یوم عرفه کما روی عن عمر و علی و معاویه و سمره،فإن التنافی إنما کان یتحقق لو دل أحد القبیلین علی النزول یوم غدیر خم،و الآخر علی النزول علی یوم عرفه.

و أما ما فی القبیل الثانی من الروایات أن الآیه تدل علی کمال الدین بالحج و ما أشبهه فهو من فهم الراوی لا ینطبق به الکتاب و لا بیان من النبی ص یعتمد علیه.

و ربما استفید هذا الذی ذکرناه

مما رواه العیاشی فی تفسیره،عن جعفر بن محمد بن محمد الخزاعی عن أبیه قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول: لما نزل رسول الله ص عرفات یوم الجمعه أتاه جبرئیل-فقال له:إن الله یقرئک السلام،و یقول لک:قل لأمتک:الیوم أکملت دینکم بولایه علی بن أبی طالب-و أتممت علیکم نعمتی و رضیت لکم الإسلام دینا- و لست أنزل علیکم بعد هذا،قد أنزلت علیکم الصلاه و الزکاه و الصوم و الحج،و هی الخامسه،و لست أقبل علیکم بعد هذه الأربعه إلا بها.

علی أن فیما نقل عن عمر من نزول الآیه یوم عرفه إشکالا آخر،و هو أنها جمیعا تذکر أن بعض أهل الکتاب

و فی بعضها": أنه کعب قال لعمر:إن فی القرآن آیه-لو نزلت مثلها علینا معشر الیهود-لاتخذنا الیوم الذی نزلت فیه عیدا،و هی قوله:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ» (الآیه)فقال له عمر:و الله إنی لأعلم الیوم-و هو یوم عرفه من حجه الوداع.

و لفظ ما رواه ابن راهویه و عبد بن حمید عن أبی العالیه هکذا": قال کانوا عند عمر فذکروا هذه الآیه،فقال رجل من أهل الکتاب:لو علمنا أی یوم نزلت هذه الآیه لاتخذناه عیدا،فقال عمر الحمد لله الذی جعله لنا عیدا-و الیوم الثانی،نزلت یوم عرفه-و الیوم الثانی یوم النحر فأکمل لنا الأمر-فعلمنا أن الأمر بعد ذلک فی انتقاص.

و ما یتضمنه آخر الروایه مروی بشکل آخر ففی الدر المنثور:عن ابن أبی شیبه و ابن جریر عن عنتره قال: لما نزلت «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ» -و ذلک یوم الحج الأکبر بکی عمر-فقال له النبی ص ما یبکیک؟قال:أبکانی أنا کنا فی زیاده من دیننا- فأما إذ کمل فإنه لم یکمل شیء قط إلا نقص،فقال:صدقت.

و نظیره الروایه بوجه روایه أخری رواها أیضا فی الدر المنثور،عن أحمد عن علقمه بن عبد الله المزنی قال:حدثنی رجل قال: کنت فی مجلس عمر بن الخطاب-فقال عمر لرجل من القوم:کیف سمعت رسول الله ص ینعت الإسلام؟قال:سمعت رسول الله ص یقول:إن الإسلام بدئ جذعا-ثم ثنیا ثم رباعیا ثم سدسیا ثم بازلا.قال عمر:فما بعد البزول إلا النقصان.

فهذه الروایات-کما تری-تروم بیان أن معنی نزول الآیه یوم عرفه إلفات نظر الناس إلی ما کانوا یشاهدونه من ظهور أمر الدین و استقلاله بمکه فی الموسم،و تفسیر إکمال الدین و إتمام النعمه بصفاء جو مکه و محوضه الأمر للمسلمین یومئذ فلا دین یعبد به یومئذ هناک إلا دینهم من غیر أن یخشوا أعداءهم و یتحذروا منهم.

و بعباره أخری المراد بکمال الدین و تمام النعمه کمال ما بأیدیهم یعملون به من غیر أن یختلط بهم أعداؤهم أو یکلفوا بالتحذر منهم دون الدین بمعنی الشریعه المجعوله عند الله من المعارف و الأحکام،و کذا المراد بالإسلام ظاهر الإسلام الموجود بأیدیهم فی مقام العمل.

و إن شئت فقل: المراد بالدین صوره الدین المشهوده من أعمالهم،و کذا فی الإسلام،فإن هذا المعنی هو الذی یقبل الانتقاص بعد الإزدیاد.

و أما کلیات المعارف و الأحکام المشرعه من الله فلا یقبل الانتقاص بعد الإزدیاد الذی یشیر إلیه قوله فی الروایه:«أنه لم یکمل شیء قط إلا نقص»فإن ذلک سنه کونیه تجری أیضا فی التاریخ و الاجتماع بتبع الکون،و أما الدین فإنه غیر محکوم بأمثال هذه السنن و النوامیس إلا عند من قال:إن الدین سنه اجتماعیه متطوره متغیره کسائر السنن الاجتماعیه.

إذا عرفت ذلک علمت أنه یرد علیه أولا:أن ما ذکر من معنی کمال الدین لا یصدق علیه قوله تعالی: «اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ» و قد مر بیانه.

و ثانیا:أنه کیف یمکن أن یعد الله سبحانه الدین بصورته التی کان یتراءی علیها کاملا-و ینسبه إلی نفسه امتنانا بمجرد خلو الأرض من ظاهر المشرکین،و کون المجتمع علی ظاهر الإسلام فارغا من أعدائهم المشرکین،و فیهم من هو أشد من المشرکین إضرارا و إفسادا،و هم المنافقون علی ما کانوا علیه من المجتمعات السریه و التسرب فی داخل المسلمین، و إفساد الحال،و تقلیب الأمور،و الدس فی الدین،و إلقاء الشبه،فقد کان لهم نبأ عظیم

تعرض لذلك آيات جمه من القرآن كسوره المنافقين و ما فی سور البقره و النساء و المائده و الأنفال و البراءه و الأحزاب و غيرها.

فليت شعری أين صار جمعهم؟و كيف خمدت أنفاسهم؟و علی أی طريق بطل كيدهم و زهق باطلهم؟و كيف يصح مع وجودهم أن يمتن الله يومئذ علی المسلمين بإكمال ظاهر دينهم، و إتمام ظاهر النعمه عليهم،و الرضا بظاهر الإسلام بمجرد أن دفع من مكه أعداءهم من المسلمين،و المنافقون أعدی منهم و أعظم خطرا و أمر أثرا!و تصديق ذلك قوله تعالی يخاطب نبيه فيهم:« هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» :(المنافقون:۴).

و كيف يمتن الله سبحانه و يصف بالكمال ظاهر دين هذا باطنه،أو يذكر نعمه بالتمام و هی مشوبه بالنقمه،أو يخبر برضاه صوره إسلام هذا معناه!و قد قال تعالی :«وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» :(الكهف:۵۱)و قال فی المنافقين:-و لم يرد إلا دينهم- «فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَرْضیٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ» :(البراءه:۹۶)و الآيه بعد هذا كله مطلقه لم تقيد شيئا من الإكمال و الإتمام و الرضا و لا الدين و الإسلام و النعمه بجهه دون جهه.

فإن قلت:الآيه-كما تقدمت الإشاره إليه-إنجاز للوعد الذی يشتمل عليه قوله تعالی: «وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِی لاٰ يُشْرِكُونَ بِی شَيْئاً»: Xالآيه X(النور:۵۵).

فالآيه كما تری-تعدهم بتمكين دينهم المرضی لهم،و يحاذی ذلك من هذه الآيه قوله:

«أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»

و قوله: «وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً» فالمراد بإكمال دينهم المرضی تمكينه لهم أی تخليصه من مزاحمه المشركين،و أما المنافقون فشأنهم شأن آخر غير المزاحمه، و هذا هو المعنی الذی تشير إليه روايات نزولها يوم عرفه،و يذكر القوم أن المراد به تخليص الأعمال الدينيه و العاملين بها من المسلمين من مزاحمه المشركين.

قلت كون آيه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ»، من مصاديق إنجاز ما وعد فی قوله:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا» (الآيه)و كذا كون قوله فی هذه الآيه :«أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، محاذيا لقوله:

«وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ»، فی تلك الآيه و مفيدا معناه كل ذلك لا ريب فيه.

إلا أن آيه سوره النور تبدأ بقوله: «وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ»

و هم طائفه خاصه من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها،و ما فى مرتبه أعمالهم من الدين يحاذى و ينطبق على ما عند الله سبحانه من الدين المشرع،فتمكين دينهم المرضى لله سبحانه لهم إكمال ما فى علم الله و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع، و جمع أجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

و هذا ما ذكرناه:أن معنى إكماله الدين إكماله من حيث تشريع الفرائض فلا فريضه مشرعه بعد نزول الآيه لا تخليص أعمالهم و خاصه حجهم من أعمال المشركين و حجهم، بحيث لا تختلط أعمالهم بأعمالهم.و بعباره أخرى يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقى حتى لا يقبل الانتقاص بعد الإزدياد.

و فى تفسير القمى،قال:حدثنى أبى،عن صفوان بن يحيى،عن العلاء،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)قال: آخر فريضه أنزلها الولايه-ثم لم ينزل بعدها فريضه ثم أنزل: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» بكراع الغميم،فأقامها رسول الله ص بالجحفه-فلم ينزل بعدها فريضه.

أقول:و روى هذا المعنى الطبرسى فى المجمع،عن الإمامين:الباقر و الصادق(ع) و رواه العياشى فى تفسيره عن زراره عن الباقر(ع).

و فى أمالى الشيخ،بإسناده،عن محمد بن جعفر بن محمد،عن أبيه أبى عبد الله(ع)، عن على أمير المؤمنين(ع)قال:سمعت رسول الله ص يقول: بناء الإسلام على خمس خصال:على الشهادتين،و القرينتين.قيل له:أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرينتان؟ قال:الصلاه و الزكاه-فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالأخرى،و الصيام و حج بيت الله من استطاع إليه سبيلا،و ختم ذلك بالولايه فأنزل الله عز و جل: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي-وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاٰمَ دِيناً» .

و فى روضه الواعظين،للفتال،ابن الفارسى عن أبى جعفر(ع)و ذكر قصه خروج النبى ص للحج ثم نصبه عليا للولايه عند منصرفه إلى المدينه و نزول الآيه،و فيه خطبه رسول الله ص يوم الغدير و هى خطبه طويله جدا.

أقول:روى مثله الطبرسى فى الإحتجاج،بإسناد متصل عن الحضرمى عن أبى جعفر الباقر(ع)،و روى نزول الآيه فى الولايه أيضا الكلينى فى الكافى،و الصدوق فى العيون،

جمیعا مسندا عن عبد العزیز بن مسلم عن الرضا(ع)،و روی نزولها فیها أیضا الشیخ فی أمالیه بإسناده عن ابن أبی عمیر عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمیر المؤمنین (ع)،و روی ذلک أیضا الطبرسی فی المجمع،بإسناده عن أبی هارون العبدی عن أبی سعید الخدری،و روی ذلک الشیخ فی أمالیه،بإسناده عن إسحاق بن إسماعیل النیسابوری عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن علی(ع)و قد ترکنا إیراد الروایات علی طولها إیثارا للاختصار فمن أرادها فلیراجع محالها و الله الهادی.

[سوره المائده (۵): الآیات ۴ الی ۵]

اشاره

یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ اَلطَّیِّبٰاتُ وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ اَلْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اَللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ وَ اُذْکُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَیْهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِیعُ اَلْحِسٰابِ (۴) اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ اَلطَّیِّبٰاتُ وَ طَعٰامُ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ حِلٌّ لَکُمْ وَ طَعٰامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ اَلْمُحْصَنٰاتُ مِنَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَلْمُحْصَنٰاتُ مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ إِذٰا آتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسٰافِحِینَ وَ لاٰ مُتَّخِذِی أَخْدٰانٍ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِی اَلْآخِرَهِ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۵)

(بیان)

قوله تعالی: «یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبٰاتُ» سؤال مطلق أوجب عنه بجواب عام مطلق فیه إعطاء الضابط الکلی الذی یمیز الحلال من الحرام،و هو أن یکون ما یقصد التصرف فیه بما یعهد فی مثله من التصرفات أمرا طیبا،و إطلاق الطیب أیضا من غیر تقییده بشیء یوجب أن یکون المعتبر فی تشخیص طیبه استطابه الأفهام

ص: ۲۰۱

المتعارفه ذلك فما يستطاب عند الأفهام العاديه فهو طيب،و جميع ما هو طيب حلال.

و إنما نزلنا الحليه و الطيب على المتعارف المعهود لمكان أن الإطلاق لا يشمل غيره على ما بين فى فن الأصول.

قوله تعالى: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَكُمُ اللّٰهُ فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهِ» قيل:إن الكلام معطوف على موضع الطيبات أى و أحل لكم ما علمتم من الجوارح أى صيد ما علمتم من الجوارح،فالكلام بتقدير مضاف محذوف اختصارا لدلاله السياق عليه.

و الظاهر أن الجمله معطوفه على موضع الجمله الأولى. و «مٰا» فى قوله:« وَ مٰا عَلَّمْتُمْ» شرطيه و جزاؤها قوله «فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» من غير حاجه إلى تكلف التقدير.

و الجوارح جمع جارحه و هى التى تكسب الصيد من الطير و السباع كالصقر و البازى و الكلاب و الفهود،و قوله: «مُكَلِّبِينَ» حال،و أصل التكليب تعليم الكلاب و تربيتها للصيد أو اتخاذ كلاب الصيد و إرسالها لذلك،و تقييد الجمله بالتكليب لا يخلو من دلاله على كون الحكم مختصا بكلب الصيد لا يعدوه إلى غيره من الجوارح.

و قوله: «مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» التقييد بالظرف للدلاله على أن الحل محدود بصوره صيدها لصاحبها لا لنفسها.

و قوله: «وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهِ» تتميم لشرائط الحل و أن يكون الصيد مع كونه مصطادا بالجوارح و من طريق التكليب و الإمساك على الصائد مذكورا عليه اسم الله تعالى.

و محصل المعنى أن الجوارح المعلمه بالتكليب-أى كلاب الصيد-إذا كانت معلمه و اصطادت لكم شيئا من الوحش الذى يحل أكله بالتذكيه و قد سميتم عليه فكلوا منه إذا قتلته دون أن تصلوا إليه فذلك تذكيه له،و أما دون القتل فالتذكيه بالذبح و الإهلال به لله يغنى عن هذا الحكم.

ثم ذيل الكلام بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ» إشعارا بلزوم اتقاء الله فيه حتى لا يكون الاصطياد إسرافا فى القتل،و لا عن تله و تجبر كما فى صيد اللهو و نحوه فإن الله سريع الحساب يجازى سيئه الظلم و العدوان فى الدنيا قبل الآخره،و لا

يسلك أمثال هذه المظالم و العدوانات بالاغتيال و الفك بالحيوان العجم إلا إلى عاقبه سوأى على ما شاهدنا كثيرا.

قوله تعالى: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ وَ طَعٰامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعٰامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» إعاده ذكر حل الطيبات مع ذكره فى الآيه السابقه،و تصديره بقوله: «الْيَوْمَ» للدلاله على الامتنان منه تعالى على المؤمنين بإحلال طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنين.

و كان ضم قوله: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ» إلى قوله: «وَ طَعٰامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ» (إلخ)من قبيل ضم المقطوع به إلى المشكوك فيه لإيجاد الطمأنينه فى نفس المخاطب و إزاله ما فيه من القلق و الاضطراب كقول السيد لخادمه:لك جميع ما ملكتكه و زياده هى كذا و كذا فإنه إذا ارتاب فى تحقق ما يعده سيده من الإعطاء شفع ما يشك فيه بما يقطع به ليزول عن نفسه أذى الريب إلى راحه العلم،و من هذا الباب يوجه قوله تعالى:

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ وَ زِيٰادَةٌ» :(يونس:۲۶)و قوله تعالى: «لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ» :(ق:۳۵).

فكان نفوس المؤمنين لا تسكن عن اضطراب الريب فى أمر حل طعام أهل الكتاب لهم بعد ما كانوا يشاهدون التشديد التام فى معاشرتهم و مخالطتهم و مساسهم و ولايتهم حتى ضم إلى حديث حل طعامهم أمر حل الطيبات بقول مطلق ففهموا منه أن طعامهم من سنخ سائر الطيبات المحلله فسكن بذلك طيش نفوسهم، و اطمأنت قلوبهم و كذلك القول فى قوله: «وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

و أما قوله: «وَ طَعٰامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعٰامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» فالظاهر أنه كلام واحد ذو مفاد واحد،إذ من المعلوم أن قوله: «وَ طَعٰامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» ليس فى مقام تشريع حكم الحل لأهل الكتاب،و توجيه التكليف إليهم و إن قلنا بكون الكفار مكلفين بالفروع الدينيه كالأصول،فإنهم غير مؤمنين بالله و رسوله و بما جاء به رسوله و لا هم يسمعون و لا هم يقبلون،و ليس من دأب القرآن أن يوجه خطابا أو يذكر حكما إذا استظهر من المقام أن الخطاب معه يكون لغوا و التكليم معه يذهب سدى.اللهم إلا إذا أصلح ذلك بشيء من فنون التكليم كالالتفات من خطاب الناس إلى خطاب النبى و نحو ذلك

كقوله:« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَمْ» :(آل عمران:۶۴) و قوله:« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً» :(إسراء:۹۳)إلى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله ليس المراد بقوله: «وَ طَعَامُ الَّذِينَ»، بيان حل طعام أهل الكتاب للمسلمين حكما مستقلا و حل طعام المسلمين لأهل الكتاب حكما مستقلا آخر،بل بيان حكم واحد و هو ثبوت الحل و ارتفاع الحرمه عن الطعام،فلا منع فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين نظير قوله تعالى:« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ» :(الممتحنه:۱۰) أى لا حل فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين.

ثم إن الطعام بحسب أصل اللغه كل ما يقتات به و يطعم لكن قيل:إن المراد به البر و سائر الحبوب ففى لسان العرب:و أهل الحجاز إذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البر خاصه.قال:و قال الخليل:العالى فى كلام العرب أن الطعام هو البر خاصه،انتهى.

و هو الذى يظهر من كلام ابن الأثير فى النهايه،و لهذا ورد فى أكثر الروايات المرويه عن أئمه أهل البيت(ع):أن المراد بالطعام فى الآيه هو البر و سائر الحبوب إلا ما فى بعض الروايات مما يظهر به معنى آخر و سيجىء الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى.

و على أى حال لا يشمل هذا الحل ما لا يقبل التذكيه من طعامهم كلحم الخنزير،أو يقبلها من ذبائحهم لكنهم لم يذكوها كالذى لم يهل به لله،و لم يذك تذكيه إسلاميه فإن الله سبحانه عد هذه المحرمات المذكوره فى آيات التحريم-و هى الآى الأربع التى فى سور البقره و المائده و الأنعام و النحل-رجسا و فسقا و إثما كما بيناه فيما مر،و حاشاه سبحانه أن يحل ما سماه رجسا أو فسقا أو إثما امتنانا بمثل قوله «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ» .

على أن هذه المحرمات بعينها واقعه قبيل هذه الآيه فى نفس السوره،و ليس لأحد أن يقول فى مثل المورد بالنسخ و هو ظاهر،و خاصه فى مثل سوره المائده التى ورد فيها أنها ناسخه غير منسوخه.

قوله تعالى: «وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، الإتيان فى متعلق الحكم بالوصف أعنى ما فى قوله: «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» من غير أن يقال:من اليهود و النصارى مثلا أو يقال:من أهل الكتاب،لا يخلو من إشعار بالعليه

و اللسـان لسـان الامتنان،و المقام مقام التخفيف و التسـهيل،فالمعنى:أنا نمتن عليكم بالتخفيف و التسـهيل فى رفع حرمه الازدواج بين رجـالكم و المحصـنات من نسـاء أهـل الكتـاب لكـونهم أقرب إليكم من سـائر الطوائف غير المسـلمه،و هم أوتوا الكتـاب و أذعنوا بالتوحيد و الرساله بخلاف المشـركين و الوثنيين المنكرين للنبوه،و يشعر بما ذكرنا أيضا تقييد قوله: «أُوتُوا الْكِتٰابَ» بقوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» فإن فيه إشعارا واضحا بالخطط و المزج و التشريك.

و كيف كـان لمـا كـانت الآـيه واقعه موقع الامتنـان و التخفيف لم تقبـل النسـخ بمثـل قوله تعالى:« وَ لاٰ تَنْكِحُوا الْمُشْـرِكٰاتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ» :(البقره:۲۲۱)و قوله تعالى:« وَ لاٰ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوٰافِرِ» :(الممتحنه:۱۰)و هو ظاهر.

على أن الآيه الأولى واقعه فى سوره البقره،و هى أول سوره مفصـله نزلت بالمـدينه قبل المائـده:و كذا الآيه الثانيه واقعه فى سوره الممتحنه،و قـد نزلت بالمدينه قبل الفتح، فهى أيضا قبل المائده نزولا،و لا وجه لنسخ السابق للاحق مضافا إلى ما ورد:أن المائده آخر ما نزلت على النبى ص فنسخت ما قبلها،و لم ينسخها شىء.

على أنك قد عرفت فى الكلام على قوله تعالى:« وَ لاٰ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكٰاتِ حَتّٰى يُؤْمِنَّ»:

XالآيهX(البقره:۲۲۱)فى الجزء الثانى من الكتاب أن الآيتين أعنى آيه البقره و آيه الممتحنه أجنبيتان من الدلاله على حرمه نكاح الكتابيه.

و لـو قيـل بـدلاله آيـه الممتحنـه بـوجه على التحريم كمـا يـدل على سـبق المنـع الشرعى ورود آيه المائـده فى مقـام الامتنـان و التخفيف-و لاـ امتنـان و لاـ تخفيف لو لم يسـبق منع-كـانت آيه المائـده هى الناسـخه لآيه الممتحنه لا بالعكس لأن النسـخ شأن المتأخر،و سيأتى فى البحث الروائى كلام فى الآيه الثانيه.

ثم المراد بالمحصنات فى الآيه:العفائف و هو أحد معان الإحصان،و ذلك أن قوله:

«وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ،

يدل على أن المراد بالمحصـنات غير ذوات الأزواج و هو ظاهر،ثم الجمع بين المحصنات من أهل الكتاب و المؤمنات على ما مر من توضـيح معناها يقضـى بأن المراد بالمحصـنات فى الموضـعين معنى واحد،و ليس هو الإحصان بمعنى الإسلام لمكان قوله: وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ،

و ليس المراد بالمحصنات الحرائر فإن الامتنان المفهوم من الآيه لا يلائم تخصيص الحل بالحرائر دون الإماء،فلم يبق من معانی الإحصان إلا العفه فتعين أن المراد بالمحصنات العفائف.

و بعد ذلک کله إنما تصرح الآيه بتشريع حل المحصنات من أهل الکتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع إلا ما ذکره من اشتراط الأجر و کون التمتع بنحو الإحصان لا بنحو المسافحه و اتخاذ الأخدان،فينتج أن الذی أحل للمؤمنين منهن أن يکون علی طريق النکاح عن مهر و أجر دون السفاح،من غير شرط آخر من نکاح دوام أو انقطاع،و قد تقدم فی قوله تعالی:« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ»: Xالآيه X(النساء:

۲۴)فی الجزء الرابع من الکتاب أن المتعه نکاح کالنکاح الدائم،و للبحث بقايا تطلب من علم الفقه.

قوله تعالی:« إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لاَ مُتَّخِذِی أَخْدَانٍ» الآيه فی مساق قوله تعالی فی آيات محرمات النکاح:« وَ أُحِلَّ لَکُمْ مَا وَرَاءَ ذٰلِکُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِکُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» :(النساء:۲۴)و الجمله قرينه علی کون المراد بالآيه بيان حليه التزوج بالمحصنات من أهل الکتاب من غير شمول منها لملک اليمين.

قوله تعالی:« وَ مَنْ يَکْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» الکفر فی الأصل هو الستر فتحقق مفهومه يتوقف علی أمر ثابت يقع عليه الستر کما أن الحجاب لا يکون حجابا إلا إذا کان هناک محجوب فالکفر يستدعی مکفورا به ثابتا کالکفر بنعمه الله و الکفر بآيات الله و الکفر بالله و رسوله و اليوم الآخر.

فالکفر بالإيمان يقتضی وجود إيمان ثابت،و ليس المراد به المعنی المصدری من الإيمان بل معنی اسم المصدر و هو الأثر الحاصل و الصفه الثابته فی قلب المؤمن أعنی الاعتقادات الحقه التی هی منشأ الأعمال الصالحه،فيئول معنی الکفر بالإيمان إلی ترک العمل بما يعلم أنه حق کتولی المشرکين، و الاختلاط بهم،و الشرکه فی أعمالهم مع العلم بحقيه الإسلام، و ترک الأرکان الدينيه من الصلاه و الزکاه و الصوم و الحج مع العلم بثبوتها أرکانا للدين.

فهذا هو المراد من الکفر بالإيمان لکن هاهنا نکته و هی أن الکفر لما کان سترا و ستر الأمور الثابته لا يصدق بحسب ما يسبق إلی الذهن إلا مع المداومه و المزاوله فالکفر

بالإیمان إنما یصدق إذا ترک الإنسان العمل بما یقتضیه إیمانه،و یتعلق به علمه،و دام علیه،و أما إذا ستر مره أو مرتین من غیر أن یدوم علیه فلا یصدق علیه الکفر و إنما هو فسق أتی به.

و من هنا یظهر أن المراد بقوله:« وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمٰانِ» هو المداومه و الاستمرار علیه و إن کان عبر بالفعل دون الوصف.فتارک الاتباع لما حق عنده من الحق،و ثبت عنده من أرکان الدین کافر بالإیمان،حابط العمل کما قال تعالی:« فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» .

فالآیه تنطبق علی قوله تعالی:« وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ الرُّشْدِ لاٰ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلاً وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ الْغَیِّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلاً ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِینَ وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» : (الأعراف:۱۴۷)فوصفهم باتخاذ سبیل الغی و ترک سبیل الرشد بعد رؤیتهما و هی العلم بهما ثم بدل ذلک بتوصیفهم بتکذیب الآیات،و الآیه إنما تکون آیه بعد العلم بدلالتها،ثم فسره بتکذیب الآخره لما أن الآخره لو لم تکذب منع العلم بها عن ترک الحق،ثم أخبر بحبط أعمالهم.

و نظیر ذلک قوله تعالی:« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمٰالاً الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ هُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقٰائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَلاٰ نُقِیمُ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَزْناً» :(الکهف:۱۰۵)و انطباق الآیات علی مورد الکفر بالإیمان بالمعنی الذی تقدم بیانه ظاهر.

و بالتأمل فیما ذکرنا یظهر وجه اتصال الجمله أعنی قوله:« وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، بما قبله فالجمله متممه للبیان السابق،و هی فی مقام التحذیر عن الخطر الذی یمکن أن یتوجه إلی المؤمنین بالتساهل فی أمر الله،و الاسترسال مع الکفار فإن الله سبحانه إنما أحل طعام أهل الکتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنین لیکون ذلک تسهیلا و تخفیفا منه لهم،و ذریعه إلی انتشار کلمه التقوی،و سرایه الأخلاق الطاهره الإسلامیه من المسلمین المتخلقین بها إلی غیرهم،فیکون داعیه إلی العلم النافع،و باعثه نحو العمل الصالح.

فهذا هو الغرض من التشریع لا لأن یتخذ ذلک وسیله إلی السقوط فی مهابط الهوی، و الإصعاد فی أودیه الهوسات،و الاسترسال فی حبهن و الغرام بهن،و التوله فی جمالهن، فیکن قدوه تتسلط بذلک أخلاقهن و أخلاق قومهن علی أخلاق المسلمین،و یغلب فسادهن

على صلاحهم،ثم يكون البلوى و يرجع المؤمنون إلى أعقابهم القهقرى،و مآل ذلك عود هذه المنه الإلهيه فتنه و محنه مهلكه،و صيروره هذا التخفيف الذى هو نعمه نقمه.

فحذر الله المؤمنين بعد بيان حليه طعامهم و المحصنات من نسائهم أن لا يسترسلوا فى التنعم بهذه النعمه استرسالا يؤدى إلى الكفر بالإيمان،و ترك أركان الدين،و الإعراض عن الحق فإن ذلك يوجب حبط العمل،و ينجر إلى خسران السعى فى الآخره.

و اعلم أن للمفسرين فى هذه الآيه أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ» (إلى آخر الآيه)خوضا عظيما ردهم إلى تفاسير عجيبه لا يحتملها ظاهر اللفظ،و ينافيها سياق الآيه كقول بعضهم:إن قوله: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ» يعنى من الطعام كالبحيره و السائبه و الوصيله و الحامى،و قول بعضهم:إن قوله: «وَ طَعٰامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ حِلٌّ لَكُمْ» أى بمقتضى الأصل الأولى لم يحرمه الله عليكم قط،و إن اللحوم من الحل و إن لم يذكوها إلا بما عندهم من التذكيه،و قول بعضهم:إن المراد بقوله: «وَ طَعٰامُ الَّذِينَ» هو مؤاكلتهم،و قول بعضهم:إن المراد بقوله:(وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» بيان الحليه بحسب الأصل من غير أن يكون محرما قبل ذلك بل قوله تعالى:« وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ» :(النساء:۲۴) كاف فى إحلالهن،و قول بعضهم:إن المراد بقوله: « وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» التحذير عن رد ما فى صدر الآيه من قضيه حل طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم.

فهذه و أمثالها معان احتملوها،و هى بين ما لا يخلو من مجازفه و تحكم كتقييد قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ»، بما تقدم من غير دليل عليه و بين ما يدفعه ظاهر السياق من التقييد باليوم و الامتنان و التخفيف و غير ذلك مما تقدم بيانه و البيان السابق الذى استظهرنا فيه باعتبار ظواهر الآيات الكريمه كاف فى إبطالها و إبانه وجه الفساد فيها.

و أما كون آيه:« وَ أُحِلَّ لَكُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِكُمْ» داله على حل نكاح الكتابيه فظاهر البطلان لظهور كون الآيه فى مقام بيان محرمات النساء و محللاتهن بحسب طبقات النسب و السبب لا بحسب طبقات الأديان و المذاهب.

(بحث روائی)

فی الـدر المنثور،":فی قوله تعـالی:« يَسْـئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ» (الآیه)":أخرج ابن جریر عن عکرمه": أن النبی ص بعث أبا رافع فی قتـل الکلاب-فقتـل حتی بلغ العوالی، فـدخل عـاصم بن عـدی-و سـعد بن خیثمه و عویم بن ساعـده فقـالوا:ما ذا أحل لنا یا رسول الله؟فنزلت: «يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ» (الآیه.

و فیه،أخرج ابن جریر عن محمـد بن کعب القرظی قال": لما أمر النبی ص بقتل الکلاب قالوا:یا رسول الله ما ذا أحل لنا من هذه الأمه؟فنزلت:« يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ» (الآیه.

أقول:الروایتـان یشـرح بعضـهما بعضـا فالمراد السؤال عما یحل لهم من الکلاب من حیث اتخاذها و اسـتعمالها فی مآرب مختلفه کالصید و نحوه،و قوله تعالی:« يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ» لا یلائم هذا المعنی لتقیدها و إطلاق الآیه.

علی أن ظـاهر الروایتین و الروایه الآـتیه إن قوله:« وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ» معطوف علی موضع الطیبات،و المعنی:و أحل لکم ما علمتم،و لذلک التزم جمع من المفسـرین علی تقدیر ما فیه کما تقدم،و قد تقدم أن الظاهر کون قوله:« وَ مٰا عَلَّمْتُمْ» شـرطا جزاؤه قوله:« فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ .

و المراد بالأمه المسئول عنها فی الروایه نوع الکلاب علی ما تفسره الروایه الآتیه.

و فیه،أخرج الفاریابی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و الحاکم- و صححه-و البیهقی فی سننه عن أبی رافع قال: جاء جبرئیل إلی النبی ص فاسـتأذن علیه-فأذن له فأبطأ فأخـذ رداءه فخرج-فقال:قـد أذنا لک-قال:أجل و لکنا لا نـدخل بیتا فیه کلب و لا صوره-فنظروا فإذا فی بعض بیوتهم جرو-.

قال أبو رافع:فأمرنی أن أقتل کل کلب بالمدینه ففعلت،و جاء الناس فقالوا:

یا رسول الله-ما ذا یحل لنا من هذه الأمه التی أمرت بقتلها؟فسکت النبی ص فأنزل

الله:« يَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّيِّبٰاتُ-وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِينَ» - فقال رسول الله ص:إذا أرسل الرجل کلبه و ذکر اسم الله-فأمسک عليه فليأکل ما لم يأکل.

أقول ما ذکر فی الروايه من کيفيه نزول جبرئيل غريب فی بابه علی أن الروايه لا تخلو عن اضطراب حيث تدل علی إمساک جبرائيل عن الدخول علی النبی ص لوجود جرو فی بعض بيوتهم علی أنها لا تنطبق علی ظاهر الآيه من إطلاق السؤال و الجواب و العطف الذی فی قوله وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ فالروايه أشبه بالموضوعه.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عامر": أن عدی بن حاتم الطائی أتی رسول الله ص-فسأله عن صيد الکلاب فلم يدر ما يقول له-حتی أنزل الله عليه هذه الآيه فی المائده- تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ .

أقول و فی معناه غيره من الأخبار و الإشکال المتقدم آت فيه و الظاهر أن هذه الروايات و ما فی معناها من تطبيق الحوادث علی الآيه غير أنه تطبيق غير تام و الظاهر أنهم ذکروا له(ص)صيد الکلاب ثم سألوه عن ضابط کلی فی تمييز الحلال من الحرام فذکر فی الآيه سؤالهم ثم أجيب بإعطاء الضابط الکلی بقوله يَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّيِّبٰاتُ ثم أجيبوا فی خصوص ما تذاکروا فيه فهذا هو الذی يفيده لحن القول فی الآيه.

و فی الکافی،بإسناده عن حماد عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)قال: فی کتاب علی(ع)فی قوله عز و جل- وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِينَ قال هی الکلاب:

أقول:و رواه العياشی فی تفسيره،عن سماعه بن مهران عنه(ع).

و فيه،بإسناده عن ابن مسکان عن الحلبی قال:قال أبو عبد الله(ع): کان أبی يفتی و کان يتقی-و نحن نخاف فی صيد البزاه و الصقور،فأما الآن فإنا لا نخاف و لا يحل صيدها-إلا أن تدرک ذکاته،فإنه فی کتاب علی(ع):أن الله عز و جل قال: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِينَ» فی الکلاب.

و فيه،بإسناده عن أبی بکر الحضرمی عن أبی عبد الله(ع)،قال: سألته عن

صید البزاه و الصقور و الفهود و الکلاب-قال لا تأکلوا إلا ما ذکیتم إلا الکلاب،قلت:

فإن قتله؟قال:کل فإن الله یقول: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ-تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ، -ثم قال:کل شیء من السباع یمسک الصید علی نفسها-إلا الکلاب معلمه؟فإنها تمسک علی صاحبها قال:و إذا أرسلت الکلب فاذکر اسم الله علیه فهو ذکاته.

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی عبیده عن أبی عبد الله(ع): عن الرجل سرح الکلب المعلم،و یسمی إذا سرحه،قال:یأکل مما أمسکن علیه و إن أدرکه و قتله.و إن وجد معه کلب غیر معلم فلا تأکل منه.قلت:فالصقور و العقاب و البازی؟قال:إن أدرکت ذکاته فکل منه،و إن لم تدرک ذکاته فلا تأکل منه.قلت:فالفهد لیس بمنزله الکلب؟ قال:فقال:لا،لیس شیء مکلب إلا الکلب.

و فیه،عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله :«مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ-تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ-وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَیْهِ -قال:

لا بأس بأکل ما أمسک الکلب-مما لم یأکل الکلب منه-فإذا أکل الکلب منه قبل أن تدرکه فلا تأکله.

أقول:و الخصوصیات المأخوذه فی الروایات کاختصاص الحل عند القتل بصید الکلب لقوله تعالی:« مُکَلِّبِینَ» و قوله:« مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ» و اشتراط أن لا یشارکه کلب غیر معلم کل ذلک مستفاد من الآیه.و قد تقدم بعض الکلام فی ذلک.

و فیه،عن حریز عن أبی عبد الله(ع)قال: سئل عن کلب المجوس یکلبه المسلم و یسمی و یرسله-قال:نعم إنه مکلب إذا ذکر اسم الله علیه فلا بأس.

أقول:و فیه الأخذ بإطلاق قوله «مُکَلِّبِینَ»

و قد روی فی الدر المنثور،عن ابن أبی حاتم عن ابن عباس": فی المسلم یأخذ کلب المجوسی المعلم أو بازه أو صقره-مما علمه المجوسی فیرسله فیأخذه-قال:لا تأکله و إن سمیت-لأنه من تعلیم المجوسی و إنما قال:« تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ» و ضعفه ظاهر،فإن الخطاب فی قوله:« مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ» و إن کان متوجها إلی المؤمنین ظاهرا إلا أن الذی علمهم الله مما یعلمونه الکلاب لیس غیر ما علمه الله المجوس و غیرهم.و هذا المعنی یساعد فهم السامع أن لا خصوصیه لتعلیم المؤمن من حیث

إنه تعليم المؤمن،فلا فرق فی الکلب المعلم بین أن یکون معلمه مسلما أو غیر مسلم کما لا فرق من جهه الملک بین کونه مملوکا للمسلم و مملوکا لغیره.

و فی تفسیر العیاشی،عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله تبارک و تعالی:«و طعامهم حل لکم»قال:العدس و الحبوب و أشباه ذلک یعنی أهل الکتاب) أقول:و رواه فی التهذیب،عنه،و لفظه:قال: العدس و الحمص و غیر ذلک

و فی الکافی،و التهذیب،فی روایات عن عمار بن مروان و سماعه عن أبی عبد الله(ع):

فی طعام أهل الکتاب و ما یحل منه،قال:الحبوب

و فی الکافی،بإسناده عن ابن مسکان،عن قتیبه الأعشی قال: سأل رجل أبا عبد الله و أنا عنده فقال له:الغنم یرسل فیها الیهودی و النصرانی-فتعرض فیها العارضه فتذبح أ یؤکل ذبیحته؟فقال أبو عبد الله(ع):لا تدخل ثمنها فی مالک و لا تأکلها-فإنما هی الاسم و لا یؤمن علیها إلا مسلم،فقال له الرجل:قال الله تعالی:« اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبٰاتُ وَ طَعٰامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ حِلٌّ لَکُمْ» -فقال أبو عبد الله(ع):کان أبی یقول:إنما هی الحبوب و أشباهها:.

أقول:و رواه الشیخ فی التهذیب،و العیاشی فی تفسیره عن قتیبه الأعشی عنه(ع).

و الأحادیث-کما تری-تفسر طعام أهل الکتاب المحلل فی الآیه بالحبوب و أشباهها، و هو الذی یدل علیه لفظ الطعام عند الإطلاق کما هو ظاهر من الروایات و القصص المنقوله عن الصدر الأول،و لذلک ذهب المعظم من علمائنا إلی حصر الحل فی الحبوبات و أشباهها و ما یتخذ منها مما یتغذی به.

و قد شدد النکیر علیهم بعضهم (۱)بأن ذلک مما یخالف عرف القرآن فی استعمال الطعام.

قال،لیس هذا هو الغالب فی لغه القرآن،فقد قال الله تعالی فی هذه السوره-أی المائده-: «أُحِلَّ لَکُمْ صَیْدُ الْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ مَتٰاعاً لَکُمْ وَ لِلسَّیّٰارَهِ» و لا یقول أحد:إن الطعام من صید البحر هو البر أو الحبوب.و قال:« کُلُّ الطَّعٰامِ کٰانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِیلُ عَلیٰ نَفْسِهِ» و لم یقل أحد:إن الطعام هنا البر أو الحب مطلقا،

۱- ۱) صاحب المنار فی تفسیره.

إذ لم يحرم شيء منه على بنى إسرائيل لا قبل التوراه و لا بعدها،فالطعام فى الأصل كل ما يطعم أى يذاق أو يؤكل،قال تعالى فى ماء النهر حكايه عن طالوت:« فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى»، و قال:« فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا» أى أكلتم.

و ليت شعرى ما ذا فهم من قولهم:«الطعام إذا أطلق كان المراد به الحبوب و أشباهها» فلم يلبث حتى أورد عليهم بمثل قوله:« يَطْعَمْهُ» و قوله: «طَعِمْتُمْ» من مشتقات الفعل؟ و إنما قالوا ما قالوا فى لفظ الطعام،لا فى الأفعال المصوغه منه.و أورد بمثل:«و طعام البحر»و الإضافه أجلى قرينه، فليس ينبت فى البحر بر و لا شعير.و أورد بمثل:« كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ» ثم ذكر هو نفسه أن من المعلوم من دينهم أنهم لم يحرم عليهم البر أو الحب.و كان ينبغى عليه أن يراجع من القرآن موارد أطلق اللفظ فيها إطلاقا ثم يقول ما هو قائله كقوله:« فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ» :(البقره:١٨۴)و قوله:

«أَوْ كَفّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ» :(المائده:٩۵)و قوله:« وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ» :(الإنسان:

٨ و قوله: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ» :(عبس:٢۴)و نحو ذلك.

ثم قال:و ليس الحب مظنه للتحليل و التحريم،و إنما اللحم هو الذى يعرض له ذلك لوصف حسي كموت الحيوان حتف أنفه،أو معنوى كالتقرب به إلى غير الله و لذلك قال تعالى:« قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً»: Xالآيه X(الأنعام:١۴۵)و كله يتعلق بالحيوان و هو نص فى حصر التحريم فيما ذكر،فتحريم ما عداه يحتاج إلى نص.

و كلامه هذا أعجب من سابقه:أما قوله:ليس الحب مظنه للتحليل و التحريم و إنما اللحم هو الذى يعرض له ذلك،فيقال له:فى أى زمان يعنى ذلك؟أ فى مثل هذه الأزمنه و قد استأنس الأذهان بالإسلام و عامه أحكامه منذ عده قرون،أم فى زمان النزول و لم يمض من عمر الدين إلا عده سنين؟و قد سألوا النبى ص عن أشياء هى أوضح من حكم الحبوب و أشباهها و أجلى،و قد حكى الله تعالى بعض ذلك كما فى قوله:« يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ» :(البقره:٢١۵)

و قد روى عبد بن حميد عن قتاده قال": ذكر لنا أن رجالا قالوا:كيف نتزوج نساءهم و هم على دين و نحن على دين-فأنزل الله:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» الحديث.و قد مر و سيجيء لهذا القول نظائر فى تضاعيف الروايات كما نقلناه فى حج التمتع و غير ذلك.

ص :٢١٣

و إذا كانوا يقولون مثل هذا القول بعد نزول الآیه بحلیه المحصنات من نساء أهل الكتاب فما الذی یمنعهم أن یسألوا قبل نزول الآیه عن مؤاكله أهل الكتاب،و الأكل مما یؤخذ منهم من الحبوب،و الأغذیه المتخذه من ذلك كالخبز و الهریسه و سائر الأغذیه التی تتخذ من الحبوب و أمثالها إذا عملها أهل الكتاب،و هم على دین،و نحن على دین و قد حذر الله المؤمنین عن موادتهم و موالاتهم و الاقتراب منهم،و الركون إلیهم فی آیات كثیره؟.

بل هذا الكلام مقلوب علیه فی قوله:إن اللحم هو المظنه للتحریم و التحلیل فكیف یسعهم أن یسألوا عنه و قد بین الله عامه محرمات اللحوم فی آیه الأنعام:« قُلْ لاٰ أَجِدُ فِی مٰا أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلیٰ طٰاعِمٍ یَطْعَمُهُ» :(الأنعام:۱۴۵)ثم فی آیه النحل و هما مكیتان، ثم فی آیه البقره و هی قبل المائده نزولا،ثم فی قوله:« حُرِّمَتْ عَلَیْكُمُ الْمَیْتَهُ» و هی قبل هذه الآیه؟.و الآیه على قول هذا القائل نص أو كالنص فی عدم تحریم ذبائحهم،فكیف صح لهؤلاء أن یسألوا عن حلیه ذبائح أهل الكتاب و قد نزلت الآیات مكیتها و مدنیتها مره بعد أخرى فی أمرها و دلت على حلیتها،و استقر العمل على حفظها و تلاوتها و تعلمها و العمل بها؟.

و أما قوله:إن آیه الأنعام نص فی حصر المحرمات فیما ذكر فیها فحرمه غیرها كذبیحه أهل الكتاب یحتاج إلى دلیل،فلا شك فی احتیاج كل حكم إلى دلیل یقوم علیه، و هذا الكلام صریح منه فی أن هذا الحصر إنما ینفع إذا لم یكن هناك دلیل یقوم على تحریم أمر آخر وراء ما ذكر فی الآیه.

و على هذا فإن كان مراده بالدلیل ما یشمل السنه فالقائل بتحریم ذبائح أهل الكتاب یستند فی ذلك إلى ما ورد من الروایات فی الآیه و قد نقلنا بعضا منها فیما تقدم.

و إن أراد الدلیل من الكتاب فمع أنه تحكم لا دلیل علیه إذ السنه قرینه الكتاب لا یفترقان فی الحجیه یسأل عنه ما ذا یقول فی ذبیحه الكفار غیر أهل الكتاب كالوثنیین و المادیین؟أ فیحرمها لكونها میته فاقده للتذكیه الشرعیه؟فما الفرق بین عدم التذكیه بعدم الاستقبال و عدم ذكر الله علیه أصلا و بین التذكیه التی هی غیر التذكیه الإسلامیه و لیس یرتضیها الله سبحانه و قد نسخها؟فالجمیع خبائث فی نظر الدین،و قد حرم الله الخبائث،قال تعالى:« وَ یُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّبٰاتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبٰائِثَ» :(الأعراف:۱۵۷)و قد

قال تعالی فی الآیه:«السابقه علی هذه الآیه یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبٰاتُ» و لحن السؤال و الجواب فیها أوضح دلیل علی حصر الحل فی الطیبات،و کذا ما فی أول هذه الآیه من قوله:« اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبٰاتُ» و المقام مقام الامتنان یدل علی الحصر المذکور.

و إن کان تحریم ذبائح الکفار لکونها بالإهلال به لغیر الله کالذبح باسم الأوثان عاد الکلام بعدم الفرق بین الإهلال به لغیر الله،و الإهلال به لله علی طریقه منسوخه لا یرتضیها الله سبحانه.

ثم قال:و قد شدد الله فیما کان علیه مشرکو العرب من أکل المیته بأنواعها المتقدمه و الذبح للأصنام لئلا یتساهل به المسلمون الأولون تبعا للعاده،و کان أهل الکتاب أبعد منهم عن أکل المیته و الذبح للأصنام.

و قد نسی أن النصاری من أهل الکتاب یأکلون لحم الخنزیر،و قد ذکره الله تعالی و شدد علیه،و أنهم یأکلون جمیع ما تستبیحه المشرکون لارتفاع التحریم عنهم بالتفدیه.

علی أن هذا استحسان سخیف لا یجدی نفعا و لا یعول علی مثله فی تفسیر کلام الله و فهم معانی آیاته،و لا فی فقه أحکام دینه.

ثم قال:و لأنه کان من سیاسه الدین التشدید فی معامله مشرکی العرب حتی لا یبقی فی الجزیره أحد إلا و یدخل فی الإسلام و خفف فی معامله أهل الکتاب،ثم ذکر موارد من فتیا بعض الصحابه بحلیه ما ذبحوه للکنائس و غیر ذلک.

و هذا الکلام منه مبنی علی ما یظهر من بعض الروایات أن الله اختار العرب علی غیرهم من الأمم،و أن لهم کرامه علی غیرهم.و لذلک کانوا یسمون غیرهم بالموالی،و لا یلائمه ظاهر الآیات القرآنیه،و قد قال الله تعالی:« یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاکُمْ» :(الحجرات:۱۳)و من طرق أئمه أهل البیت(ع)أحادیث کثیره فی هذا المعنی.

و لم یجعل الإسلام فی دعوته العرب فی جانب و غیرهم فی جانب،بل إنما جعل غیر أهل الکتاب من المشرکین سواء کانوا عربا أو غیرهم فی جانب،فلم یقبل منهم إلا أن یسلموا و یؤمنوا،و أهل الکتاب سواء کانوا عربا أو غیرهم فی جانب،فقبل منهم الدخول فی الذمه و إعطاء الجزیه إلا أن یسلموا.

و هذا الوجه بعد تمامه لا يدل على أزيد من التساهل فی حقهم فی الجمله لإبهامه،و أما أنه يجب أن يكون بإباحه ذبائحهم إذا ذبحوها على طريقتهم و سنتهم فمن أين له الدلاله على ذلک؟و هو ظاهر.

و أما ما ذكره من عمل بعض الصحابه و قولهم إلی غير ذلک فلا حجيه فيه.

فقد تبين من جميع ما تقدم عدم دلاله الآيه و لا أی دليل آخر على حليه ذبائح أهل الكتاب إذا ذبحت بغير التذكيه الإسلاميه.فإن قلنا بحليه ذبائحهم للآيه كما نقل عن بعض أصحابنا فلنقيدها بما إذا علم وقوع الذبح عن تذكيه شرعيه

كما يظهر من قول الصادق (ع)فی خبر الكافی،و التهذيب،المتقدم: «فإنما هی الاسم و لا يؤمن عليها إلا مسلم» الحديث.و للكلام تتمه تطلب من الفقه.

و فی تفسير العياشی،عن الصادق(ع): فی قوله تعالى:« وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» (الآيه)قال:هن العفائف

و فيه،عنه(ع):فی قوله: « وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ» (الآيه)قال:هن المسلمات.

و فی تفسير القمی،عن النبی ص قال: و إنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزيه،و غيرهم لم تحل مناكحتهم.

أقول:و ذلک لكونهم محاربين حينئذ.

و فی الكافی،و التهذيب،عن الباقر(ع): إنما يحل منهن نكاح البله.

و فی الفقيه،عن الصادق(ع): فی الرجل المؤمن يتزوج النصرانيه و اليهوديه قال:إذا أصاب المسلمه فما يصنع باليهوديه و النصرانيه؟فقيل:يكون له فيها الهوى فقال:إن فعل فليمنعها من شرب الخمر و أكل لحم الخنزير-و اعلم أن عليه فی دينه غضاضه

و فی التهذيب،عن الصادق(ع)قال: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهوديه و النصرانيه- و عنده حره.

و فی الفقيه،عن الباقر(ع): أنه سئل عن الرجل المسلم أ يتزوج المجوسيه؟قال:لا، و لكن إن كانت له أمه مجوسيه فلا بأس أن يطأها،و يعزل عنها،و لا يطلب ولدها.

و فی الكافی،بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبی عبد الله(ع)فی حديث:قال:

و ما أحب للرجل المسلم أن يتزوج اليهوديه و النصرانيه-مخافه أن يتهود ولده أو يتنصر.

و فى الكافى،بإسناده عن زراره،و فى تفسير العياشى،عن مسعده بن صدقه قال:

سألت أبا جعفر(ع)عن قول الله تعالى:« وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» -فقال:منسوخه بقوله:« وَ لاٰ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوٰافِرِ».

أقول:و يشكل بتقدم قوله:« وَ لاٰ تُمْسِكُوا» (الآيه)على قوله:« وَ الْمُحْصَنٰاتُ» (الآيه)نزولا و لا يجوز تقدم الناسخ على المنسوخ.مضافا إلى ما ورد أن سوره المائده ناسخه غير منسوخه،و قد تقدم الكلام فيه.و من الدليل على أن الآيه غير منسوخه ما تقدم من الروايه الداله على جواز التمتع بالكتابيه و قد عمل بها الأصحاب و قد تقدم فى آيه المتعه أن التمتع نكاح و تزويج.

نعم لو قيل بكون قوله:« وَ لاٰ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوٰافِرِ» (الآيه)مخصصا متقدما خرج به النكاح الدائم من إطلاق قوله:« وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» لدلالته على النهى عن الإمساك بالعصمه،و هو ينطبق على النكاح الدائم كما ينطبق على إبقاء عصمه الزوجيه بعد إسلام الزوج و هو مورد نزول الآيه.

و لا يصغى إلى قول من يعترض عليه بكون الآيه نازله فى إسلام الزوج مع بقاء الزوجه على الكفر،فإن سبب النزول لا يقيد اللفظ فى ظهوره،و قد تقدم فى تفسير آيه النسخ من سوره البقره فى الجزء الأول من الكتاب أن النسخ فى عرف القرآن و بحسب الأصل يعم غير النسخ المصطلح كالتخصيص.

و فى بعض الروايات أيضا أن الآيه منسوخه بقوله:« وَ لاٰ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكٰاتِ» (الآيه) و قد تقدم الإشكال فيه،و للكلام تتمه تطلب من الفقه.

و فى تفسير العياشى،:فى قوله تعالى:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» (الآيه):

عن أبان بن عبد الرحمن قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: أدنى ما يخرج به الرجل من الإسلام-أن يرى الرأى بخلاف الحق فيقيم عليه قال:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، -و قال(ع):الذى يكفر بالإيمان-الذى لا يعمل بما أمر الله به و لا يرضى به.

و فيه،عن محمد بن مسلم عن أحدهما(ع)قال: هو ترك العمل حتى يدعه أجمع.

أقول:و قد تقدم ما يتضح به ما فى هذه الأخبار من خصوصيات التفسير.

و فيه،عن عبيد بن زراره قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:

«وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»

-قال:ترك العمل الذى أقربه،من ذلك أن يترك الصلاه من غير سقم و لا شغل.

أقول:و قد سمى الله تعالى الصلاه إيمانا فى قوله: «وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِيعَ إِيمٰانَكُمْ» (البقره:۱۴۳)و لعله(ع)خصها بالذكر لذلك.

و فى تفسير القمى،قال(ع): من آمن ثم أطاع أهل الشرك

و فى البصائر،عن أبى حمزه قال: سألت أبا جعفر(ع)عن قول الله تبارك و تعالى:

«وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ-وَ هُوَ فِي الْآخِرَهِ مِنَ الْخٰاسِرِينَ»

-قال:تفسيرها فى بطن القرآن:و من يكفر بولايه على.و على هو الإيمان.

أقول:هو من البطن المقابل للظهر بالمعنى الذى بيناه فى الكلام على المحكم و المتشابه فى الجزء الثالث من الكتاب و يمكن أن يكون من الجرى و التطبيق على المصداق، و قد سمى رسول الله ص عليا(ع)إيمانا حينما برز إلى عمرو بن عبد ود يوم الخندق

حيث قال(ص): «برز الإيمان كله إلى الكفر كله».

و فى هذا المعنى بعض روايات أخر

[سوره المائده (۵): الآيات ۶ الى ۷]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى اَلصَّلاٰهِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى اَلْمَرٰافِقِ وَ اِمْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى اَلْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ اَلْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ مٰا يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶) وَ اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثٰاقَهُ اَلَّذِي وٰاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۷)

(بیان)

تتضـمن الآـیه الأـولی حکم الطهـارات الثلاـث:الوضوء و غسـل الجنابه و التیمم و الآیه التالیه کالمتممه أو المؤکـده لحکم الآیه الأـولی،و فی بیـان حکم الطهـارات الثلاـث آیه أخری تقـدمت فی سوره النسـاء،و هی قوله تعـالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُکاری حَتّی تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاّ عابِرِی سَبِیلٍ حَتّی تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ إِنَّ اللّهَ کانَ عَفُوًّا غَفُوراً» : (النساء:۴۳).

و هـذه الآـیه أعنی آیه المائـده أوضـح و أبین من آیه النسـاء،و أشـمل لجهـات الحکم و لـذلک أخرنا بیان آیه النساء إلی هاهنا لسهوله التفهم عند المقایسه.

قوله تعـالی. «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاهِ» القیام إذا عـدی بإلی ربما کنی به عن إراده الشـیء المـذکور للملازمه و القران بینهمـا،فـإن إراده الشـیء لا تنفک عن الحرکه إلیه،و إذا فرض الإنسان مثلا قاعـدا لأنه حال سـکونه و لازم سـباته عاده،و فرض الشـیء المراد فعلاـ متعارفا یتحرک إلیه عاده کان مما یحتاج فی إتیانه إلی القیام غالبا،فأخـذ الإنسان فی ترک السـکون و الانتصـاب لإـدراک العمـل هو القیـام إلی الفعـل،و هو یلاـزم الإـراده.و نظیره قوله تعالی :«وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاهَ» : (النساء:۱۰۲) أی أردت أن تقیـم لهـم الصـلاه.و عکسـه مـن وجـه قـوله تعـالی:« وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَکانَ زَوْجٍ وَ آتَیْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَیْئاً» :(النساء:۲۰)أی إذا طلقتم زوجا و تزوجتم بأخری،فوضعت إراده الفعل و طلبه مقام القیام به.

و بالجمله الآیه تدل علی اشتراط الصلاه بما تذکره من الغسل و المسح أعنی الوضوء

و لو تم لها إطلاق لدل على اشتراط كل صلاه بوضوء مع الغض عن قوله:« وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» لكن الآيات المشرعه قلما يتم لها الإطلاق من جميع الجهات.على أنه يمكن أن يكون قوله الآتى: «وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» مفسرا لهذا الاشتراط على ما سيجىء من الكلام.هذا هو المقدار الذى يمكن أن يبحث عنه فى تفسير الآيه،و الزائد عليه مما أطنب فيه المفسرون بحث فقهى خارج عن صناعه التفسير.

قوله تعالى: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرٰافِقِ» الغسل بفتح الغين إمرار الماء على الشىء،و يكون غالبا لغرض التنظيف و إزاله الوسخ و الدرن و الوجه ما يستقبلك من الشىء،و غلب فى الجانب المقبل من رأس الإنسان مثلا،و هو الجانب الذى فيه العين و الأنف و الفم،و يعين بالظهور عند المشافهه،و قد فسر فى الروايات المنقوله عن أئمه أهل البيت(ص)بما بين قصاص الشعر من الناصيه و آخر الذقن طولا،و ما دارت عليه الإبهام و الوسطى و السبابه،و هناك تحديدات أخر ذكرها المفسرون و الفقهاء.

و الأيدى جمع يد و هى العضو الخاص الذى به القبض و البسط و البطش و غير ذلك، و هو ما بين المنكب و أطراف الأصابع،و إذ كانت العنايه فى الأعضاء بالمقاصد التى يقصدها الإنسان منها كالقبض و البسط فى اليد مثلا،و كان المعظم من مقاصد اليد تحصل بما دون المرفق إلى أطراف الأصابع سمى أيضا باليد،و لذلك بعينه ما سمى ما دون الزند إلى أطراف الأصابع فصار اللفظ بذلك مشتركا أو كالمشترك بين الكل و الأبعاض.

و هذا الاشتراك هو الموجب لذكر القرينه المعينه إذا أريد به أحد المعانى،و لذلك قيد تعالى قوله: «وَ أَيْدِيَكُمْ» بقوله: «إِلَى الْمَرٰافِقِ» ليتعين أن المراد غسل اليد التى تنتهى إلى المرافق،ثم القرينه أفادت أن المراد به القطعه من العضو التى فيها الكف،و كذا فسرتها السنه. و الذى يفيده الاستعمال فى لفظه «إِلَى» أنها لانتهاء الفعل الذى لا يخلو من امتداد الحركه،و أما دخول مدخول «إِلَى» فى حكم ما قبله أو عدم دخوله فأمر خارج عن معنى الحرف،فشمول حكم الغسل للمرافق لا يستند إلى لفظه «إِلَى» بل إلى ما بينه السنه من الحكم.

و ربما ذكر بعضهم أن «إِلَى» فى الآيه بمعنى مع كقوله تعالى: «وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَهُمْ إِلىٰ أَمْوٰالِكُمْ» :(النساء:٢)و قد استند فى ذلك إلى ما ورد فى الروايات أن النبى ص

كان يغسلهما إذا توضأ،و هو من عجيب الجرأه فى تفسير كلام الله،فإن ما ورد من السنه فى ذلك إما فعل و الفعل مبهم ذو وجوه فكيف يسوغ أن يحصل بها معنى لفظ من الألفاظ حتى يعد ذلك أحد معانى اللفظ؟و إما قول وارد فى بيان الحكم دون تفسير الآيه،و من الممكن أن يكون وجوب الغسل للمقدمه العلميه أو مما زاده النبى ص و كان له ذلك كما فعله(ص)فى الصلوات الخمس على ما وردت به الروايات الصحيحه.

و أما قوله تعالى:« وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَهُمْ إِلىٰ أَمْوٰالِكُمْ» فهو من قبيل تضمين الأكل معنى الضم و نحوه مما يتعدى بإلى لا أن لفظه «إِلَى» هنالك بمعنى مع.

و قد تبين بما مر أن قوله «إِلَى الْمَرٰافِقِ» قيد لقوله «أَيْدِيَكُمْ» فيكون الغسل المتعلق بها مطلقا غير مقيد بالغايه يمكن أن يبدأ فيه من المرفق إلى أطراف الأصابع و هو الذى يأتى به الإنسان طبعا إذا غسل يده فى غير حال الوضوء من سائر الأحوال أو يبدأ من أطراف الأصابع و يختم بالمرفق،لكن الأخبار الوارده من طرق أئمه أهل البيت(ع) تفتى بالنحو الأول دون الثانى.

و بذلك يندفع ما ربما يقال:إن تقييد الجمله بقوله «إِلَى الْمَرٰافِقِ» يدل على وجوب الشروع فى الغسل من أطراف الأصابع و الانتهاء إلى المرافق.وجه الاندفاع أن الإشكال مبنى على كون قوله «إِلَى الْمَرٰافِقِ» قيدا لقوله «فَاغْسِلُوا» و قد تقدم أنه قيد للأيدى، و لا مناص منه لكونه مشتركا محتاجا إلى القرينه المعينه،و لا معنى لكونه قيدا لهما جميعا.

على أن الأمه أجمعت على صحه وضوء من بدأ فى الغسل بالمرافق و انتهى إلى أطراف الأصابع كما فى المجمع،و ليس إلا لأن الآيه تحتمله:و ليس إلا لأن قوله «إِلَى الْمَرٰافِقِ» قيد للأيدى دون الغسل.

قوله تعالى:« وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» المسح: إمرار اليد أو كل عضو لامس على الشىء بالمباشره،يقال.مسحت الشىء و مسحت بالشىء،فإذا عدى بنفسه أفاد الاستيعاب،و إذا عدى بالباء دل على المسح ببعضه من غير استيعاب و إحاطه.

فقوله: «وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ» يدل على مسح بعض الرأس فى الجمله،و أما أنه أى بعض من الرأس فمما هو خارج من مدلول الآيه،و المتكفل لبيانه السنه،و قد صح أنه جانب الناصيه من الرأس.

و أما قوله:« وَ أَرْجُلَكَمْ» فقد قرئ بالجر،و هو لا محاله بالعطف على رءوسكم.

و ربما قال القائل:إن الجر للإتباع،كقوله:« وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»: (الأنبياء:

۳۰)و هو خطأ فإن الإتباع على ما ذكروه لغه رديئه لا يحمل عليها كلام الله تعالى.و أما قوله:« كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» فإنما الجعل هناك بمعنى الخلق،و ليس من الإتباع فى شىء.

على أن الإتباع-كما قيل-إنما ثبت فى صوره اتصال التابع و المتبوع كما قيل فى قولهم:جحر ضب خرب بجر الخرب،اتباعا لا فى مثل المورد مما يفضل العاطف بين الكلمتين.

و قرأ: وَ أَرْجُلَكُمْ- بالنصب و أنت إذا تلقيت الكلام مخلى الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضى أن «أَرْجُلَكُمْ» معطوف على موضع «بِرُؤُسِكُمْ» و هو النصب، و فهمت من الكلام وجوب غسل الوجه و اليدين،و مسح الرأس و الرجلين،و لم يخطر ببالك أن ترد «أَرْجُلَكُمْ» إلى «وُجُوهَكُمْ» فى أول الآيه مع انقطاع الحكم فى قوله:

«فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ»

بحكم آخر و هو قوله:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ»، فإن الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك،و كيف يرضى طبع متكلم بليغ أن يقول مثلا:قبلت وجه زيد و رأسه و مسحت بكتفه و يده بنصب يد عطفا على«وجه زيد»مع انقطاع الكلام الأول،و صلاحيه قوله«يده»لأن يعطف على محل المجرور المتصل به،و هو أمر جائز دائر كثير الورود فى كلامهم.

و على ذلك وردت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)و أما الروايات من طرق أهل السنه فإنها و إن كانت غير ناظره إلى تفسير لفظ الآيه،و إنما تحكى عمل النبى ص و فتوى بعض الصحابه،لكنها مختلفه:منها ما يوجب مسح الرجلين،و منها ما يوجب غسلهما.

و قد رجح الجمهور منهم أخبار الغسل على أخبار المسح،و لا كلام لنا معهم فى هذا المقام لأنه بحث فقهى راجع إلى علم الفقه،خارج عن صناعه التفسير.

لكنهم مع ذلك حاولوا تطبيق الآيه على ما ذهبوا إليه من الحكم الفقهى بتوجيهات مختلفه ذكروها فى المقام،و الآيه لا تحتمل شيئا منها إلا مع ردها من أوج بلاغتها إلى مهبط الرداءه.

فربما قيل:إن «أَرْجُلَكَمْ» عطف على «وُجُوهَكَمْ» كما تقدم هذا على قراءه النصب،و أما على قراءه الجر فتحمل على الإتباع،و قد عرفت أن شيئا منهما لا يحتمله الكلام البليغ الذى يطابق فيه الوضع الطبع.

و ربما قيل فى توجيه قراءه الجر:إنه من قبيل العطف فى اللفظ دون المعنى كقوله:

علفتها تبنا و ماء باردا.

و فيه أن مرجعه إلى تقدير فعل يعمل عملا يوافق إعراب حال العطف كما يدل عليه ما استشهد به من الشعر.و هذا المقدر فى الآيه إما «فَاغْسِلُوا» و هو يتعدى بنفسه لا بحرف الجر،و إما غيره و هو خلاف ظاهر الكلام لا دليل عليه من جهه اللفظ البته و أيضا ما استشهد به من الشعر إما من قبيل المجاز العقلى،و إما بتضمين علفت معنى أعطيت و أشبعت و نحوهما.و أيضا الشعر المستشهد به يفسد معناه لو لم يعالج بتقدير و نحوه،فهناك حاجه إلى العلاج قطعيه،و أما الآيه فلا حاجه فيها إلى ذلك من جهه اللفظ يقطع بها.

و ربما قيل فى توجيه الجر بناء على وجوب غسل الأرجل:أن العطف فى محله غير أن المسح خفيف الغسل فهو غسل بوجه فلا مانع من أن يراد بمسح الأرجل غسلها،و يقوى ذلك أن التحديد و التوقيت أنما جاء فى المغسول و هو الوجه،و لم يجىء فى الممسوح فلما رفع التحديد فى المسح و هو قوله:« وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» علم أنه فى حكم الغسل لموافقته الغسل فى التحديد.

و هذا من أردإ الوجوه،فإن المسح غير الغسل و لا ملازمه بينهما أصلا.على أن حمل مسح الأرجل على الغسل دون مسح الرءوس ترجيح بلا مرجح.و ليت شعرى ما ذا يمنعه أن يحمل كل ما ورد فيه المسح مطلقا فى كتاب أو سنه على الغسل و بالعكس و ما المانع حينئذ أن يحمل روايات الغسل على المسح،و روايات المسح على الغسل فتعود الأدله عن آخرها مجملات لا مبين لها؟.

و أما ما قواه به فهو من تحميل الدلاله على اللفظ بالقياس،و هو من أفسد القياسات.

و ربما قيل إن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء فى الوضوء كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب فى التيمم فإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقا اسم ماسح غاسل،لأن

غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصابتهما بالماء،و مسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو غاسل ماسح،فالنصب فى قوله:« أَرْجُلَكُمْ» بعنايه أن الواجب هو غسلهما،و الجر بعنايه أنه ماسح بالماء غسلا،انتهى ملخصا.

و ما أدرى كيف يثبت بهذا الوجه أن المراد بمسح الرأس فى الآيه هو المسح من غير غسل،و بمسح الرجلين هو المسح بالغسل؟و هذا الوجه هو الوجه السابق بعينه و يزيد عليه فسادا،و لذلك يرد على هذا ما يرد على ذاك.

و يزيد عليه إشكالا أن قوله:إن الله أمر بعموم مسح الرجلين فى الوضوء(إلخ)الذى قاس فيه الوضوء على التيمم إن أراد به قياس الحكم على الحكم أعنى ما ثبت عنده بالروايات فأى دلاله له على دلاله الآيه على ذلك؟و ليست الروايات-كما عرفت-بصدد تفسير لفظ الكتاب،و إن أراد به قياس قوله: «وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فى الوضوء على قوله:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» فى التيمم فهو ممنوع فى المقيس و المقيس عليه جميعا فإن الله تعالى عبر فى كليهما بالمسح المتعدى بالباء،و قد تقدم أن المسح المتعدى بالباء لا يدل فى اللغه على استيعاب المسح الممسوح،و أن الذى يدل على ذلك هو المسح المتعدى بنفسه.

و هذه الوجوه و أمثالها مما وجهت بها الآيه بحملها على خلاف ظاهرها حفظا للروايات فرارا من لزوم مخالفه الكتاب فيها،و لو جاز لنا تحميل معنى الروايه على الآيه بتأويل الآيه بحملها على خلاف ظاهرها لم يتحقق لمخالفه الكتاب مصداق.

فالأحرى للقائل بوجوب غسل الرجلين فى الوضوء أن يقول كما قال بعض السلف كأنس و الشعبى و غيرهما على ما نقل عنهم:أنه نزل جبرئيل بالمسح و السنه الغسل،و معناه نسخ الكتاب بالسنه.و ينتقل البحث بذلك عن المسأله التفسيريه إلى المسأله الأصوليه:

هل يجوز نسخ الكتاب بالسنه أو لا يجوز،و البحث فيه من شأن الأصولى دون المفسر، و ليس قول المفسر بما هو مفسر:أن الخبر الكذائى مخالف للكتاب إلا للدلاله على أنه غير ما يدل عليه ظاهر الكتاب دلاله معولا عليها فى الكشف عن المراد دون الفتيا بالحكم الشرعى الذى هو شأن الفقيه.

و أما قوله تعالى:« إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فالكعب هو العظم الناتئ فى ظهر القدم.و ربما

قیل:إن الکعب هو العظم الناتئ فی مفصل الساق و القدم،و هما کعبان فی کل قدم فی المفصل.

قوله تعالی:« وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» الجنب فی الأصل مصدر غلب علیه الاستعمال بمعنی اسم الفاعل،و لذلک یستوی فیه المذکر و المؤنث و المفرد و غیره،یقال:

رجل جنب و امرأه جنب و رجلان أو امرأتان جنب،و رجال أو نساء جنب،و اختص الاستعمال بمعنی المصدر للجنابه.

و الجمله أعنی قوله: «وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» معطوفه علی قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ» لأن الآیه مسوقه لبیان اشتراط الصلاه بالطهاره فالتقدیر:و تطهروا إن کنتم جنبا،فیئول إلی تقدیر شرط الخلاف فی جانب الوضوء و تقدیر الکلام:فاغسلوا وجوهکم و أیدیکم و امسحوا برءوسکم و أرجلکم إن لم تکونوا جنبا و إن کنتم جنبا فاطهروا و یستفاد من ذلک أن تشریع الوضوء إنما هو فی حال عدم الجنابه،و أما عند الجنابه فالغسل فحسب کما دلت علیه الأخبار.

و قد بین الحکم بعینه فی آیه النساء بقوله :«وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِی سَبِیلٍ حَتّٰی تَغْتَسِلُوا» فهذه الآیه تزید علی تلک الآیه بیانا بتسمیه الاغتسال تطهرا،و هذا غیر الطهاره الحاصله بالغسل،فإنها أثر مترتب،و هذا نفس الفعل الذی هو الاغتسال و قد سمی تطهرا کما یسمی غسل أوساخ البدن بالماء تنظفا.

و یستفاد من ذلک ما

ورد فی بعض الأخبار من قوله(ع): «ما جری علیه الماء فقد طهر».

قوله تعالی :«وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَیَمَّمُوا» شروع فی بیان حکم من لا یقدر علی الماء حتی یغسل أو یغتسل.

و الذی ذکر من الموارد و عد بالتردید لیس بعضها یقابل بعضا مقابله حقیقیه،فإن المرض و السفر لیسا بنفسهما یوجبان حدثا مستدعیا للطهاره بالوضوء أو الغسل بل إنما یوجبانه إذا أحدث المکلف معهما حدثا صغیرا أو کبیرا،فالشقان الأخیران لا یقابلان

الأولين بل كل من الأولين كالمنقسم إلى الأخيرين،و لذلك احتمل بعضهم أن يكون «أَوْ» فى قوله: « أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكَمْ»، بمعنى الواو كما سيجىء،على أن العذر لا ينحصر فى المرض و السفر بل له مصاديق أخر.

لكن الله سبحانه ذكر المرض و السفر و هما مظنه عدم التمكن من الماء غالبا،و ذكر المجىء من الغائط و ملامسه النساء و فقدان الماء معهما اتفاقى،و من جهه أخرى-و هى عكس الجهه الأولى-عروض المرض و السفر للإنسان بالنظر إلى بنيته الطبيعيه أمر اتفاقى بخلاف التردد إلى الغائط و ملامسه النساء فإنهما من حاجه الطبيعه:أحدهما يوجب الحدث الأصغر الذى يرتفع بالوضوء،و الآخر الحدث الأكبر الذى يرتفع بالغسل.

فهذه الموارد الأربع موارد يبتلى الإنسان ببعضها اتفاقا و ببعضها طبعا.و هى تصاحب فقدان الماء غالبا كالمرض و السفر أو اتفاقا كالتخلى و المباشره إذا انضم إليها عدم وجدان الماء فالحكم هو التيمم.

و على هذا يكون عدم وجدان الماء كنايه عن عدم القدره على الاستعمال.كنى به عنه لأن الغالب هو استناد عدم القدره إلى عدم الوجدان،و لازم ذلك أن يكون عدم الوجدان قيدا لجميع الأمور الأربعه المذكوره حتى المرض.

و قد تبين بما قدمناه أولا:أن المراد بالمرض فى قوله:« كُنْتُمْ مَرْضىٰ» هو المرض الذى يتحرج معه الإنسان من استعمال الماء و يتضرر به على ما يعطيه التقييد بقوله:« فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً» و يفيده أيضا سياق الكلام فى الآيه.

و ثانيا:أن قوله:« أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ» شق برأسه يبتلى به الإنسان اتفاقا و يغلب عليه فيه فقدان الماء،فليس بمقيد بقوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ» (إلخ)بل هو معطوف على قوله: «فَاغْسِلُوا» و التقدير: إذا قمتم إلى الصلاه و كنتم على سفر و لم تجدوا ماء فتيمموا، فحال هذا الفرض فى إطلاقه و عدم تقيده بوقوع أحد الحدثين حال المعطوف عليه أعنى قوله:« إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ فَاغْسِلُوا» (إلخ)فكما لم يحتج إلى التقييد ابتداء لم يحتج إليه ثانيا عند العطف.

و ثالثا:أن قوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ» شق آخر مستقلا و ليس كما قيل:إن «أَوْ» فيه بمعنى الواو كقوله تعالى: «وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» :

(الصافات:۱۴۷)لما عرفت من عدم الحاجه إلی ذلک.علی أن «أَوْ» فی الآیه المستشهد بها لیس إلا بمعناها الحقیقی،و إنما التردید راجع إلی کون المقام مقاما یتردد فیه بالطبع لا لجهل فی المتکلم کما یقال بمثله فی الترجی و التمنی الواقعین فی القرآن کقوله:« لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ» :(البقره:۲۱)،و قوله: «لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ» :(البقره:۱۰۲).

و حکم هذه الجمله فی العطف حکم سابقتها،و التقدیر:إذا قمتم إلی الصلاه و کان جاء أحد منکم من الغائط و لم تجدوا ماء فتیمموا.

و لیس من البعید أن یستفاد من ذلک عدم وجوب إعاده التیمم أو الوضوء لمن لم تنتقض طهارته بالحدث الأصغر إن کان علی طهاره بناء علی مفهوم الشرط فیتأید به من الروایات ما یدل علی عدم وجوب التطهر لمن کان علی طهاره.

و فی قوله تعالی:« أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ» من الأدب البارع ما لا یخفی للمتدبر حیث کنی عن المراد بالمجیء من الغائط،و الغائط هو المکان المنخفض من الأرض و کانوا یقصدونه لقضاء الحاجه لیتستروا به من الناس تأدبا،و استعمال الغائط فی معناه المعروف الیوم استعمال مستحدث من قبیل الکنایات المبتذله کما أن لفظ العذره کذلک، و الأصل فی معناها عتبه الباب سمیت بها لأنهم کانوا یخلون ما اجتمع فی کنیف البیت فیها علی ما ذکره الجوهری فی الصحاح،

و لم یقل:أو جئتم من الغائط لما فیه من تعیین المنسوب إلیه،و کذا لم یقل:أو جاء أحدکم من الغائط لما فیه من الإضافه التی فیها شوب التعیین بل بالغ فی الإبهام فقال:

«أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ»

رعایه لجانب الأدب.

و رابعا:أن قوله: «أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ» کسابقه شق من الشقوق المفروضه مستقل و حکمه فی العطف و المعنی حکم سابقه،و هو کنایه عن الجماع أدبا صونا للسان من التصریح بما تأبی الطباع عن التصریح به.

فإن قلت:لو کان کذلک کان التعبیر بمثل ما عبر به عنه سابقا بقوله:« وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً» أولی لکونه أبلغ فی رعایه الأدب.

قلت:نعم لکنه کان یفوت نکته مرعیه فی الکلام،و هی الدلاله علی کون الأمر مما یقتضیه الطبیعه کما تقدم بیانه،و التعبیر بالجنابه فاقد للإشعار بهذه النکته.

و ظهر أيضا فساد ما نسب إلى بعضهم:أن المراد بملامسه النساء هو الملامسه حقيقه بنحو التصريح من غير أن تكون كنايه عن الجماع.وجه فساده أن سياق الآيه لا يلائمه، و إنما يلائم الكنايه فإن الله سبحانه ابتدأ فى كلامه ببيان حكم الحدث الأصغر بالوضوء و حكم الجنابه بالغسل فى الحال العادى،و هو حال وجدان الماء،ثم انتقل الكلام إلى بيان الحكم فى الحال غير العادى،و هو حال فقدان الماء فبين فيه حال بدل الوضوء و هو التيمم فكان الأحرى و الأنسب بالطبع أن يذكر حال بدل الغسل أيضا،و هو قرين الوضوء،و قد ذكر ما يمكن أن ينطبق عليه، و هو قوله:« أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ» على سبيل الكنايه،فالمراد به ذلك لا محاله،و لا وجه لتخصيص الكلام ببيان حكم بدل الوضوء و هو أحد القرينين،و إهمال حكم بدل القرين الآخر و هو الغسل رأسا.

و خامسا:يظهر بما تقدم فساد ما أورد على الآيه من الإشكالات:فمنها أن ذكر المرض و السفر مستدرك،فإنهما أنما يوجبان التيمم بانضمام أحد الشقين الأخيرين و هو الحدث و الملامسه،مع أنهما يوجبانه و لو لم يكن معهما مرض أو سفر فذكر الأخيرين يغنى عن ذكر الأولين.و الجواب أن ذكر الشقين الأخيرين ليس لغرض انضمامهما إلى أحد الأولين بل كل من الأربعه شق مستقل مذكور لغرض خاص به يفوت بحذفه من الكلام على ما تقدم بيانه.

و منها:أن الشق الثانى و هو قوله:« أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ» مستدرک و ذلک بمثل ما وجه به الإشكال السابق غير أن المرض لما كان عذره الموجب للانتقال إلى البدل هو عدم التمكن من استعمال الماء الموجود لا عدم وجدان الماء كان من اللازم أن يقدر له ذلك فى الكلام،و لا يغنى عن ذكره ذكر الشقين الأخيرين مع عدم وجدان الماء،و نتيجه هذا الوجه كون السفر مستدركا فقط.و الجواب أن عدم الوجدان فى الآيه كنايه عن عدم التمكن من استعمال الماء أعم من صوره وجدانه أو فقدانه كما تقدم.

و منها:أن قوله:« فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً» يغنى عن ذكر جميع الشقوق،و لو قيل مكان قوله:« وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ» (إلخ):«و إن لم تجدوا ماء»لكان أوجز و أبين،و الجواب:

أن فيه إضاعه لما تقدم من النكات.

و منها:أن لو قيل:و إن لم تقدروا على الماء أو ما يفيد معناه كان أولى،لشموله

عذر المرض مضافا إلى عذر غيره.و الجواب:أنه أفید بالکنایه،و هی أبلغ.

قوله تعالی:« فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ» التیمم هو القصد،و الصعید هو وجه الأرض،و توصیفه بالطیب-و الطیب فی الشیء کونه علی حال یقتضیه طبعه-للإشاره إلی اشتراط کونه علی حاله الأصلی کالتراب و الأحجار العادیه دون ما خرج من الأرضیه بطبخ أو نضج أو غیر ذلک من عوامل التغییر کالجص و النوره و الخزف و المواد المعدنیه،قال تعالی: «وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لاٰ یَخْرُجُ إِلاّٰ نَکِداً» :(الأعراف:۵۸)و من ذلک یستفاد الشروط التی أخذت السنه فی الصعید الذی یتیمم به.

و ربما یقال:إن المراد بالطیب الطهاره،فیدل علی اشتراط الطهاره فی الصعید.

و قوله:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ» ینطبق ما ذکره فی التیمم للمسح علی ما ذکره فی الوضوء للغسل،فالتیمم فی الحقیقه وضوء أسقطت فیه المسحتان:مسح الرأس و مسح الرجلین،و أبدلت فیه الغسلتان:غسله الوجه و الیدین إلی المرفقین بالمسحتین، و أبدل الماء بالتراب تخفیفا.

و هذا یشعر بأن العضوین فی التیمم هما العضوان فی الوضوء،و لما عبر تعالی بالمسح المتعدی بالباء دل ذلک علی أن المعتبر فی التیمم هو مسح بعض عضوی الغسل فی الوضوء أعنی بعض الوجه،و بعض الید إلی المرفق،و ینطبق علی ما ورد من طرق أئمه أهل البیت(ع)من تحدید الممسوح من الوجه بما بین الجبینین و الممسوح من الید بما دون الزند منها.

و بذلک یظهر فساد ما ذکره بعضهم من تحدید الید بما دون الإبطین.و ما ذکره آخرون أن المعتبر من الید فی التیمم عین ما اعتبر فی الوضوء و هو ما دون المرفق،و ذلک أنه لا یلائم المسح المتعدی بالباء الدال علی مرور الماسح ببعض الممسوح.

و«من»فی قوله:« مِنْهُ» کأنها ابتدائیه و المراد أن یکون المسح بالوجه و الیدین مبتدأ من الصعید،و قد بینته السنه بأنه بضرب الیدین علی الصعید و مسحهما بالوجه و الیدین.

و یظهر من بعضهم:أن«من»هاهنا تبعیضیه فتفید أن یکون فی الیدین بعد الضرب

بقیه من الصعید کغبار و نحوه بمسح الوجه و الیدین و استنتج منه وجوب کون الصعید المضروب علیه مشتملا علی شیء من الغبار یمسح منه بالوجه و الیدین فلا یصح التیمم علی حجر أملس لم یتعلق به غبار،و الظاهر ما قدمناه-و الله أعلم-و ما استنتجه من الحکم لا یختص بما احتمله.

قوله تعالی :«مٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ» دخول «مِنَ» علی مفعول «مٰا یُرِیدُ» لتأکید النفی،فلا حکم یراد به الحرج بین الأحکام الدینیه أصلا،و لذلک علق النفی علی إراده الجعل دون نفس الحرج.

و الحرج حرجان:حرج یعرض ملاک الحکم و مصلحته المطلوبه،و یصدر الحکم حینئذ حرجیا بذاته لتبعیه ملاکه کما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملکه الزهد،فالحکم حرجی من رأس،و حرج بعرض الحکم من خارج عن أسباب اتفاقیه فیکون بعض أفراده حرجیا و یسقط الحکم حینئذ فی تلک الأفراد الحرجیه لا فی غیرها مما لا حرج فیه،کمن یتحرج عن القیام فی الصلاه لمرض یضره معه ذلک،و یسقط حینئذ وجوب القیام عنه لا عن غیره ممن یستطیعه.

و إضرابه تعالی بقوله:« وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ»، عن قوله:« مٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ» یدل علی أن المراد بالآیه نفی الحرج الذی فی الملاک أی أن الأحکام التی یجعلها علیکم لیست بحرجیه شرعت لغرض الحرج،و ذلک لأن معنی الکلام أن مرادنا بهذه الأحکام المجعوله تطهیرکم و إتمام النعمه و هو الملاک،لا أن نشق علیکم و نحرجکم،و لذلک لما وجدنا الوضوء و الغسل حرجیین علیکم عند فقدان الماء انتقلنا من إیجاب الوضوء و الغسل إلی إیجاب التیمم الذی هو فی وسعکم،و لم یبطل حکم الطهاره من رأس لإراده تطهیرکم و إتمام النعمه علیکم لعلکم تشکرون.

قوله تعالی:« وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ وَ لِیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ» لازم ما تقدم من معنی نفی إراده الحرج أن یکون المراد بقوله :«یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ» أن تشریع الوضوء و الغسل و التیمم إنما هو حصول الطهاره فیکم لکونها أسبابا لذلک،و هذه الطهاره أیا ما کانت لیست بطهاره عن الخبث بل هی طهاره معنویه حاصله بأحد هذه الأعمال الثلاثه،و هی التی تشترط بها الصلاه فی الحقیقه.

و من الممکن أن يستفاد من ذلک عدم وجوب الإتيان بعمل الطهاره عند القيام إلى کل صلاه إذا کان المصلى على طهاره غير منقوضه،و لا ينافى ذلک ظهور صدر الآيه فى الإطلاق لأن التشريع أعم مما يکون على سبيل الوجوب.

و أما قوله. «وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»، فقد مر معنى النعمه و إتمامها فى الکلام على قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» :(المائده:۳)و معنى الشکر فى الکلام على قوله تعالى :وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ :(آل عمران:۱۴۴)فى الجزء الرابع من الکتاب.

فالمراد بالنعمه فى الآيه هو الدين لا من حيث أجزائه من المعارف و الأحکام،بل من حيث کونه إسلام الوجه لله فى جميع الشئون،و هو ولايه الله على العباد بما يحکم فيهم، و إنما يتم ذلک باستيفاء التشريع جميع الأحکام الدينيه التى منها حکم الطهارات الثلاث.

و من هنا يظهر أن بين الغايتين أعنى قوله:« لِيُطَهِّرَكُمْ» و قوله:« لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ» فرقا، و هو أن الطهاره غايه لتشريع الطهارات الثلاث بخلاف إتمام النعمه،فإنه غايه لتشريع جميع الأحکام،و ليس للطهارات الثلاث منها إلا سهمها،فالغايتان خاصه و عامه.

و على هذا فالمعنى:و لکن نريد بجعل الطهارات الثلاث حصول الطهاره بها خاصه لکم،و لأنها بعض الدين الذى يتم بتشريع جميعها نعمه الله عليکم لعلکم تشکرون الله على نعمته فيخلصکم لنفسه،فافهم ذلک.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا، هذا هو الميثاق الذى کان مأخوذا منهم على الإسلام کما تشهد به تذکرته لهم بقوله:« إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا» فإنه السمع المطلق،و الطاعه المطلقه،و هو الإسلام لله فالمعنى بالنعمه فى قوله:« وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» هو المواهب الجميله التى وهبهم الله سبحانه إياها فى شعاع الإسلام،و هو التفاضل الذى بين حالهم فى جاهليتهم و حالهم فى إسلامهم من الأمن و العافيه و الثروه و صفاء القلوب و طهاره الأعمال کما قال تعالى:« وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا» :(آل عمران:۱۰۳).

أو أن الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمه،فإنه أم النعم ترتضع منها کل نعمه کما

تقدم بیانه،و غیر مخفی علیک أن المراد بکون النعمه هی الإسلام بحقیقته أو الولایه أنما هو تعیین المصداق دون تشخیص مفهوم اللفظ،فإن المفهوم هو الذی یشخصه اللغه، و لا کلام لنا فیه.

ثم ذکرهم نفسه و أنه عالم بخفایا زوایا القلوب،فأمرهم بالتقوی بقوله:« وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ».

.

(بحث روائی)

فی التهذیب،مسندا عن الصادق(ع): فی قوله تعالی:« إِذٰا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاٰهِ» -قال:

إذا قمتم من النوم-قال الراوی:-و هو ابن بکیر-قلت:ینقض النوم الوضوء فقال:

نعم إذا کان یغلب علی السمع و لا یسمع الصوت.

أقول:و هذا المعنی مروی فی غیره من الروایات،و رواه السیوطی فی الدر المنثور، عن زید بن أسلم و النحاس:و هذا لا ینافی ما قدمنا أن المراد بالقیام إلی الصلاه إرادتها، لأن ما ذکرناه هو معنی القیام من حیث تعدیه بإلی،و ما فی الروایه معناه من حیث تعدیه بمن.

و فی الکافی،بإسناده عن زراره قال: قلت لأبی جعفر(ع): من أین علمت و قلت:

إن المسح ببعض الرأس و بعض الرجلین؟فضحک ثم قال؟یا زراره قال رسول الله ص، و نزل به الکتاب من الله،لأن الله عز و جل یقول:« فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ» فعرفنا أن الوجه کله ینبغی أن یغسل ثم قال:« وَ أَیْدِیَکُمْ إِلَی الْمَرٰافِقِ» -فوصل الیدین إلی المرفقین بالوجه فعرفنا أنه ینبغی لهما أن تغسلا إلی المرفقین،ثم فصل بین الکلام فقال:« وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ» فعرفنا حین قال: «بِرُؤُسِکُمْ» أن المسح ببعض الرأس لمکان الباء،ثم وصل الرجلین بالرأس کما وصل الیدین بالوجه فقال:« وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی الْکَعْبَیْنِ» فعرفنا حین وصلهما بالرأس أن المسح علی بعضهما،ثم فسر ذلک رسول الله ص للناس فضیعوه ثم قال: «فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً-فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ» -فلما وضع الوضوء إن لم یجدوا ماء أثبت بعض الغسل مسحا-لأنه قال:« بِوُجُوهِکُمْ» ثم وصل بها «وَ أَیْدِیَکُمْ» -ثم قال:« مِنْهُ» أی من ذلک التیمم،لأنه علم أن ذلک أجمع لم یجر علی

الوجه-لأنه يعلق من ذلك الصعيد ببعض الكف و لا يعلق ببعضها،ثم قال الله:« مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» -و الحرج الضيق .

أقول:قوله:«ثم قال:فإن لم تجدوا ماء»،نقل الآيه بالمعنى.

و فيه،بإسناده عن زراره و بكير: أنهما سألا أبا جعفر(ع)عن وضوء رسول الله ص-فدعا بطست-أو تور-فيه ماء فغمس يده اليمنى-فغرف بها غرفه فصبها على وجهه فغسل بها وجهه،ثم غمس يده اليسرى فغرف بها غرفه-فأفرغ على ذراعه اليمنى-فغسل بها ذراعه من المرافق إلى الكف-لا يردها إلى المرافق،ثم غمس كفه اليمنى-فأفرغ بها على ذراعه اليسرى من المرفق،و صنع بها ما صنع باليمنى،ثم مسح رأسه و قدميه ببلل كفه لا يحدث لهما ماء جديدا،ثم قال:و لا يدخل أصابعه تحت الشراك.ثم قال:إن الله عز و جل يقول: «إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ» -فليس له أن يدع شيئا من وجهه إلا غسله،و أمر أن يغسل اليدين إلى المرفقين،فليس له أن يدع من يديه إلى المرفقين شيئا إلا غسله-لأن الله يقول:« فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ-وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرٰافِقِ»، -ثم قال:

«وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»

-فإذا مسح بشيء من رأسه-أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع-فقد أجزأه.قال:فقلنا:أين الكعبان؟ قال:هنا يعني المفصل دون عظم الساق،فقلنا:هذا ما هو؟فقال:هذا من عظم الساق، و الكعب أسفل من ذلك،فقلنا:أصلحك الله و الغرفه الواحده تجزي للوجه-و غرفه للذراع؟قال:نعم إذا بالغت فيها،و اثنتان تأتيان على ذلك كله.

أقول:و الروايه من المشهورات،و رواها العياشي عن بكير و زراره عن أبي جعفر (ع)،و عن عبد الله بن سليمان عن أبي جعفر(ع)مثله،و في معناها و معنى الروايه السابقه روايات أخر.

في تفسير البرهان،العياشي عن زراره بن أعين،و أبو حنيفه عن أبي بكر بن حزم قال: توضأ رجل فمسح على خفيه فدخل المسجد فصلى-فجاء علي(ع)فوطأ على رقبته فقال:ويلك تصلي على غير وضوء؟فقال:أمرني عمر بن الخطاب-قال:فأخذ بيده فانتهى به إليه،فقال:انظر ما يروي هذا عليك،و رفع صوته،فقال:نعم أنا أمرته أن رسول الله مسح،قال:قبل المائده أو بعدها؟قال:لا أدري،قال:فلم تفتي و أنت

لا تدری؟سبق الکتاب الخفین.

أقول:و قد شاع علی عهد عمر الخلاف فی المسح علی الخفین و قول علی(ع)بکونه منسوخا بآیه المائده علی ما یظهر من الروایات،و لذلک روی عن بعضهم کالبراء و بلال و جریر بن عبد الله أنهم رووا عن النبی ص المسح علی الخفین بعد نزول المائده و لا یخلو من شیء فکأنه ظن أن النسخ إنما ادعی بأمر غیر مستند إلی الآیه،و لیس کذلک فإن الآیه إنما تثبت المسح علی القدمین إلی الکعبین و لیس الخف بقدم البته،و هذا معنی الروایه التالیه.

و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن أحمد الخراسانی-رفع الحدیث-قال: أتی أمیر المؤمنین(ع)رجل فسأله عن المسح علی الخفین-فأطرق فی الأرض ملیا ثم رفع رأسه فقال:إن الله تبارک و تعالی أمر عباده بالطهاره،و قسمها علی الجوارح فجعل للوجه منه نصیبا،و جعل للرأس منه نصیبا،و جعل للرجلین منه نصیبا،و جعل للیدین منه نصیبا- فإن کانتا خفاک من هذه الأجزاء فامسح علیهما

و فیه،أیضا عن الحسن بن زید عن جعفر بن محمد: أن علیا خالف القوم فی المسح علی الخفین-علی عهد عمر بن الخطاب قالوا:رأینا النبی ص یمسح علی الخفین-قال:فقال علی (ع): قبل نزول المائده أو بعدها؟فقالوا:لا ندری،قال:و لکنی أدری أن النبی ص-ترک المسح علی الخفین حین نزلت المائده،و لأن أمسح علی ظهر حمار-أحب إلی من أن أمسح علی الخفین،و تلا هذه الآیه:«یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا- -إلی قوله- اَلْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی الْکَعْبَیْنِ».

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و النحاس فی ناسخه عن علی: أنه کان یتوضأ عند کل صلاه و یقرأ:«یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاهِ» (الآیه).

أقول:و قد تقدم توضیحها.

و فی الکافی،بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)قال: سألته عن قول الله عز و جل:« أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ» قال:هو الجماع-و لکن الله ستیر یحب الستر فلم یسم کما تسمون.

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره قال: سألت أبا جعفر(ع)عن التیمم فقال:إن

عمار بن یاسر أتی النبی ص فقال:أجنبت و لیس معی ماء،فقال:کیف صنعت یا عمار؟قال:نزعت ثیابی ثم تمعکت علی الصعید فقال:هکذا یصنع الحمار إنما قال الله:

«فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ»

-ثم وضع یدیه جمیعا علی الصعید-ثم مسحهما ثم مسح من بین عینیه إلی أسفل حاجبیه،ثم دلک إحدی یدیه بالأخری علی ظهر الکف، بدأ بالیمین.

و فیه،عن زراره عن أبی جعفر(ع)قال: فرض الله الغسل علی الوجه و الذراعین و المسح علی الرأس و القدمین-فلما جاء حال السفر و المرض و الضروره-وضع الله الغسل و أثبت الغسل مسحا فقال:« وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ-أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ اَلْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ- إلی قوله- وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ».

و فیه،عن عبد الأعلی مولی آل سام قال: قلت لأبی عبد الله(ع)إنی عثرت فانقطع ظفری-فجعلت علی إصبعی مراره کیف أصنع بالوضوء؟قال:فقال(ع):یعرف هذا و أشباهه من کتاب الله تبارک و تعالی:« مٰا جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ» أقول:إشاره إلی آیه سوره الحج النافیه للحرج،و فی عدوله عن ذیل آیه الوضوء إلی ما فی آخر سوره الحج دلاله علی ما قدمناه من معنی نفی الحرج.و فیما نقلناه من الأخبار نکات جمه تتبین بما قدمناه فی بیان الآیات فلیتلق بمنزله الشرح للروایات.

[سوره المائده (۵): الآیات ۸ الی ۱۴]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوّٰامِینَ لِلّٰهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلیٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْویٰ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ خَبِیرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۸) وَعَدَ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۹) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلْجَحِیمِ (۱۰) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اُذْکُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ فَکَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ عَلَی اَللّٰهِ فَلْیَتَوَکَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ لَقَدْ أَخَذَ اَللّٰهُ مِیثٰاقَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اِثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً وَ قٰالَ اَللّٰهُ إِنِّی مَعَکُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ اَلصَّلاٰةَ وَ آتَیْتُمُ اَلزَّکٰاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِی وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُکَفِّرَنَّ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّکُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ فَمَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذٰلِکَ مِنْکُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ اَلسَّبِیلِ (۱۲) فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِیثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِیَةً یُحَرِّفُونَ اَلْکَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُکِّرُوا بِهِ وَ لاٰ تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلیٰ خٰائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاّٰ قَلِیلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اِصْفَحْ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُحْسِنِینَ (۱۳) وَ مِنَ اَلَّذِینَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰاریٰ أَخَذْنٰا مِیثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُکِّرُوا بِهِ فَأَغْرَیْنٰا بَیْنَهُمُ اَلْعَدٰاوَةَ وَ اَلْبَغْضٰاءَ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَةِ وَ سَوْفَ یُنَبِّئُهُمُ اَللّٰهُ بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ (۱۴)

(بیان)

اتصال الآيات ظاهر لا غبار عليه،فإنها سلسله خطابات للمؤمنين فيما يهمهم من كليات أمورهم فى آخرتهم و دنياهم منفردين و مجتمعين.

قوله تعالى :«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاّ تَعْدِلُوا» الآيه نظيره الآيه التى فى سوره النساء «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» :(النساء:۱۳۵).

ص :۲۳۶

و إنما الفرق بين الآيتين أن آيه النساء فى مقام النهى عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لاتباع الهوى بأن يهوى الشاهد المشهود له لقرابه و نحوها،فيشهد له بما ينتفع به على خلاف الحق،و هذه الآيه-أعنى آيه المائده-فى مقام الردع عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لشنآن و بغض من الشاهد للمشهود عليه،فيقيم الشهاده عليه يريد بها نوع انتقام منه و دحض لحقه.

و هذا الاختلاف فى غرض البيان هو الذى أوجب اختلاف القيود فى الآيتين:فقال فى آيه النساء:« كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ» و فى آيه المائده:« كُونُوا قَوّٰامِينَ لِلّٰهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ .

و ذلک أن الغرض فى آيه المائده لما كان هو الردع عن الظلم فى الشهاده لسابق عداوه من الشاهد للمشهود عليه قيد الشهاده بالقسط،فأمر بالعدل فى الشهاده و أن لا يشتمل على ظلم حتى على العدو بخلاف الشهاده لأحد بغير الحق لسابق حب و هوى،فإنها لا تعد ظلما فى الشهاده و انحرافا عن العدل و إن كانت فى الحقيقه لا تخلو عن ظلم و حيف،و لذلک أمر فى آيه المائده بالشهاده بالقسط،و فرعه على الأمر بالقيام لله،و أمر فى آيه النساء بالشهاده لله أى أن لا يتبع فيها الهوى،و فرعه على الأمر بالقيام بالقسط.

و لذلک أيضا فرع فى آيه المائده على الأمر بالشهاده بالقسط قوله:« اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ» فدعا إلى العدل،و عده ذريعه إلى حصول التقوى،و عكس الأمر فى آيه النساء ففرع على الأمر بالشهاده لله قوله:« فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا» فنهى عن اتباع الهوى و ترک التقوى،و عده وسيله سيئه إلى ترک العدل.

ثم حذر فى الآيتين جميعا فى ترک التقوى تحذيرا واحدا فقال فى آيه النساء:« وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» أى إن لم تتقوا،و قال فى آيه المائده:

«وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ»

و أما معنى القوامين لله شهداء بالقسط(إلخ)فقد ظهر فى الكلام على الآيات السابقه.

قوله تعالى:« اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ»، الضمير راجع إلى العدل المدلول عليه بقوله:« اِعْدِلُوا» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» الجمله الثانيه أعنى قوله:« لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، إنشاء للوعد الذى أخبر عنه بقوله:« وَعَدَ اللّٰهُ»،

و هـذا كما قيل:آكد بيانا من قوله:« وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» :(الفتح:٢٩)لا لما قيل:إنه لكونه خبرا،بعد خبر فإن ذلک خطأ، بل لکونه تصريحا بإنشاء الوعد من غير أن يدل عليه ضمنا کآيه سوره الفتح.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» قال الراغب:

الجحمه شـده تأجـج النار و منه الجحيم،و الآيه تشـتمل على نفس الوعيـد،و تقابل قوله تعالى فى الآيه السابقه:« لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» .

و تقييـد الكفر بتكـذيب الآيـات للاـحتراز عن الكفر الـذى لا يقارن تكـذيب الآيات الـداله،و لا ينتهى إلى إنكار الحق مع العلم بكونه حقا كما فى صوره الاستضعاف،فإن أمره إلى الله إن يشأ يغفره و إن يشأ يعذب عليه فهاتان الآيتان وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحـات،و إيعـاد شديـد للـذين كفروا و كـذبوا بآيـات الله،و بين المرحلتين مراحـل متوسـطه و منازل متخلله أبهم الله سبحانه أمرها و عقباها.

قوله تعـالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا» (إلـخ)هـذا المضـمون يقبل الانطباق على وقائع متعـدده مختلفه وقعت بين الكفار و المسـلمين كغزوات بـدر و أحـد و الأحزاب و غير ذلك،فالظاهر أن المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين و إمحاء أثر الإسلام و دين التوحيد.

و مـا ذكره بعض المفسـرين أن المراد به مـا هم بعض المشـركين من قتـل النـبى ص أو مـا هم به بعض اليهـود من الفتـک به-و سيجىء قصتهما-فبعيد من ظاهر اللفظ كما لا يخفى.

قوله تعـالى:« وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» أمر بالتقوى و التوكل على الله،و المراد بالحقيقه النهى و التحـذير الشـديد عن ترک التقوى و ترک التوكل على الله سبحانه،و الدليل على ذلک ما سرده تعالى من قصه أخذ الميثاق من بنى إسرائيل و من الذين قالوا إنا نصارى،ثم نقض الطائفتين الميثاق الإلهى و ابتلاء الله إياهم باللعن و تقسيه القلوب،و نسيان حظ من دينهم،و إغراء العداوه و البغضاء بينهم إلى يوم القيامه.

و لم يذكر القصه إلا ليستشـهد بها على المؤمنين،و يجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها و ينتبهوا بأن اليهود و النصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به لنسـيانهم ميثـاق الله سـبحانه و لم يكن إلاـ ميثاقا بالإسـلام لله،واثقوه بالسـمع و الطاعه،و كان لازم ذلک أن يتقوا مخالفه ربهم

و أن يتوكلوا عليه فى أمور دينهم أى يتخذوه وكيلا فيها يختارون ما يختاره لهم،و يتركون ما يكرهه لهم،و طريقه طاعه رسلهم بالإيمان بهم،و ترک متابعه غير الله و رسله،ممن يدعو إلى نفسه و الخضوع لأمره من الجبابره و الطغاه و غيرهم حتى الأحبار و الرهبان فلا طاعه إلا لله أو من أمر بطاعته.

لكنهم نبذوه وراءهم ظهريا فأبعدوا من رحمه الله و حرفوا الكلم عن مواضعه و فسروها بغير ما أريد بها فأوجب ذلک أن نسوا حظا من الدين و لم يكن إلا حظا و سهما يرتحل بارتحاله عنهم كل خير و سعاده و أفسد ذلک ما بقى بأيديهم من الدين فإن الدين مجموع من معارف و أحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد بعضه بفساد بعض آخر سيما الأركان و الأصول و ذلک كمن يصلى لكن لا لوجه الله،أو ينفق لا لمرضاه الله،أو يقاتل لا لإعلاء كلمه الحق.

فلا ما بقى فى أيديهم نفعهم،إذ كان محرفا فاسدا،و لا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه،و لا غنى عن الدين و لا سيما أصوله و أركانه.

فمن هنا يعلم أن المقام يقتضى أن يحذر المؤمنون عن مخالفه التقوى و ترک التوكل على الله بذكر هذه القصه و دعوتهم إلى الاعتبار بها.

و من هنا يظهر أيضا:أن المراد بالتوكل ما يشمل الأمور التشريعيه و التكوينيه جميعا أو ما يختص بالتشريعيات بمعنى أن الله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يطيعوا الله و رسوله فى أحكامه الدينيه و ما أتاهم به و بينه لهم رسوله و يكلوا أمر الدين و القوانين الإلهيه إلى ربهم،و يكفوا عن الاستقلال بأنفسهم،و التصرف فيما أودعه عندهم من شرائعه كما يأمرهم أن يطيعوه فيما سن لهم من سنه الأسباب و المسببات فيجروا على هذه السنه من غير اعتماد بها و إعطاء استقلال و ربوبيه لها،و ينتظروا ما يريده الله و يختاره لهم من النتائج بتدبيره و مشيئته.

قوله تعالى :«وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً» (الآيه) قال الراغب: النقب فى الحائط و الجلد كالثقب فى الخشب.قال:و النقيب الباحث عن القوم و عن أحوالهم،و جمعه نقباء.

و الله سبحانه يقص على المؤمنين من هذه الأمه ما جرى على بنى إسرائيل من إحكام دينهم و تثبيت أمرهم بأخذ الميثاق،و بعث النقباء،و إبلاغ البيان،و إتمام الحجه ثم ما

قابلوه به من نقض الميثاق،و ما قابلهم به الله سبحانه من اللعن و تقسيه القلوب(إلخ).

فقال:« وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ» و هو الذى يذكره كثيرا فى سوره البقره و غيرها:« وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً» و الظاهر أنهم رؤساء الأسباط الاثنى عشر، كانوا كالولاه عليهم يتولون أمورهم فنسبتهم إلى أسباطهم بوجه كنسبه أولى الأمر إلى الأفراد فى هذه الأمه لهم المرجعيه فى أمور الدين و الدنيا غير أنهم لا يتلقون وحيا،و لا يشرعون شريعه و إنما ذلك إلى الله و رسوله «وَ قالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ» إيذان بالحفظ و المراقبه فيتفرع عليه أن ينصرهم إن أطاعوه و يخذلهم إن عصوه و لذلك ذكر الأمرين جميعا فقال:« لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ» و التعزير هو النصره مع التعظيم، و المراد بالرسل ما سيستقبلهم ببعثته و دعوته كعيسى و محمد(ع)و سائر من بعثه الله بين موسى و محمد(ع) «وَ أَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً» و هو الإنفاق المندوب دون الزكاه الواجبه «لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» فهذا ما يرجع إلى جميل الوعد. ثم قال:« فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ» .

قوله تعالى:« فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً»، ذكر تعالى جزاء الكفر بالميثاق المذكور ضلال سواء السبيل،و هو ذكر إجمالى يفصله ما فى هذه الآيه من أنواع النقم التى نسب الله سبحانه بعضها إلى نفسه كاللعن و تقسيه القلوب مما تستقيم فيه النسبه،و بعضها إلى أنفسهم مما وقع باختيارهم كالذى يعنى بقوله:« وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ» فهذا كله جزاؤهم بما كفروا بآيات الله التى على رأسها الميثاق المأخوذ منهم، أو جزاء كفرهم بالميثاق خاصه فإن سواء السبيل الذى ضلوه هو سبيل السعاده التى بها عماره دنياهم و أخراهم.

فقوله:« فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ» الظاهر أنه هو الكفر الذى توعد الله عليه فى الآيه السابقه،و لفظه«ما»فى قوله:« فَبِما» للتأكيد،و يفيد الإبهام لغرض التعظيم أو التحقير أو غيرهما،و المعنى:فبنقض ما منهم لميثاقهم «لَعَنّاهُمْ» و اللعن هو الإبعاد من الرحمه «وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً» و قسوه القلب مأخوذ من قسوه الحجاره و هى صلابتها و القسي من القلوب ما لا يخشع لحق و لا يتأثر برحمه،قال تعالى :«أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» :(الحديد:۱۶).

و بالجمله عقبت قسوه قلوبهم أنهم عادوا «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» بتفسيرها بما لا يرضى به الله سبحانه و بإسقاط أو زياده أو تغيير،فكل ذلك من التحريف،و أفضاهم ذلك إلى أن فاتهم حقائق ناصعه من الدين« وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» و لم يكن إلا حظا من الأصول التى تدور على مدارها السعاده،و لا يقوم مقامها إلا ما يسجل عليهم الشقوه اللازمه كقولهم بالتشبيه،و خاتميه نبوه موسى،و دوام شريعه التوراه،و بطلان النسخ و البداء إلى غير ذلك.

«وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ»

أى على طائفه خائنه منهم،أو على خيانه منهم «إِلاّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» و قد تقدم مرارا أن استثناء القليل منهم لا ينافى ثبوت اللعن و العذاب للجماعه التى هى الشعب و الأمه (1)قوله تعالى:« وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا» ، قال الراغب: غرى بكذا أى لهج به و لصق،و أصل ذلك من الغراء و هو ما يلصق به،و أغريت فلانا بكذا نحو ألهجت به.

و قد كان المسيح عيسى بن مريم نبى رحمه يدعو الناس إلى الصلح و السلم،و يندبهم إلى الإشراف على الآخره،و الإعراض عن ملاذ الدنيا و زخارفها،و ينهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى (2)فلما نسوا حظا مما ذكروا به أثبت الله سبحانه فى قلوبهم مكان السلم و الصلح حربا،و بدل المؤاخاه و المواده التى ندبوا إليها معاداه و مباغضه كما يقول:

«فَنَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»

.و هذه العداوه و البغضاء اللتان ذكرهما الله تعالى صارتا من الملكات الراسخه المرتكزه بين هؤلاء الأمم المسيحيه و كالنار الآخره التى لا مناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

١- ١) و من عجيب القول ما فى بعض التفاسير أن المراد بالقليل عبد الله بن سلام و أصحابه مع أن عبد الله بن سلام كان قد أسلم قبل نزول السوره بمده،و ظاهر الآيه استثناء بعض اليهود الذين لم يكونوا قد أسلموا إلى حين نزول الآيه.

٢- ٢) راجع فى ذلك إلى بيانات المسيح ع فى مختلف مواقفه المنقوله عنه فى الأناجيل الأربعه.

و لم یزل منذ رفع عیسی بن مریم(ع)،و اختلف حواریوه و الدعاه السائحون من تلامذتهم فیما بینهم نشب الاختلاف فیما بینهم،و لم یزل ینمو و یکثر حتی تبدل إلی الحروب و المقاتلات و الغارات و أنواع الشرد و الطرد و غیر ذلک حتی انتهی إلی حروب عالمیه کبری تهدد الأرض بالخراب و الإنسانیه بالفناء و الانقراض.

کل ذلک من تبدل النعمه نقمه و إنتاج السعی ضلالا «وَ سَوْفَ یُنَبِّئُهُمُ اللّٰهُ بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ .

[سوره المائده (۵): الآیات ۱۵ الی ۱۹]

اشاره

یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ قَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولُنٰا یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمّٰا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ اَلْکِتٰابِ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ قَدْ جٰاءَکُمْ مِنَ اَللّٰهِ نُورٌ وَ کِتٰابٌ مُبِینٌ (۱۵) یَهْدِی بِهِ اَللّٰهُ مَنِ اِتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ اَلسَّلاٰمِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَی اَلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۶) لَقَدْ کَفَرَ اَلَّذِینَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْمَسِیحُ اِبْنُ مَرْیَمَ قُلْ فَمَنْ یَمْلِکُ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ یُهْلِکَ اَلْمَسِیحَ اِبْنَ مَرْیَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً وَ لِلّٰهِ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۷) وَ قٰالَتِ اَلْیَهُودُ وَ اَلنَّصٰاریٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اَللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ قُلْ فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ وَ لِلّٰهِ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ إِلَیْهِ اَلْمَصِیرُ (۱۸) یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ قَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولُنٰا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلیٰ فَتْرَهٍ مِنَ اَلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا مِنْ بَشِیرٍ وَ لاٰ نَذِیرٍ فَقَدْ جٰاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۹)

ص: ۲۴۲

(بيان)

لما ذكر تعالى أخذه الميثاق من أهل الكتاب على نصره رسله و تعزيرهم و على حفظ ما آتاهم من الكتاب ثم نقضهم ميثاقه تعالى الذى واثقهم به دعاهم إلى الإيمان برسوله الذى أرسله و كتابه الذى أنزله،بلسان تعريفهما لهم و إقامه البينه على صدق الرساله و حقيه الكتاب،و إتمام الحجه عليهم فى ذلك:

أما التعريف فهو الذى يشتمل عليه قوله:« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً» (إلخ)،و قوله:« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ» (إلخ).

و أما إقامه البينه فما فى قوله:« يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ» (إلخ)فإن ذلك نعم الشاهد على صدق الرساله من أمى يخبر بما لا سبيل إليه إلا للأخصاء من علمائهم،و كذا قوله:« يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ» (إلخ)فإن المطالب الحقه التى لا غبار على حقيتها هى نعم الشاهد على صدق الرساله و حقيه الكتاب.

و أما إتمام الحجه فما يتضمنه قوله :«أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .و قد رد الله تعالى عليهم فى ضمن الآيات قول البعض:« إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» و قول اليهود و النصارى.« نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ».

قوله تعالى:« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أما بيانه كثيرا كانوا يخفون من الكتاب فكبيانه آيات النبوه و بشاراتها كما يشير إليه قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ»: Xالآيه X(الأعراف:١٥٧)و قوله تعالى:« يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» Xالآيه X:(البقره:١۴۶)و قوله:« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ -Xإلى قوله-X ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ»

Xالآيه X:الفتح:۲۹)و كبيانه(ص)حكم الرجل الذى كتموه و كابروا فيه الحق على ما يشير إليه قوله تعالى فيما سيأتى: « لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ» Xالآيات X:(المائده:۴۱)و هذا الحكم أعنى حكم الرجم موجود الآن فى الإصحاح الثانى و العشرين من سفر التثنيه من التوراه الدائره بينهم.

و أما عفوه عن كثير فهو تركه كثيرا مما كانوا يخفونه من الكتاب،و يشهد بذلك الاختلاف الموجود فى الكتابين،كاشتمال التوراه على أمور فى التوحيد و النبوه لا يصح استنادها إليه تعالى كالتجسم و الحلول فى المكان و نحو ذلك،و ما لا يجوز العقل نسبته إلى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر و الفجور و الزلات،و كفقدان التوراه ذكر المعاد من رأس و لا يقوم دين على ساق إلا بمعاد،و كاشتمال ما عندهم من الأناجيل و لا سيما إنجيل يوحنا على عقائد الوثنيه.

قوله تعالى:« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ» ظاهر قوله:« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ» كون هذا الجائى قائما به تعالى نحو قيام البيان أو الكلام بالمبين و المتكلم و هذا يؤيد كون المراد بالنور هو القرآن،و على هذا فيكون قوله:« وَ كِتَابٌ مُبِينٌ» معطوفا عليه عطف تفسير،و المراد بالنور و الكتاب المبين جميعا القرآن،و قد سمى الله تعالى القرآن نورا فى موارد من كلامه كقوله تعالى:« وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ» :(الأعراف:

۱۵۷)و قوله:« فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا» :(التغابن:۸)و قوله:

«وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» :(النساء:۱۷۴).

و من المحتمل أن يكون المراد بالنور النبى ص على ما ربما أفاده صدر الكلام فى الآيه،و قد عده الله تعالى نورا فى قوله:« وَ سِرَاجاً مُنِيراً» :(الأحزاب:۴۶).

قوله تعالى:« يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ» الباء فى قوله:« بِهِ» للآله و الضمير عائد إلى الكتاب أو إلى النور سواء أريد به النبى ص أو القرآن فمآل الجميع واحد فإن النبى ص أحد الأسباب الظاهريه فى مرحله الهدايه،و كذا القرآن و حقيقه الهدايه قائمه به قال تعالى:« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ»:

(القصص:۵۶)،و قال:« وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِراطِ اللّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» (الشوری:۵۳)و الآیات کما تری تنسب الهدایه إلی القرآن و إلی الرسول ص فی عین أنها ترجعها إلی الله سبحانه فهو الهادی حقیقه و غیره سبب ظاهری مسخر لإحیاء أمر الهدایه.

و قد قید تعالی قوله:« يَهْدِي بِهِ اللّهُ» بقوله:« مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ» و یئول إلی اشتراط فعلیه الهدایه الإلهیه باتباع رضوانه،فالمراد بالهدایه هو الإیصال إلی المطلوب، و هو أن یورده الله تعالی سبیلا من سبل السلام أو جمیع السبل أو أکثرها واحدا بعد آخر.

و قد أطلق تعالی السلام فهو السلامه و التخلص من کل شقاء یختل به أمر سعاده الحیاه فی دنیا أو آخره،فیوافق ما وصف القرآن الإسلام لله و الإیمان و التقوی بالفلاح و الفوز و الأمن و نحو ذلک،و قد تقدم فی الکلام علی قوله تعالی:« اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» :(الحمد:۶)فی الجزء الأول من الکتاب أن لله سبحانه بحسب اختلاف حال السائرین من عباده سبلا کثیره تتحد الجمیع فی طریق واحد منسوب إلیه تعالی یسمیه فی کلامه بالصراط المستقیم قال تعالی:« وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» :(العنکبوت:۶۹)،و قال تعالی:« وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» : (الأنعام:۱۵۳)فدل علی أن له سبلا کثیره لکن الجمیع تتحد فی الإیصال إلی کرامته تعالی من غیر أن تفرق سالکیها و یبین کل سبیل سالکیه عن سالکی غیره من السبل کما هو شأن غیر صراطه تعالی من السبل.

فمعنی الآیه-و الله العالم-:یهدی الله سبحانه و یورد بسبب کتابه أو بسبب نبیه من اتبع رضاه سبلا من شأنها أنه یسلم من سار فیها من شقاء الحیاه الدنیا و الآخره، و کل ما تتکدر به العیشه السعیده.

فأمر الهدایه إلی السلام و السعاده یدور مدار اتباع رضوان الله،و قد قال تعالی:

«وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ» :(الزمر:۷)،و قال:« فَإِنَّ اللّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ»:

(التوبه:۹۶)و یتوقف بالآخره علی اجتناب سبیل الظلم و الانخراط فی سلک الظالمین، و قد نفی الله سبحانه عنهم هدایته و آیسهم من نیل هذه الکرامه الإلهیه بقوله:« وَ اللّهُ

لاّ يَهْـدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» :(الجمعه:۵)فالآـيه أعنى قوله:« يَهْـدِى بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُـبُلَ السَّلاٰـمِ» تجرى بوجه مجرى قوله:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» :(الأنعام:۸۲).

قوله تعـالى :«وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ» فى جمع الظلمات و إفراد النور إشاره إلى أن طريق الحق لا اختلاف فيه و لا تفرق و إن تعددت بحسب المقامات و المواقف بخلاف طريق الباطل.

و الإـخراج من الظلمات إلى النور إذا نسب إلى غيره تعالى كنبى أو كتاب فمعنى إذنه تعالى فيه إجازته و رضاه كما قال تعالى:« كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» :(إبراهيم:۱)فقيد إخراجه إياهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ليخرج بذلك عن الاستقلال فى السببيه فإن السبب الحقيقى لذلك هو الله سبحانه و قال:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» :(إبراهيم:۵) فلم يقيده بالإذن لاشتمال الأمر على معناه.

و إذا نسب ذلك إلى الله تعالى فمعنى إخراجهم بإذنه إخراجهم بعلمه و قد جاء الإذن بمعنى العلم يقال: أذن به أى علم به،و من هـذا البـاب قوله تعـالى:« وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ» :(التوبه:۳) «فَقُـلْ آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَواءٍ» :(الأنبياء:۱۰۹)،و قوله:« وَ أَذِّنْ فِى النّاسِ بِالْحَجِّ» :(الحج:۲۷)إلى غيرها من الآيات.

و أما قوله تعالى :«وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، فقد أعيد فيه لفظ الهدايه لحيلوله قوله:« وَ يُخْرِجُهُمْ»، بين قوله «يَهْدِى بِهِ اللّهُ»، و بين هذه الجمله،و لأن الصراط المستقيم كما تقدم بيانه فى سوره الفاتحه طريق مهيمن على الطرق كلها فالهدايه إليه أيضا هدايه مهيمنه على سائر أقسام الهدايه التى تتعلق بالسبل الجزئيه.

و لا ينافى تنكير قوله:« صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» كون المراد به هو الصراط المستقيم الوحيد الذى نسبه الله تعالى فى كلامه إلى نفسه-إلا فى سوره الفاتحه-لأن قرينه المقام تدل على ذلك،و إنما التنكير لتعظيم شأنه و تفخيم أمره.

قوله تعالى:« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» هؤلاء إحدى الطوائف الثلاثه التى تقدم نقل أقوالهم فى سوره آل عمران،و هى القائله باتحاد الله سبحانه

بالمسیح فهو إله و بشر بعینه،و یمکن تطبیق الجمله أعنی قولهم :«إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ» علی القول بالبنوه و علی القول بثالث ثلاثه أیضا غیر أن ظاهر الجمله هو حصول العینیه بالاتحاد.

قوله تعالی:« قُلْ فَمَنْ یَمْلِکُ مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ یُهْلِکَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ»وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً» (الآیه)هذا برهان علی إبطال قولهم:من جهه مناقضه بعضه بعضا لأنهم لما وضعوا أن المسیح مع کونه إلها بشر کما وصفوه بأنه ابن مریم جوزوا له ما یجوز علی أی بشر مفروض من سکان هذه الأرض،و هم جمیعا کسائر أجزاء السماوات و الأرض و ما بینهما مملوکون لله تعالی مسخرون تحت ملکه و سلطانه،فله تعالی أن یتصرف فیهم بما أراد،و أن یحکم لهم أو علیهم کیفما شاء،فله أن یهلک المسیح کما له أن یهلک أمه و من فی الأرض علی حد سواء من غیر مزیه للمسیح علی غیره،و کیف یجوز الهلاک علی الله سبحانه؟!فوضعهم أن المسیح بشر یبطل وضعهم أنه هو الله سبحانه للمناقضه.

فقوله:« فَمَنْ یَمْلِکُ مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً» کنایه عن نفی المانع مطلقا فملک شیء من الله هو السلطنه علیه تعالی فی بعض ما یرجع إلیه،و لازمها انقطاع سلطنته عن ذلک الشیء، و هو أن یکون سبب من الأسباب یستقل فی التأثیر فی شیء بحیث یمانع تأثیره تعالی أو یغلب علیه فیه،و لا ملک إلا لله وحده لا شریک له إلا ما ملک غیره تملیکا لا یبطل ملکه و سلطانه.

و قوله:« إِنْ أَرٰادَ أَنْ یُهْلِکَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً» إنما قید المسیح بقوله :«ابْنُ مَرْیَمَ» للدلاله علی کونه بشرا تاما واقعا تحت التأثیر الربوبی کسائر البشر،و لذلک بعینه عطف علیه «أُمَّهُ» لکونها مسانخه له من دون ریب،و عطف علیه «مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً» لکون الحکم فی الجمیع علی حد سواء.

و من هنا یظهر أن فی هذا التقیید و العطف تلویحا إلی برهان الإمکان،و محصله أن المسیح یماثل غیره من أفراد البشر کأمه و سائر من فی الأرض فیجوز علیه ما یجوز علیهم لأن حکم الأمثال فیما یجوز و فیما لا یجوز واحد،و یجوز علی غیره أن یقع تحت حکم الهلاک فیجوز علیه ذلک و لا مانع هناک یمنع،و لو کان هو الله سبحانه لما جاز علیه ذلک.

و قوله:« وَ لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا» فی مقام التعلیل للجمله السابقه،

و التصريح بقوله:« وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» مع أن القرآن كثيرا ما يعبر عن عالم الخلقه بالسماوات و الأرض فقط إنما هو ليكون الكلام أقرب من التصريح،و أسلم من ورود التوهمات و الشبهات فليس لمتوهم أن يتوهم أنه إنما ذكر السماوات و الأرض و لم يذكر ما بينهما، و مورد الكلام مما بينهما.

و تقديم الخبر أعنى قوله:« وَ لِلّٰهِ» للدلاله على الحصر،و بذلك يتم البيان،و المعنى:

كيف يمكن أن يمنع مانع من إرادته تعالى إهلاك المسيح و غيره و وقوع ما أراده من ذلك، و الملك و السلطنه المطلقه فى السماوات و الأرض و ما بينهما لله تعالى لا ملك لأحد سواه؟ فلا مانع من نفوذ حكمه و مضى أمره.

و قوله:« يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فى مقام التعليل للجمله السابقه عليه أعنى قوله:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» فإن الملك -بضم الميم-و هو نوع سلطنه و مالكيه على سلطنه الناس و ما يملكونه إنما يتقوم بشمول القدره و نفوذ المشيئه، و لله سبحانه ذلك فى جميع السماوات و الأرض و ما بينهما،فله القدره على كل شىء و هو يخلق ما يشاء من الأشياء فله الملك المطلق فى السماوات و الأرض و ما بينهما فخلقه ما يشاء و قدرته على كل شىء هو البرهان على ملكه كما أن ملكه هو البرهان على أن له أن يريد إهلاك الجميع ثم يمضى إرادته لو أراد،و هو البرهان على أنه لا يشاركه أحد منهم فى ألوهيته.

و أما البرهان على نفوذ مشيته و شمول قدرته فهو أنه الله عز اسمه،و لعله لذلك كرر لفظ الجلاله فى الآيه مرات فقد آل فرض الألوهيه فى شىء إلى أنه لا شريك له فى ألوهيته.

قوله تعالى:« وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» لا ريب أنهم لم يكونوا يدعون النبوه الحقيقيه كما يدعيه معظم النصارى للمسيح(ع)فلا اليهود كانت تدعى ذلك حقيقه و لا النصارى،و إنما كانوا يطلقونها على أنفسهم إطلاقا تشريفيا بنوع من التجوز،و قد ورد فى كتبهم المقدسه هذا الإطلاق كثيرا كما فى حق آدم (۱)و يعقوب (۲)و داود (۳)

۱- ۱) آيه ۳۸ من الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا.

۲- ۲) آيه ۲۲ من الإصحاح الرابع من سفر الخروج من التوراه.

۳- ۳) آيه ۷ من المزمور ۲ من مزامير داود.

و إقرام (۱)و عیسی (۲)و أطلق (۳)أیضا علی صلحاء المؤمنین.

و کیف کان فإنما أرید بالأبناء أنهم من الله سبحانه بمنزله الأبناء من الأب،فهم بمنزله أبناء الملک بالنسبه إلیه المنحازین عن الرعیه المخصوصین بخصیصه القرب المقتضیه أن لا یعامل معهم معامله الرعیه کأنهم مستثنون عن إجراء القوانین و الأحکام المجراه بین الناس لأن تعلقهم بعرش الملک لا یلائم مجازاتهم بما یجازی به غیرهم و لا إیقافهم موقفا توقف فیه سائر الرعیه،فلا یستهان بهم کما یستهان بغیرهم فکل ذلک لما تتعقبه علقه النسب من علقه الحب و الکرامه.

فالمراد بهذه النبوه الاختصاص و التقرب،و یکون عطف قوله:« وَ أَحِبّٰاؤُهُ» علی قوله:« أَبْنٰاءُ اللّٰهِ» کعطف التفسیر و لیس به حقیقه،و غرضهم من دعوی هذا الاختصاص و المحبوبیه إثبات لازمه و هو أنه لا سبیل إلی تعذیبهم و عقوبتهم فلن یصیروا إلا إلی النعمه و الکرامه لأن تعذیبه تعالی إیاهم یناقض ما خصهم به من المزیه،و حباهم به من الکرامه.

و الدلیل علیه ما ورد فی الرد علیهم من قوله تعالی:« یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ»، إذ لو لا أنهم کانوا یریدون بقولهم:« نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» أنه لا سبیل إلی عذابهم و إن لم یستجیبوا الدعوه الحقه لم یکن وجه لذکر هذه الجمله:« یَغْفِرُ»، ردا علیهم و لا لقوله:« بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» موقع حسن مناسب فمعنی قولهم:« نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» أنا خاصه الله و محبوبوه لا سبیل له تعالی إلی تعذیبنا و إن فعلنا، ما فعلنا و ترکنا ما ترکنا لأن انتفاء السبیل و وقوع الأمن التام من کل مکروه و محذور هو لازم معنی الاختصاص و الحب.

قوله تعالی:« قُلْ فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ» أمر نبیه بالاحتجاج علیهم و رد دعواهم بالحجه،و تلک حجتان:إحداهما:النقض علیهم بالتعذیب الواقع علیهم،و ثانیتهما:

معارضتهم بحجه تنتج نقیض دعواهم.

و محصل الحجه الأولی التی یشتمل علیها قوله:« فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ» أنه لو

۱- ۱) آیه ۹ من الإصحاح ۳۱ من نبوه إرمیا.

۲- ۲) موارد کثیره من الأناجیل و ملحقاتها.

۳- ۳) آیه ۹ من الإصحاح ۵ إنجیل متی،و فی غیره من الأناجیل.

صحت دعواكم أنكم أبناء الله و أحباؤه مأمونون من التعـذيب الإلهى لا سبيل إليه فيكم لكنتم مأمونين من كل عذاب أخروى أو دنيوى فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمر فيكم بسبب ذنوبكم؟فأما اليهود فلم تزل تذنب ذنوبا كقتلهم أنبياءهم و الصالحين من شعبهم و تفجر بنقض المواثيق الإلهيه المأخوذه منهم،و تحريف الكلم عن مواضعه و كتمان آيات الله و الكفر بها و كل طغيان و اعتداء،و تذوق وبال أمرها نكالا عليها من مسخ بعضهم و ضرب الذله و المسكنه على آخرين،و تسلط الظالمين عليهم يقتلون أنفسهم و يهتكون أعراضهم و يخربون بلادهم،و ما لهم من العيش إلا عيشه الحرض الذى لا هو حى فيرجى و لا ميت فينسى.

و أما النصارى فلا فساد المعاصى و الذنوب الواقعه فى أممهم يقل مما كان من اليهود، و لا أنواع العذاب النازل عليهم قبل البعثه و فى زمانها و بعدها حتى اليوم،فهو ذا التاريخ يحفظ عليهم جميع ذلك أو أكثرها،و القرآن يقص من ذلك شيئا كثيرا كما فى سوره البقره و آل عمران و النساء و المائده و الأعراف و غيرها.

و ليس لهؤلاء أن يقول:هذه المصائب و البلايا و الفتن النازله بنا إنما هى من قبيل «البلاء للولاء»و لا دليل على كونها عن سخط إلهى يسحب نكالا و وبالا و قد نزل أمثالها على صالحى عباد الله من الأنبياء و الرسل كإبراهيم و إسماعيل و يعقوب و يوسف و زكريا و يحيى و غيرهم،و نزل عليكم معاشر المسلمين نظائرها كما فى غزوه أحد و مؤته و غيرهما، فما بال هذه المكاره إذا حلت بنا عدت أعذبه إلهيه و إذا حلت بكم عادت نعما و كرامات؟ و ذلك أنه لا ريب لأحد أن هذه المكاره الجسمانيه و المصائب و البلايا الدنيويه توجد عند المؤمنين كما توجد عند الكافرين،و تأخذ الصالحين و الطالحين معا،سنه الله التى قد خلت فى عباده إلا أنها تختلف عنوانا و أثرا باختلاف موقف الإنسان من الصلاح، و الطلاح مقام العبد من ربه.

فلا ريب أن من استقر الصلاح فى نفسه و تمكنت الفضيله الإنسانيه من جوهره كالأنبياء الكرام و من يتلوهم لا تؤثر المصائب و المحن الدنيويه النازله عليه إلا فعليه الفضائل الكامنه فى نفسه مما ينتفع به و بآثاره الحسنه هو و غيره فهذا النوع من المحن المشتمله على ما يستكرهه الطبع ليس إلا تربيه إلهيه و إن شئت فقل ترفيعا للدرجه.

و من لم يثبت على سعاده أو شقاوه و لم يركب طريق السعاده اللازمه بعد إذا نزلت به النوازل و دارت عليه الدوائر عقبت تعين طريقه و تميز موقفه من كفر أو إيمان،و صلاح أو طلاح،و لا ينبغى أن يسمى هذا النوع من البلايا و المحن إلا امتحانات و ابتلاءات إلهيه تخد للإنسان خده إلى الجنه أو إلى النار.

و من لم يعتمد فى حياته إلا على هوى النفس و لم يألف إلا الفساد و الإفساد و الانغمار فى لجج الشهوه و الغضب،و لم يزل يختار الرذيله على الفضيله،و الاستعلاء على الله على الخضوع للحق كما يقصه القرآن من عاقبه أمر الأمم الظالمه كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم فرعون و أصحاب مدين و قوم لوط،إثر ما فرطوا فى جنب الله.فالنوائب المنصبه عليهم المبيده لجمعهم لا يستقيم إلا أن تعد تعذيبات إلهيه و نكالات و وبالات عليهم لا غير.

و قد جمع الله تعالى هذه المعانى فى قوله عز من قائل:« وَ تِلْكَ الْأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ وَ لِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ» :(آل عمران:١۴١).

و تاريخ اليهود من لدن بعثه موسى(ع)إلى أن بعث الله محمدا ص-فيما يزيد على ألفى سنه-و كذا تاريخ النصارى من لدن رفع المسيح إلى ظهور الإسلام-فيما يقرب من سته قرون على ما يقال-مملوء من أنواع الذنوب التى أذنبوها،و جرائم ارتكبوها، و لم يبقوا منها باقيه ثم أصروا و استكبروا من غير ندم،فالنوائب الحاله بساحتهم لا تستحق إلا اسم العذاب و النكال.

و أما أن المسلمين ابتلوا بأمثال ما ابتليت به هؤلاء الأمم فهذه الابتلاءات بالنظر إلى طبيعتها الكونيه ليست إلا حوادث ساقتها يد التدبير الإلهى سنه الله التى قد خلت من قبل و لن تجد لسنه الله تبديلا،و بالنظر إلى حال المسلمين المبتلين بها فيما كانوا على طريق الحق لم تكن إلا امتحانات إلهيه،و فيما انحرفوا عنه من قبيل النكال و العذاب،و ليس لأحد على الله كرامه،و لا لمتحكم عليه حق و لم يثبت القرآن لهم على ربهم كرامه،و لا عدهم أبناء الله و أحباءه،و لا اعتنى بما تسموا به من أسماء أو ألقاب.

قال تعالى مخاطبا لهم:« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ -Xإلى أن قال-X وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقَابِكَمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِى اللّهُ الشّاكِرِينَ» :(آل عمران:۱۴۴)و قال تعالى:« لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً» :(النساء:۱۲۳).

و فى الآيه أعنى قوله:« قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» وجه آخر و هو أن يكون المراد بالعذاب الأخروى،و المضارع (يُعَذِّبُكُمْ) بمعنى الاستقبال دون الاستمرار كما فى الوجه السابق فإن أهل الكتاب معترفون بالعذاب بحذاء ذنوبهم فى الجمله:أما اليهود فقد نقل القرآن عنهم قولهم:« لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّٰ أَيّاماً مَعْدُودَةً» :(البقره:۸۰)و أما النصارى فإنهم و إن قالوا بالفداء لمغفره الذنوب لكنه إثبات فى نفسه للذنوب و العذاب الذى أصاب المسيح بالصلب و الأناجيل مع ذلك تثبت ذنوبا كالزنا و نحوه،و الكنيسه كانت تثبته عملا بما كانت تصدره من صكوك المغفره.هذا.لكن الوجه هو الأول.

قوله تعالى:« بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» حجه ثانيه مسوقه على نحو المعارضه محصلها:

أن النظر فى حقيقتكم يؤدى إلى بطلان دعواكم أنكم أبناء الله و أحباؤه،فإنكم بشر من جمله من خلقه الله من بشر أو غيره لا تمتازون عن سائر من خلقه الله منهم،و لا يزيد أحد من الخليقه من السماوات و الأرض و ما بينهما على أنه مخلوق لله الذى هو المليک الحاكم فيه و فى غيره بما شاء و كيفما شاء و سيصير إلى ربه المليک الحاكم فيه و فى غيره،و إذا كان كذلک كان الله سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم،و يعذب من شاء منهم من غير أن تمانعه مزيه أو كرامه أو غير ذلک من أن يريد فى شىء ما يريده من مغفره أو عذاب أو يقطع سبيله قاطع أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئه و مضى الحكم.

فقوله:« بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» بمنزله إحدى مقدمات الحجه،و قوله:« وَ لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما» مقدمه أخرى و قوله:« وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» مقدمه ثالثه، و قوله:« يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ» بمنزله نتيجه البيان التى تناقض دعواهم:أنه لا سبيل إلى تعذيبهم.

قوله تعالى:« يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» قال الراغب: الفتور سكون بعد حده و لين بعد شده،و ضعف بعد قوه قال تعالى:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكَمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ»

أى سكون خال عن مجىء رسول الله.

و الآيه خطاب ثان لأهل الكتاب متمم للخطاب السابق فإن الآيه الأولى بينت لهم أن الله أرسل إليهم رسولا أيده بكتاب مبين يهدى بإذن الله إلى كل خير و سعاده،و هذه الآيه تبين أن ذلك البيان الإلهى أنما هو لإتمام الحجه عليهم أن يقولوا:ما جاءنا من بشير و لا نذير.

و بهذا البيان يتأيد أن يكون متعلق الفعل (يُبَيِّنُ لَكُمْ) فى هذه الآيه هو الذى فى الآيه السابقه،و التقدير:يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب أى إن هذا الدين الذى تدعون إليه هو بعينه دينكم الذى كنتم تدينون به مصدقا لما معكم و الذى يرى فيه من موارد الاختلاف فإنما هو بيان لما أخفيتموه من معارف الدين التى بينته الكتب الإلهيه،و لازم هذا الوجه أن يكون قوله:«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ من قبيل إعاده عين الخطاب السابق لضم بعض الكلام المفصول عن الخطاب السابق المتعلق به و هو قوله:« أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا» (إلخ)إليه و إنما جوز ذلك وقوع الفصل الطويل بين المتعلق و المتعلق به و هو شائع فى اللسان،قال:

قربا مربط النعامه منى

لقحت حرب وائل عن حيال

قربا مربط النعامه منى

إن بيع الكريم بالشسع غال

و يمكن أن يكون خطابا مستأنفا و الفعل (يُبَيِّنُ لَكُمْ) إنما حذف متعلقه.

للدلاله على العموم أى يبين لكم جميع ما يحتاج إلى البيان،أو لتفخيم أمره أى يبين لكم أمرا عظيما تحتاجون إلى بيانه،و قوله:« عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» لا يخلو عن إشعار أو دلاله على هذه الحاجه فإن المعنى:يبين لكم ما مست حاجتكم إلى بيانه و الزمان خال من الرسل حتى يبينوا لكم ذلك.

و قوله:« أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لاَ نَذِيرٍ»، متعلق بقوله:« قَدْ جَاءَكُمْ» بتقدير:حذر أن تقولوا،أو لئلا تقولوا.

و قوله :«وَ اللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كأنه لدفع الدخل فإن اليهود كانت لا ترى

جواز تشریع شریعه بعد شریعه التوراه لذهابهم إلی امتناع النسخ و البداء فرد الله سبحانه مزعمتهم بأنها تنافی عموم القدره،و قد تقدم الکلام فی النسخ فی تفسیر قوله تعالی:« مٰا نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ» Xالآیه X:(البقره:۱۰۶)فی الجزء الأول من الکتاب.

(کلام فی طریق التفکر الذی یهدی إلیه القرآن و هو بحث مختلط)

مما لا نرتاب فیه أن الحیاه الإنسانیه حیاه فکریه لا تتم له إلا بالإدراک الذی نسمیه فکرا،و کان من لوازم ابتناء الحیاه علی الفکر أن الفکر کلما کان أصح و أتم کانت الحیاه أقوم،فالحیاه القیمه-بأیه سنه من السنن أخذ الإنسان،و فی أی طریق من الطرق المسلوکه و غیر المسلوکه سلک الإنسان-ترتبط بالفکر القیم و تبتنی علیه،و بقدر حظها منه یکون حظها من الاستقامه.

و قد ذکر الله سبحانه فی کتابه العزیز بطرق مختلفه و أسالیب متنوعه کقوله:

«أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» :(الأنعام:۱۲۲)،و قوله:« هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ»:

(الزمر:۹)،و قوله:« یَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ» :(المجادله:

۱۱)و قوله:« فَبَشِّرْ عِبٰادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» :(الزمر:۱۸)إلی غیر ذلک من الآیات الکثیره التی لا تحتاج إلی الإیراد.فأمر القرآن فی الدعوه إلی الفکر الصحیح و ترویج طریق العلم مما لا ریب فیه.

و القرآن الکریم مع ذلک یذکر أن ما یهدی إلیه طریق من الطرق الفکریه،قال تعالی:« إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ» :(إسراء:۹)أی المله أو السنه أو الطریقه التی هی أقوم،و علی أی حال هی صراط حیوی کونه أقوم یتوقف علی کون طریق الفکر فیه أقوم،و قال تعالی:« قَدْ جٰاءَکُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ وَ کِتٰابٌ مُبِینٌ یَهْدِی بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ» :(المائده:۱۶)و الصراط المستقیم هو الطریق البین الذی لا اختلاف فیه و لا تخلف أی لا یناقض الحق المطلوب،و لا یناقض بعض أجزائه بعضا.

و لم يعين فى الكتاب العزيز هذا الفكر الصحيح القيم الذى ينـدب إليه إلا أنه أحال فيه إلى ما يعرفه الناس بحسب عقولهم الفطريه،و إدراكهم المركوز فى نفوسهم،و أنك لو تتبعت الكتاب الإلهى ثم تدبرت فى آياته وجدت ما لعله يزيد على ثلاثمائه آيه تتضمن دعوه الناس إلى التفكر أو التذكر أو التعقل،أو تلقن النبى ص الحجه لإثبات حق أو لإبطال باطل كقوله:« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ» (الآيه)أو تحكى الحجه عن أنبيائه و أوليائه كنوح و إبراهيم و موسى و سائر الأنبياء العظام،و لقمان و مؤمن آل فرعون و غيرهما ع كقوله:« قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» :(إبراهيم:١٠)،و قوله:« وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» :(لقمان:١٣)،و قوله:« وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ» Xالآيه X: (غافر:٢٨)،و قوله حكايه عن سحره فرعون:« قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا» Xإلى آخر ما احتجوا بهX:(طه:٧٢).

و لم يأمر الله تعالى عباده فى كتابه و لا فى آيه واحده أن يؤمنوا به أو بشىء مما هو من عنده أو يسلكوا سبيلا على العمياء و هم لا يشعرون،حتى أنه علل الشرائع و الأحكام التى جعلها لهم مما لا سبيل للعقل إلا تفاصيل ملاكاته بأمور تجرى مجرى الاحتجاجات كقوله:« إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ» :(العنكبوت:٤٥) و قوله:« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» :(البقره:

١٨٣)،و قوله فى آيه الوضوء:« ما يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» : (المائده:۶)إلى غير ذلك من الآيات.

و هذا الإدراك العقلى أعنى طريق الفكر الصحيح الذى يحيل إليه القرآن الكريم و يبنى على تصديقه ما يدعو إليه من حق أو خير أو نفع،و يزجر عنه من باطل أو شر أو ضر أنما هو الذى نعرفه بالخلقه و الفطره مما يتغير و لا يتبدل و لا يتنازع فيه إنسان و إنسان،و لا يختلف فيه اثنان،و إن فرض فيه اختلاف أو تنازع فإنما هو من قبيل المشاجره فى البديهيات ينتهى إلى عدم تصور أحد المتشاجرين أو كليهما حق المعنى المتشاجر فيه لعدم التفاهم الصحيح.

و أما أن هذا الطريق الذى نعرفه بحسب فطرتنا الإنسانيه ما هو؟فلئن شككنا فى شىء لسنا نشك أن هناك حقائق خارجيه واقعيه مستقله منفكه عن أعمالنا كمسائل المبدأ و المعاد،و مسائل أخرى رياضيه أو طبيعيه و نحو ما إذا أردنا أن نحصل عليها حصولا يقينيا استرحنا فى ذلك إلى قضايا أوليه بديهيه غير قابله للشك،و أخرى تلزمها لزوما كذلك،و نرتبها ترتيبا فكريا خاصا نستنتج منها ما نطلبه كقولنا:أ.ب،و كل ب.ج،ف أ.ج،و كقولنا:لو كان أ.ب ف ج.د،و لو كان ج د ف ه.ز ينتج:لو كان أ ب،ف ه.ز و كقولنا:إن كان أ.ب فج.د و لو كان ج.د،ف ه.ز لكن أ.ليس ب،ينتج:ه ليس ز.

و هذه الأشكال التى ذكرناها و المواد الأوليه التى أشرنا إليها أمور بديهيه يمتنع أن يرتاب فيها إنسان ذو فطره سليمه إلا عن آفه عقليه أو لاختلاط فى الفهم مقتض لعدم تعقل هذه الأمور الضروريه بأخذ مفهوم تصورى أو تصديقى آخر مكان التصور أو التصديق البديهى،كما هو الغالب فيمن يتشكك فى البديهيات.

و نحن إذا راجعنا التشكيكات و الشبه التى أوردت على هذا الطريق المنطقى المذكور وجدنا أنهم يعتمدون فى استنتاج دعاويهم و مقاصدهم على مثل القوانين المدونه فى المنطق الراجعه إلى الهيئه و الماده بحيث لو حللنا كلامهم إلى المقدمات الابتدائيه المأخوذه فيه عاد إلى مواد و هيئات منطقيه،و لو غيرنا بعض تلك المقدمات أو الهيئات إلى ما يهتف المنطق بعدم إنتاجها عاد الكلام غير منتج،و رأيتهم لا يرضون بذلك،و هذا بعينه أوضح شاهد على أن هؤلاء معترفون بحسب فطرتهم الإنسانيه بصحه هذه الأصول المنطقيه مسلمون لها مستعملون إياها،جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم.

۱-كقول بعض المتكلمين:«لو كان المنطق طريقا موصلا لم يقع الاختلاف بين أهل المنطق لكنا نجدهم مختلفين فى آرائهم»فقد استعمل القياس الاستثنائى من حيث لا يشعر، و قد غفل هذا القائل عن أن معنى كون المنطق آله الاعتصام أن استعماله كما هو حقه يعصم الإنسان من الخطإ،و أما أن كل مستعمل له فإنما يستعمله صحيحا فلا يدعيه أحد، و هذا كما أن السيف آله القطع لكن لا يقطع إلا عن استعمال صحيح.

۲-و قول بعضهم:«إن هذه القوانين دونت ثم كملت تدريجا فكيف يبتنى عليها ثبوت الحقائق الواقعيه؟و كيف يمكن إصابه الواقع لمن لم يعرفها أو لم يستعملها؟و هذا

کسابقه قیاس استثنائی و من أردإ المغالطه.و قد غلط القائل فی معنی التدوین،فإن معناه الکشف التفصیلی عن قواعد معلومه للإنسان بالفطره إجمالا لا إن معنی التدوین هو الإیجاد.

٣-و قول بعضهم:«إن هذه الأصول إنما روجت بین الناس لسد باب أهل البیت أو لصرف الناس عن اتباع الکتاب و السنه فیجب علی المسلمین اجتنابها» و هذا کلام منحل إلی أقیسه اقترانیه و استثنائیه.و لم یتفطن المستدل به أن تسویه طریق لغرض فاسد أو سلوکه لغایه غیر محموده لا ینافی استقامته فی نفسه کالسیف یقتل به المظلوم،و کالدین یستعمل لغیر مرضاه الله سبحانه.

۴-و قول بعضهم:«إن السلوک العقلی ربما انتهی بسالکه إلی ما یخالف صریح الکتاب و السنه کما نری من آراء کثیر من المتفلسفین»و هذا قیاس اقترانی مؤلف غولط فیه من جهه أن هذا المنهی لیس هو شکل القیاس و لا ماده بدیهیه بل ماده فاسده غریبه داخلت المواد الصحیحه.

۵-و قول بعضهم:«المنطق إنما یتکفل تمییز الشکل المنتج من الشکل الفاسد و أما المواد فلیس فیها قانون یعصم الإنسان من الخطإ فیها و لا یؤمن الوقوع فی الخطإ لو راجعنا غیر أهل العصمه،فالمتعین هو الرجوع إلیهم»و فیه مغالطه من جهه أنه سیق لبیان حجیه أخبار الآحاد أو مجموع الآحاد و الظواهر الظنیه من الکتاب،و من المعلوم أن الاعتصام بعصمه أهل العصمه(ع)إنما یحصل فیما أیقنا من کلامهم بصدوره و المراد منه معا یقینا صادقا،و أنی یحصل ذلک فی أخبار الآحاد التی هی ظنیه صدورا و دلاله؟و کذا فی کل ما دلالته ظنیه،و إذا کان المناط فی الاعتصام هو الماده الیقینیه فما الفرق بین الماده الیقینیه المأخوذه من کلامهم و الماده الیقینیه المأخوذه من المقدمات العقلیه؟و اعتبار الهیئه مع ذلک علی حاله.

و قولهم:«لا یحصل لنا الیقین بالمواد العقلیه بعد هذه الاشتباهات کلها»فیه:أولا أنه مکابره.و ثانیا:أن هذا الکلام بعینه مقدمه عقلیه یراد استعمالها یقینیه،و الکلام مشتمل علی الهیئه.

۶–و قول بعضهم:«إن جميع ما يحتاج إليه النفوس الإنسانيه مخزونه فى الكتاب العزيز،مودعه فى أخبار أهل العصمه(ع)فما الحاجه إلى أسآر الكفار و الملاحده؟».

و الجواب عنه أن الحاجه إليها عين الحاجه التى تشاهد فى هذا الكلام بعينه،فقد ألف تأليفا اقترانيا منطقيا،و استعملت فيه المواد اليقينيه لكن غولط فيه أولا ـ بأن تلك الأصول المنطقيه بعض ما هو مخزون مودع فى الكتاب و السنه،و لا طريق إليها إلا البحث المستقل.

و ثانيا:أن عدم حاجه الكتاب و السنه و استغناءهما عن ضميمه تنضم إليهما غير عدم حاجه المتمسك بهما و المتعاطى لهما،و فيه المغالطه،و ما مثل هؤلاء إلا كمثل الطبيب الباحث عن بدن الإنسان لو ادعى الاستغناء عن تعلم العلوم الطبيعيه و الاجتماعيه و الأدبيه،لأن الجميع متعلق بالإنسان.أو كمثل الإنسان الجاهل إذا استنكف عن تعلم العلوم معتذرا أن جميع العلوم مودعه فى الفطره الإنسانيه.

و ثالثا:أن الكتاب و السنه هما الداعيان إلى التوسع فى استعمال الطرق العقليه الصحيحه(و ليست إلا ـ المقدمات البديهيه أو المتكئه على البديهيه)قال تعالى:« فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ» :(الزمر:١٨)إلى غير ذلك من الآيات و الأخبار الكثيره،نعم الكتاب و السنه ينهيان عن اتباع ما يخالفهما مخالفه صريحه قطعيه لأن الكتاب و السنه القطعيه من مصاديق ما دل صريح العقل على كونهما من الحق و الصدق،و من المحال أن يبرهن العقل ثانيا على بطلان ما برهن على حقيته أولا،و الحاجه إلى تمييز المقدمات العقليه الحقه من الباطله ثم التعلق بالمقدمات الحقه كالحاجه إلى تمييز الآيات و الأخبار المحكمه من المتشابهه ثم التعلق بالمحكمه منهما،و كالحاجه إلى تمييز الأخبار الصادره حقا من الأخبار الموضوعه و المدسوسه و هى أخبار جمه.

و رابعا:أن الحق حق أينما كان و كيفما أصيب و عن أى محل أخذ،و لا ـ يؤثر فيه إيمان حامله و كفره،و لا تقواه و فسقه،و الإعراض عن الحق بغضا لحامله ليس إلا ـ تعلقا بعصبيه الجاهليه التى ذمها الله سبحانه و ذم أهلها فى كتابه العزيز و بلسان رسله(ع).

۷-و قول بعضهم:«إن طريق الاحتياط فى الدين المندوب إليه فى الكتاب و السنه الاقتصار على ظواهر الكتاب و السنه و الاجتناب عن تعاطى الأصول المنطقيه و العقليه فإن فيه التعرض للهلاك الدائم و الشقوه التى لا سعاده بعدها أبدا».

و فيه أن هذا البيان بعينه قد تعوطى فيه الأصول المنطقيه و العقليه فإنه مشتمل على قياس استثنائى أخذ فيه مقدمات عقليه متبينه عند العقل و لو لم يكن كتاب و لا سنه.

على أن البيان إنما يتم فيمن لا يفى استعداده بفهم الأمور الدقيقه العقليه و أما المستعد الذى يطيق ذلك فلا دليل من كتاب و لا سنه و لا عقل على حرمانه من نيل حقائق المعارف التى لا كرامه للإنسان و لا شرافه إلا بها،و قد دل على ذلك الكتاب و السنه و العقل جميعا.

۸-و قول بعضهم-فيما ذكره-:«إن طريق السلف الصالح كان مباينا لطريق الفلسفه و العرفان و كانوا يستغنون بالكتاب و السنه عن استعمال الأصول المنطقيه و العقليه كالفلاسفه،و عن استعمال طرق الرياضه كالعرفاء.

ثم لما نقلت فلسفه يونان فى عصر الخلفاء إلى العربيه رام المتكلمون من المسلمين و قد كانوا من تبعه القرآن إلى تطبيق المطالب الفلسفيه على المعارف القرآنيه فتفرقوا بذلك إلى فرقتى الأشاعره و المعتزله،ثم نبغ آخرون فى زمان الخلفاء تسموا بالصوفيه و العرفاء كانوا يدعون كشف الأسرار و العلم بحقائق القرآن و كانوا يزعمون أنهم فى غنى عن الرجوع إلى أهل العصمه و الطهاره،و بذلك امتازت الفقهاء و الشيعه-و هم المتمسكون بذيلهم(ع) -عنهم،و لم يزل الأمر على ذلك إلى ما يقرب من أواسط القرن الثالث عشر من الهجره(قبل مائه سنه تقريبا)و عند ذلك أخذ هؤلاء(يعنى الفلاسفه و العرفاء)فى التدليس و التلبيس و تأويل مقاصد القرآن و الحديث إلى ما يوافق المطالب الفلسفيه و العرفانيه حتى اشتبه الأمر على الأكثرين.

و استنتج من ذلك أن هذه الأصول مخالفه للطريقه الحقه التى يهدى إليها الكتاب و السنه.

ثم أورد بعض الإشكالات على المنطق-مما أوردناه-كوجود الاختلاف بين المنطقيين أنفسهم،و وقوع الخطإ مع استعماله،و عدم وجود البديهيات و اليقينيات بمقدار كاف فى المسائل الحقيقيه،ثم ذكر مسائل كثيره من الفلسفه و عدها جميعا مناقضه لصريح ما يستفاد من الكتاب و السنه.

ص :۲۵۹

هذا محصل كلامه و قد لخصناه تلخيصا.

و ليت شعرى أى جهه من الجهات الموضوعه فى هذا الكلام على كثرتها تقبل الإصلاح و الترميم فقد استظهر الداء على الدواء.

أما ما ذكره من تاريخ المتكلمين و انحرافهم عن الأئمه(ع) و قصدهم إلى تطبيق الفلسفه على القرآن و انقسامهم بذلك إلى فرقتى الأشاعره و المعتزله و ظهور الصوفيه و زعمهم أنهم و متبعيهم فى غنى عن الكتاب و السنه و بقاء الأمر على هذا الحال و ظهور الفلسفه العرفانيه فى القرن الثالث عشر كل ذلك مما يدفعه التاريخ القطعى،و سيجىء إشاره إلى ذلك كله إجمالا.

على أن فيه خطأ فاحشا بين الكلام و الفلسفه فإن الفلسفه تبحث بحثا حقيقيا و يبرهن على مسائل مسلمه بمقدمات يقينيه و الكلام يبحث بحثا أعم من الحقيقى و الاعتبارى، و يستدل على مسائل موضوعه مسلمه بمقدمات هى أعم من اليقينيه و المسلمه،فبين الفنين أبعد مما بين السماء و الأرض،فكيف يتصور أن يروم أهل الكلام فى كلامهم تطبيق الفلسفه على القرآن؟على أن المتكلمين لم يزالوا منذ أول ناجم نجم منهم إلى يومنا هذا فى شقاق مع الفلاسفه و العرفاء،و الموجود من كتبهم و رسائلهم و المنقول من المشاجرات الواقعه بينهم أبلغ شاهد يشهد بذلك.

و لعل هذا الإسناد مأخوذ من كلام بعض المستشرقين القائل بأن نقل الفلسفه إلى الإسلام هو الذى أوجد علم الكلام بين المسلمين.هذا،و قد جهل هذا القائل معنى الكلام و الفلسفه و غرض الفنين و العلل الموجبه لظهور التكلم و رمى من غير مرمى.

و أعجب من ذلك كله أنه ذكر بعد ذلك:الفرق بين الكلام و الفلسفه بأن البحث الكلامى يروم إثبات مسائل المبدأ و المعاد مع مراعاه جانب الدين و البحث الفلسفى يروم ذلك من غير أن يعتنى بأمر الدين ثم جعل ذلك دليلا على كون السلوك من طريق الأصول المنطقيه و العقليه سلوكا مباينا لسلوك الدين مناقضا للطريق المشروع فيه هذا.فزاد فى الفساد،فكل ذى خبره يعلم أن كل من ذكر هذا الفرق بين الفنين أراد أن يشير إلى أن القياسات المأخوذه فى الأبحاث الكلاميه جدليه مركبه من مقدمات مسلمه: (المشهورات و المسلمات)لكون الاستدلال بها على مسائل مسلمه،و ما أخذ فى الأبحاث الفلسفيه منها

قياسات برهانيه يراد بها إثبات ما هو الحق لا- إثبات ما سلم ثبوتها تسليما،و هذا غير أن يقال.إن أحد الطريقين(طريق الكلام)طريق الدين و الآخر طريق مباين لطريق الدين لا يعتنى به و إن كان حقا.

و أما ما ذكره من الإشكال على المنطق و الفلسفه و العرفان فما اعترض به على المنطق قد تقدم الكلام فيه،و أما ما ذكره فى موضوع الفلسفه و العرفان فإن كان ما ذكره على ما ذكره و فهم منه ثم ناقض ما هو صريح الدين الحق فلا ريب لمرتاب فى أنه باطل و من هفوات الباحثين فى الفلسفه أو السالكين مسلك العرفان و أغلاطهم،لكن الشأن فى أن هفوات أهل فن و سقطاتهم و انحرافهم لا تحمل على عاتق الفن،و إنما يحمل على قصور الباحثين فى بحثهم.

و كان عليه أن يتأمل الاختلافات الناشئه بين المتكلمين:أشعريهم و معتزليهم و إماميهم فقد اقتسمت هذه الاختلافات الكلمه الواحده الإسلاميه فجعلتها بادئ بدء ثلاثه و سبعين فرقه ثم فرقت كل فرقه إلى فرق،و لعل فروع كل أصل لا ينقص عددا من أصولها.

فليت شعرى هل أوجد الاختلافات شىء غير سلوك طريق الدين؟و هل يسع لباحث أن يستدل بذلك على بطلان الدين و فساد طريقه؟أو يأتى هاهنا بعذر لا يجرى هناك أو يرمى أولئك برذيله معنويه لا توجد عينها أو مثلها فى هؤلاء؟!و نظير فن الكلام فى ذلك الفقه الإسلامى و انشعاب الشعب و الطوائف فيه ثم الاختلافات الناشئه بين كل طائفه أنفسهم،و كذلك سائر العلوم و الصناعات على كثرتها و اختلافها.

و أما ما استنتج من جميع كلامه من بطلان جميع الطرق المعموله و تعين طريق الكتاب و السنه و هو مسلك الدين فلا يسعه إلا أن يرى طريق التذكر و هو الذى نسب إلى أفلاطون اليونانى و هو أن الإنسان لو تجرد عن الهوسات النفسانيه و تحلى بحليه التقوى و الفضائل الروحيه ثم رجع إلى نفسه فى أمر بان له الحق فيه.

هذا هو الذى ذكروه،و قد اختاره بعض القدماء من يونان و غيرهم و جمع من المسلمين و طائفه من فلاسفه الغرب غير أن كلا من القائلين به قرره بوجه آخر:

فمنهم من قرره على أن العلوم الإنسانيه فطريه بمعنى أنها حاصله له،موجوده معه بالفعل فى أول وجوده،فلا- جرم يرجع معنى حدوث كل علم له جديد إلى حصول التذكر.

و منهم من قرره على أن الرجوع إلى النفس بالانصراف عن الشواغل الماديه يوجب انكشاف الحقائق لا بمعنى كون العلوم عند الإنسان بالفعل بل هى له بالقوه و إنما الفعليه فى باطن النفس الإنسانيه المفصوله عن الإنسان عند الغفله الموصوله به عند التذكر،و هذا ما يقول به العرفاء و أهل الإشراق و أترابهم من سائر الملل و النحل.و منهم من قرره على نحو ما قرره العرفاء غير أنه اشتراط فى ذلك التقوى و اتباع الشرع علما و عملا كعده من المسلمين ممن عاصرناهم و غيرهم زعما منهم أن اشتراط اتباع الشرع يفرق ما بينهم و بين العرفاء و المتصوفه،و قد خفى عليهم أن العرفاء سبقوهم فى هذا الاشتراط كما يشهد به كتبهم المعتبره الموجوده،فالقول عين ما قال به المتصوفه،و إنما الفرق بين الفريقين فى كيفيه الاتباع و تشخيص معنى التبعيه،و هؤلاء يعتبرون فى التبعيه مرحله الجمود على الظواهر محضا،فطريقهم طريق مولد من تناكح طريقى المتصوفه و الأخباريه إلى غير ذلك من التقريرات.

و القول بالتذكر إن لم يرد به إبطال الرجوع إلى الأصول المنطقيه و العقليه لا يخلو من وجه صحه فى الجمله فإن الإنسان حينما يوجد بهويته يوجد شاعرا بذاته و قوى ذاته و بعلله، عالما بها علما حضوريا،و معه من القوى ما يبدل علمه الحضورى إلى علم حصولى.و لا توجد قوه هى مبدأ الفعل إلا و هى تفعل فعلها فللإنسان فى أول وجوده شىء من العلوم و إن كانت متأخره عنه بحسب الطبع لكنه معه بالزمان.هذا،و أيضا حصول بعض العلوم للإنسان إذا انصرف عن التعلقات الماديه بعض الانصراف لا يسع لأحد إنكاره.

و إن أريد بالقول بالتذكر إبطال أثر الرجوع إلى الأصول المنطقيه و العقليه بمعنى أن ترتيب المقدمات البديهيه المتناسبه يوجب خروج الإنسان من القوه إلى الفعل بالنسبه إلى العلم بما يعد نتيجه لها،أو بمعنى أن التذكر بمعنى الرجوع إلى النفس بالتخليه يغنى الإنسان عن ترتيب المقدمات العلميه لتحصيل النتائج فهو من أسخف القول الذى لا يرجع إلى محصل.

أما القول بالتذكر بمعنى إبطاله الرجوع إلى الأصول المنطقيه و العقليه فيبطله أولا:

أن البحث العميق فى العلوم و المعارف الإنسانيه يعطى أن علومه التصديقيه تتوقف على علومه التصوريه و العلوم التصوريه تنحصر فى العلوم الحسيه أو المنتزع منها بنحو من الأنحاء (1)و قد دل القياس و التجربه على أن فاقد حس من الحواس فاقد لجميع العلوم المنتهيه

1- 1) راجع أصول الفلسفه:المقاله الخامسه.

إلى ذلـك الحس،تصوريه كانت أو تصـديقيه،نظريه كانت أو بـديهيه،و لو كانت العلوم موجوده للهويه الإنسانيه بالفعل لم يؤثر الفقد المفروض فى ذلك،و القول بأن العمى و الصمم و نحوهما مانعه عن التذكر رجوع عن أصل القول و هو أن التذكر بمعنى الرجوع إلى النفس بالانصراف عن التعلقات الماديه مفيد لذكر المطلوب بارتفاع الغفله.

و ثانيا:أن التـذكر أنما يوفق له بعض أفراد هـذا النوع،و عامه الأفراد يسـتعملون فى مقاصدهم الحيويه سـنه التأليف و الاسـتنتاج و يستنتجون من ذلك الألوف بعد الألوف من النتائج المسـتقيمه،و على ذلك يجرى الحال فى جميع العلوم و الصـناعات،و إنكار شىء من ذلك مكابره،و حمل ذلك على الاتفاق مجازفه فالأخـذ بهـذه السـنه أمر فطرى للإنسان لا محيـد عنه،و من المحال أن يجهز نوع من الأنواع بجهاز فطرى تكوينى ثم يخبط فى عمله و لا ينجح فى مسعاه.

و ثالثـا:أن جميع مـا ينـال هؤلاـء بما يسـمونه تـذكرا يعود بالتحليل إلى مقـدمات مترتبه ترتيبا منطقيا بحيث يختل أمر النتيجه فيها باختلاـل شـىء من الأـصول المقرره فى هيئتهـا و مادتهـا،فهم يسـتعملون الأـصول المنطقيه من حيث لاـ يحسون به، و الاتفـاق و الصحابه الدائمان لا محصل لهما،و عليهم أن يأتوا بصوره علميه تذكريه صحيحه لا تجرى فيها أصول المنطق.

و أما القول بالتذكر بمعنى إغنائه عن الرجوع إلى الأصول المنطقيه-و يرجع محصله إلى أن هناك طريقين:طريق المنطق و طريق التـذكر باتبـاع الشـرع مثلاـو الطريقـان سواء فى الإصابه أو إن طريق التـذكر أفضل و أولى لإصابته دائما لموافقته قول المعصوم بخلاف طريق المنطق و العقل-ففيه خطر الوقوع فى الغلط دائما أو غالبا.

و كيف كان يرد عليه الإشـكال الثانى الوارد على ما تقدمه فإن الإحاطه بجميع مقاصد الكتاب و السـنه و رموزها و أسرارها على سعه نطاقهـا العجيبه غير متأت إلا للآحاد من الناس المتوغلين فى التـدبر فى المعارف الـدينيه على ما فيها من الارتباط العجيب،و التـداخل البـالغ بين أصولهـا و فروعهـا و مـا يتعلق منهـا بالاعتقـاد و ما يتعلق منها بالأعمال الفرديه و الاجتماعيه،و من المحال أن يكلف الإنسـان تكوينـا بـالتجهيز التكوينى بمـا وراء طـاقته و استطاعته أو يكلف بـذلك تشـريعا فليس على الناس إلا أن يعقلوا مقاصد الدين بما هو الطريق المألوف عندهم فى شئون حياتهم الفرديه و الاجتماعيه،و هو ترتيب المعلومات لاستنتاج

المجهولات،و المعلوم من الشرع بعض أفراد المعلومات لقيام البرهان على صدقه.

و من العجيب أن بعض القائلين بالتذكر جعل هذا بعينه وجها للتذكر على المنطق فذكر أن العلم بالحقائق الواقعيه إن صح حصوله باستعمال المنطق و الفلسفه-و لن يصح- فإنما يتأتى ذلك لمثل أرسطو و ابن سينا من أوحديى الفلسفه،و ليس يتأتى لعامه الناس فكيف يمكن أن يأمر الشارع باستعمال المنطق و الأصول الفلسفيه طريقا إلى نيل الواقعيات؟ و لم يتفطن أن الإشكال بعينه مقلوب عليه فإن أجاب بأن استعمال التذكر ميسور لكل أحد على حسب اتباعه أجيب بأن استعمال المنطق قليلا أو كثيرا ميسور لكل أحد على حسب استعداده لنيل الحقائق و لا يجب لكل أحد أن ينال الغايه،و يركب ما فوق الطاقه.

و يرد عليه ثانيا:الإشكال الثالث السابق فإن هؤلاء يستعملون طريق المنطق فى جميع المقاصد التى يبدونها باسم التذكر كما تقدم حتى فى البيان الذى أوردوه لإبطال طريق المنطق و تحقيق طريق التذكر و كفى به فسادا.

و يرد عليه ثالثا:أن الوقوع فى الخطإ واقع بل غالب فى طريق التذكر الذى ذكروه فإن التذكر كما زعموه هو الطريق الذى كان يسلكه السلف الصالح دون طريق المنطق، و قد نقل الاختلاف و الخطإ فيما بينهم بما ليس باليسير كعده من أصحاب النبى ص ممن اتفق المسلمون على علمه و اتباعه الكتاب و السنه،أو اتفق الجمهور على فقهه و عدالته، و كعده من أصحاب الأئمه على هذه النعوت كأبى حمزه و زراره و أبان و أبى خالد و الهشامين و مؤمن الطاق و الصفوانين و غيرهم،فالاختلافات الأساسيه بينهم مشهوره معروفه و من البين أن المختلفين لا- ينال الحق إلا- أحدهما،و كذلك الفقهاء و المحدثون من القدماء كالكلينى و الصدوق و شيخ الطائفه و المفيد و المرتضى و غيرهم رضوان الله عليهم،فما هو مزيه التذكر على التفكر المنطقى؟فكان من الواجب حينئذ التماس مميز آخر غير التذكر يميز بين الحق و الباطل،و ليس إلا التفكر المنطقى فهو المرجع و الموئل.

و يرد عليه رابعا:أن محصل الاستدلال أن الإنسان إذا تمسك بذيل أهل العصمه و الطهاره لم يقع فى خطإ،و لازمه ما تقدم أن الرأى المأخوذ من المعصوم فيما سمعه منه سمعا يقينيا و علم بمراده علما يقينيا لا يقع فيه خطأ،و هذا مما لا كلام فيه لأحد.

و فى الحقيقه المسموع من المعصوم أو المأخوذ منه ماده ليس هو عين التذكر و لا الفكر

المنطقی ثم یعقبه هو أن:هـذا ما یراه المعصوم،و کل ما یراه حق فهـذا حق و هـذا برهان قطعی النتیجه،و أما غیر هذه الصوره من مؤدیـات أخبـار الآحـاد أو مـا یماثلهـا ممـا لا- یفیـد إلا الظن فإن ذلک لا یفیـد شـیئا و لا یوجـد دلیل علی حجیه الآحاد فی غیر الأحکام إلا مع موافقه الکتاب و لا الظن یحصل علی شیء مع فرض العلم علی خلافه من دلیل علمی.

۹-و قول بعضـهم:«إن الله سـبحانه خاطبنـا فی کلامه بما نألفه من الکلام الـدائر بیننا،و النظم و التألیف الـذی یعرفه أهل اللسان،و ظاهر البیانات المشـتمله علی الأمر و النهی و الوعـد و الوعیـد و القصـص و الحکمه و الموعظه و الجدال بالتی هی أحسن،و هذه أمور لا حاجه فی فهمها و تعقلها إلی تعلم المنطق و الفلسـفه و سائر ما هو تراث الکفار و المشـرکین و سبیل الظالمین،و قـد نهانا عن ولا-یتهم و الرکـون إلیهم و اتخـاذ دئوبهم و اتبـاع سـبلهم، فلیس علی من یؤمن بـالله و رسوله إلا- أن یأخـذ بظواهر البیانـات الـدینیه،و یقف علی مـا یتلقـاه الفهم العـادی من تلـک الظواهر من غیر أن یأولها أو یتعـداها إلی غیرها»و هـذا ما یراه الحشویه و المشبهه و عده من أصحاب الحدیث.

و هو فاسد أما من حیث الهیئه فقد اسـتعمل فیه الأصول المنطقیه و قد أرید بذلک المنع عن استعمالها بعینها،و لم یقل القائل بأن القرآن یهدی إلی استعمال أصول المنطق:

أنه یجب علی کـل مسـلم أن یتعلم المنطق،لکن نفس الاسـتعمال ممـا لا- محیص عنه،فمـا مثل هؤلاء فی قولهم هـذا إلا مثل من یقول:إن القرآن إنما یریـد أن یهـدینا إلی مقاصـد الـدین فلا حاجه لنا إلی تعلم اللسان الـذی هو تراث أهل الجاهلیه،فکما أنه لا وقع لهذا الکلام بعد کون اللسان طریقا یحتاج إلیه الإنسان فی مرحله التخاطب بحسب الطبع و قد استعمله الله سبحانه فی کتابه و النـبی ص فی سـنته کـذلک لا- معنی لمـا اعترض به علی المنطق بعـد کونه طریقـا معنویـا یحتـاج إلیه الإنسـان فی مرحله التعقل بحسب الطبع و قد استعمله الله سبحانه فی کتابه و النبی ص فی سنته.

و أما بحسب الماده فقد أخذت فیه مواد عقلیه،غیر أنه غولط فیه من حیث التسویه بین المعنی الظاهر من الکلام و المصادیق التی تنطبق علیها المعانی و المفاهیم،فالذی علی المسـلم المؤمن بکتاب الله أن یفهمه من مثل العلم و القدره و الحیاه و السمع و البصر و الکلاـم و المشیئه و الإـراده مثلاـ أن یفهم معانی تقابل الجهل و العجز و الممات و الصـمم و العمی و نحوها،و أما أن یثبت لله سبحانه علما کعلمنا و قدره کقدرتنا و حیاه کحیاتنا و سمعا و بصرا و کلاما

و مشیئه و إراده کذلک فلیس له ذلک لا- کتابا و لا سنه و لا عقلا،و قد تقدم شطر من الکلام المتعلق بهذا الباب فی بحث المحکم و المتشابه فی الجزء الثالث من الکتاب.

۱۰-و قول بعضهم:«إن الدلیل علی حجیه المقدمات التی قامت علیها الحجج العقلیه لیس إلا المقدمه العقلیه القائله بوجوب اتباع الحکم العقلی،و بعباره أخری لا حجه علی حکم العقل إلا نفس العقل و هذا دور مصرح فلا محیص فی المسائل الخلافیه عن الرجوع إلی قول المعصوم من نبی أو إمام من غیر تقلید».هذا،و هو أسخف تشکیک أورد فی هذا الباب و إنما أرید به تشیید بنیان فأنتج هدمه،فإن القائل أبطل به حکم العقل بالدور المصرح علی زعمه ثم لما عاد إلی حکم الشرع لزمه إما أن یستدل علیه بحکم العقل و هو الدور، أو بحکم الشرع و هو الدور فلم یزل حائرا یدور بین دورین.إلا أن یرجع إلی التقلید و هو حیره ثانیه.

و قد اشتبه علیه الأمر فی تحصیل معنی وجوب متابعه حکم العقل»فإن أرید بوجوب متابعه حکم العقل ما یقابل الحظر و الإباحه و یستتبع مخالفته ذما أو عقابا نظیر وجوب متابعه الناصح المشفق،و وجوب العدل فی الحکم و نحو ذلک فهو حکم العقل العملی و لا- کلام لنا فیه،و إن أرید بوجوب المتابعه أن الإنسان مضطر علی تصدیق النتیجه إذا استدل علیه بمقدمات علمیه و شکل صحیح علمی مع التصور التام لأطراف القضایا فهذا أمر یشاهده الإنسان بالوجدان،و لا معنی عندئذ لأن یسأل العقل عن الحجه،لحجیه حجته لبداهه حجیته.و هذا نظیر سائر البدیهیات،فإن الحجه علی کل بدیهی إنما هی نفسه،و معناه أنه مستغن عن الحجه.

۱۱-و قول بعضهم:«إن غایه ما یرومه المنطق هو الحصول علی الماهیات الثابته للأشیاء،و الحصول علی النتائج بالمقدمات الکلیه الدائمه الثابته،و قد ثبت بالأبحاث العلمیه الیوم أن لا کلی و لا دائم و لا ثابت فی خارج و لا ذهن و إنما هی الأشیاء تجری تحت قانون التحول العام من غیر أن یثبت شیء بعینه علی حال ثابته أو دائمه أو کلیه».

و هذا فاسد من جهه أنه استعمل فیه الأ-صول المنطقیه هیئه و ماده کما هو ظاهر لمن تأمل فیه.علی أن المعترض یرید بهذا الاعتراض بعینه أن یستنتج أن المنطق القدیم غیر صحیح البته،و هی نتیجه کلیه دائمه ثابته مشتمله علی مفاهیم ثابته،و إلا لم یفده شیئا

فالاعتراض يبطل نفسه.

و لعلنا خرجنا عما هو شريطه هذا الكتاب من إيثار الاختصار مهما أمكن فلنرجع إلى ما كنا فيه أولا:

القرآن الكريم يهدى العقول إلى استعمال ما فطرت على استعماله و سلوك ما تألفه و تعرفه بحسب طبعها و هو ترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات،و الذى فطرت العقول عليه هو أن تستعمل مقدمات حقيقيه يقينيه لاستنتاج المعلومات التصديقيه الواقعيه و هو البرهان،و أن تستعمل فيما له تعلق بالعمل من سعاده و شقاوه و خير و شر و نفع و ضرر و ما ينبغى أن يختار و يؤثر و ما لا ينبغى،و هى الأمور الاعتباريه،المقدمات المشهوره أو المسلمه،و هو الجدل،و أن تستعمل فى موارد الخير و الشر المظنونين مقدمات ظنيه لإنتاج الإرشاد و الهدايه إلى خير مظنون،أو الردع عن شر مظنون،و هى العظه قال تعالى:« أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَهِ وَ الْمَوْعِظَهِ الْحَسَنَهِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ» :

(النحل:۱۲۵)و الظاهر أن المراد بالحكمه هو البرهان كما ترشد إلى ذلک مقابلته الموعظه الحسنه و الجدال.

فإن قلت:طريق التفكر المنطقى مما يقوى عليه الكافر و المؤمن،و يتأتى من الفاسق و المتقى،فما معنى نفيه تعالى العلم المرضى و التذكر الصحيح عن غير أهل التقوى و الاتباع كما فى قوله تعالى:« وَ مٰا یَتَذَکَّرُ إِلاّٰ مَنْ یُنِیبُ» :(غافر:۱۳)،و قوله:« وَ مَنْ یَتَّقِ اللّٰهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» :(الطلاق:۲)،و قوله:« فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِکْرِنٰا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا ذٰلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدىٰ» :(النجم:۳۰)و الروايات الناطقه بأن العلم النافع لا ينال إلا بالعمل الصالح كثيره مستفيضه.

قلت:اعتبار الكتاب و السنه التقوى فى جانب العلم مما لا ريب فيه،غير أن ذلک ليس لجعل التقوى أو التقوى الذى معه التذكر طريقا مستقلا لنيل الحقائق وراء الطريق الفكرى الفطرى الذى يتعاطاه الإنسان تعاطيا لا مخلص له منه،إذ لو كان الأمر على ذلک لغت جميع الاحتجاجات الوارده فى الكتاب على الكفار و المشركين و أهل الفسق و الفجور ممن لا يتبع الحق،و لا يدرى ما هو التقوى و التذكر فإنهم لا سبيل لهم على هذا الفرض إلى

إدراک المطلوب و حالهم هذا الحال،و مع فرض تبدل الحال یلغو الاحتجاج معهم،و نظیرها ما ورد فی السنه من الاحتجاج مع شتی الفرق و الطوائف الضاله.

بل اعتبار التقوی لرد النفس الإنسانیه المدرکه إلی استقامتها الفطریه،توضیح ذلک:

أن الإنسان بحسب جسمیته مؤلف من قوی متضاده بهیمیه و سبعیه محتدها البدن العنصری، و کل واحده منها تعمل عملها الشعوری الخاص بها من غیر أن ترتبط بغیرها من القوی ارتباطا تراعی به حالها فی عملها إلا بنحو الممانعه و المضاده فشهوه الغذاء تبعث الإنسان إلی الأکل و الشرب من غیر أن یحد بحد أو یقدر بقدر من ناحیه هذه القوه إلا أن یمتنع منهما المعده مثلا لأنها لا تسع إلا مقدارا محدودا،أو یمتنع الفک مثلا لتعب و کلال یصیب عضلته من المضغ إذا أکثر من الأکل و أمثال ذلک،فهذه أمور نشاهدها من أنفسنا دائما.

و إذا کان کذلک کان تمایل الإنسان إلی قوه من القوی،و استرساله فی طاعه أوامرها، و الانبعاث إلی ما تبعث إلیه یوجب طغیان القوه المطاعه،و اضطهاد القوه المضاده لها اضطهادا ربما بلغ بها إلی حد البطلان أو کاد یبلغ،فالاسترسال فی شهوه الطعام أو شهوه النکاح یصرف الإنسان عن جمیع مهمات الحیاه من کسب و عشره و تنظیم أمر منزل و تربیه أولاد و سائر الواجبات الفردیه و الاجتماعیه التی یجب القیام بها، و نظیره الاسترسال فی طاعه سائر القوی الشهویه و القوی الغضبیه،و هذا أیضا مما لا نزال نشاهدها من أنفسنا و من غیرنا خلال أیام الحیاه.

و فی هذا الإفراط و التفریط هلاک الإنسانیه فإن الإنسان هو النفس المسخره لهذه القوی المختلفه،و لا شأن له إلا سوق المجموع من القوی بأعمالها فی طریق سعادته فی الحیاه الدنیا و الآخره،و لیست إلا حیاه علمیه کمالیه،فلا محیص له عن أن یعطی کلا من القوی من حظها ما لا تزاحم به القوی الأخری و لا تبطل من رأس.

فالإنسان لا یتم له معنی الإنسانیه إلا إذا عدل قواه المختلفه تعدیلا یورد کلا منها وسط الطریق المشروع لها،و ملکه الاعتدال فی کل واحده من القوی هی التی نسمیها بخلقها الفاضل کالحکمه و الشجاعه و العفه و غیرها،و یجمع الجمیع العداله.

و لا ریب أن الإنسان إنما یحصل علی هذه الأفکار الموجوده عنده و یتوسع فی معارفه و علومه الإنسانیه باقتراح هذه القوی الشعوریه أعمالها و مقتضیاتها،بمعنی أن الإنسان فی

أول كينونته صفر الكف من هذه العلوم و المعارف الوسيعه حتى تشعر قواه الداخله بحوائجها، و تقترح عليه ما تشتهيها و تطلبها،و هذه الشعورات الابتدائيه هى مبادئ علوم الإنسان ثم لا يزال الإنسان يعمم و يخصص و يركب و يفصل حتى يتم له أمر الأفكار الإنسانيه.

و من هنا يحدس اللبيب أن توغل الإنسان فى طاعه قوه من قواه المتضاده و إسرافه فى إجابه ما تقترح عليه يوجب انحرافه فى أفكاره و معارفه بتحكيم جميع ما تصدقه هذه القوه على ما يعطيه غيرها من التصديقات و الأفكار،و غفلته عما يقتضيه غيرها.

و التجربه تصدق ذلک فإن هذا الانحراف هو الذى نشاهده فى الأفراد المسرفين المترفين من حلفاء الشهوه،و فى البغاه الطغاه الظلمه المفسدين أمر الحياه فى المجتمع الإنسانى فإن هؤلاء الخائضين فى لجج الشهوات،العاكفين على لذائذ الشرب و السماع و الوصال لا يكادون يستطيعون التفكر فى واجبات الإنسانيه،و مهام الأمور التى يتنافس فيها أبطال الرجال و قد تسربت روح الشهوه فى قعودهم و قيامهم و اجتماعهم و افتراقهم و غير ذلک و كذلک الطغاه المستكبرون أقسياء القلوب لا يتأتى لهم أن يتصوروا رأفه و شفقه و رحمه و خضوعا و تذللا حتى فيما يجب فيه ذلک،و حياتهم تمثل حالهم الخبيث الذى هم عليه فى جميع مظاهرها من تكلم و سكوت و نظر و غض و إقبال و إدبار،فهؤلاء جميعا سالكوا طريق الخطإ فى علومهم،کل طائفه منهم مكبه على ما تناله من العلوم و الأفكار المحرفه المنحرفه المتعلقه بما عنده،غافلون عما وراءه و فيما وراءه،العلوم النافعه و المعارف الحقه الإنسانيه فالمعارف الحقه و العلوم النافعه لا تتم للإنسان إلا إذا صلحت أخلاقه و تمت له الفضائل الإنسانيه القيمه و هو التقوى.

فقد تحصل أن الأعمال الصالحه هى التى تحفظ الأخلاق الحسنه،و الأخلاق الحسنه هى التى تحفظ المعارف الحقه و العلوم النافعه و الأفكار الصحيحه،و لا خير فى علم لا عمل معه.

و هذا البحث و إن سقناه سوقا علميا أخلاقيا لمسيس الحاجه إلى التوضيح إلا أنه هو الذى جمعه الله تعالى فى كلمه حيث قال:« وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» :(لقمان:۱۹) فإنه كنايه عن أخذ وسط الاعتدال فى مسير الحياه،و قال:« إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» :(الأنفال:

۲۹)و قال:« وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وَ اتَّقُونِ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ» :(البقره:۱۹۷)، أى لأنكم أولوا الألباب تحتاجون فى عمل لبكم إلى التقوى و الله أعلم،و قال تعالى:« وَ نَفْسٍ

وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا» :(الشمس:

١٠)و قال :«وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ :(آل عمران:١٣٠).

و من طريق آخر:قال تعالى:« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا الصَّلاٰةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً» :(مريم:٦٠)فذكر أن اتباع الشهوات يسوق إلى الغي،و قال تعالى:« سَأَصْرِفُ عَنْ آيٰاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ» :(الأعراف:١۴۶) فذكر أن أسراء القوى الغضبيه ممنوعون من اتباع الحق مسوقون إلى سبيل الغى،ثم ذكر أن ذلك بسبب غفلتهم عن الحق،و قال تعالى:« وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ : (الأعراف:١٧٩)فذكر أن هؤلاء الغافلين إنما هم غافلون عن حقائق المعارف التى للإنسان،فقلوبهم و أعينهم و آذانهم بمعزل عن نيل ما يناله الإنسان،السعيد فى إنسانيته،و إنما ينالون بها ما تناله الأنعام أو ما هو أضل من الأنعام و هى الأفكار التى إنما تصوبها و تميل إليها و تألف بها البهائم السائمه و السباع الضاريه.

فظهر من جميع ما تقدم أن القرآن الكريم إنما اشترط التقوى فى التفكر و التذكر و التعقل،و قارن العلم بالعمل للحصول على استقامه الفكر و إصابه العلم و خلوصه من شوائب الأوهام الحيوانيه و الإلقاءات الشيطانيه.

نعم هاهنا حقيقه قرآنيه لا مجال لإنكارها،و هو أن دخول الإنسان فى حظيره الولايه الإلهيه،و تقربه إلى ساحه القدس و الكبرياء يفتح له بابا إلى ملكوت السماوات و الأرض يشاهد منه ما خفى على غيره من آيات الله الكبرى،و أنوار جبروته التى لا تطفأ، قال الصادق(ع):لو لا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لرأوا ملكوت السماوات و الأرض،و فيما رواه الجمهور عن النبى ص قال:لو لا تكثير فى كلامكم و تمريج فى قلوبكم لرأيتم ما أرى و لسمعتم ما أسمع،و قد قال تعالى:« وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» :(العنكبوت:۶٩)و يدل على ذلك ظاهر قوله تعالى:« وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» : (الحجر:٩٩)حيث فرع اليقين على العباده،و قال تعالى:« وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» :(الأنعام:٧۵)فربط

وصف الإيقـان بمشاهـده الملكوت،و قـال تعالى:« كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ» :(التكاثر:٧)و قـال تعـالى:« إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» :(المطففين:٢١)و ليطلب البحث المستوفى فى هـذا المعنى ممـا سـيجىء من الكلام فى قوله تعـالى: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ» XالآيهX:(المائده:۵۵)و فى قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» XالآيهX:(المائده:١٠۵).

و لا ينافى ثبوت هذه الحقيقه ما قدمناه أن القرآن الكريم يؤيد طريق التفكر الفطرى الذى فطر عليه الإنسان و بنى عليه بنيه الحياه الإنسانيه،فإن هذا طريق غير فكرى، و موهبه إلهيه يختص بها من يشاء من عباده و العاقبه للمتقين.

(بحث تاريخى) [فى تاريخ التفكر الإسلامى إجمالا.]

ننظر فيه نظرا إجماليا فى تاريخ التفكير الإسلامى و الطريق الـذى سلكته الأمه الإسلاميه على اختلاف طوائفها و مـذاهبها،و لا نلوى فيه إلى مـذهب من المـذاهب بإحقـاق أو إبطـال،و إنما نعرض الحوادث الواقعه على منطق القرآن و نحكمه فى الموافقه و المخـالفه، و أمـا مـا بـاهى به موافق و ما اعتـذر به مخالف فلا شأن لنا فى الغور فى أصوله و جـذوره، فإنما ذلك طريق آخر من البحث مذهبى أو غيره.

القرآن الكريم يتعرض بمنطقه فى سـنته المشروعه لجميع شـئون الحياه الإنسانيه من غير أن تتقيـد بقيد أو تشترط بشـرط،يحكم على الإنسـان منفردا أو مجتمعـا،صـغيرا أو كبيرا،ذكرا أو أنثى،على الأبيض و الأسود،و العربى و العجمى،و الحاضـر و البادى، و العـالم و الجاهـل،و الشاهـد و الغائب،فى أى زمان كان و فى أى مكان كان و يـداخل كل شأن من شـئونه من اعتقاد أو خلق أو عمل من غير شك.

فللقرآن اصطكاك مع جميع العلوم و الصناعات المتعلقه بأطراف الحياه الإنسانيه و من الواضح اللائح من خلال آياته النادبه إلى التـدبر و التفكر و التـذكر و التعقـل أنـه يحث حثـا بالغـا على تعـاطى العلـم و رفض الجهـل فى جميع مـا يتعلـق بالسـماويات و الأرضـيات و النبات و الحيوان و الإنسان،من أجزاء عالمنا و ما وراءه من الملائكه و الشياطين و اللوح و القلم و غير ذلك ليكون ذريعه إلى معرفه الله سبحانه،و ما يتعلق نحوا من التعلق بسعاده

الحیاه الإنسانیه الاجتماعیه من الأخلاق و الشرائع و الحقوق و أحکام الاجتماع.

و قد عرفت أنه یؤید الطریق الفطری من التفکر الذی تدعو إلیه الفطره دعوه اضطراریه لا- معدل عنها علی حق ما تدعو إلیه الفطره من السیر المنطقی.

و القرآن نفسه یستعمل هذه الصناعات المنطقیه من برهان و جدل و موعظه،و یدعو الأمه التی یهدیها إلی أن یتبعوه فی ذلک فیتعاطوا البرهان فیما کان من الواقعیات الخارجه من باب العمل و یستدلوا بالمسلمات فی غیر ذلک أو بما یعتبر به.

و قد اعتبر القرآن فی بیان مقاصده السنه النبویه،و عین لهم الأسوه فی رسول الله ص فکانوا یحفظون عنه،و یقلدون مشیته العلمیه تقلید المتعلم معلمه فی السلوک العلمی.

کان القوم فی عهد النبی ص(و نعنی به أیام إقامته بالمدینه)حدیثی عهد بالتعلیم الإسلامی،حالهم أشبه بحال الإنسان القدیم فی تدوین العلوم و الصناعات،یشتغلون بالأبحاث العلمیه اشتغالا ساذجا غیر فنی علی عنایه منهم بالتحصیل و التحریر،و قد اهتموا أولا بحفظ القرآن و قراءته،و حفظ الحدیث عن النبی ص من غیر کتابه،و نقله،و کان لهم بعض المطارحات الکلامیه فیما بینهم أنفسهم،و احتجاجات مع بعض أرباب الملل الأجنبیه و لا سیما الیهود و النصاری لوجود أجیال منهم فی الجزیره و الحبشه و الشام،و من هنا یبتدئ ظهور علم الکلام و کانوا،یشتغلون بروایه الشعر و قد کانت سنه عربیه لم یهتم بأمرها الإسلام و لم یمدح الکتاب الشعر و الشعراء بکلمه،و لا السنه بالغت فی أمره.

ثم لما ارتحل النبی ص کان من أمر الخلافه ما هو معروف و زاد الاختلاف الحادث عند ذلک بابا علی الأبواب الموجوده.

و جمع القرآن فی زمن الخلیفه الأول بعد غزوه یمامه و شهاده جماعه من القراء فیها.

و کان الأمر علی هذا فی عهد خلافته-و هی سنتان تقریبا-ثم فی عهد الخلیفه الثانی.

و الإسلام و إن انتشر صیته و اتسع نطاقه بما رزق المسلمون من الفتوحات العظیمه فی عهده لکن الاشتغال بها کان یعوقهم عن التعمق فی إجاله النظر فی روابط العلوم و التماس الارتقاء فی مدارجها،أو إنهم ما کانوا یرون لما عندهم من المستوی العلمی حاجه إلی التوسع و التبسط.

ص :۲۷۲

و ليس العلم و فضله أمرا محسوسا يعرفه أمه من أمه أخرى إلا أن يرتبط بالصنعه فيظهر أثره على الحس فيعرفه العامه.

و قد أيقظت هذه الفتوحات المتواليه الغزيره العرب الجاهليه من الغرور و النخوه بعد ما كانت فى سكن بالتربيه النبويه،فكانت تتسرب فيهم روح الأمم المستعليه الجباره،و تتمكن منهم رويدا،يشهد به شيوع تقسيم الأمه المسلمه يومئذ إلى العرب و الموالى،و سير معاويه-و هو والى الشام يومذاك-بين المسلمين بسيره ملوكيه قيصريه، و أمور أخرى كثيره ذكرها التاريخ عن جيوش المسلمين،و هذه نفسيات لها تأثير فى السير العلمى و لا سيما التعليمات القرآنيه.

و أما الذى كان عندهم من حاضر السير العلمى فالاشتغال بالقرآن كان على حاله و قد صار مصاحف متعدده تنسب إلى زيد و أبى و ابن مسعود و غيرهم.

و أما الحديث فقد راج رواجا بينا و كثر النقل و الضبط إلى حيث نهى عمر بعض الصحابه عن التحديث لكثره ما روى،و قد كان عده من أهل الكتاب دخلوا فى الإسلام و أخذ عنهم المحدثون شيئا كثيرا من أخبار كتبهم و قصص أنبيائهم و أممهم،فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظه عن النبى ص،و أخذ الوضع و الدس يدوران فى الأحاديث،و يوجد اليوم فى الأحاديث المقطوعه المنقوله عن الصحابه و رواتهم فى الصدر الأول شىء كثير من ذلك يدفعه القرآن بظاهر لفظه.

و جمله السبب فى ذلك أمور ثلاثه:

۱-المكانه الرفيعه التى كانت تعتقدها الناس لصحبه النبى و حفظ الحديث عنه،و كرامه الصحابه و أصحابهم النقله عنهم على الناس،و تعظيمهم لأمرهم،فدعا ذلك الناس إلى الأخذ و الإكثار(حتى عن مسلمى أهل الكتاب)و الرقابه الشديده بين حمله الحديث فى حيازه التقدم و الفخر.

۲-إن الحرص الشديد منهم على حفظ الحديث و نقله منعهم عن تمحيصه و التدبر فى معناه و خاصه فى عرضه على كتاب الله و هو الأصل الذى تبتنى عليه بنيه الدين و تستمد منه فروعه،

و قد وصاهم بذلك النبى ص فيما صح من قوله: «ستكثر على القاله»

الحدیث،و غیره.

و حصلت بذلک فرصه لأن تدور بینهم أحادیث موضوعه فی صفات الله و أسمائه و أفعاله،و زلات منسوبه إلی الأنبیاء الکرام،و مساوئ مشوهه تنسب إلی النبی ص و خرافات فی الخلق و الإیجاد،و قصص الأمم الماضیه،و تحریف القرآن و غیر ذلک مما لا تقصر عما تتضمنه التوراه و الإنجیل من هذا القبیل.

و اقتسم القرآن و الحدیث عند ذلک التقدم و العمل:فالتقدم الصوری للقرآن و الأخذ و العمل بالحدیث فلم یلبث القرآن دون أن هجر عملا،و لم تزل تجری هذه السیره و هی الصفح عن عرض الحدیث علی القرآن مستمره بین الأمه عملا حتی الیوم و إن کانت تنکرها قولا وَ قٰالَ الرَّسُولُ یٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» اللهم إلا آحاد بعد آحاد.

و هذا التساهل بعینه هو أحد الأسباب فی بقاء کثیر من الخرافات القومیه القدیمه بین الأمم الإسلامیه بعد دخولهم فی الإسلام و الداء یجر الداء.

۳-إن ما جری فی أمر الخلافه بعد رسول الله ص أوجب اختلاف آراء عامه المسلمین فی أهل بیته فمن عاکف علیهم هائم بهم،و من معرض عنهم لا یعبأ بأمرهم و مکانتهم من علم القرآن أو مبغض شانئ لهم،و قد وصاهم النبی ص بما لا یرتاب فی صحته و دلالته مسلم أن یتعلموا منهم و لا یعلموهم و هم أعلم منهم بکتاب الله،و ذکر لهم أنهم لن یغلطوا فی تفسیره و لن یخطئوا فی فهمه

قال فی حدیث الثقلین المتواتر: إنی تارک فیکم الثقلین کتاب الله و عترتی-و لن یفترقا حتی یردا علی الحوض الحدیث.

و فی بعض طرقه: لا تعلموهم فإنهم أعلم منکم.

و قال فی المستفیض من کلامه: «من فسر القرآن برأیه فلیتبوأ مقعده من النار» و قد تقدم فی أبحاث المحکم و المتشابه فی الجزء الثالث من الکتاب.

و هذا أعظم ثلمه انثلم بها علم القرآن و طریق التفکر الذی یندب إلیه.و من الشاهد علی هذا الإعراض قله الأحادیث المنقوله عنهم(ع)فإنک إذا تأملت ما علیه علم الحدیث فی عهد الخلفاء من المکانه و الکرامه،و ما کان علیه الناس من الولع و الحرص الشدید علی أخذه ثم أحصیت ما نقل فی ذلک عن علی و الحسن و الحسین،و خاصه ما نقل من ذلک فی تفسیر القرآن لرأیت عجبا:أما الصحابه فلم ینقلوا عن علی(ع) شیئا یذکر،و أما التابعون فلا یبلغ ما نقلوا عنه-إن أحصی-مائه روایه فی تمام القرآن

و أما الحسن(ع)فلعل المنقول عنه لا يبلغ عشرا،و أما الحسين فلم ينقل عنه شيء يذكر،و قد أنهى بعضهم الروايات الوارده فى التفسير إلى سبعه عشر ألف (۱)حديث من طريق الجمهور وحده،و هذه النسبه موجوده فى روايات الفقه أيضا (۲).

فهل هذا لأنهم هجروا أهل البيت و أعرضوا عن حديثهم؟أو لأنهم أخذوا عنهم و أكثروا ثم أخفيت و نسيت فى الدوله الأمويه لانحراف الأمويين عنهم؟ما أدرى.

غير أن عزله على و عدم اشتراكه فى جمع القرآن أولا و أخيرا و تاريخ حياه الحسن و الحسين(ع)يؤيد أول الاحتمالين.

و قد آل أمر حديثه إلى أن أنكر بعض كون ما اشتمل عليه كتاب نهج البلاغه من غرر خطبه من كلامه،و أما أمثال الخطبه البتراء لزياد بن أبيه و خمريات يزيد فلا يكاد يختلف فيها اثنان!.

و لم يزل أهل البيت مضطهدين،مهجورا حديثهم إلى أن انتهض الإمامان:محمد بن على الباقر و جعفر بن محمد الصادق(ع)فى برهه كالهدنه بين الدوله الأمويه و الدوله العباسيه فبينا ما ضاعت من أحاديث آبائهم،و جددا ما اندرست و عفيت من آثارهم.

غير أن حديثهما و غيرهما من آبائهما و أبنائهما من أئمه أهل البيت أيضا لم يسلم من الدخيل و لم يخلص من الدس و الوضع كحديث رسول الله ص،و قد ذكرا ذلك فى الصريح من كلامهما،و عدا رجالا من الوضاعين كمغيره بن سعيد و ابن أبى الخطاب و غيرهما،و أنكر بعض الأئمه روايات كثيره مرويه عنهم و عن النبى ص،و أمروا أصحابهم و شيعتهم بعرض الأحاديث المنقوله عنهم على القرآن و أخذ ما وافقه و ترك ما خالفه.

و لكن القوم(إلا آحاد منهم)لم يجروا عليها عملا فى أحاديث أهل البيت(ع) و خاصه فى غير الفقه،و كان السبيل الذى سلكوه فى ذلك هو السبيل الذى سلكه الجمهور فى أحاديث النبى ص.

۱- ۱) ذكر ذلك السيوطى فى الإتقان،و ذكر أنه عدد الروايات فى تفسيره المسمى بترجمان القرآن و تلخيصه المسمى بالدر المنثور.

۲- ۲) ذكر بعض المتتبعين أنه عثر على حديثين مرويين عن الحسين ع فى الروايات الفقهيه.

و قد أفرط فی الأمر إلی حیث ذهب جمع إلی عدم حجیه ظواهر الکتاب و حجیه مثل مصباح الشریعه و فقه الرضا و جامع الأخبار!و بلغ الإفراط إلی حیث ذکر بعضهم أن الحدیث یفسر القرآن مع مخالفته لصریح دلالته،و هذا یوازن ما ذکره بعض الجمهور:

أن الخبر ینسخ الکتاب.و لعل المتراءی من أمر الأمه لغیرهم من الباحثین کما ذکره بعضهم:

«أن أهل السنه أخذوا بالکتاب و ترکوا العتره،فآل ذلک إلی ترک الکتاب لقول النبی ص:«إنهما لن یفترقا»و أن الشیعه أخذوا بالعتره و ترکوا الکتاب،فآل ذلک منهم إلی ترک العتره لقوله(ص):«إنهما لن یفترقا»فقد ترکت الأمه القرآن و العتره(الکتاب و السنه)معا».

و هذه الطریقه المسلوکه فی الحدیث أحد العوامل التی عملت فی انقطاع رابطه العلوم الإسلامیه و هی العلوم الدینیه و الأدبیه عن القرآن مع أن الجمیع کالفروع و الثمرات من هذه الشجره الطیبه التی أصلها ثابت و فرعها فی السماء تؤتی أکلها کل حین بإذن ربها، و ذلک أنک إن تبصرت فی أمر هذه العلوم وجدت أنها نظمت تنظیما لا حاجه لها إلی القرآن أصلا حتی أنه یمکن لمتعلم أن یتعلمها جمیعا:الصرف و النحو و البیان و اللغه و الحدیث و الرجال و الدرایه و الفقه و الأصول فیأتی آخرها،ثم یتضلع بها ثم یجتهد و یتمهر فیها و هو لم یقرأ القرآن،و لم یمس مصحفا قط،فلم یبق للقرآن بحسب الحقیقه إلا التلاوه لکسب الثواب أو اتخاذه تمیمه للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثان!فاعتبر إن کنت من أهله.

و لنرجع إلی ما کنا فیه:

کان حال البحث عن القرآن و الحدیث فی عهد عمر ما سمعته،و قد اتسع نطاق المباحث الکلامیه فی هذا العهد لما أن الفتوحات الوسیعه أفضت بالطبع إلی اختلاط المسلمین بغیرهم من الأمم و أرباب الملل و النحل و فیهم العلماء و الأحبار و الأساقفه و البطارقه الباحثون فی الأدیان و المذاهب فارتفع منار الکلام لکن لم یدون بعد تدوینا،فإن ما عد من التآلیف فیه إنما ذکر فی ترجمات من هو بعد هذا العصر.

ثم کان الأمر علی ذلک فی عهد عثمان علی ما فیه من انقلاب الناس علی الخلافه،و إنما وفق لجمع المصاحف،و الاتفاق علی مصحف واحد.

ثم کان الأمر علی ذلک فی خلافه علی(ع)و شغله إصلاح ما فسد من مجتمع المسلمین

بالاختلافات الداخليه و وقع حروب متواليه فی إثر ذلک.

غير أنه(ع)وضع علم النحو و أملأ كلياته أبا الأسود الدئلی من أصحابه و أمره بجمع جزئيات قواعده،و لم يتأت له وراء ذلک إلا أن ألقی بيانات من خطب و أحاديث فيها جوامع مواد المعارف الدينيه و أنفس الأسرار القرآنيه،و له مع ذلک احتجاجات كلاميه مضبوطه فی جوامع الحديث.

ثم كان الأمر علی ذلک فی خصوص القرآن و الحديث فی عهد معاويه و من بعده من الأمويين و العباسيين إلی أوائل القرن الرابع من الهجره تقريبا و هو آخر عهد الأئمه الاثنی عشر عند الشيعه،فلم يحدث فی طريق البحث عن القرآن و الحديث أمر مهم غير ما كان فی عهد معاويه من بذل الجهد فی إماته ذكر أهل البيت(ع)و إعفاء أثرهم و وضع الأحاديث،و قد انقلبت الحكومه الدينيه إلی سلطنه استبداديه،و تغيرت السنه الإسلاميه إلی سيطره إمبراطوريه،و ما كان فی عهد عمر بن عبد العزيز من أمره بكتابه الحديث، و قد كان المحدثون يتعاطون الحديث إلی هذه الغايه بالأخذ و الحفظ من غير تقييد بالكتابه.

و فی هذه البرهه راج الأدب العربی غايه رواجه،شرع ذلک من زمن معاويه فقد كان يبالغ فی ترويج الشعر ثم الذين يلونه من الأمويين ثم العباسيين،و كان ربما يبذل بإزاء بيت من الشعر أو نكته أدبيه المئات و الألوف من الدنانير،و انكب الناس علی الشعر و روايته، و أخبار العرب و أيامهم،و كانوا يكتسبون بذلک الأموال الخطيره،و كانت الأمويون ينتفعون برواجه و بذل الأموال بحذائه لتحكيم موقعهم تجاه بنی هاشم ثم العباسيون تجاه بنی فاطمه كما كانوا يبالغون فی إكرام العلماء ليظهروا بهم علی الناس،و يحملوهم ما شاءوا و تحكموا.

و بلغ من نفوذ الشعر و الأدب فی المجتمع العلمی أنک تری كثيرا من العلماء يتمثلون بشعر شاعر أو مثل سائر فی مسائل عقليه أو أبحاث علميه ثم يكون له القضاء،و كثيرا ما يبنون المقاصد النظريه علی مسائل لغويه و لا أقل من البحث اللغوی فی اسم الموضوع أولا ثم الورود فی البحث ثانيا،و هذه كلها أمور لها آثار عميقه فی منطق الباحثين و سيرهم العلمی.

و فی تلک الأيام راج البحث الكلامی،و كتب فيه الكتب و الرسائل،و لم يلبثوا أن

تفرقوا فرقتين عظيمتين و هما الأشاعره و المعتزله،و كانت أصول أقوالهم موجوده فی زمن الخلفاء بل فی زمن النبی ص یدل علی ذلک ما روی من احتجاجات علی(ع)فی الجبر و التفویض و القدر و الاستطاعه و غیرها،و ما روی عن النبی ص فی ذلک (۱)و إنما امتازت الطائفتان فی هذا الأوان بامتیاز المسلکین و هو تحکیم المعتزله ما یستقل به العقل علی الظواهر الدینیه کالقول بالحسن و القبح العقلیین،و قبح الترجیح من غیر مرجح،و قبح التکلیف بما لا یطاق،و الاستطاعه،و التفویض،و غیر ذلک،و تحکیم الأشاعره الظواهر علی حکم العقل بالقول بنفی الحسن و القبح،و جواز الترجیح من غیر مرجح،و نفی الاستطاعه،و القول بالجبر، و قدم کلام الله،و غیر ذلک مما هو مذکور فی کتبهم.

ثم رتبوا الفن و اصطلحوا الاصطلاحات و زادوا مسائل قابلوا بها الفلاسفه فی المباحث المعنویه بالأمور العامه،و ذلک بعد نقل کتب الفلسفه إلی العربیه و انتشار دراستها بین المسلمین،و لیس الأمر علی ما ذکره بعضهم:أن التکلم ظهر أو انشعب فی الإسلام إلی الاعتزال و الأشعریه بعد انتقال الفلسفه إلی العرب،یدل علی ذلک وجود معظم مسائلهم و آرائهم فی الروایات قبل ذلک.

و لم تزل المعتزله تتکثر جماعتهم و تزداد شوکتهم و أبهتهم منذ أول الظهور إلی أوائل العهد العباسی(أوائل القرن الثالث الهجری)ثم رجعوا یسلکون سبیل الانحطاط و السقوط حتی أبادتهم الملوک من بنی أیوب فانقرضوا و قد قتل فی عهدهم و بعدهم لجرم الاعتزال من الناس ما لا یحصیه إلا الله سبحانه و عند ذلک صفا جو البحث الکلامی للأشاعره من غیر معارض فتوغلوا فیه بعد ما کان فقهاؤهم یتأثمون بذلک أولا،و لم یزل الأشعریه رائجه عندهم إلی الیوم.

و کان للشیعه قدم فی التکلم،کان أول طلوعهم بالتکلم بعد رحله النبی ص و کان جلهم من الصحابه کسلمان و أبی ذر و المقداد و عمار و عمرو بن الحمق و غیرهم و من التابعین کرشید و کمیل و میثم و سائر العلویین أبادتهم أیدی الأمویین،ثم تأصلوا و قوی أمرهم ثانیا

ص:۲۷۸

۱- ۱) کقوله صلی الله علیه و آله فیما روی عنه:لا جبر و لا تفویض بل أمر بین أمرین،و قوله: القدریه مجوس هذه الأمه.

فی زمن الإمامین:الباقر و الصادق(ع)و أخـذوا بالبحث و تألیف الکتب و الرسائل، و لم یزالوا یجدون الجد تحت قهر الحکومات و اضـطهادها حتی رزقوا بعض الأمن فی الدوله البویهیه (۱)ثم أختنقوا ثانیا حتی صـفا لهم الأمر بظهور الدوله الصـفویه فی إیران (۲)، ثم لم یزالوا علی ذلک حتی الیوم.

و کانت سیماء بحثهم فی الکلام أشبه بالمعتزله منها بالأشاعره،و لذلک ربما اختلط بعض الآراء کالقول بالحسن و القبح و مسأله الترجیح من غیر مرجح و مسأله القدر و مسأله التفویض،و لذلک أیضا اشـتبه الأمر علی بعض الناس فعد الطائفتین أعنی الشیعه و المعتزله ذواتی طریقه واحـده فی البحث الکلامی،کفرسـی رهـان،و قـد أخطأ،فإن الأصول المرویه عن أئمه أهل البیت(ع)و هی المعتبره عند القوم لا تلائم مذاق المعتزله فی شیء.

و علی الجمله فن الکلام فن شـریف یـذب عن المعارف الحقه الـدینیه غیر أن المتکلمین من المسـلمین أساءوا فی طریق البحث فلم یمیزوا بین الأحکام العقلیه و اختلط عندهم الحق بالمقبول علی ما سیجیء إیضاحه بعض الإیضاح.

و فی هـذه البرهه من الزمن نقلت علوم الأوائـل من المنطق و الریاضـیات و الطبیعیـات و الإلهیـات و الطب و الحکمه العملیه إلی العربیه،نقل شـطر منها فی عهد الأمویین ثم أکمل فی أوائل عهد العباسـیین،فقد ترجموا مئات من الکتب من الیونانیه و الرومیه و الهنـدیه و الفارسـیه و السـریانیه إلی العربیه،و أقبل الناس یتدارسون مختلف العلوم و لم یلبثوا کثیرا حتی اسـتقلوا بالنظر،و صـنفوا فیهـا کتبـا و رسائل،و کان ذلک یغیظ علماء الوقت،و لا سـیما ما کانوا یشاهـدونه من تظاهر الملاحـده من الـدهریه و الطبیعیه و المانویه و غیرهم علی المسائل المسـلمه فی الـدین،و ما کان علیه المتفلسـفون من المسـلمین من الوقیعه فی الدین و أهله،و تلقی أصول الإسلام و معالم الشرع الطاهره بالإهانه و الإزراء(و لا داء کالجهل).

و من أشـد مـا کـان یغیظهم مـا کـانوا یسـمعونه منهم من القـول فی المسائـل المبتنیه علی أصـول موضـوعه مـأخوذه من الهیئه و الطبیعیات کوضع الأفلاک البطلیموسیه،و کونها

۱- ۱) فی القرن الرابع من الهجره تقریبا

۲- ۲) فی أوائل القرن العاشر من الهجره.

طبيعه خامسه،و استحاله الخرق و الالتيام فيها،و قدم الأفلاك و الفلكيات بالشخص و قدم العناصر بالنوع،و قدم الأنواع و نحو ذلك فإنها مسائل مبنيه على أصول موضوعه لم يبرهن عليها فى الفلسفه لكن الجهله من المتفلسفين كانوا يظهرونها فى زى المسائل المبرهن عليها،و كانت الدهريه و أمثالهم و هم يومئذ منتحلون إليها يضيفون إلى ذلك أمورا أخرى من أباطيلهم كالقول بالتناسخ و نفى المعاد و لا-سيما المعاد الجسمانى،و يطعنون بذلك كله فى ظواهر الدين و ربما قال القائل منهم:إن الدين مجموع وظائف تقليديه أتى بها الأنبياء لتربيه العقول الساذجه البسيطه و تكميلها،و أما الفيلسوف المتعاطى للعلوم الحقيقيه فهو فى غنى عنهم و عما أتوا به،و كانوا ذوى أقدام فى طرق الاستدلال.

فدعا ذلك الفقهاء و المتكلمين و حملهم على تجبيههم بالإنكار و التدمير عليهم بأى وسيله تيسرت لهم من محاجه و دعوه عليهم و براءه منهم و تكفير لهم حتى كسروا سورتهم و فرقوا جمعهم و أفنوا كتبهم فى زمن المتوكل،و كادت الفلسفه تنقرض بعده حتى جدده ثانيا المعلم الثانى أبو نصر الفارابى المتوفى سنه ۳۳۹ ثم بعده الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنه ۴۲۸ ثم غيرهما من معاريف الفلسفه كأبى على بن مسكويه و ابن رشد الأندلسى و غيرهما،ثم لم تزل الفلسفه تعيش على قله من متعاطيها و تجول بين ضعف و قوه.

و هى و إن انتقلت ابتداء إلى العرب لكن لم يشتهر بها منهم إلا-الشاذ النادر كالكندى و ابن رشد،و قد استقرت أخيرا فى إيران،و المتكلمون من المسلمين و إن خالفوا الفلسفه و أنكروا على أهلها أشد الإنكار لكن جمهورهم تلقوا المنطق بالقبول فألفوا فيها الرسائل و الكتب لما وجدوه موافقا لطريق الاستدلال الفطرى.

غير أنهم-كما سمعت-أخطئوا فى استعماله فجعلوا حكم الحدود الحقيقيه و أجزائها مطردا فى المفاهيم الاعتباريه،و استعملوا البرهان فى القضايا الاعتباريه التى لا مجرى فيها إلا للقياس الجدلى فتراهم يتكلمون فى الموضوعات الكلاميه كالحسن و القبح و الثواب و العقاب و الحبط و الفضل فى أجناسها و فصولها و حدودها،و أين هى من الحد؟و يستدلون فى المسائل الأصوليه و المسائل الكلاميه من فروع الدين بالضروره و الامتناع.و ذلك من استخدام الحقائق فى الأمور الاعتباريه و يبرهنون فى أمور ترجع إلى الواجب تعالى بأنه يجب عليه كذا و يقبح منه كذا فيحكمون الاعتبارات على الحقائق،و يعدونه برهانا،و ليس بحسب

الحقيقه إلا من القياس الشعرى.

و بلغ الإفراط فى هذا الباب إلى حد قال قائلهم:إن الله سبحانه أنزه ساحه من أن يدب فى حكمه و فعله الاعتبار الذى حقيقته الوهم فكل ما كونه تكوينا أو شرعه تشريعا أمور حقيقيه واقعيه،و قال آخر:إن الله سبحانه أقدر من أن يحكم بحكم ثم لا يستطاع من إقامه البرهان عليه،فالبرهان يشمل التكوينيات و التشريعيات جميعا.إلى غير ذلك من الأقاويل التى هى لعمرى من مصائب العلم و أهله،ثم الاضطرار إلى وضعها و البحث عنها فى المسفورات العلميه أشد مصيبه.

و فى هذه البرهه ظهر التصوف بين المسلمين،و قد كان له أصل فى عهد الخلفاء يظهر فى لباس الزهد،ثم بان الأمر بتظاهر المتصوفه فى أوائل عهد بنى العباس بظهور رجال منهم كأبى يزيد و الجنيد و الشبلى و معروف و غيرهم.

يرى القوم أن السبيل إلى حقيقه الكمال الإنسانى و الحصول على حقائق المعارف هو الورود فى الطريقه،و هى نحو ارتياض بالشريعه للحصول على الحقيقه،و ينتسب المعظم منهم من الخاصه و العامه إلى على(ع).

و إذا كان القوم يدعون أمورا من الكرامات،و يتكلمون بأمور تناقض ظواهر الدين و حكم العقل مدعين أن لها معانى صحيحه لا ينالها فهم أهل الظاهر ثقل على الفقهاء و عامه المسلمين سماعها فأنكروا ذلك عليهم و قابلوهم بالتبرى و التكفير،فربما أخذوا بالحبس أو الجلد أو القتل أو الصلب أو الطرد أو النفى كل ذلك لخلاعتهم و استرسالهم فى أقوال يسمونها أسرار الشريعه،و لو كان الأمر على ما يدعون و كانت هى لب الحقيقه و كانت الظواهر الدينيه كالقشر عليها و كان ينبغى إظهارها و الجهر بها لكان مشرع الشرع أحق برعايه حالها و إعلان أمرها كما يعلنون،و إن لم تكن هى الحق فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟.

و القوم لم يدلوا فى أول أمرهم على آرائهم فى الطريقه إلا باللفظ ثم زادوا على ذلك بعد أن أخذوا موضعهم من القلوب قليلا بإنشاء كتب و رسائل بعد القرن الثالث الهجرى، ثم زادوا على ذلك بأن صرحوا بآرائهم فى الحقيقه و الطريقه جميعا بعد ذلك فانتشر منهم ما أنشئوه نظما و نثرا فى أقطار الأرض.

و لم يزالوا يزيدون عده و عده و وقوعا فى قلوب العامه و وجاهه حتى بلغوا غايه أوجهم فى القرنين السادس و السابع ثم انتكسوا فى المسير و ضعف أمرهم و أعرض عامه الناس عنهم.

و كان السبب فى انحطاطهم أولا أن شأنا من الشئون الحيويه التى لها مساس بحال عامه الناس إذا اشتد إقبال النفوس عليه و تولع القلوب إليه تاقت إلى الاستدرار من طريقه نفوس و جمع من أرباب المطامع فتزيوا بزيه و ظهروا فى صوره أهله و خاصته فأفسدوا فيه و تعقب ذلك تنفر الناس عنه.

و ثانيا:أن جماعه من مشايخهم ذكروا أن طريقه معرفه النفس طريقه مبتدعه لم يذكرها مشرع الشريعه فيما شرعه إلا أنها طريقه مرضيه ارتضاها الله سبحانه كما ارتضى الرهبانيه المبتدعه بين النصارى قال تعالى:« وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها» :(الحديد:٢٧).

و تلقاه الجمهور منهم بالقبول فأباح ذلك لهم أن يحدثوا للسلوك رسوما و آدابا لم تعهد فى الشريعه،فلم تزل تبتدع سنه جديده و تترك أخرى شرعيه،حتى آل إلى أن صارت الشريعه فى جانب،و الطريقه فى جانب،و آل بالطبع إلى انهماك المحرمات و ترك الواجبات من شعائر الدين و رفع التكاليف،و ظهور أمثال القلندريه و لم يبق من التصوف إلا التكدى و استعمال الأفيون و البنج و هو الفناء.

و الذى يقضى به فى ذلك الكتاب و السنه-و هما يهديان إلى حكم العقل-هو أن القول بأن تحت ظواهر الشريعه حقائق هى باطنها حق،و القول بأن للإنسان طريقا إلى نيلها حق،و لكن الطريق إنما هو استعمال الظواهر الدينيه على ما ينبغى من الاستعمال لا غير، و حاشا أن يكون هناك باطن لا يهدى إليه ظاهر،و الظاهر عنوان الباطن و طريقه، و حاشا أن يكون هناك شىء آخر أقرب مما دل عليه شارع الدين غفل عنه أو تساهل فى أمره أو أضرب عنه لوجه من الوجوه بالمره و هو القائل عز من قائل:« وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ» :(النحل:٨٩)و بالجمله فهذه طرق ثلاثه فى البحث عن الحقائق و الكشف عنها:الظواهر الدينيه و طريق البحث العقلى و طريق تصفيه النفس، أخذ بكل منها طائفه من المسلمين على ما بين الطوائف الثلاث من التنازع و التدافع،و جمعهم

فی ذلک کزوایا المثلث کلما زدت فی مقدار واحده منها نقصت من الأخریین و بالعکس.

و کان الکلام فی التفسیر یختلف اختلافا فاحشا بحسب اختلاف مشرب المفسرین بمعنی أن النظر العلمی فی غالب الأمر کان یحمل علی القرآن من غیر عکس إلا ما شذ.

و قد عرفت أن الکتاب یصدق من کل من الطرق ما هو حق،و حاشا أن یکون هناک باطن حق و لا یوافقه ظاهره،و حاشا أن یکون هناک حق من ظاهر أو باطن و البرهان الحق یدفعه و یناقضه.

و لذلک رام جمع من العلماء بما عندهم من بضاعه العلم علی اختلاف مشاربهم أن یوفقوا بین الظواهر الدینیه و العرفان کابن العربی و عبد الرزاق الکاشانی و ابن فهد و الشهید الثانی و الفیض الکاشانی.

و آخرون أن یوفقوا بین الفلسفه و العرفان کأبی نصر الفارابی و الشیخ السهروردی صاحب الإشراق و الشیخ صائن الدین محمد ترکه.

و آخرون أن یوفقوا بین الظواهر الدینیه و الفلسفه کالقاضی سعید و غیره.

و آخرون أن یوفقوا بین الجمیع کابن سینا فی تفاسیره و کتبه و صدر المتألهین الشیرازی فی کتبه و رسائله و عده ممن تأخر عنه.

و مع ذلک کله فالاختلاف العریق علی حاله لا تزید کثره المساعی فی قطع أصله إلا شده فی التعرق،و لا فی إخماد ناره إلا اشتعالا:

ألفیت کل تمیمه لا تنفع و أنت لا تری أهل کل فن من هذه الفنون إلا ترمی غیره بجهاله أو زندقه أو سفاهه رأی،و العامه تتبرأ منهم جمیعا.

کل ذلک لما تخلفت الأمه فی أول یوم عن دعوه الکتاب إلی التفکر الاجتماعی (و اعتصموا بحبل الله جمیعا و لا تتفرقوا)و الکلام ذو شجون.

اللهم اهدنا إلی ما یرضیک عنا و اجمع کلمتنا علی الحق،و هب لنا من لدنک ولیا، و هب لنا من لدنک نصیرا.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،":فی قوله تعالی:« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا-يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً» (الآیه):أخرج ابن الضریس و النسائی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم-و صححه- عن ابن عباس قال": من کفر بالرجم فقد کفر بالقرآن من حیث لا یحتسب،قال تعالی:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا-يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ»

قال:

فکان الرجم مما أخفوا.

أقول:إشاره إلی ما سیجیء فی تفسیر قوله تعالی:« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ» Xإلی آخر الآیاتX:(المائده:۴۱)من حدیث کتمان الیهود حکم الرجم فی عهد النبی ص و کشفه عن ذلک.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» -(الآیه)قال:

قال:علی انقطاع من الرسل.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی حمزه ثابت بن دینار الثمالی و أبی الربیع قال: حججنا مع أبی جعفر(ع)فی السنه-التی حج فیها هشام بن عبد الملک،و کان معه نافع مولی عمر بن الخطاب-فنظر إلی أبی جعفر(ع)فی رکن البیت-و قد اجتمع علیه الناس فقال نافع:

یا أمیر المؤمنین من هذا الذی تداک علیه الناس؟فقال:هذا نبی أهل الکوفه هذا محمد بن علی،فقال:اشهد لآتینه و لأسألنه عن مسائل-لا یجیبنی فیها إلا نبی أو وصی نبی قال:

فاذهب فاسأله لعلک تخجله.

فجاء نافع حتی اتکأ علی الناس-ثم أشرف علی أبی جعفر(ع)فقال:یا محمد بن علی إنی قرأت التوراه و الإنجیل-و الزبور و الفرقان، و قد عرفت حلالها و حرامها-و قد جئت أسألک عن مسائل لا یجیب فیها إلا نبی أو وصی نبی-قال فرفع أبو جعفر(ع) رأسه فقال:سل عما بدا لک فقال:أخبرنی کم بین عیسی و محمد من سنه؟فقال:أخبرک بقولی أو بقولک؟قال:أخبرنی بالقولین جمیعا-قال:أما فی قولی فخمسمائه سنه،و أما فی قولک فستمائه سنه.

أقول:و قد روی فی أسباب نزول الآیات،أخبار مختلفه کما

رواه الطبری عن

عکرمه: أن الیهود سألت رسول الله ص عن حکم الرجم-فسأل عن أعلمهم فأشاروا إلی ابن صوریا فناشده بالله-هل یجدون حکم الرجم فی کتابهم؟فقال:إنه لما کثر فینا جلدنا مائه و حلقنا الرءوس،فحکم علیهم بالرجم فأنزل الله:« یا أَهْلَ الْکِتابِ إلی قوله -صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ»

و ما رواه أیضا عن ابن عباس قال": أتی رسول الله ص ابن أبی،و بحری بن عمرو،و شاس بن عدی فکلمهم و کلموه،و دعاهم إلی الله و حذرهم نقمته فقالوا:ما تخوفنا یا محمد؟نحن و الله أبناء الله و أحباؤه-کقول النصاری-فأنزل الله فیهم:« وَ قالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصاریٰ» (إلی آخر الآیه.

و ما رواه أیضا عن ابن عباس قال": دعا رسول الله الیهود إلی الإسلام-فرغبهم فیه و حذرهم فأبوا علیه؟فقال لهم معاذ بن جبل-و سعد بن عباده و عقبه بن وهب:یا معشر الیهود اتقوا الله-فوالله إنکم لتعلمون أنه رسول الله-لقد کنتم تذکرونه لنا قبل مبعثه، و تصفونه لنا بصفته،فقال رافع بن حریمه و وهب بن یهودا:ما قلنا لکم هذا،و ما أنزل الله من کتاب من بعد موسی،و لا أرسل بشیرا و لا نذیرا بعده فأنزل الله:« یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا-یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلیٰ فَتْرَهٍ» (الآیه)":و قد رواها فی الدر المنثور، عنه و عن غیره و روی غیر ذلک.

و مضامین الروایات کغالب ما ورد فی أسباب نظریه إنما هی تطبیقات للقضایا علی مضامین الآیات ثم قضاء بکونها أسبابا للنزول فهی أسباب نظریه و الآیات کأنها مطلقه نزولا

[سوره المائده (۵): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

اشاره

وَ إِذْ قالَ مُوسیٰ لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ اُذْکُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ إِذْ جَعَلَ فِیکُمْ أَنْبِیاءَ وَ جَعَلَکُمْ مُلُوکاً وَ آتاکُمْ ما لَمْ یُؤْتِ أَحَداً مِنَ اَلْعالَمِینَ (۲۰) یا قَوْمِ اُدْخُلُوا اَلْأَرْضَ اَلْمُقَدَّسَهَ اَلَّتِی کَتَبَ اَللّٰهُ لَکُمْ وَ لاٰ تَرْتَدُّوا عَلیٰ أَدْبارِکُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِینَ (۲۱) قالُوا یا مُوسیٰ إِنَّ فِیها قَوْماً جَبّارِینَ وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّٰی یَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ یَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ (۲۲) قالَ رَجُلاٰنِ مِنَ اَلَّذِینَ یَخافُونَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَیْهِمَا اُدْخُلُوا عَلَیْهِمُ اَلْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّکُمْ غالِبُونَ وَ عَلَی اَللّٰهِ فَتَوَکَّلُوا إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۳) قالُوا یا مُوسیٰ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِیها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّکَ فَقاتِلاٰ إِنّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴) قالَ رَبِّ إِنِّی لاٰ أَمْلِکُ إِلاّٰ نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ اَلْقَوْمِ اَلْفاسِقِینَ (۲۵) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَهٌ عَلَیْهِمْ أَرْبَعِینَ سَنَهً یَتِیهُونَ فِی اَلْأَرْضِ فَلاٰ تَأْسَ عَلَی اَلْقَوْمِ اَلْفاسِقِینَ (۲۶)

(بیان)

الآیات غیر خالیه عن الاتصال بما قبلها فإنها تشتمل علی نقضهم بعض المواثیق المأخوذه علیهم و هو المیثاق بالسمع و الطاعه لموسی،و تجبیههم موسی(ع)بالرد الصریح لما دعاهم إلیه و ابتلائهم جزاء لذنبهم هذا بالتیه و هو عذاب إلهی.

و فی بعض الأخبار ما یشعر أن هذه الآیات نزلت قبل غزوه بدر فی أوائل الهجره، علی ما ستجیء الإشاره إلیها فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

قوله تعالی:« وَ إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِقَوْمِهِ یٰا قَوْمِ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ» (إلی آخر الآیه)الآیات النازله فی قصص موسی تدل علی أن هذه القصه-دعوه موسی إیاهم إلی دخول الأرض المقدسه-إنما کانت بعد خروجهم من مصر،کما أن قوله فی هذه الآیه:

«وَ جَعَلَکُمْ مُلُوکاً»

یدل علی ذلک أیضا.

و یدل قوله:« وَ آتٰاکُمْ مٰا لَمْ یُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِینَ» علی سبق عده من الآیات النازله علیهم کالمن و السلوی و انفجار العیون من الحجاره و إضلال الغمام.

و یدل قوله:« اَلْقَوْمِ الْفٰاسِقِینَ» المتکرر مرتین علی تحقق المخالفه و معصیه الرسول

ص :۲۸۶

منهم قبل القصه مره بعد مره حتى عادوا بذلك متلبسين بصفه الفسق.

فهذه قرائن تدل على وقوع القصه أعنى قصه التيه فى الشطر الأخير من زمان مكث موسى(ع)فيهم بعد أن بعثه الله تعالى إليهم و أن غالب القصص المقتصه فى القرآن عنهم إنما وقعت قبل ذلك.

فقول موسى لهم:« اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ» أريد به مجموع النعم التى أنعم الله بها عليهم،و حباهم بها و إنما بدأ بذلك مقدمه لما سيندبهم إليه من دخول الأرض المقدسه فذكرهم نعم ربهم لينشطوا بذلك لاستزاده النعمه و استتمامها فإن الله قد كان أنعم عليهم ببعثه موسى و هذا يتهم إلى دينه،و نجاتهم من آل فرعون،و إنزال التوراه،و تشريع الشريعه فلم يبق لهم من تمام النعمه إلا أن يمتلكوا أرضا مقدسه يستقلون فيها بالقطون و السؤدد.

و قد قسم النعمه التى ذكرهم بها ثلاثه أقسام حين التفصيل فقال:« إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ» و هم الأنبياء الذين فى عمود نسبهم كإبراهيم و إسحاق و يعقوب و من بعدهم من الأنبياء،أو خصوص الأنبياء من بنى إسرائيل كيوسف أو الأسباط و موسى و هارون، و النبوه نعمه أخرى.

ثم قال:« وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» أى مستقلين بأنفسكم خارجين من ذل استرقاق الفراعنه و تحكم الجبابره،و ليس الملك إلا من استقل فى أمر نفسه و أهله و ماله،و قد كان بنو إسرائيل فى زمن موسى يسيرون بسنه اجتماعيه هى أحسن السنن و هى سنه التوحيد التى تأمرهم بطاعه الله و رسوله،و العدل التام فى مجتمعهم،و عدم الاعتداء على غيرهم من الأمم من غير أن يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافا يختل به أمر المجتمع،و ما عليهم إلا موسى و هو نبى غير سائر سيره ملك أو رئيس عشيره يستعلى عليهم بغير الحق.

و قيل:المراد بجعلهم ملوكا هو ما قدر الله فيهم من الملك الذى يبتدئ من طالوت فداود إلى آخر ملوكهم،فالكلام على هذا وعد بالملك إخبارا بالغيب فإن الملك لم يستقر فيهم إلا بعد موسى بزمان.و هذا الوجه لا بأس به لكن لا يلائمه قوله:« وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» و لم يقل:و جعل منكم ملوكا،كما قال:« جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ».

و يمكن أن يكون المراد بالملك مجرد ركوز الحكم عند بعض الجماعه فيشمل سنه

الشیخوخه،و یکون علی هذا موسی(ع)ملکا و بعده یوشع النبی و قد کان یوسف ملکا من قبل،و ینتهی إلی الملوک المعروفین طالوت و داود و سلیمان و غیرهم. هذا،و یرد علی هذا الوجه أیضا ما یرد علی سابقه.

ثم قال:« وَ آتاکُمْ ما لَمْ یُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِینَ» و هی العنایات و الألطاف الإلهیه التی اقترنت بآیات باهره قیمه بتعدیل حیاتهم لو استقاموا علی ما قالوا،و داموا علی ما واثقوا، و هی الآیات البینات التی أحاطت بهم من کل جانب أیام کانوا بمصر،و بعد إذ نجاهم الله من فرعون و قومه،فلم یتوافر و یتواتر من الآیات المعجزات و البراهین الساطعات و النعم التی یتنعم بها فی الحیاه علی أمه من الأمم الماضیه المتقدمه علی عهد موسی ما توافرت و تواترت علی بنی إسرائیل.

و علی هذا فلا وجه لقول بعضهم:إن المراد بالعالمین عالمو زمانهم و ذلک أن الآیه تنفی أن یکون أمه من الأمم إلی ذلک الوقت أوتیت من النعم ما أوتی بنو إسرائیل، و هو کذلک.

قوله تعالی:« یا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِی کَتَبَ اللّهُ لَکُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلی أَدْبارِکُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِینَ» أمرهم بدخول الأرض المقدسه،و کان یستنبط من حالهم التمرد و التأبی عن القبول،و لذلک أکد أمره بالنهی عن الارتداد و ذکر استتباعه الخسران.و الدلیل علی أنه کان یستنبط منهم الرد توصیفه إیاهم بالفاسقین بعد ردهم، فإن الرد و هو فسق واحد لا یصحح إطلاق «الْفاسِقِینَ» علیهم الدال علی نوع من الاستمرار و التکرر.

و قد وصف الأرض بالمقدسه،و قد فسروه بالمطهره من الشرک لسکون الأنبیاء و المؤمنین فیها،و لم یرد فی القرآن الکریم ما یفسر هذه الکلمه.و الذی یمکن أن یستفاد منه ما یقرب من هذا المعنی قوله تعالی:« إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ»:

(إسراء:۱)و قوله:« وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَکْنا فِیها» :(الأعراف:۱۳۷)و لیست المبارکه فی الأرض إلا جعل الخیر الکثیر فیها،و من الخیر الکثیر إقامه الدین و إذهاب قذاره الشرک.

و قوله:« کَتَبَ اللّهُ لَکُمْ» ظاهر الآیات أن المراد به قضاء توطنهم فیها،و لا ینافیه

قوله فی آخرها:« فَإِنَّها مُحَرَّمَهٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَهً» بل يؤكده فإن قوله:« كَتَبَ اللّهُ لَكَمْ» كلام مجمل أبهم فيه ذكر الوقت و حتى الأشخاص،فإن الخطاب للأمه من غير تعرض لحال الأفراد و الأشخاص،كما قيل:إن السامعين لهذا الخطاب الحاضرين المكلفين به ماتوا و فنوا عن آخرهم فی التيه،و لم يدخل الأرض المقدسه إلا أبناؤهم و أبناء أبنائهم مع يوشع بن نون،و بالجمله لا يخلو قوله:« فَإِنَّها مُحَرَّمَهٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَهً» عن إشعار بأنها مكتوبه لهم بعد ذلك.

و هذه الكتابه هی التی يدل عليها قوله تعالى:« وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ» :(القصص:۶)و قد كان موسى(ع)يرجو لهم ذلك بشرط الاستعانه بالله و الصبر حيث يقول:« قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِينَ قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِی الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» :(الأعراف:۱۲۹).

و هذا هو الذی يخبر تعالى عن إنجازه بقوله:« وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِی إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا» :(الأعراف:۱۳۷)فدلت الآيه على أن استيلاءهم على الأرض المقدسه و توطنهم فيها كانت كلمه إلهيه و كتابا و قضاء مقضيا مشترطا بالصبر على الطاعه و عن المعصيه، و فی مر الحوادث.

و إنما عممنا الصبر لمكان إطلاق الآيه،و لأن الحوادث الشاقه كانت تتراكم عليهم أيام موسى و معها الأوامر و النواهی الإلهيه،و كلما أصروا على المعصيه اشتدت عليهم التكاليف الشاقه كما تدل على ذلك أخبارهم المذكوره فی القرآن الكريم.

و هذا هو الظاهر من القرآن فی معنى كتابه الأرض المقدسه لهم،و الآيات مع ذلك مبهمه فی زمان الكتابه و مقدارها غير أن قوله تعالى فی ذيل آيات سوره الإسراء:« وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً» :(إسراء:۸)و كذا قول موسى لهم فی ذيل الآيه السابقه:« عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِی الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ» :(الأعراف:١٢٩)و قوله أيضا:« وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ -Xإلى أن قال-X وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ» (إبراهيم:٧)و ما يناظرها من الآيات تدل على أن هذه الكتابه كتابه مشترطه لا مطلقه غير قابله للتغير و التبدل.

و قد ذكر بعض المفسرين أن مراد موسى فى محكى قوله فى الآيه:« كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ» ما وعد الله إبراهيم(ع)،ثم ذكر ما فى التوراه (١)من وعد الله إبراهيم و إسحاق و يعقوب أنه سيعطى الأرض لنسلهم، و أطال البحث فى ذلك.

و لا يهمنا البحث فى ذلك على شريطه الكتاب سواء كانت هذه العدات من التوراه الأصليه أو مما لعبت به يد التحريف فإن القرآن لا يفسر بالتوراه.

قوله تعالى:« قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنَّ فِيهٰا قَوْماً جَبّٰارِينَ وَ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا حَتّٰى يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ» قال الراغب:أصل الجبر إصلاح الشيء بضرب من القهر يقال:جبرته فانجبر و اجتبر.قال:و قد يقال الجبر تاره فى الإصلاح المجرد نحو

قول على رضى الله عنه: يا جابر كل كسير و يا مسهل كل عسير ،و منه قولهم للخبز:جابر بن حبه، و تاره فى القهر المجرد نحو

قوله(ع): لا جبر و لا تفويض ،قال:و الإجبار فى الأصل حمل الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف فى الإكراه المجرد فقيل:أجبرته على كذا كقولك:

أكرهته.قال:و الجبار فى صفه الإنسان يقال لمن يجبر نقيصه بادعاء منزله من التعالى لا يستحقها،و هذا لا يقال إلا على طريق الذم كقوله عز و جل:« وَ خٰابَ كُلُّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ» و قوله تعالى.« وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبّٰاراً شَقِيًّا» و قوله عز و جل:« إِنَّ فِيهٰا قَوْماً جَبّٰارِينَ» قال:و لتصور القهر بالعلو على الأقران قيل: نخله جباره و ناقه جباره انتهى موضع الحاجه.

١- ١) كما فى سفر التكوين أنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب:«و قال لنسلك أعطى هذه الأرض»١٢:٧ و فيه أيضا:«فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا:لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»١٥:١٨ و فى سفر تثنيه الاشتراع:«الرب إلهنا كلمنا فى حوريب قائلا:كفاكم قعودا فى هذا الجبل،تحولوا و ارتحلوا و ادخلوا جبل الأموريين و كل ما يليه من القفر و الجبل و السهل و الجنوب و ساحل البحر أرض الكنعانى و لبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات.انظروا قد جعلت أمامكم الأرض ادخلوا و تملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم إبراهيم و إسحاق و يعقوب أن يعطيها لهم و لنسلهم من بعدهم»١-٨.

فظهر أن المراد بالجبارين هم أولو السطوه و القوه من الذين يجبرون الناس على ما يريدون.

و قوله :«وَ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا حَتّٰى يَخْرُجُوا مِنْهٰا» اشتراط منهم خروج القوم الجبارين فى دخول الأرض،و حقيقته الرد لأمر موسى و إن وعدوه ثانيا الدخول على الشرط بقولهم:

«فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ»

.

و قد ورد فى عده من الأخبار فى صفه هؤلاء الجبارين من العمالقه و عظم أجسامهم و طول قامتهم أمور عجيبه لا يستطيع ذو عقل سليم أن يصدقها،و لا يوجد فى الآثار الأرضيه و الأبحاث الطبيعيه ما يؤيدها فليست إلا موضوعه مدسوسه.

قوله تعالى:« قٰالَ رَجُلاٰنِ مِنَ الَّذِينَ يَخٰافُونَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمَا» (إلى آخر الآيه) ظاهر السياق أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه و أن هناك رجالا كانوا يخافون الله أن يعصوا أمره و أمر نبيه،و منهم هذان الرجلان اللذان قالا،ما قالا و أنهما كانا يختصان من بين أولئك الذين يخافون بأن الله أنعم عليهما،و قد مر فى موارد تقدمت من الكتاب أن النعمه إذا أطلقت فى عرف القرآن يراد بها الولايه الإلهيه فهما كانا من أولياء الله تعالى، و هذا فى نفسه قرينه على أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه فإن أولياء الله لا يخشون غيره قال تعالى: «أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ» :(يونس:۶۲).

و يمكن أن يكون متعلق «أَنْعَمَ» المحذوف أعنى المنعم به هو الخوف،فيكون المراد أن الله أنعم عليهما بمخافته،و يكون حذف مفعول «يَخٰافُونَ» للاكتفاء بذكره فى قوله:

«أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمَا»

إذ من المعلوم أن مخافتهما لم يكن من أولئك القوم الجبارين و إلا لم يدعو بنى إسرائيل إلى الدخول بقولهما:« اُدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبٰابَ» .

و ذكر بعض المفسرين:أن ضمير الجمع فى «يَخٰافُونَ» عائد إلى بنى إسرائيل و الضمير العائد إلى الموصول محذوف،و المعنى:و قال رجلان من الذين يخافهم بنو إسرائيل قد أنعم الله على الرجلين بالإسلام،و أيدوه بما نسب إلى ابن جبير من قراءه «يَخٰافُونَ» بضم الياء قالوا.

و ذلك أن رجلين من العمالقه كانا قد آمنا بموسى،و لحقا بنى إسرائيل ثم قالا لبنى إسرائيل ما قالا إراءه لطريق الظفر على العمالقه و الاستيلاء على بلادهم و أرضهم.

و كان هذا التفسير باستناد منهم إلى بعض الأخبار الوارده فى تفسير الآيات لكنه من

الآحاد المشتمله على ما لا شاهد له من الكتاب و غيره.

و قوله:« اُدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبٰابَ» لعل المراد به أول بلد من بلاد أولئك الجبابره يلى بنى إسرائيل، و قد كان على ما يقال:أريحا،و هذا استعمال شائع أو المراد باب البلده.

و قوله:« فَإِذٰا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غٰالِبُونَ» وعد منهما لهم بالفتح و الظفر على العدو، و إنما أخبرا إخبارا بتيا اتكالا منهما بما ذكره موسى(ع)أن الله كتب لهم تلك الأرض لإيمانهما بصدق إخباره،أو أنهما عرفا ذلك بنور الولايه الإلهيه.و قد ذكر المعظم من مفسرى الفريقين:أن الرجلين هما يوشع بن نون و كالب بن يوفنا و هما من نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر.

ثم دعواهم إلى التوكل على ربهم بقولهما:« وَ عَلَى اللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لأن الله سبحانه كافى من توكل عليه و فيه تطييب لنفوسهم و تشجيع لهم.

قوله تعالى:« قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا أَبَداً مٰا دٰامُوا فِيهٰا» (الآيه)تكرارهم قولهم:« إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا» ثانيا لإيئاس موسى(ع)من أن يصر على دعوته فيعود إلى الدعوه بعد الدعوه.

و فى الكلام وجوه من الإهانه و الإزراء و التهكم بمقام موسى و ما ذكرهم به من أمر ربهم و وعده فقد سرد الكلام سردا عجيبا،فهم أعرضوا عن مخاطبه الرجلين الداعيين إلى دعوه موسى(ع)أولا،ثم أوجزوا الكلام مع موسى بعد ما أطنبوا فيه بذكر السبب و الخصوصيات فى بادئ كلامهم،و فى الإيجاز بعد الإطناب فى مقام التخاصم و التجاوب دلاله على استملال الكلام و كراهه استماع الحديث أن يمضى عليه المتخاصم الآخر.ثم أكدوا قولهم:« لَنْ نَدْخُلَهٰا» ثانيا بقولهم:« أَبَداً» ثم جرأهم الجهاله على ما هو أعظم من ذلك كله،و هو قولهم مفرعين على ردهم الدعوه:« فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقٰاتِلاٰ إِنّٰا هٰاهُنٰا قٰاعِدُونَ».

و فى الكلام أوضح الدلاله على كونهم مشبهين كالوثنيين،و هو كذلك فإنهم القائلون على ما يحكيه الله سبحانه عنهم فى قوله:« وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِي إِسْرٰائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلىٰ أَصْنٰامٍ لَهُمْ قٰالُوا يٰا مُوسَى اجْعَلْ لَنٰا إِلٰهاً كَمٰا لَهُمْ آلِهَةٌ قٰالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (الأعراف:۱۳۸)و لم يزالوا على التجسيم و التشبيه حتى اليوم على ما يدل عليه كتبهم

الدائره بینهم.

قوله تعالی:« قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ» السیاق یدل علی أن قوله:« إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی» کنایه عن نفی القدره علی حمل غیر نفسه و أخیه علی ما أتاهم به من الدعوه.فإنه إنما کان فی مقدرته حمل نفسه علی إمضاء ما دعا إلیه و حمل أخیه هارون و قد کان نبیا مرسلا و خلیفه له فی حیاته لا یتمرد عن أمر الله سبحانه.أو إن المراد أنه لیس له قدره إلا علی نفسه و لا لأخیه قدره إلا کذلک.

و لیس مراده نفی مطلق القدره حتی من حیث إجابه المسئول لإیمان و نحوه حتی ینافی ظاهر سیاق الآیه أن الرجلین من الذین یخافون و آخرین غیرهما کانوا مؤمنین به مستجیبین لدعوته فإنه لم یذکر فیمن یملکه حتی أهله و أهل أخیه مع أن الظاهر أنهم ما کانوا لیتخلفوا عن أوامره.

و ذلک أن المقام لا یقتضی إلا ذلک فإنه دعاهم إلی خطب مشروع فأبلغ و أعذر فرد علیه المجتمع الإسرائیلی دعوته أشنع رد و أقبحه،فکان مقتضی هذا الحال أن یقول:

رب إنی أبلغت و أعذرت و لا أملک فی إقامه أمرک إلا نفسی و کذلک أخی،و قد قمنا بما علینا من واجب التکلیف و لکن القوم واجهونا بأشد الامتناع،و نحن الآن آیسان منهم،و السبیل منقطع فاحلل أنت هذه العقده و مهد بربوبیتک السبیل إلی نیل ما وعدته لهم من تمام النعمه و إیراثهم الأرض و استخلافهم فیها،و احکم و افصل بیننا و بین هؤلاء الفاسقین.

و هذا المورد علی خلاف جمیع الموارد التی عصوا فیها أمر موسی کمسأله الرؤیه و عباده العجل و دخول الباب و قول حطه و غیرها یختص بالرد الصریح من المجتمع الإسرائیلی لأمره من غیر أی رفق و ملاءمه،و لو ترکهم موسی علی حالهم،و أغمض عن أمره لبطلت الدعوه من أصلها،و لم یتمش له بعد ذلک أمر و لا نهی و تلاشت بینهم أرکان ما أوجده من الوحده.

و یتبین بهذا البیان أولا:أن مقتضی هذا الحال أن یتعرض موسی(ع)فی شکواه إلی ربه لحال نفسه و أخیه، و هما المبلغان عن الله تعالی،و لا یتعرض لحال غیرهما من المؤمنین و إن کانوا غیر متمردین.إذ لا شأن لهم فی التبلیغ و الدعوه،و المقام إنما یقتضی التعرض

لحال مبلغ الحكم لا العامل الآخذ به المستجیب له.

و ثانیا:أن المقام کان یقتضی رجوع موسی(ع)إلی ربه بالشکوی و هو فی الحقیقه استنصار منه فی إجراء الأمر الإلهی.

و ثالثا:أن قوله:« وَ أَخِی» معطوف علی الیاء فی قوله:« إِنِّی» و المعنی:و أخی مثلی لا یملک إلا نفسه لا علی قوله:« نَفْسِی» فإنه خلاف ما یقتضیه السیاق و إن کان المعنی صحیحا علی جمیع التقادیر فإن موسی و هارون کما کانا یملک کل منهما من نفسه الطاعه و الامتثال کان موسی یملک من نفس هارون الطاعه لکونه خلیفته فی حیاته،و کذا کانا یملکان ممن أخلص لله من المؤمنین السمع و الطاعه.

و رابعا:أن قوله:« فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ» لیس دعاء منه علی بنی إسرائیل بالحکم الفصل المستعقب لنزول العذاب علیهم أو بالتفریق بینهما و بینهم بإخراجهما من بینهم أو بتوفیهما فإنه(ع)کان یدعوهم إلی ما کتب الله لهم من تمام النعمه،و کان هو الذی کتب الله المن علی بنی إسرائیل بإنجائهم و استخلافهم فی الأرض بیده کما قال تعالی:« وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ»:

(القصص:۵).

و کان بنو إسرائیل یعلمون ذلک منه کما یستفاد من قولهم علی ما حکی الله:« قالُوا أُوذِینا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِیَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا» XالآیهX:(الأعراف:۱۲۹).

و یشهد بذلک أیضا قوله تعالی:« فَلا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ» فإنه یکشف عن أن موسی(ع)کان یشفق علیهم من نزول السخط الإلهی،و کان من المترقب أن یحزن بسبب حلول نقمه التیه بهم.

: «قوله تعالی قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَیْهِمْ أَرْبَعِینَ سَنَةً یَتِیهُونَ فِی الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ» الضمیر فی قوله:« فَإِنَّها» راجعه إلی الأرض المقدسه،و المراد بالتحریم التحریم التکوینی و هو القضاء،و التیه التحیر،و اللام فی «الْأَرْضِ» للعهد،و قوله «فَلا تَأْسَ» نهی من الأسی و هو الحزن،و قد أمضی الله تعالی قول موسی(ع)حیث وصفهم فی دعائه بالفاسقین.

و المعنی:أن الأرض المقدسه أی دخولها و تملکها محرمه علیهم،أی قضینا أن

لاـ يوفقوا لـدخولها أربعين سنه يسيرون فيها فى الأرض متحيرين لا هم مـدنيون يستريحون إلى بلـد من البلاد،و لا هم بـدويون يعيشون عيشه القبائـل و البـدويين،فلاـ تحزن على القوم الفاسـقين من نزول هـذه النقمه عليهم لأـنهم فاسـقون لا ينبغى أن يحزن عليهم إذا أذيقوا وبال أمرهم.

(بحث روائى)

فى الـدر المنثور،أخرج ابن أبى حاتم عن أبى سـعيد الخـدرى عن رسول الله ص قال: كانت بنو إسـرائيل إذا كان لأحدهم خادم دابه-و امرأه كتب ملكا.

و فيه:أخرج أبو داود فى مراسله عن زيد بن أسلم: فى قوله:« وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» قال:قال رسول الله ص: زوجه و مسكن و خادم.

أقول:و روى غير هاتين الروايتين روايات أخرى فى هـذا المعنى غير أن الآيه فى سياقها لا تلائم هـذا التفسـير،فإنه و إن كان من الممكن أن يكون من دأب بنى إسرائيل أن يسموا كل من كان له بيت و امرأه و خادم ملكا أو يكتبوه ملكا إلا أن من البـديهى أنهم لم يكونوا كلهم حتى الخوادم على هذا النعت ذوى بيوت و نساء و خدام فالكائن منهم على هذه الصـفه بعضـهم و يماثلهم فى ذلـك سائر الأـمم و الأجيال فاتخاذ البيوت و النساء و الخـدام عاده جاريه فى جميع الأمم لا يخلو عن ذلك أمه عن الأمم،و إذا كان كذلك لم يكن أمرا يخص بنى إسرائيل حتى يمتن الله عليهم فى كلامه بأنه جعلهم ملوكا،و الآيه فى مقام الامتنان.

و لعل التنبه على ذلك أوجب وقوع ما وقع فى بعض الروايات كما عن قتاده:أنهم أول من ملك الخدم،و التاريخ لا يصدقه.

و فى أمـالى المفيـد،بإسـناده عن أبى حمزه عن أبى جعفر(ع)قـال: لمـا انتهى لهم موسـى إلى الأرض المقـدسه قال لهم:« ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ-وَ لاٰ تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰاسِرِينَ» - و قد كتبها الله لهم «قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنَّ فِيهٰا قَوْماً جَبّٰارِينَ وَ إِنّٰا لَنْ نَـدْخُلَهٰا حَتّٰى يَخْرُجُوا مِنْهٰا-فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ- قٰالَ رَجُلاٰنِ مِنَ الَّذِينَ يَخٰافُونَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبٰابَ-فَإِذٰا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غٰالِبُونَ-وَ عَلَى اللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا

ص: ۲۹۵

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ- قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا أَبَداً مٰا دٰامُوا فِيهٰا-فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقٰاتِلاٰ إِنّٰا هٰاهُنٰا قٰاعِدُونَ- قٰالَ رَبِّ إِنِّي لاٰ أَمْلِكُ إِلاّٰ نَفْسِي وَ أَخِي-فَافْرُقْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِينَ»

-فلما أبوا أن يدخلوها حرمها الله عليهم-فتاهوا فی أربع فراسخ أربعین سنه یتیهون فی الأرض-فلا تأس علی القوم الفاسقین.

قال أبو عبد الله(ع):کانوا إذا أمسوا نادی منادیهم:الرحیل فیرتحلون بالحداء و الزجر حتی إذا أسحروا-أمر الله الأرض فدارت بهم فیصبحوا فی منزلهم-الذی ارتحلوا منه فیقولون:قد أخطأتم الطریق فمکثوا بهذا أربعین سنه،و نزل علیهم المن و السلوی حتی هلکوا جمیعا إلا رجلان:یوشع بن نون و کالب بن یوفنا و أبناؤهم-و کانوا یتیهون فی نحو أربع فراسخ-فإذا أرادوا أن یرتحلوا-یبست ثیابهم علیهم و خفافهم.

قال:و کان معهم حجر-إذا نزلوا ضربه موسی بعصاه-فانفجرت منه اثنتا عشره عینا-لکل سبط عین،فإذا ارتحلوا رجع الماء إلی الحجر-و وضع الحجر علی الدابه، الحدیث.

أقول:و الروایات فیما یقرب من هذه المعانی کثیره من طرق الشیعه و أهل السنه و قوله فی الروایه:و قال أبو عبد الله(إلخ)روایه أخری، و هذه الروایات و إن اشتملت فی معنی التیه و غیره علی أمور لا یوجد فی کلامه تعالی ما تتأید به لکنها مع ذلک لا تشتمل علی شیء مما یخالف الکتاب،و أمر بنی إسرائیل فی زمن موسی(ع)کان عجیبا تحتف بحیاتهم خوارق العاده من کل ناحیه فلا ضیر فی أن یکون تیههم علی هذا النحو المذکور فی الروایات.

و فی تفسیر العیاشی،عن مسعده بن صدقه عن أبی عبد الله(ع): أنه سئل عن قول:« اُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ» قال:کتبها لهم ثم محاها ثم کتبها لأبنائهم فدخلوها-و الله یمحو ما یشاء و یثبت و عنده أم الکتاب.

أقول.و روی هذا المعنی أیضا عن إسماعیل الجعفی عنه(ع)و عن زراره و حمران و محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع).و قد قاس(ع)الکتابه بالنسبه إلی السامعین لخطاب موسی(ع)بدخول الأرض،و إلی الداخلین فیها فأنتج البداء فی خصوص المکتوب لهم فلا ینافی ذلک ظاهر سیاق الآیه أن المکتوب لهم هم الداخلون،و إنما حرموا الدخول أربعین سنه و رزقوه بعدها فإن الخطاب فی الآیه متوجه بحسب المعنی

إلی المجتمع الإسرائیلی فیتحد علیه المکتوب لهم الدخول مع الداخلین لکونهم جمیعا أمه واحده کتب لها الدخول إجمالا ثم حرمت الدخول مده و رزقته بعدها و لا بداء علی هذا و إن کان بالنظر إلی خصوص الأشخاص بداء.

و فی الکافی،بإسناده عن عبد الرحمن بن یزید عن أبی عبد الله(ع)قال:

قال رسول الله ص: مات داود النبی یوم السبت مفجوا-فأظلته الطیر بأجنحتها، و مات موسی کلیم الله فی التیه-فصاح صائح من السماء مات موسی-و أی نفس لا تموت

[سوره المائده (۵): الآیات ۲۷ الی ۳۲]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ اِبْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبٰا قُرْبٰاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمٰا وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ اَلْآخَرِ قٰالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قٰالَ إِنَّمٰا یَتَقَبَّلُ اَللّٰهُ مِنَ اَلْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخٰافُ اَللّٰهَ رَبَّ اَلْعٰالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلظّٰالِمِینَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۳۰) فَبَعَثَ اَللّٰهُ غُرٰاباً یَبْحَثُ فِی اَلْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوٰارِی سَوْأَةَ أَخِیهِ قٰالَ یٰا وَیْلَتیٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هٰذَا اَلْغُرٰابِ فَأُوٰارِیَ سَوْأَةَ أَخِی فَأَصْبَحَ مِنَ اَلنّٰادِمِینَ (۳۱) مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی اَلْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ اَلنّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا اَلنّٰاسَ جَمِیعاً وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَیِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ فِی اَلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)

(بیان)

الآیات تنبئ عن قصه ابنی آدم،و تبین أن الحسد ربما یبلغ بابن آدم إلی حیث یقتل أخاه ظالما فیصبح من الخاسرین و یندم ندامه لا یستتبع نفعا،و هی بهذا المعنی ترتبط بما قبلها من الکلام علی بنی إسرائیل و استنکافهم عن الإیمان برسول الله ص فإن إباءهم عن قبول الدعوه الحقه لم یکن إلا حسدا و بغیا،و هذا شأن الحسد یبعث الإنسان إلی قتل أخیه ثم یوقعه فی ندامه و حسره لا مخلص عنها أبدا،فلیعتبروا بالقصه و لا یلحوا فی حسدهم ثم فی کفرهم ذاک الإلحاح.

قوله تعالی:« وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ» (الآیه) التلاوه من التلو و هی القراءه سمیت بها لأن القارئ للنبأ یأتی ببعض أجزائه فی تلو بعض آخر.و النبأ هو الخبر إذا کان ذا جدوی و نفع.و القربان ما یتقرب به إلی الله سبحانه أو إلی غیره،و هو فی الأصل مصدر لا یثنی و لا یجمع.و التقبل هو القبول بزیاده عنایه و اهتمام بالمقبول و الضمیر فی قوله «عَلَیْهِمْ» لأهل الکتاب لما مر من کونهم هم المقصودین فی سرد الکلام.

و المراد بهذا المسمی بآدم هو آدم الذی یذکر القرآن أنه أبو البشر،و قد ذکر بعض المفسرین أنه کان رجلا من بنی إسرائیل تنازع ابناه فی قربان قرباه فقتل أحدهما الآخر، و هو قابیل أو قایین قتل هابیل و لذلک قال تعالی بعد سرد القصه:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ .

و هو فاسد أما أولا:فلأن القرآن لم یذکر ممن سمی بآدم إلا الذی یذکر أنه أبو البشر،و لو کان المراد بما فی الآیه غیره لکان من اللازم نصب القرینه علی ذلک لئلا یبهم أمر القصه.

و أما ثانیا فلأن بعض ما ذکر من خصوصیات القصه کقوله:« فَبَعَثَ اللّٰهُ غُرٰاباً» إنما یلائم حال الإنسان الأولی الذی کان یعیش علی سذاجه من الفکر و بساطه من الإدراک، یأخذ باستعداده الجبلی فی ادخار المعلومات بالتجارب الحاصله من وقوع الحوادث الجزئیه حادثه بعد حادثه،فالآیه ظاهره فی أن القاتل ما کان یدری أن المیت یمکن أن یستر جسده بمواراته فی الأرض،و هذه الخاصه إنما تناسب حال ابن آدم أبی البشر لا حال رجل

من بنى إسرائيل، و قد كانوا أهل حضاره و مدنيه بحسب حالهم فى قوميتهم لا يخفى على أحدهم أمثال هذه الأمور قطعا.

و أما ثالثا فلأن قوله:و لذلک قال تعالى بعد تمام القصه- مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِى إِسْرٰائِيلَ، يريد به الجواب عن سؤال أورد على الآيه،و هو أنه ما وجه اختصاص الکتابه ببنى إسرائيل مع أن الذى تقتضيه القصه-و هو الذى کتبه الله-يعم حال جميع البشر،من قتل منهم نفسا فکأنما قتل الناس جميعا،و من أحيا منهم نفسا فکأنما أحيا الناس جميعا.

فأجاب القائل بقوله و لذلک قال تعالى(إلخ)إن القاتل و المقتول لم يکونا ابنى آدم أبى البشر حتى تکون قصتهما مشتمله على حادثه من الحوادث الأوليه بين النوع الإنسانى فيکون عبره يعتبر بها کل من جاء بعدهما،و إنما هما ابنا رجل من بنى إسرائيل و کان نبأهما من الأخبار القوميه الخاصه و لذلک أخذ عبره مکتوبه لخصوص بنى إسرائيل.

لکن ذلک لا يحسم ماده الإشکال فإن السؤال بعد باق على حاله فإن کون قتل الواحد بمنزله قتل الجميع و إحياء الواحد بمنزله إحياء الجميع معنى يرتبط بکل قتل وقع بين هذا النوع من غير اختصاصه ببعض دون بعض،و قد وقع ما لا يحصى من القتل قبل بنى إسرائيل،و قبل هذا القتل الذى يشير إليه،فما باله رتب على قتل خاص و کتب على قوم خاص؟.

على أن الأمر لو کان کما يقول کان الأحسن أن يقال:من قتل منکم نفسا(إلخ) ليکون خاصا بهم،ثم يعود السؤال فى هذا التخصيص مع عدم استقامته فى نفسه.

و الجواب عن أصل الإشکال أن الذى يشتمل عليه قوله:« أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ» (الآيه)حکمه بالغه و ليس بحکم مشرع فالمراد بالکتابه عليهم بيان هذه الحکمه لهم مع عموم فائدتها لهم و لغيرهم کالحکم و المواعظ التى بينت فى القرآن لأمه النبى ص مع عدم انحصار فائدتها فيهم.و إنما ذکر فى الآيه أنه بينه لهم لأن الآيات مسوقه لعظتهم و تنبيههم و توبيخهم على ما حسدوا النبى ص و أصروا فى العناد و إشعال نار الفتن و التسبيب إلى القتال و مباشره الحروب على المسلمين،و لذلک ذيل قوله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً» (إلخ) بقوله:« وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ»

على أن أصل القصه على النحو الذى ذكره لا مأخذ له روايه و لا تاريخا.

فتبين أن قوله:« نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ» يراد به قصه ابنى آدم أبى البشر،و تقييد الكلام بقوله:« بِالْحَقِّ»- و هو متعلق بالنبإ أو بقوله «وَ اتْلُ»- لا يخلو عن إشعار أو دلاله على أن المعروف الدائر بينهم من النبإ لا يخلو من تحريف و سقط،و هو كذلك فإن القصه موجوده فى الفصل الرابع من سفر التكوين من التوراه،و ليس فيها خبر بعث الغراب و بحثه فى الأرض،و القصه مع ذلك صريحه فى تجسم الرب تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

و قوله: «إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ» ظاهر السياق أن كل واحد منهما قدم إلى الرب تعالى شيئا يتقرب به و إنما لم يثن لفظ القربان لكونه فى الأصل مصدرا لا يثنى و لا يجمع.

و قوله: «قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» القائل الأول هو القاتل و الثانى هو المقتول،و سياق الكلام يدل على أنهما علما تقبل قربان أحدهما و عدم تقبله من الآخر،و أما أنهما من أين علما ذلك؟أو بأى طريق استدلوا عليه؟فالآيه ساكته عن ذلك.

غير أنه ذكر فى موضع من كلامه تعالى:أنه كان من المعهود عند الأمم السابقه أو عند بنى إسرائيل خاصه تقبل القربان المتقرب به بأكل النار إياه قال تعالى: «الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» :(آل عمران:۱۸۳)و القربان معروف عند أهل الكتاب إلى هذا اليوم (۱)فمن الممكن أن يكون التقبل للقربان فى هذه القصه أيضا على ذلك النحو،و خاصه بالنظر إلى إلقاء القصه إلى أهل الكتاب المعتقدين لذلك،و كيف كان فالقاتل و المقتول جميعا كانا يعلمان قبوله من أحدهما و رده من الآخر.

ثم السياق يدل أيضا على أن القائل «لَأَقْتُلَنَّكَ» هو الذى لم يتقبل قربانه،و أنه

۱- ۱) القربان عند اليهود أنواع كذبائح الحيوان بالتضحيه،و تقدمه الدقيق و الزيت و اللبان و باكوره الثمار،و عند النصارى ما يقدمونه من الخبز و الخمر فيتبدل إلى لحم المسيح و دمه حقيقه فى زعمهم.

إنما قال ذلک حسدا من نفسه إذ لم یکن هناک سبب آخر،و لا أن المقتول کان قد أجرم إجراما باختیار منه حتی یواجه بمثل هذا القول و یهدد بالقتل.

فقول القاتل:« لَأَقْتُلَنَّکَ» تهدید بالقتل حسدا لقبول قربان المقتول دون القاتل فقول المقتول:« إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ» إلی آخر ما حکی الله تعالی عنه جواب عما قاله القاتل فیذکر له أولا:أن مسأله قبول القربان و عدم قبوله لا صنع له فی ذلک و لا إجرام، و إنما الاجرام من قبل القاتل حیث لم یتق الله فجازاه الله بعدم قبول قربانه.

و ثانیا:أن القاتل لو أراد قتله و بسط إلیه یده لذلک ما هو بباسط یده إلیه لیقتله لتقواه و خوفه من الله سبحانه،و إنما یرید علی هذا التقدیر أن یرجع القاتل و هو یحمل إثم المقتول و إثم نفسه فیکون من أصحاب النار و ذلک جزاء الظالمین.

فقوله :«إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ» مسوق لقصر الإفراد للدلاله علی أن التقبل لا یشمل قربان التقی و غیر التقی جمیعا،أو لقصر القلب کأن القاتل کان یزعم أنه سیتقبل قربانه دون قربان المقتول زعما منه أن الأمر لا یدور مدار التقوی أو أن الله سبحانه غیر عالم بحقیقه الحال،یمکن أن یشتبه علیه الأمر کما ربما یشتبه علی الإنسان.

و فی الکلام بیان لحقیقه الأمر فی تقبل العبادات و القرابین،و موعظه و بلاغ فی أمر القتل و الظلم و الحسد،و ثبوت المجازاه الإلهیه و أن ذلک من لوازم ربوبیه رب العالمین فإن الربوبیه لا تتم إلا بنظام متقن بین أجزاء العالم یؤدی إلی تقدیر الأعمال بمیزان العدل و جزاء الظلم بالعذاب الألیم لیرتدع الظالم عن ظلمه أو یجزی بجزائه الذی أعده لنفسه و هو النار.

قوله تعالی:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ» (إلخ) اللام للقسم،و بسط الید إلیه کنایه عن الأخذ بمقدمات القتل و إعمال أسبابه،و قد أتی فی جواب الشرط بالنفی الوارد علی الجمله الاسمیه،و بالصفه (بِبٰاسِطٍ) دون الفعل و أکد النفی بالباء ثم الکلام بالقسم،کل ذلک للدلاله علی أنه بمراحل من البعد من إراده قتل أخیه،لا یهم به و لا یخطر بباله.

و أکد ذلک کله بتعلیل ما ادعاه من قوله:« مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ» (إلخ):

«بقوله إِنِّی أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِینَ» فإن ذکر المتقین لربهم و هو الله رب العالمین الذی یجازی فی

كل إثم بما يتعقبه من العذاب ينبه فى نفوسهم غريزه الخوف من الله تعالى،و لا يخليهم و إن يرتكبوا ظلما يوردهم مورد الهلكه.

ثم ذكر تأويل قوله:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ» (إلخ)بمعنى حقيقه هذا الذى أخبر به،و محصله أن الأمر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للإثم الداخل فى النار،أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك، و ليس يختار قتل أخيه الظالم على سعاده نفسه و ليس بظالم،بل يختار أن يشقى أخوه الظالم بقتله و يسعد هو و ليس بظالم،و هذا هو المراد بقوله:« إِنِّي أُرِيدُ، إلخ»كنى بالإراده عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فالآيه فى كونها تأويلا لقوله:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ» (إلخ)كالذى وقع فى قصه موسى و صاحبه حين قتل غلاما لقياه فاعترض عليه موسى بقوله:« أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً» فنبأه صاحبه بتأويل ما فعل بقوله:« وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً» :(الكهف:٨١).

فقد أراد المقتول أى اختار الموت مع السعاده و إن استلزم شقاء أخيه بسوء اختياره على الحياه مع الشقاء و الدخول فى حزب الظالمين،كما اختار صاحب موسى موت الغلام مع السعاده و إن استلزم الحزن و الأسى من أبويه على حياته و صيرورته طاغيا كافرا يضل بنفسه و يضل أبويه،و الله يعوضهما منه من هو خير منه زكاه و أقرب رحما.

و الرجل أعنى ابن آدم المقتول من المتقين العلماء بالله،أما كونه من المتقين فلقوله:

«إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»

المتضمن لدعوى التقوى،و قد أمضاها الله تعالى بنقله من غير رد،و أما كونه من العلماء بالله فلقوله:« إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ» فقد ادعى مخافه الله و أمضاها الله سبحانه منه،و قد قال تعالى :«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» :(فاطر:

٢٨)فحكايته تعالى قوله: «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ» و إمضاؤه له توصيف له بالعلم كما وصف صاحب موسى أيضا بالعلم إذ قال: «وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً» :(الكهف:٦٥).

و كفى له علما ما خاطب به أخاه الباغى عليه من الحكمه البالغه و الموعظه الحسنه فإنه بين عن طهاره طينته و صفاء فطرته: أن البشر ستكثر عدتهم ثم تختلف بحسب الطبع البشرى

جماعتهم فيكون منهم متقون و آخرون ظالمون،و أن لهم جميعا و لجميع العالمين ربا واحدا يملكهم و يدبر أمرهم،و أن من التدبير المتقن أن يحب و يرتضى العدل و الإحسان،و يكره و يسخط الظلم و العدوان و لازمه وجوب التقوى و مخافه الله على الإنسان و هو الدين،فهناك طاعات و قربات و معاصى و مظالم،و أن الطاعات و القربات إنما تتقبل إذا كانت عن تقوى، و أن المعاصى و المظالم آثام يحملها الظالم،و من لوازمه أن تكون هناك نشأه أخرى فيها الجزاء،و جزاء الظالمين النار.

و هذه-كما ترى-أصول المعارف الدينيه و مجامع علوم المبدأ و المعاد أفاضها هذا العبد الصالح إفاضه ضافيه لأخيه الجاهل الذى لم يكن يعرف أن الشيء يمكن أن يتوارى عن الأنظار بالدفن حتى تعلمه من الغراب،و هو لم يقل لأخيه حينما كلمه:إنك إن أردت أن تقتلنى ألقيت نفسى بين يديك و لم أدافع عن نفسى و لا أتقى القتل،و إنما قال:ما كنت لأقتلك.

و لم يقل:إنى أريد أن أقتل بيدك على أى تقدير لتكون ظالما فتكون من أصحاب النار فإن التسبيب إلى ضلال أحد و شقائه فى حياته ظلم و ضلال فى شريعه الفطره من غير اختصاص بشرع دون شرع،و إنما قال:إنى أريد ذلك و أختاره على تقدير بسطك يدك لقتلى.

و من هنا يظهر اندفاع ما أورد على القصه:أنه كما أن القاتل منهما أفرط بالظلم و التعدى كذلك المقتول قصر بالتفريط و الانظلام حيث لم يخاطبه و لم يقابله بالدفاع عن نفسه بل سلم له أمر نفسه و طاوعه فى إراده قتله حيث قال له:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ» (إلخ).

وجه الاندفاع أنه،لم يقل:إنى لا أدافع عن نفسى و أدعك و ما تريد منى و إنما قال:

لست أريد قتلك،و لم يذكر فى الآيه أنه قتل و لم يدافع عن نفسه على علم منه بالأمر فلعله قتله غيله أو قتله و هو يدافع أو يحترز.

و كذا ما أورد عليها أنه ذكر إرادته تمكين أخيه من قتله ليشقى بالعذاب الخالد ليكون هو بذلك سعيدا حيث قال:« إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» كبعض المتقشفين من أهل العباده و الورع حيث يرى أن الذى عليه هو التزهد و التعبد،و إن ظلمه ظالم أو تعدى عليه متعد حمل الظالم وزر ظلمه،و ليس عليه من الدفاع عن حقه إلا الصبر و الاحتساب.و هذا من الجهل،فإنه من الإعانه على الإثم،

و هی توجب اشتراک المعین و المعان فی الإثم جمیعا لا انفراد الظالم بحمل الاثنین معا.

وجه الاندفاع:أن قوله:« إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ»، قول علی تقدیر بالمعنی الذی تقدم بیانه.

و قد أجیب عن الإشکالین ببعض وجوه سخیفه لا جدوی فی ذکرها.

قوله تعالی:« إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ»، أی ترجع بإثمی و إثمک کما فسره بعضهم،و قال الراغب فی مفرداته:أصل البواء مساواه الأجزاء فی المکان خلاف النبوه الذی هو منافاه الأجزاء یقال:مکان بواء إذا لم یکن نابئا بنازله،و بوأت له مکانا:سویته فتبوء-إلی أن قال-و قوله: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ أی تقیم بهذه الحاله.قال:

(أنکرت باطلها و بؤت بحقها.) انتهی و علی هذا فتفسیره بالرجوع تفسیر بلازم المعنی.

و المراد بقوله:« أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ» أن ینتقل إثم المقتول ظلما إلی قاتله علی إثمه الذی کان له فیجتمع علیه الإثمان،و المقتول یلقی الله سبحانه و لا إثم علیه،فهذا ظاهر قوله:« أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ» و قد ورد بذلک الروایات و الاعتبار العقلی یساعد علیه.

و قد تقدم شطر من البحث فیه فی الکلام علی أحکام الأعمال فی الجزء الثانی من الکتاب.

و الإشکال علیه بأن لازمه جواز مؤاخذه الإنسان بذنب غیره،و العقل یحکم بخلافه، و قد قال تعالی:« أَلاّ تَزِرُ وازِرَهٌ وِزْرَ أُخْری» : (النجم:۳۸)مدفوع بأن ذلک لیس من أحکام العقل النظری حتی یختم علیه باستحاله الوقوع،بل من أحکام العقل العملی التی تتبع مصالح المجتمع الإنسانی فی ثبوتها و تغیرها،و من الجائز أن یعتبر المجتمع الفعل الصادر عن أحد فعلا صادرا عن غیره و یکتبه علیه و یؤاخذه به،أو الفعل الصادر عنه غیر صادر عنه کما إذا قتل إنسانا و للمجتمع علی المقتول حقوق کان یجب أن یستوفیها منه،فمن الجائز أن یستوفی المجتمع حقوقه من القاتل،و کما إذا بغی علی المجتمع بالخروج و الإفساد و الإخلال بالأمن العام فإن للمجتمع أن یعتبر جمیع الحسنات الباغی کأن لم تکن،إلی غیر ذلک.

ففی هذه الموارد و أمثالها لا یری المجتمع السیئات التی صدرت من المظلوم إلا أوزارا

ص :۳۰۴

للظالم،و إنما تزر وازرته وزر نفسها لا وزر غيرها،لأنها تملكتها من الغير بما أوقعته عليه من الظلم و الشر نظير ما يبتاع الإنسان ما يملكه غيره بثمن،فكما أن تصرفات المالك الجديد لا تمنع لكون المالك الأول مالكا للعين زمانا لانتقالها إلى غيره ملكا،كذلك لا يمنع قوله:« أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» مؤاخذه النفس القاتله بسيئه بمجرد أن النفس الوازره كانت غيرها زمانا،و لا أن قوله:« لاٰ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» يبقى بلا فائده و لا أثر بسبب جواز انتقال الوزر بسبب جديد كما لا يبقى

قوله(ع): «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه» بلا فائده بتجويز انتقال الملك ببيع و نحوه.

و قد ذكر بعض المفسرين:أن المراد بقوله:« بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ» بإثم قتلى إن قتلتنى و إثمك الذى كنت أثمته قبل ذلك كما نقل عن ابن مسعود و ابن عباس و غيرهما،أو أن المراد بإثم قتلى و إثمك الذى لم يتقبل من أجله قربانك كما نقل عن الجبائى و الزجاج،أو أن معناه بإثم قتلى و إثمك الذى هو قتل جميع الناس كما نقل عن آخرين.

و هذه وجوه ذكروها ليس على شيء منها من جهه اللفظ دليل،و لا يساعد عليه اعتبار.

على أن المقابله بين الإثمين مع كونهما جميعا للقاتل ثم تسميه أحدهما بإثم المقتول و غيره بإثم القاتل خاليه عن الوجه.

قوله تعالى:« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ» قال الراغب فى مفرداته: الطوع الانقياد و يضاده الكره،و الطاعه مثله لكن أكثر ما يقال فى الايتمار لما أمر و الارتسام فيما رسم،و قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ نحو أسمحت له قرينته و انقادت له و سولت،و طوعت أبلغ من أطاعت و طوعت له نفسه بإزاء قولهم:تابت عن كذا نفسه.انتهى ملخصا.و ليس مراده أن طوعت مضمن معنى انقادت أو سولت بل يريد أن التطويع يدل على التدريج كالإطاعه على الدفعه،كما هو الغالب فى بابى الإفعال و التفعيل فالتطويع فى الآيه اقتراب تدريجى للنفس من الفعل بوسوسه بعد وسوسه و همامه بعد همامه تنقاد لها حتى تتم لها الطاعه الكامله فالمعنى:انقادت له نفسه و أطاعت أمره إياها بقتل أخيه طاعه تدريجيه،فقوله:« قَتْلَ أَخِيهِ» من وضع المأمور به موضع الأمر كقولهم:

أطاع كذا فى موضع:أطاع الأمر بكذا.

و ربما قیل:إن قوله:طوعت بمعنی زینت فقوله: «قَتْلَ أَخِیهِ» مفعول به، و قیل:بمعنی طاوعت أی طاوعت له نفسه فی قتل أخیه،فالقتل منصوب بنزع الخافض، و معنی الآیه ظاهر.

و ربما استفید من قوله:« فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ» أنه إنما قتله لیلا،و فیه کما قیل:

إن أصبح-و هو مقابل أمسی-و إن کان بحسب أصل معناه یفید ذلک لکن عرف العرب یستعمله بمعنی صار من غیر رعایه أصل اشتقاقه،و فی القرآن شیء کثیر من هذا القبیل کقوله:« فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً» :(آل عمران:۱۰۳)و قوله:« فَیُصْبِحُوا عَلی ما أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نادِمِینَ» :(المائده:۵۲)فلا سبیل إلی إثبات إراده المعنی الأصلی فی المقام.

قوله تعالی:« فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَهَ أَخِیهِ» البحث طلب الشیء فی التراب ثم یقال:بحثت عن الأمر بحثا کذا فی المجمع.،و المواراه:

الستر،و منه التواری للتستر،و الوراء لما خلف الشیء.و السوأه ما یتکرهه الإنسان.

و الویل الهلاک.و یا ویلتا کلمه تقال عند الهلکه،و العجز مقابل الاستطاعه.

و الآیه بسیاقها تدل علی أن القاتل قد کان بقی زمانا علی تحیر من أمره،و کان یحذر أن یعلم به غیره،و لا یدری کیف الحیله إلی أن لا یظفروا بجسده حتی بعث الله الغراب، و لو کان بعث الغراب و بحثه و قتله أخاه متقاربین لم یکن وجه لقوله:« یا وَیْلَتی أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ».

و کذا المستفاد من السیاق أن الغراب دفن شیئا فی الأرض بعد البحث فإن ظاهر الکلام أن الغراب أراد إراءه کیفیه المواراه لا کیفیه البحث،و مجرد البحث ما کان یعلمه کیفیه المواراه و هو فی سذاجه الفهم بحیث لم ینتقل ذهنه بعد إلی معنی البحث، فکیف کان ینتقل من البحث إلی المواراه و لا تلازم بینهما بوجه؟فإنما انتقل إلی معنی المواراه بما رأی أن الغراب بحث فی الأرض ثم دفن فیها شیئا.

و الغراب من بین الطیر من عادته أنه یدخر بعض ما اصطاده لنفسه بدفنه فی الأرض و بعض ما یقتات بالحب و نحوه من الطیر و إن کان ربما بحث فی الأرض لکنه للحصول علی مثل الحبوب و الدیدان لا للدفن و الادخار.

و ما تقدم من إرجاع ضمیر الفاعل فی «لِیُرِیَهُ» إلی الغراب هو الظاهر من الکلام

لكونه هو المرجع القريب،و ربما قيل:إن الضمير راجع إلى الله سبحانه،و لا بأس به لكنه لا يخلو عن شيء من البعد،و المعنى صحيح على التقديرين،و أما قوله:« قَالَ يَا وَيْلَتىٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرَابِ»، فإنما قاله لأنه استسهل ما رأى من حيله الغراب للمواراه فإنه وجد نفسه تقدر على إتيان مثل ما أتى به الغراب من البحث ثم التوسل به إلى المواراه لظهور الرابطه بين البحث و المواراه،و عند ذلك تأسف على ما فاته من الفائده، و ندم على إهماله فى التفكر فى التوسل إلى المواراه حتى يستبين له أن البحث هو الوسيله القريبه إليه،فأظهر هذه الندامه بقوله:«يَا وَيْلَتىٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي» و هو تخاطب جار بينه و بين نفسه على طريق الاستفهام الإنكارى، و التقدير أن يستفهم منكرا:أ عجزت أن تكون مثل هذا الغراب فتوارى سوأه أخيك؟ فيجاب:لا.ثم يستفهم ثانيا استفهاما إنكاريا فيقال: فلم غفلت عن ذلك و لم تتوسل إليها بهذه الوسيله على ظهورها و أشقيت نفسك فى هذه المده من غير سبب؟و لا جواب عن هذه المسأله،و فيه الندامه فإن الندامه تأثر روحى خاص من الإنسان و تألم باطنى يعرضه من مشاهدته إهماله شيئا من الأسباب المؤديه إلى فوت منفعه أو حدوث مضره، و إن شئت فقل هى تأثر الإنسان العارض له من تذكره إهماله فى الاستفاده من إمكان من الإمكانات.

و هذا حال الإنسان إذا أتى من المظالم بما يكره أن يطلع عليه الناس فإن هذه أمور لا يقبلها المجتمع بنظامه الجارى فيه،المرتبط بعض أجزائه ببعض فلا بد أن يظهر أثر هذه الأمور المنافيه له و إن خفيت على الناس فى أول حدوثها،و الإنسان الظالم المجرم يريد أن يجبر النظام على قبوله و ليس بقابل نظير أن يأكل الإنسان أو يشرب شيئا من السم و هو يريد أن يهضمه جهاز هضمه و ليس بهاضم،فهو و إن أمكن وروده فى باطنه لكن له موعدا لن يخلفه و مرصدا لن يتجاوزه،و إن ربك لبالمرصاد.

و عند ذلك يظهر للإنسان نقص تدبيره فى بعض ما كان يجب عليه مراقبته و رعايته فيندم لذلك،و لو عاد فأصلح هذا الواحد فسد آخر و لا يزال الأمر على ذلك حتى يفضحه الله على رءوس الأشهاد.

و قد اتضح بما تقدم من البيان:أن قوله:« فَأَصْبَحَ مِنَ النّٰادِمِينَ» إشاره إلى ندامته على عدم مواراته سوأه أخيه،و ربما أمكن أن يقال:إن المراد به ندمه على أصل القتل

و ليس ببعيد.

(كلام فى معنى الإحساس و التفكير)

هـذا الشـطر من قصه ابنى آدم أعنى قوله تعـالى: «فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» آيه واحـده فى القرآن لا نظيره لها من نوعها و هى تمثـل حـال الإنسـان فى الانتفـاع بـالحس،و أنه يحصـل خواص الأشـياء من نـاحيه الحس،ثم يتوسـل بالتفكر فيها إلى أغراضه و مقاصـده فى الحيـاه على نحو مـا يقضـى به البحث العلمى أن علوم الإنسـان و معارفه تنتهى إلى الحس خلافا للقائلين بالتـذكر و العلم الفطرى.

و توضـيحه أنك إذا راجعت الإنسان فيما عنده من الصور العلميه من تصور أو تصديق جزئى أو كلى و بأى صفه كانت علومه و إدراكاته وجـدت عنـده و إن كان من أجهل الناس و أضـعفهم فهما و فكرا صورا كثيره و علوما جمه لا تكاد تنالها يـد الإحصاء بل لا يحصيها إلا رب العالمين.

و من المشـهود من أمرهـا على كثرتهـا و خروجها عن طور الإحصاء و التعديـد أنها لا تزال تزيـد و تنمو مـده الحياه الإنسانيه فى الدنيا،و لو تراجعنا القهقرى وجدناها تنقص ثم تنقص حتى تنتهى إلى الصـفر،و عاد الإنسان و ما عنده شىء من العلم بالفعل قال تعالى:« عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» :(العلق:۵).

و ليس المراد بالآـيه أنـه تعـالى يعلمـه مـا لم يعلم و أمـا مـا علمه فهـو فيه فى غنى عن تعليم ربه فـإن من الضـرورى أن العلم فى الإنسـان أيـا مـا كـان هو لهـدايته إلى مـا يسـتكمل به فى وجوده و ينتفع به فى حياته،و الـذى تسـير إليه أقسام الأشـياء غير الحيه بالانبعاثات الطبيعيه تسير و تهتدى أقسام الموجودات الحيه-و منها الإنسان-إليه بنور العلم فالعلم من مصاديق الهدى.

و قـد نسب الله سـبحانه مطلق الهـدايه إلى نفسه حيث قـال:« اَلَّذِى أَعْطَى كُـلَّ شَـىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَـدَى» :(طه:۵۰)و قـال: اَلَّذِى خَلَقَ فَسَوّى وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدى» :(الأعلى:

۳)و قال و هو بوجه من الهـدايه بالحس و الفكر:« أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» (النمل:۶۳)و قد مر شطر من الكلام فى معنى الهدايه فى بعض المباحث السابقه،و بالجمله

ص:۳۰۸

لما کان کل علم هدایه و کل هدایه فهی من الله کان کل علم للإنسان بتعلیمه تعالی.

و یقرب من قوله:« عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ» قوله: «وَ اللّهُ أَخْرَجَکُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ لا تَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ» :(النحل:٧٨).

و التأمل فی حال الإنسان و التدبر فی الآیات الکریمه یفیدان أن علم الإنسان النظری أعنی العلم بخواص الأشیاء و ما یستتبعه من المعارف العقلیه یبتدئ من الحس فیعلمه الله من طریقه خواص الأشیاء کما یدل علیه قوله:« فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَهَ أَخِیهِ» (الآیه).

فنسبه بعث الغراب لإراءه کیفیه المواراه إلی الله سبحانه نسبه تعلیم کیفیه المواراه إلیه تعالی بعینه فالغراب و إن کان لا یشعر بأن الله سبحانه هو الذی بعثه،و کذلک ابن آدم لم یکن یدری أن هناک مدبرا یدبر أمر تفکیره و تعلمه،و کانت سببیه الغراب و بحثه بالنسبه إلی تعلمه بحسب النظر الظاهری سببیه اتفاقیه کسائر الأسباب الاتفاقیه التی تعلم الإنسان طرق تدبیر المعاش و المعاد،لکن الله سبحانه هو الذی خلق الإنسان و ساقه إلی کمال العلم لغایه حیاته،و نظم الکون نوع نظم یؤدیه إلی الاستکمال بالعلم بأنواع من التماس و التصاک تقع بینه و بین أجزاء الکون،فیتعلم بها الإنسان ما یتوسل به إلی أغراضه و مقاصده من الحیاه فالله سبحانه هو الذی یبعث الغراب و غیره إلی عمل یتعلم به الإنسان شیئا فهو المعلم للإنسان.

و لهذا المعنی نظائر فی القرآن کقوله تعالی:« وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُکَلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّا عَلَّمَکُمُ اللّهُ» :(المائده:۴)عد ما علموه و علموه مما علمهم الله و إنما تعلموه من سائر الناس أو ابتکروه بأفکار أنفسهم،و قوله:« وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اللّهُ» :(البقره:٢٨٢)و إنما کانوا یتعلمونه من الرسول، و قوله:« وَ لا یَأْبَ کاتِبٌ أَنْ یَکْتُبَ کَما عَلَّمَهُ اللّهُ» :(البقره:

٢٨٢)و إنما تعلم الکاتب ما علمه بالتعلم من کاتب آخر مثله إلا أن جمیع ذلک أمور مقصوده فی الخلق و التدبیر فما حصل من هذه الأسباب من فائده العلم الذی یستکمل به الإنسان فالله سبحانه هو معلمه بهذه الأسباب کما أن المعلم من الإنسان یعلم بالقول و التلقین،و الکاتب من الإنسان یعلم غیره بالقول و القلم مثلا.

و هذا هو السبیل فی جمیع ما یسند إلیه تعالی فی عالم الأسباب فالله تعالی هو خالقه

و بینه و بین مخلوقه أسباب هی الأسباب بحسب الظاهر و هی أدوات و آلات لوجود الشیء،و إن شئت فقل:هی من شرائط وجود الشیء الذی تعلق وجوده من جمیع جهاته و أطرافه بالأسباب،فمن شرائط وجود زید«الذی ولده عمرو و هند»أن یتقدمه عمرو و هند و ازدواج و تناکح بینهما،و إلا لم یوجد زید المفروض،و من شرائط «الإبصار بالعین الباصره»أن تکون قبله عین باصره،و هکذا.

فمن زعم أنه یوحد الله سبحانه بنفی الأسباب و إلغائها،و قدر أن ذلک أبلغ فی إثبات قدرته المطلقه و نفی العجز عنه،و زعم أن إثبات ضروره تخلل الأسباب قول بکونه تعالی مجبرا علی سلوک سبیل خاص فی الإیجاد فاقدا للاختیار فقد ناقض نفسه من حیث لا یشعر.

و بالجمله فالله سبحانه هو الذی علم الإنسان خواص الأشیاء التی تنالها حواسه نوعا من النیل،علمه إیاها من طریق الحواس،ثم سخر له ما فی الأرض و السماء جمیعا،قال تعالی:« وَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ» :(الجاثیه:١٣).

و لیس هذا التسخیر إلا لأن یتوسل بنوع من التصرف فیها إلی بلوغ أغراضه و أمانیه فی الحیاه أی أنه جعلها مرتبطه بوجوده لینتفع بها،و جعله متفکرا یهتدی إلی کیفیه التصرف و الاستعمال و التوسل،و من الدلیل علی ذلک قوله تعالی:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» :(الحج:۶۵)،و قوله تعالی:« وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ» :(الزخرف:١٢)،و قوله تعالی :«عَلَیْهٰا وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ» :(غافر:٨٠) و غیر ذلک من الآیات المشابهه لها فانظر إلی لسان الآیات کیف نسبت جعل الفلک إلی الله سبحانه و هو من صنع الإنسان،ثم نسب الحمل إلیه تعالی و هو من صنع الفلک و الأنعام و نسب جریانها فی البحر إلی أمره و هو مستند إلی جریان البحر أو هبوب الریح أو البخار و نحوه،و سمی ذلک کله تسخیرا منه للإنسان لما أن لإرادته نوع حکومه فی الفلک و ما یناظرها من الأنعام و فی الأرض و السماء تسوقها إلی الغایات المطلوبه له.

و بالجمله هو سبحانه أعطاه الفکر علی الحس لیتوسل به إلی کماله المقدر له بسبب علومه الفکریه الجاریه فی التکوینیات أعنی العلوم النظریه.

قال تعالی:« وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ» :(النحل:٧٨)و

أما العلوم العمليه و هی التی تجری فيما ينبغی أن يعمل و ما لا ينبغی فإنما هی بإلهام من الله سبحانه من غير أن يوجدها حس أو عقل نظری،قال تعالی:« وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا» :(الشمس:١٠)و قال:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :(الروم:٣٠)فعد العلم بما ينبغی فعله و هو الحسنه و ما لا ينبغی فعله و هو السيئه مما يحصل له بالإلهام الإلهی و هو القذف فی القلب.

فجميع ما يحصل للإنسان من العلم إنما هی هدايه إلهيه و بهدايه إلهيه،غير أنها مختلفه بحسب النوع:فما كان من خواص الأشياء الخارجيه فالطريق الذی يهدی به الله سبحانه الإنسان هو طريق الحس،و ما كان من العلوم الكليه الفكريه فإنما هی بإعطاء و تسخير إلهی من غير أن يبطله وجود الحس أو يستغنی الإنسان عنها فی حال من الأحوال، و ما كان من العلوم العمليه المتعلقه بصلاح الأعمال و فسادها و ما هو تقوی أو فجور فإنما هی بإلهام إلهی بالقذف فی القلوب و قرع باب الفطره.

و القسم الثالث الذی يرجع بحسب الأصل إلی إلهام إلهی إنما ينجح فی عمله و يتم فی أثره إذا صلح القسم الثانی و نشأ علی صحه و استقامه كما أن العقل أيضا إنما يستقيم فی عمله إذا استقام الإنسان فی تقواه و دينه الفطری،قال تعالی:« وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ) :(آل عمران:٧)و قال تعالی:« وَ مٰا يَتَذَكَّرُ إِلاّٰ مَنْ يُنِيبُ» :(غافر:١٣)و قال تعالی:

«وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ» :(الأنعام:١١٠)و قال تعالی:

«وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرٰاهِيمَ إِلاّٰ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» :(البقره:١٣٠)أی لا يترك مقتضيات الفطره إلا من فسد عقله فسلك غير سبيله.

و الاعتبار يساعد هذا التلازم الذی بين العقل و التقوی،فإن الإنسان إذا أصيب فی قوته النظريه فلم يدرك الحق حقا أو لم يدرك الباطل باطلا فكيف يلهم بلزوم هذا أو اجتناب ذاك؟كمن يری أن ليس وراء الحياه الماديه المعجله شیء فإنه لا يلهم التقوی الدينی الذی هو خير زاد للعيشه الآخره.

و كذلك الإنسان إذا فسد دينه الفطری و لم يتزود من التقوی الدينی لم تعتدل قواه الداخليه المحسه من شهوه أو غضب أو محبه أو كراهه و غيرها،و مع اختلال أمر هذه

القوى لا تعمل قوه الإدراک النظریه عملها عملا مرضیا.

و البیانات القرآنیه تجری فی بث المعارف الدینیه و تعلیم الناس العلم النافع هذا المجری، و تراعی الطرق المتقدمه التی عینتها للحصول علی المعلومات،فما کان من الجزئیات التی لها خواص تقبل الإحساس فإنها تصریح فیها إلی الحواس کالآیات المشتمله علی قوله:« أَ لَمْ تَرَ أَ فَلا یَرَوْنَ أَ فَرَأَیْتُمْ، أَ فَلا تُبْصِرُونَ» و غیر ذلک و ما کان من الکلیات العقلیه مما یتعلق بالأمور الکلیه المادیه أو التی هی وراء عالم الشهاده فإنها تعتبر فیها العقل اعتبارا جازما و إن کانت غائبه عن الحس خارجه عن محیط الماده و المادیات،کغالب الآیات الراجعه إلی المبدأ و المعاد المشتمله علی أمثال قوله:« لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ، لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ، لقوم یتذکرون، یَفْقَهُونَ، و غیرها،و ما کان من القضایا العملیه التی لها مساس بالخیر و الشر و النافع و الضار فی العمل و التقوی و الفجور فإنها تستند فیها إلی الإلهام الإلهی بذکر ما بتذکره یشعر الإنسان بإلهامه الباطنی کالآیات المشتمله علی مثل قوله:« ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ، فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، فِیهِما إِثْمٌ، وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ، إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی» و غیرها،و علیک بالتدبر فیها.

و من هنا یظهر أولا:أن القرآن الکریم یخطئ طریق الحسیین و هم المعتمدون علی الحس و التجربه،النافون للأحکام العقلیه الصرفه فی الأبحاث العلمیه،و ذلک أن أول ما یهتم القرآن به فی بیانه هو أمر توحید الله عز اسمه،ثم یرجع إلیه و یبتنی علیه جمیع المعارف الحقیقیه التی یبینها و یدعو إلیها.

و من المعلوم أن التوحید أشد المسائل ابتعادا من الحس،و بینونه للماده و ارتباطا بالأحکام العقلیه الصرفه.

و القرآن یبین أن هذه المعارف الحقیقیه من الفطره قال:« فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ» :(الروم:۳۰)أی إن الخلقه الإنسانیه نوع من الإیجاد یستتبع هذه العلوم و الإدراکات،و لا معنی لتبدیل خلق إلا أن یکون نفس التبدیل أیضا من الخلق و الإیجاد،و أما تبدیل الإیجاد المطلق أی إبطال حکم الواقع فلا یتصور له معنی فلن یستطیع الإنسان،و حاشا ذلک أن یبطل علومه الفطریه،و یسلک فی الحیاه سبیلا آخر غیر سبیلها البته،و أما الانحراف المشهود عن أحکام الفطره فلیس إبطالا لحکمها بل استعمالا لها فی غیر ما ینبغی من نحو الاستعمال

نظير ما ربما يتفق أن الرامى لا يصيب الهدف فى رميته فإن آله الرمى و سائر شرائطه موضوعه بالطبع للإصابه إلا أن الاستعمال يوقعها فى الغلط،و السكاكين و المناشير و المثاقب و الإبر و أمثالها إذا عبثت فى الماكينات تعبثه معوجه تعمل عملها الذى فطرت عليه بعينه من قطع أو نشر أو ثقب و غير ذلک لكن لا على الوجه المقصود،و أما الانحراف عن العمل الفطرى كان يخاط بنشر المنشار، بأن يعوض المنشار فعل الإبره من فعل نفسه،فيضع الخياطه موضع النشر،فمن المحال ذلک.

و هذا ظاهر لمن تأمل عامه ما استدل به القوم على صحه طريقهم كقولهم:إن الأبحاث العقليه المحضه،و القياسات المؤلفه من مقدمات بعيده من الحس يكثر وقوع الخطإ فيها كما يدل عليه كثره الاختلافات فى المسائل العقليه المحضه فلا ينبغى الاعتماد عليها لعدم اطمينان النفس إليها.

و قولهم فى الاستدلال على صحه طريق الحس و التجربه:أن الحس آله لنيل خواص الأشياء بالضروره و إذا أحس بأثر فى موضوع من الموضوعات على شرائط مخصوصه ثم تكرر مشاهده الأثر معه مع حفظ تلک الشرائط بعينها من غير تخلف و اختلاف كشف ذلک عن أن هذا الأثر خاصه الموضوع من غير اتفاق لأن الاتفاق لا يدوم البته.

و الدليلان كما ترى سيقا لإثبات وجوب الاعتماد على الحس و التجربه و رفض السلوک العقلى المحض مع كون المقدمات المأخوذه فيهما جميعا مقدمات عقليه خارجه عن الحس و التجربه ثم أريد بالأخذ بهذه المقدمات العقليه إبطال الأخذ بها،و هذا هو الذى تقدم أن الفطره لن تبطل البته و إنما يغلط الإنسان فى كيفيه استعمالها!.

و أفحش من ذلک استعمال التجربه فى تشخيص الأحكام المشرعه و القوانين الموضوعه كأن يوضع حكم ثم يجرى بين الناس يختبر بذلک حسن أثره بإحصاء و نحوه فإن غلب على موارد جريانه حسن النتيجه أخذ حكما ثابتا جاريا و إلا ألقى فى جانب و أخذ آخر كذلک و هكذا،و نظيره فيه جعل الحكم بقياس أو استحسان. (۱)

و القرآن يبطل ذلک كله بإثبات أن الأحكام المشرعه فطريه بينه،و التقوى و الفجور

۱- ۱) و أما القياس الفقهى و الاستحسان و ما يسمى بشم الفقاهه فهى أمارات لاستكشاف الحكم لا لجعلها، و البحث عنها موكول إلى فن الأصول.

العامین إلهامیان علمیان،و أن تفاصیلها مما یجب أخذه من ناحیه الوحی،قال تعالی:

« وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ» :(إسراء:۳۶)و قال: «وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّیْطٰانِ» (البقره:۱۶۸)و القرآن یسمی الشریعه المشرعه حقا قال تعالی: «أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ» :(البقره:۲۱۳)و قال:« وَ إِنَّ الظَّنَّ لاٰ یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً» :(النجم:۲۸)و کیف یغنی و فی اتباعه مخافه الوقوع فی خطر الباطل و هو الضلال؟ قال:« فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ» :(یونس:۳۲)و قال: «فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ» (النحل:۳۷)أی إن الضلال لا یصلح طریقا یوصل الإنسان إلی خیر و سعاده فمن أراد أن یتوسل بباطل إلی حق أو بظلم إلی عدل أو بسیئه إلی حسنه أو بفجور إلی تقوی فقد أخطأ الطریق،و طمع من الصنع و الإیجاد الذی هو الأصل للشرائع و القوانین فیما لا یسمح له بذلک البته،و لو أمکن ذلک لجری فی خواص الأشیاء المتضاده،و تکفل أحد الضدین ما هو من شأن الآخر من العمل و الأثر.

و کذلک القرآن یبطل طریق التذکر الذی فیه إبطال السلوک العلمی الفکری و عزل منطق الفطره،و قد تقدم الکلام فی ذلک.

و کذلک القرآن یحظر علی الناس التفکر من غیر مصاحبه تقوی الله سبحانه،و قد تقدم الکلام فیه أیضا فی الجمله،و لذلک تری القرآن فیما یعلم من شرائع الدین یشفع الحکم الذی یبینه بفضائل أخلاقیه و خصال حمیده تستیقظ بتذکرها فی الإنسان غریزه تقواه، فیقوی علی فهم الحکم و فقهه،و اعتبر ذلک فی أمثال قوله تعالی:« وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ یَنْکِحْنَ أَزْوٰاجَهُنَّ إِذٰا تَرٰاضَوْا بَیْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذٰلِکَ یُوعَظُ بِهِ مَنْ کٰانَ مِنْکُمْ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِکُمْ أَزْکیٰ لَکُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ» :(البقره:

۲۳۲)و قوله تعالی: «وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰی لاٰ تَکُونَ فِتْنَهٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ لِلّٰهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاٰ عُدْوٰانَ إِلاّٰ عَلَی الظّٰالِمِینَ» :(البقره:۱۹۳)و قوله تعالی:« وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللّٰهِ أَکْبَرُ وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تَصْنَعُونَ» :(العنکبوت:۴۵).

[بیان]

قوله تعالی:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً» فی المجمع:، الأجل فی اللغه الجنایه،انتهی.و قال الراغب فی المفردات:، الأجل الجنایه التی یخاف منها آجلا،فکل أجل جنایه و لیس کل جنایه أجلا.یقال:فعلت ذلک من أجله،

انتهی.ثم استعمل للتعلیل،یقال:فعلته من أجل کذا أی إن کذا سبب فعلی،و لعل استعمال الکلمه فی التعلیل ابتدأ أولا فی مورد الجنایه و الجریره کقولنا:أساء فلان و من أجل ذلک أدبته بالضرب أی إن ضربی ناش من جنایته و جریرته التی هی إساءته أو من جنایه هی إساءته،ثم أرسلت کلمه تعلیل فقیل:أزورک من أجل حبی لک و لأجل حبی لک.

و ظاهر السیاق أن الإشاره بقوله:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ» إلی نبأ ابنی آدم المذکور فی الآیات السابقه أی إن وقوع تلک الحادثه الفجیعه کان سببا لکتابتنا علی بنی إسرائیل کذا و کذا،و ربما قیل:إن قوله:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ» متعلق بقوله فی الآیه السابقه:

«فَأَصْبَحَ مِنَ النّٰادِمِینَ»

أی کان ذلک سببا لندامته،و هذا القول و إن کان فی نفسه غیر بعید کما فی قوله تعالی: «کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمُ الْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْیَتٰامیٰ» XالآیهX:(البقره:۲۲۰)إلا أن لازم ذلک کون قوله:« کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ» (إلخ)مفتتح الکلام و المعهود من السیاقات القرآنیه أن یؤتی فی مثل ذلک بواو الاستیناف کما فی آیه البقره المذکوره آنفا و غیرها.

و أما وجه الإشاره فی قوله:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ» إلی قصه ابنی آدم فهو أن القصه تدل علی أن من طباع هذا النوع الإنسانی أن یحمله اتباع الهوی و الحسد الذی هو الحنق للناس بما لیس فی اختیارهم أن یحمله أوهن شیء علی منازعه الربوبیه و إبطال غرض الخلقه بقتل أحدهم أخاه من نوعه و حتی شقیقه لأبیه و أمه.

فأشخاص الإنسان إنما هم أفراد نوع واحد و أشخاص حقیقه فارده،یحمل الواحد منهم من الإنسانیه ما یحمله الکثیرون،و یحمل الکل ما یحمله البعض و إنما أراد الله سبحانه بخلق الأفراد و تکثیر النسل أن تبقی هذه الحقیقه التی لیس من شأنها أن تعیش إلا زمانا یسیرا،و یدوم بقاؤها فیخلف اللاحق السابق و یعبد الله سبحانه فی أرضه،فإفناء الفرد بالقتل إفساد فی الخلقه و إبطال لغرض الله سبحانه فی الإنسانیه المستبقاه بتکثیر الأفراد بطریق الاستخلاف کما أشار إلیه ابن آدم المقتول فیما خاطب أخاه:« مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِینَ» فأشار إلی أن القتل بغیر الحق منازعه الربوبیه.

فلأجل أن من طباع الإنسان أن یحمله أی سبب واه علی ارتکاب ظلم یئول بحسب الحقیقه إلی إبطال حکم الربوبیه و غرض الخلقه فی الإنسانیه العامه،و کان من شأن بنی

إسرائيل ما ذكره الله سبحانه قبل هذه الآيات من الحسد و الكبر و اتباع الهوى و إدحاض الحق و قد قص قصصهم بين الله لهم حقيقه هذا الظلم الفجيع و منزلته بحسب الدقه،و أخبرهم بأن قتل الواحد عنده بمنزله قتل الجميع،و بالمقابله إحياء نفس واحده عنده بمنزله إحياء الجميع.

و هذه الكتابه و إن لم تشتمل على حكم تكليفى لكنها مع ذلك لا تخلو عن تشديد بحسب المنزله و الاعتبار،و له تأثير فى إثاره الغضب و السخط الإلهى فى دنيا أو آخره.

و بعباره مختصره:معنى الجمله أنه لما كان من طباع الإنسان أن يندفع بأى سبب واه إلى ارتكاب هذا الظلم العظيم،و كان من أمر بنى إسرائيل ما كان،بينا لهم منزله قتل النفس لعلهم يكفون عن الإسراف و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون.

و أما قوله:« أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي اَلْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ اَلنّٰاسَ جَمِيعاً» استثنى سبحانه قتل النفس بالنفس و هو القود و القصاص و هو قوله تعالى:« كُتِبَ عَلَيْكُمُ اَلْقِصٰاصُ فِي اَلْقَتْلىٰ» :(البقره:۱۷۸)و قتل النفس بالفساد فى الأرض،و ذلك قوله فى الآيه التاليه:« إِنَّمٰا جَزٰاءُ اَلَّذِينَ يُحٰارِبُونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي اَلْأَرْضِ فَسٰاداً» (الآيه).

و أما المنزله التى يدل عليها قوله: «فَكَأَنَّمٰا» (إلخ)فقد تقدم بيانه أن الفرد من الإنسان من حيث حقيقته المحموله له التى تحيا و تموت إنما يحمل الإنسانيه التى هى حقيقه واحده فى جميع الأفراد و البعض و الكل،و الفرد الواحد و الأفراد الكثيرون فيه واحد،و لازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحده بمنزله قتل نوع الإنسان و بالعكس إحياء النفس الواحده بمنزله إحياء الناس جميعا،و هو الذى تفيده الآيه الشريفه.

و ربما أشكل على الآيه أولا:بأن هذا التنزيل يفضى إلى نقض الغرض فإن الغرض بيان أهميه قتل النفس و عظمته من حيث الإثم و الأثر،و لازمه أن تزيد الأهميه كلما زاد عدد القتل،و تنزيل الواحد منزله الجميع يوجب أن لا يقع بإزاء الزائد على الواحد شىء فإن من قتل عشرا كان الواحده من هذه المقاتل تعد قتل الجميع،و تبقى الباقى و ليس بإزائه شىء.

و لا يندفع الإشكال بأن يقال:إن قتل العشره يعدل عشره أضعاف قتل الجميع و إن قتل الجميع يعدل قتل الجميع بعدد الجميع لأن مرجعه إلى المضاعفه فى عدد العقاب،و اللفظ لا يفى ببيان ذلك.

على أن الجميع مؤلف من آحاد كل واحد منها يعدل الجميع المؤلف من الآحاد كذلك، و يذهب إلى ما لا نهايه له،و لا معنى للجميع بهذا المعنى،إذ لا فرد واحد له فلا جميع من غير آحاد.

على أن الله تعالى يقول:« مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا» :(الأنعام:١۶٠) و ثانيا:بأن كون قتل الواحد يعدل قتل الجميع إن أريد به قتل الجميع الذى يشتمل على هذا الواحد كان لازمه مساواه الواحد مجموع نفسه و غيره و هو محال بالبداهه، و إن أريد به قتل الجميع باستثناء هذا الواحد كان معناه من قتل نفسا فكأنما قتل غيرها من النفوس،و هو معنى ردىء مفسد للغرض من الكلام و هو بيان غايه أهميه هذا الظلم.

على أن إطلاق قوله:« فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً» من غير استثناء يدفع هذا الاحتمال.

و لا يندفع هذا الإشكال بمثل قولهم:إن المراد هو المعادله من حيث العقوبه أو مضاعفه العذاب و نحو ذلك و هو ظاهر.

و الجواب عن الإشكالين:أن قوله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً- إلى قوله- فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً» كنايه عن كون الناس جميعا ذوى حقيقه واحده إنسانيه متحده فيها،الواحد منهم و الجميع فيها سواء،فمن قصد الإنسانيه التى فى الواحد منهم فقد قصد الإنسانيه التى فى الجميع كالماء إذا وزع بين أوانى كثيره فمن شرب من أحد الآنيه فقد شرب الماء، و قد قصد الماء من حيث إنه ماء-و ما فى جميع الآنيه لا يزيد على الماء من حيث إنه ماء- فكأنه شرب الجميع،فجمله:« مَنْ قَتَلَ، إلخ»كنايه فى صوره التشبيه،و الإشكالان مندفعان،فإن بناءهما على كون التشبيه بسيطا يزيد فيه وجه الشبه على حسب زياده المشبه عددا إذ لو سوى حينئذ بين الواحد و الجميع فسد المعنى و عرض الإشكال كما لو قيل:

الواحد من القوم كالواحد من الأسد و الواحد منهم كالجميع فى البطش و البساله.

و أما قوله تعالى:« وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً» فالكلام فيه كالكلام فى الجمله السابقه،و المراد بالإحياء ما يعد فى عرف العقلاء إحياء كإنقاذ الغريق و إطلاق الأسير،و قد عد الله تعالى فى كلامه الهدايه إلى الحق إحياء قال تعالى:« أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ» :(الأنعام:١٢٢)فمن دل نفسا إلى الإيمان فقد أحياها.

و أما قوله تعالى:« وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ» فهو معطوف على صدر الآيه أى و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات يحذرونهم القتل و كل ما يلحق به من وجوه الفساد فى الأرض.

و أما قوله تعالى:« ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» فهو متمم للكلام،بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان،و هو ظهور أنهم قوم مفسدون مصرون على استكبارهم و عتوهم فلقد بينا لهم منزله القتل و جاءتهم رسلنا فيها و فى غيرها بالبينات،و بينوا لهم و حذروهم و هم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتو و الاستكبار فأسرفوا فى الأرض قديما و لا يزالون يسرفون.

و الإسراف الخروج عن القصد و تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان،و إن كان يغلب عليه الاستعمال فى مورد الإنفاق كقوله تعالى:« وَ الَّذِينَ إِذٰا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كٰانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰاماً» :(الفرقان:۶۷)على ما ذكره الراغب فى المفردات،.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى،عن هشام بن سالم،عن حبيب السجستانى،عن أبى جعفر(ع) قال: لما قرب ابنا آدم القربان-فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر-قال:تقبل من هابيل و لم يتقبل من قابيل-دخله من ذلك حسد شديد،و بغى على هابيل،و لم يزل يرصده و يتبع خلوته حتى ظفر به-متنحيا من آدم فوثب عليه و قتله،فكان من قصتهما ما قد أنبأ الله فى كتابه-مما كان بينهما من المحاوره قبل أن يقتله، الحديث.

أقول:و الروايه من أحسن الروايات الوارده فى القصه و هى روايه طويله يذكر(ع) فيها:تولد هبه الله(شيث)لآدم بعد ذلك و وصيته له و جريان أمر الوصيه بين الأنبياء،و سننقلها إن شاء الله فى موضع يناسبها،و ظاهرها أن قابيل إنما قتل هابيل غيله من غير أن يمكنه من نفسه،كما هو المناسب للاعتبار،و قد تقدم فى البيان المتقدم.

و اعلم:أن الذى ضبطته الروايات من اسم الابنين:هابيل و قابيل،و الذى فى التوراه الدائره:هابيل و قايين.و لا حجه فى ذلك لانتهاء سند التوراه إلى واحد مجهول الحال مع ما هى عليه من التحريف الظاهر.

و فى تفسير القمى،قال:حدثنا أبى عن الحسن بن محبوب،عن هشام بن سالم،عن

أبى حمزه الثمالى،عن ثوير بن أبى فاخته قال:سمعت على بن الحسين(ع)يحدث رجالا من قريش قال: لما قربا ابنا آدم القربان-قرب أحدهما أسمن كبش كان فى صيانته،و قرب الآخر ضغثا من سنبل-فتقبل من صاحب الكبش و هو هابيل،و لم يتقبل من الآخر،فغضب قابيل،فقال لهابيل:و الله لأقتلنك،فقال هابيل:إنما يتقبل الله من المتقين-لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى-ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك-إنى أخاف الله رب العالمين-إنى أريد أن تبوء بإثمى و إثمك-فتكون من أصحاب النار و ذلك جزاء الظالمين.

فطوعت له نفسه قتل أخيه-فلم يدر كيف يقتله حتى جاء إبليس فعلمه فقال:ضع رأسه بين حجرين ثم اشدخه-فلما قتله لم يدر ما يصنع به،فجاء غرابان فأقبلا يتضاربان-حتى اقتتلا فقتل أحدهما صاحبه،ثم حفر الذى بقى فى الأرض بمخالبه،و دفن فيه صاحبه، قال قابيل:يا ويلتا أ عجزت-أن أكون مثل هذا الغراب-فأوارى سوأه أخى فأصبح من النادمين،فحفر له حفيره و دفنه فيها-فصارت سنه يدفنون الموتى.

فرجع قابيل إلى أبيه فلم ير معه هابيل فقال له آدم:أين تركت ابنى؟قال له قابيل:أرسلتنى عليه راعيا؟فقال آدم:انطلق معى إلى مكان القربان،و أوجس نفس آدم بالذى فعل قابيل،فلما بلغ مكان القربان استبان له قتله،فلعن آدم الأرض التى قبلت دم هابيل،و أمر آدم أن يلعن قابيل،و نودى قابيل من السماء لعنت كما قتلت أخاك، و لذلك لا تشرب الأرض الدم.

فانصرف آدم يبكى على هابيل أربعين يوما و ليله-فلما جزع عليه شكى ذلك إلى الله فأوحى الله إليه أنى واهب لك ذكرا-يكون خلفا عن هابيل-فولدت حواء غلاما زكيا مباركا-فلما كان فى اليوم السابع أوحى الله إليه:يا آدم إن هذا الغلام هبه منى لك- فسمه هبه الله فسماه آدم هبه الله.

أقول:الروايه من أوسط الروايات الوارده فى القصه و ما يلحق بها و هى مع ذلك لا تخلو عن تشويش فى متنها حيث إن ظاهرها أن قابيل أوعد هابيل بالقتل ثم لم يدر كيف يقتل؟و هو معنى غير معقول إلا أن يراد أنه تحير فى أنه أى سبب من أسباب القتل؟ يختاره لقتله فأشار إليه إبليس-لعنه الله-أن يشدخ رأسه بالحجاره،و هناك روايات أخر مرويه من طرق أهل السنه و الشيعه يقرب مضمونها من مضمون هذه الروايه.

و اعلم أن فی القصه روایات کثیره مختلفه المضامین عجیبتها کالقائله إن الله أخذ کبش هابیل فخزنه فی الجنه أربعین خریفا ثم فدی به إسماعیل فذبحه إبراهیم،و القائله:

إن هابیل مکن قابیل من نفسه و أنه تحرج أن یبسط یده إلی أخیه،و القائله إن قابیل لما قتل أخاه عقل الله إحدی رجلیه إلی فخذها من یوم قتله إلی یوم القیامه و جعل وجهه إلی الیمین حیث دار دارت علیه حظیره من ثلج فی الشتاء،و علیه فی الصیف حظیره من نار و معه سبعه أملاک کلما ذهب ملک جاء الآخر،و القائله:إنه معذب فی جزیره من جزائر البحر علقه الله منکوسا و هو کذلک إلی یوم القیامه،و القائله:إن قابیل بن آدم معلق بقرونه فی عین الشمس تدور به حیث دارت فی زمهریرها و حمیمها إلی یوم القیامه فإذا کان یوم القیامه صیره الله إلی النار،و القائله:إن ابن آدم الذی قتل أخاه کان قابیل الذی ولد فی الجنه،و القائله:إن آدم لما بان له قتل هابیل رثاه بعده أبیات بالعربیه،و القائله:

إنه کان من شریعتهم أن الإنسان إذا قصده آخر ترکه و ما یرید من غیر أن یمتنع منه، إلی غیر ذلک من الروایات.

فهذه و أمثالها روایات من طرق جلها أو کلها ضعیفه،و هی لا توافق الاعتبار الصحیح و لا الکتاب یوافقها فهی بین موضوعه بینه الوضع و بین محرفه أو مما غلط فیه الرواه من جهه النقل بالمعنی.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه عن عمر قال:قال رسول الله ص: یعجز أحدکم أتاه الرجل أن یقتله أن یقول هکذا؟و قال:بإحدی یدیه علی الأخری-فیکون کالخیر من ابنی آدم،و إذا هو فی الجنه و إذا قاتله فی النار.

أقول:و هی من روایات الفتن،و هی کثیره روی أکثرها السیوطی فی الدر المنثور،

کالذی رواه عن البیهقی عن أبی موسی عن النبی ص قال: اکسروا سیفکم یعنی فی الفتنه-و اقطعوا أوتارکم و الزموا أجواف البیوت،و کونوا فیها کالخیر من ابنی آدم،

و ما رواه عن ابن جریر و عبد الرزاق عن الحسن قال:قال رسول الله ص: إن ابنی آدم ضربا مثلا لهذه الأمه-فخذوا بالخیر منهما، إلی غیر ذلک.

و هذه روایات لا تلائم بظاهرها الاعتبار الصحیح المؤید بالآثار الصحیحه الآمره بالدفاع عن النفس و الانتصار للحق،و قد قال تعالی: «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدٰاهُمٰا عَلَى الْأُخْرىٰ فَقٰاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّٰى تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ اللّٰهِ» :

(الحجرات:۹).

على أنها جميعا تفسر قوله تعالى فى القصه حكايه عن هابيل: «لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» بأن المراد تمكين هابيل لأخيه فى قتله و تركه الدفاع،و قد عرفت ما فيه.

و مما يوجب سوء الظن بها أنها مرويه عن أناس قعدوا فى فتنه الدار و فى حروب على (ع)مع معاويه و الخوارج و طلحه و الزبير،فالواجب توجيهها بوجه إن أمكن و إلا فالطرح.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن عساكر عن على:أن النبى ص قال: بدمشق جبل يقال له:«قاسيون»فيه قتل ابن آدم أخاه.

أقول:و الروايه لا بأس بها غير أن ابن عساكر روى بطريق عن كعب الأحبار أنه قال:إن الدم الذى على جبل قاسيون هو دم ابن آدم،و بطريق آخر عن عمرو بن خبير الشعبانى قال:كنت مع كعب الأحبار على جبل دير المران فرأى لجه سائله فى الجبل فقال:هاهنا قتل ابن آدم أخاه،و هذا أثر دمه جعله الله آيه للعالمين.

و الروايتان تدلان على أنه كان هناك أثر ثابت يدعى أنه دم هابيل المقتول،و يشبه أن يكون ذلك من الأمور الخرافيه التى ربما وضعوها لصرف وجوه الناس إليها بالزياره و إيتاء النذور و إهداء الهدايا نظير آثار الأكف و الأقدام المعموله على الأحجار و قبر الجده و غير ذلك.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود قال:قال رسول الله ص: لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها-لأنه أول من سن القتل.

أقول:و قد روى هذا المعنى من طرق أهل السنه و الشيعه بغير هذا الطريق.

و فى الكافى،بإسناده عن حمران قال: قلت لأبى جعفر(ع)،ما معنى قول الله عز و جل« مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ-أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ-فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً»؟ -قال:قلت:و كيف فكأنما قتل الناس جميعا-و إنما قتل

واحده؟قال:یوضع فی موضع من جهنم إلیه-منتهی شده عذاب أهلها،لو قتل الناس جمیعا کان إنما دخل ذلک المکان،قلت:فإن قتل آخر؟قال:یضاعف علیه:

أقول:و رواه الصدوق فی معانی الأخبار،عن حمران مثله .

و قوله:«قلت:فإن قتل آخر؟»إشاره إلی ما تقدم بیانه من إشکال لزوم تساوی القتل الواحد معه منضما إلی غیره،و قد أجاب(ع)عنه بقوله:«یضاعف علیه» و لا یرد علیه أنه رفع الید عن التسویه التی یشیر إلیه حدیث المنزله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ»)إلخ)حیث إن لازم المضاعفه عدم تساوی الواحد و الکثیر أو الجمیع،وجه عدم الورود أن تساوی المنزله راجع إلی سنخ العذاب و هو کون قاتل الواحد و الاثنین و الجمیع فی واد واحد من أودیه جهنم،و یشیر إلیه قوله(ع)فی الروایه:«لو قتل الناس جمیعا کان إنما دخل ذلک المکان».

و یشهد علی ما ذکرنا

ما رواه العیاشی فی تفسیره عن حمران عن أبی عبد الله(ع): فی الآیه قال(ع)منزله فی النار-إلیها انتهاء شده عذاب أهل النار جمیعا فیجعل فیها،قلت:

و إن کان قتل اثنین؟قال:أ لا تری أنه لیس فی النار منزله-أشد عذابا منها؟قال:یکون یضاعف علیه بقدر ما عمل ،الحدیث فإن الجمع بین النفی و الإثبات فی جوابه(ع)لیس إلا لما وجهنا به الروایه،و هو أن الاتحاد و التساوی فی سنخ العذاب،و إلیه تشیر المنزله، و الاختلاف فی شخصه و نفس ما یذوقه القاتل فیه.

و یشهد علیه أیضا فی الجمله ما فیه أیضا

عن حنان بن سدیر عن أبی عبد الله(ع):

فی قول الله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً ... فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِیعاً» -قال:واد فی جهنم لو قتل الناس جمیعا کان فیه،و لو قتل نفس واحده کان فیه.

أقول:و کان الآیه منقوله فیها بالمعنی.

و فی الکافی،بإسناده عن فضیل بن یسار قال: قلت لأبی جعفر(ع)قول الله عز و جل فی کتابه:« وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً» -قال:من حرق أو غرق قلت:من أخرجها من ضلال إلی هدی؟قال:ذلک تأویلها الأعظم:

أقول:و رواه الشیخ فی أمالیه و البرقی فی المحاسن،عن فضیل عنه(ع)،و روی الحدیث عن سماعه و حمران عن أبی عبد الله(ع).

و المراد بكون الإنقاذ من الضلاله تأويلا- أعظم للآيه كونه تفسيرا أدق لها،و التأويل كثيرا ما كان يستعمل فى صدر الإسلام مرادفا للتفسير.

و يؤيد ما ذكرناه ما فى تفسير العياشى،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)قال:

سألته عن قول الله.« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ-فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً» -فقال:له فى النار مقعد-لو قتل الناس جميعا لم يزد على ذلك العذاب.قال:« وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً -لم يقتلها أو أنجى من غرق أو حرق،و أعظم من ذلك كلها يخرجها من ضلاله إلى هدى.

أقول:و قوله«لم يقتلها»أى لم يقتلها بعد ثبوت القتل لها كما فى مورد القصاص.

و فيه،عن أبى بصير عن أبى جعفر(ع)قال: سألته:« وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً» -قال: من استخرجها من الكفر إلى الإيمان.

أقول:و قد ورد هذا المعنى فى كثير من الروايات الوارده من طرق أهل السنه.

و فى المجمع:،روى عن أبى جعفر(ع): المسرفون الذين يستحلون المحارم و يسفكون الدماء.

(بحث علمى و تطبيق) [فى تطبيق قصه ابنى آدم على ما فى التوراه.]

فى الإصحاح الرابع من سفر التكوين من التوراه ما نصه": (۱)و عرف آدم حواء امرأته فحبلت و ولدت قايين-و قالت اقتنيت رجلا من عند الرب(۲)ثم عادت فولدت أخاه هابيل-و كان هابيل راعيا للغنم-و كان قايين عاملا فى الأرض(۳)و حدث من بعد أيام-أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب(۴)و قدم هابيل أيضا من أبكار غنمه و من سمانها-فنظر الرب إلى هابيل و قربانه(۵)و لكن إلى قايين و قربانه لم ينظر-فاغتاظ قايين جدا و سقط وجهه(۶)فقال الرب لقايين لما ذا اغتظت و لما ذا سقط وجهك(۷)إن أحسنت أ فلا رفع-و إن لم تحسن فعند الباب خطيئه رابضه-و إليك اشتياقها و أنت تسود عليها-

(۸)و كلم قايين هابيل أخاه و حدث إذ كانا فى الحقل-أن قايين قام على هابيل أخيه و قتله(۹)فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك-فقال لا أعلم أ حارس أنا لأخى(۱۰)فقال ما ذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض(۱۱)فالآن ملعون أنت من الأرض

التی فتحت فاها لتقبل دم أخیک من یدک(۱۲)متی عملت الأرض لا تعود تعطیک قوتها تائها و هاربا تکون فی الأرض(۱۳)فقال قایین للرب ذنبی أعظم من أن یتحمل(۱۴)إنک قد طردتنی الیوم عن وجه الأرض-و من وجهک أختفی و أکون تائها و هاربا فی الأرض فیکون کل من وجدنی یقتلنی(۱۵)فقال له الرب لذلک کل من قتله قایین-فسبعه أضعاف ینتقم منه-و جعل الرب لقایین علامه لکی لا یقتله کل من وجده(۱۶)فخرج قایین من لدن الرب-و سکن فی أرض نود شرقی عدن،انتهی

(۱)

.

و الذی فی القرآن من قصتهما قوله تعالی: «وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ(۲۸) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ(۳۰) فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ(۳۱) آیه:من المائده-۲۷:۳۱ (۲).

و علیک أن تتدبر ما تشتمل علیه القصه علی ما قصتها التوراه و علی ما قصها القرآن ثم تطبق بینهما ثم تقضی ما أنت قاض.

فأول ما یبدو لک من التوراه أنها جعلت الرب تعالی موجودا أرضیا علی صوره إنسان یعاشر الناس،یحکم لهم و علیهم کما یحکم أحد الناس فیهم،و یدنی و یقترب منه و یکلم کما یفعل ذلک أحدهم مع غیره ثم یختفی منه بالابتعاد و الغیبه فلا یری البعید الغائب کما یری القریب الحاضر،و بالجمله فحاله حال إنسان أرضی من جمیع الجهات غیر أنه نافذ الإراده إذا أراد، ماضی الحکم إذا حکم،و علی هذا الأساس یبتنی جمیع تعلیمات التوراه و الإنجیل فیما یبثان من التعلیم،تعالی الله عن ذلک علوا کبیرا.

و لازم القصه التی فیها:أن البشر کان یعیش یومئذ علی حال المشافهه و الحضور عند الله سبحانه،ثم احتجب عن قایین أو عنه و عن أمثاله و بقی الباقون علی حالهم مع أن

۱- ۱) نقل من التوراه العربیه المطبوعه فی کمبروج سنه ۱۹۳۵.

۲- ۲) إنما أعدنا ذکر الآیات لیکون التطبیق أسهل و التنازل أقرب.

البراهين القاطعه قائمه على أن الإنسان نوع واحد متماثل الأفراد عائش فى الدنيا عيشه دنيويه ماديه و أن الله جل شأنه متنزه عن الاتصاف بصفات الماده و أحوالها،متقدس عن لحوق عوارض الإمكان و طوارق النقص و الحدثان،و هو الذى يبينه القرآن.

و أما القرآن فإنه يقص القصه على أساس تماثل الأفراد غير أنه يذيل قصه القتل بقصه بعث الغراب فيكشف عن حقيقه كون الإنسان تدريجى الكمال بانيا استكماله فى مدارج الكمال الحيوى على أساس الحس و الفكر.

ثم يذكر محاوره الأخوين فيقص عن المقتول من غرر المعارف الفطريه الإنسانيه و أصول المعارف الدينيه من التوحيد و النبوه و المعاد،ثم أمر التقوى و الظلم و هما الأصلان العاملان فى جميع القوانين الإلهيه و الأحكام الشرعيه،ثم العدل الإلهى فى مسأله القبول و الرد و المجازاه الأخرويه.

ثم ندامه القاتل بعد صنعه و خسرانه فى الدنيا و الآخره،ثم يبين بعد ذلك كله أن القتل من شامه أمره أن الذى يقع منه على نفس واحده كالذى يقع منه على الناس جميعا و أن من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا.

[سوره المائده (۵): الآيات ۳۳ الى ۴۰]

اشاره

إِنَّمٰا جَزٰاءُ اَلَّذِينَ يُحٰارِبُونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي اَلْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ اَلْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي اَلدُّنْيٰا وَ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلاَّ اَلَّذِينَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِبْتَغُوا إِلَيْهِ اَلْوَسِيلَةَ وَ جٰاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذٰابِ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ مٰا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۳۶) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ اَلنّٰارِ وَ مٰا هُمْ بِخٰارِجِينَ مِنْهٰا وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُقِيمٌ (۳۷) وَ اَلسّٰارِقُ وَ اَلسّٰارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمٰا جَزٰاءً بِمٰا كَسَبٰا نَكٰالاً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اَللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

(بيان)

الآيات غير خاليه الارتباط بما قبلها،فإن ما تقدمها من قصه قتل ابن آدم أخاه و ما كتبه الله سبحانه على بنى إسرائيل من أجله،و إن كان من تتمه الكلام على بنى إسرائيل و بيان حالهم من غير أن يشتمل على حد أو حكم بالمطابقه لكنها لا تخلو بحسب لازم مضمونها من مناسبه مع هذه الآيات المتعرضه لحد المفسدين فى الأرض و السراق.

قوله تعالى:« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ».

« فَسَاداً »مصدر وضع موضع الحال،و محاربه الله و إن كانت بعد استحاله معناها الحقيقى و تعين إراده المعنى المجازى منها ذات معنى وسيع يصدق على مخالفه كل حكم من الأحكام الشرعيه و كل ظلم و إسراف لكن ضم الرسول إليه يهدى إلى أن المراد بها بعض ما للرسول فيه دخل،فيكون كالمتعين أن يراد بها ما يرجع إلى إبطال أثر ما للرسول عليه ولايه من جانب الله سبحانه كمحاربه الكفار مع النبى ص و إخلال قطاع الطريق بالأمن العام الذى بسطه بولايته على الأرض،و تعقب الجمله بقوله:« وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً »يشخص المعنى المراد و هو الإفساد فى الأرض بالإخلال بالأمن و قطع الطريق دون مطلق المحاربه مع المسلمين،على أن الضروره قاضيه بأن النبى ص لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم و الظفر بهم هذه المعامله من القتل و الصلب و المثله و النفى.

على أن الاستثناء فى الآيه التاليه قرينه على كون المراد بالمحاربه هو الإفساد المذكور

فإنه ظاهر فی أن التوبه إنما هی من المحاربه دون الشرک و نحوه.

فالمراد بالمحاربه و الإفساد علی ما هو الظاهر هو الإخلال بالأمن العام،و الأمن العام إنما یختل بإیجاد الخوف العام و حلوله محله،و لا یکون بحسب الطبع و العاده إلا باستعمال السلاح المهدد بالقتل طبعا و لهذا ورد فیما ورد من السنه تفسیر الفساد فی الأرض بشهر السیف و نحوه، و سیجیء فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا »(إلخ) التقتیل و التصلیب و التقطیع تفعیل من القتل و الصلب و القطع یفید شده فی معنی المجرد أو زیاده فیه،و لفظه« أَوْ »إنما تدل علی التردید المقابل للجمع،و أما الترتیب أو التخییر بین أطراف التردید فإنما یستفاد أحدهما من قرینه خارجیه حالیه أو مقالیه فالآیه غیر خالیه عن الإجمال من هذه الجهه.

و إنما تبینها السنه و سیجیء أن المروی عن أئمه أهل البیت(ع)أن الحدود الأربعه مترتبه بحسب درجات الإفساد کمن شهر سیفا فقتل النفس و أخذ المال أو قتل فقط أو أخذ المال فقط أو شهر سیفا فقط علی ما سیأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

و أما قوله:« أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ »فالمراد بکونه من خلاف أن یأخذ القطع کلا من الید و الرجل من جانب مخالف لجانب الأخری کالید الیمنی و الرجل الیسری،و هذا هو القرینه علی کون المراد بقطع الأیدی و الأرجل قطع بعضها دون الجمیع أی إحدی الیدین و إحدی الرجلین مع مراعاه مخالفه الجانب.

و أما قوله:« أَوْ یُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » فالنفی هو الطرد و التغییب و فسر فی السنه بطرده من بلد إلی بلد.

و فی الآیه أبحاث أخر فقهیه تطلب من کتب الفقه.

قوله تعالی:« ذٰلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی الدُّنْیٰا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ » الخزی هو الفضیحه،و المعنی ظاهر.

و قد استدل بالآیه علی أن جریان الحد علی المجرم لا یستلزم ارتفاع عذاب الآخره، و هو حق فی الجمله.

قوله تعالی:« إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ »(إلخ(و أما بعد القبض

عليهم و قيام البينه فإن الحد غير ساقط،و أما قوله تعالى:« فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فهو كنايه عن رفع الحد عنهم،و الآيه من موارد تعلق المغفره بغير الأمر الأخروى.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ »(إلخ)قال الراغب فى المفردات:،الوسيله التوصل إلى الشىء برغبه،و هى أخص من الوصيله لتضمنها لمعنى الرغبه،قال تعالى: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ،و حقيقه الوسيله إلى الله تعالى مراعاه سبيله بالعلم و العباده،و تحرى مكارم الشريعه،و هى كالقربه،و إذ كانت نوعا من التوصل و ليس إلا توصلا و اتصالا معنويا بما يوصل بين العبد و ربه و يربط هذا بذاك،و لا رابط يربط العبد بربه إلا ذله العبوديه،فالوسيله هى التحقق بحقيقه العبوديه و توجيه وجه المسكنه و الفقر إلى جنابه تعالى،فهذه هى الوسيله الرابطه،و أما العلم و العمل فإنما هما من لوازمها و أدواتها كما هو ظاهر إلا أن يطلق العلم و العمل على نفس هذه الحاله.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله:« وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ »مطلق الجهاد الذى يعم جهاد النفس و جهاد الكفار جميعا إذ لا دليل على تخصيصه بجهاد الكفار مع اتصال الجمله بما تقدمها من حديث ابتغاء الوسيله،و قد عرفت ما معناه:على أن الآيتين التاليتين بما تشتملان عليه من التعليل إنما تناسبان إراده مطلق الجهاد من قوله:« وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ».

و مع ذلك فمن الممكن أن يكون المراد بالجهاد هو القتال مع الكفار نظرا إلى أن تقييد الجهاد بكونه فى سبيل الله إنما وقع فى الآيات الآمره بالجهاد بمعنى القتال،و أما الأعم فخال عن التقييد كقوله تعالى: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» (العنكبوت:۶۹)و على هذا فالأمر بالجهاد فى سبيل الله بعد الأمر بابتغاء الوسيله إليه من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماما بشأنه،و لعل الأمر بابتغاء الوسيله إليه بعد الأمر بالتقوى أيضا من هذا القبيل.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ »(إلى آخر الآيتين)ظاهره -كما تقدمت الإشاره إليه-أن يكون تعليلا لمضمون الآيه السابقه،و المحصل أنه يجب عليكم أن تتقوا الله و تبتغوا إليه الوسيله و تجاهدوا فى سبيله فإن ذلك أمر يهمكم فى صرف عذاب أليم مقيم عن أنفسكم،و لا بدل له يحل محله فإن الذين كفروا فلم يتقوا الله و لم يبتغوا إليه الوسيله و لم يجاهدوا فى سبيله لو أنهم ملكوا ما فى الأرض جميعا-و هو أقصى ما يتمناه

ابن آدم من الملک الدنیوی عاده- ثم زید علیه مثله لیکون لهم ضعفا ما فی الأرض ثم أرادوا أن یفتدوا به من عذاب یوم القیامه ما تقبل منهم و لهم عذاب ألیم یریدون أن یخرجوا من النار و هی العذاب و ما هم بخارجین منها لأنه عذاب خالد مقیم علیهم لا یفارقهم أبدا.

و فی الآیه إشاره أولا- إلی أن العذاب هو الأصل القریب من الإنسان و إنما یصرف عنه الإیمان و التقوی کما یشیر إلیه قوله تعالی: «وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلاّ وارِدُها کانَ عَلی رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِیًّا ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِینَ فِیها جِثِیًّا» :(مریم:۷۲)و کذا قوله: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» :(العصر:۳).

و ثانیا:أن الفطره الأصلیه الإنسانیه و هی التی تتألم من النار غیر باطله فیهم و لا منتفیه عنهم و إلا لم یتألموا و لم یتعذبوا بها و لم یریدوا الخروج منها.

قوله تعالی:« وَ السّارِقُ وَ السّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما »(الآیه)الواو للاستیناف و الکلام فی مقام التفصیل فهو فی معنی:«و أما السارق و السارقه»(إلخ)و لذلک دخل الفاء فی الخبر أعنی قوله:« فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما »لأنه فی معنی جواب أما،کذا قیل.

و أما استعمال الجمع فی قوله:« أَیْدِیَهُما »مع أن المراد هو المثنی فقد قیل:إنه استعمال شائع،و الوجه فیه:أن بعض الأعضاء أو أکثرها فی الإنسان مزدوجه کالقرنین و العینین و الأذنین و الیدین و الرجلین و القدمین،و إذا أضیفت هذه إلی المثنی صارت أربعا و لها لفظ الجمع کأعینهما و أیدیهما و أرجلهما و نحو ذلک ثم اطرد الجمع فی الکلام إذا أضیف عضو إلی المثنی و إن لم یکن العضو من المزدوجات کقولهم:ملأت ظهورهما و بطونهما ضربا،قال تعالی: «إِنْ تَتُوبا إِلَی اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُما» :(التحریم:۴)و الید ما دون المنکب و المراد بها فی الآیه الیمین بتفسیر السنه،و یصدق قطع الید بفصل بعض أجزائها أو جمیعها عن البدن بآله قطاعه.

قوله:« جَزاءً بِما کَسَبا نَکالاً مِنَ اللّهِ »الظاهر أنه فی موضع الحال من القطع المفهوم من قوله:« فَاقْطَعُوا »أی حال کون القطع جزاء بما کسبا نکالا من الله،و النکال هو العقوبه التی یعاقب بها المجرم لینتهی عن إجرامه،و یعتبر بها غیره من الناس.

و هذا المعنی أعنی کون القطع نکالا- هو المصحح لأن یتفرع علیه قوله: « فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ »(إلخ)أی لما کان القطع نکالا یراد به رجوع

المنکول به عن معصیته فمن تاب من بعد ظلمه توبه ثم أصلح و لم یحم حول السرقه-و هذا أمر یستثبت به معنی التوبه-فإن الله یتوب علیه و یرجع إلیه بالمغفره و الرحمه لأن الله غفور رحیم،قال تعالی: «مٰا یَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ کٰانَ اللّٰهُ شٰاکِراً عَلِیماً» (النساء:۱۴۷).

و فی الآیه أبحاث أخر کثیره فقهیه للطالب أن یراجع فیها کتب الفقه.

قوله تعالی:« أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »(الآیه)فی موضع التعلیل لما ذکر فی الآیه السابقه من قبول توبه السارق و السارقه إذا تابا و أصلحا من بعد ظلمهما فإن الله سبحانه لما کان له ملک السموات و الأرض،و للملک أن یحکم فی مملکته و رعیته بما أحب و أراد من عذاب أو رحمه کان له تعالی أن یعذب من یشاء و یغفر لمن یشاء علی حسب الحکمه و المصلحه فیعذب السارق و السارقه إن لم یتوبا و یغفر لهما إن تابا.

و قوله:« وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ »فی موضع التعلیل لقوله:« لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »فإن الملک(بضم المیم)من شئون القدره کما أن الملک(بکسر المیم)من فروع الخلق و الإیجاد أعنی القیمومه الإلهیه.

بیان ذلک:أن الله تعالی خالق الأشیاء و موجدها فما من شیء إلا و ما له من نفسه و آثار نفسه لله سبحانه،هو المعطی لما أعطی و المانع لما منع،فله أن یتصرف فی کل شیء، و هذا هو الملک(بکسر المیم)قال تعالی: «قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» (الرعد:۱۶)و قال: «اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَهٌ وَ لاٰ نَوْمٌ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ» : (البقره:۲۵۵)و هو تعالی مع ذلک قادر علی أی تصرف شاء و أراد إذ کلما فرض من شیء فهو منه فله مضی الحکم و نفوذ الإراده و هو الملک(بضم المیم)و السلطنه علی کل شیء فهو تعالی مالک لأنه قیوم علی کل شیء،و ملک لأنه قادر غیر عاجز و لا ممنوع من نفوذ مشیئته و إرادته.

(بحث روائی)

فی الکافی،بإسناده عن أبی صالح،عن أبی عبد الله(ع)قال: قدم علی رسول الله ص قوم من بنی ضبه مرضی-فقال لهم رسول الله ص:أقیموا عندی فإذا برأتم بعثتکم

فی سریه،فقالوا:أخرجنا من المدینه،فبعث بهم إلی إبل الصدقه یشربون من أبوالها، و یأکلون من ألبانها فلما برءوا و اشتدوا-قتلوا ثلاثه ممن کان فی الإبل-فبلغ رسول الله ص فبعث إلیهم علیا(ع)-و إذا هم فی واد قد تحیروا-لیس یقدرون أن یخرجوا منه-قریبا من أرض الیمن فأسرهم-و جاء بهم إلی رسول الله ص فنزلت هذه الآیه:« إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ-وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا-أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ »:.

أقول:و رواه فی التهذیب،بإسناده عن أبی صالح عنه(ع)،باختلاف یسیر

،

و رواه العیاشی،فی تفسیره عنه(ع): و زاد فی آخره-فاختار رسول الله ص أن یقطع أیدیهم و أرجلهم من خلاف ،و القصه مرویه فی جوامع أهل السنه و منها الصحاح السته بطرق علی اختلاف فی خصوصیاتها،و منها ما وقع فی بعضها أن رسول الله ص بعد أن ظفر بهم قطع أیدیهم و أرجلهم من خلاف و سمل أعینهم،و فی بعضها:فقتل النبی ص منهم و صلب و قطع و سمل الأعین،و فی بعضها:أنه سمل أعینهم لأنهم سملوا أعین الرعاه، و فی بعضها:أن الله نهاه عن سمل الأعین،و أن الآیه نزلت معاتبه لرسول الله ص فی أمر هذه المثله،و فی بعضها:أنه أراد أن یسمل أعینهم و لم یسمل،إلی غیر ذلک.

و الروایات المأثوره عن أئمه أهل البیت(ع)خالیه عن ذکر سمل الأعین.

و فی الکافی،بإسناده عن عمرو بن عثمان بن عبید الله المدائنی عن أبی الحسن الرضا (ع)قال: سئل عن قول الله عز و جل:« إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ-وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ یُقَتَّلُوا »(الآیه)فما الذی إذا فعله استوجب واحده من هذه الأربع؟ فقال:إذا حارب الله و رسوله-و سعی فی الأرض فسادا فقتل قتل به،و إن قتل و أخذ المال قتل و صلب،و إن أخذ المال و لم یقتل-قطعت یده و رجله من خلاف،و إن شهر السیف فحارب الله و رسوله-و سعی فی الأرض فسادا و لم یقتل-و لم یأخذ المال نفی من الأرض-.

قلت کیف ینفی من الأرض و ما حد نفیه؟قال:ینفی من المصر الذی فعل فیه ما فعل إلی مصر غیره،و یکتب إلی أهل ذلک المصر أنه منفی-فلا تجالسوه و لا تبایعوه و لا تناکحوه و لا تؤاکلوه و لا تشاربوه فیفعل ذلک به سنه-فإن خرج من ذلک المصر إلی غیره-کتب إلیهم بمثل ذلک حتی تتم السنه،قلت:فإن توجه إلی أرض الشرک لیدخلها؟قال:إن توجه إلی أرض الشرک لیدخلها قوتل أهلها:.

أقول:و رواه الشيخ فى التهذيب،و العياشى فى تفسيره عن أبى إسحاق المدائنى عنه (ص)

و الروايات فى هذه المعانى مستفيضه عن أئمه أهل البيت(ع)و كذا روى ذلك بعده طرق من طرق أهل السنه،و فى بعض رواياتهم أن الإمام بالخيار إن شاء قتل و إن شاء صلب و إن شاء قطع الأيدى و الأرجل من خلاف و إن شاء نفى،و نظيره ما وقع فى بعض روايات الخاصه من كون الإمام بالخيار كالذى

رواه فى الكافى،مسندا عن جميل بن دراج عن الصادق(ع): فى الآيه قال فقلت:أى شىء عليهم من هذه الحدود التى سمى الله عز و جل؟ قال:ذلك إلى الإمام إن شاء قطع،و إن شاء نفى،و إن شاء صلب،و إن شاء قتل:قلت:النفى إلى أين؟قال(ع)ينفى من مصر إلى آخر،و قال:إن عليا (ع)نفى رجلين من الكوفه إلى البصره.

و تمام الكلام فى الفقه غير أن الآيه لا تخلو عن إشعار بالترتيب بين الحدود بحسب اختلاف مراتب الفساد فإن الترديد بين القتل و الصلب و القطع و النفى-و هى أمور غير متعادله و لا متوازنه بل مختلفه من حيث الشده و الضعف-قرينه عقليه على ذلك.

كما أن ظاهر الآيه أنها حدود للمحاربه و الفساد فمن شهر سيفا و سعى فى الأرض فسادا أو قتل نفسا فإنما يقتل لأنه محارب مفسد و ليس ذلك قصاصا يقتص منه لقتل النفس المحترمه فلا يسقط القتل لو رضى أولياء المقتول بالديه

كما رواه العياشى فى تفسيره،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)،و فيه: قال أبو عبيده:أصلحك الله-أ رأيت إن عفا عنه أولياء المقتول؟فقال أبو جعفر(ع):إن عفوا عنه فعلى الإمام أن يقتله-لأنه قد حارب و قتل و سرق،فقال أبو عبيده:فإن أراد أولياء المقتول أن يأخذوا منه الديه و يدعونه أ لهم ذلك؟قال:لا،عليه القتل.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا فى كتاب الأشراف و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الشعبى قال: كان حارثه بن بدر التميمى من أهل البصره-قد أفسد فى الأرض و حارب،و كلم رجالا من قريش أن يستأمنوا له عليا فأبوا- فأتى سعيد بن قيس الهمدانى فأتى عليا فقال:يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين-يحاربون الله و رسوله و يسعون فى الأرض فسادا؟قال:أن يقتلوا أو يصلبوا-أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف-أو ينفوا من الأرض ثم قال:إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم.

فقال سعيد:و إن كان حارثه بن بدر،فقال سعيد:هذا حارثه بن بدر قد جاء تائبا

فهو آمن؟قال:نعم،قال:فجاء به إليه فبايعه-و قبل ذلك منه و كتب له أمانا.

أقول:قول سعيد فی الروایه:«و إن کان حارثه بن بدر»ضمیمه ضمها إلی الآیه لإبانه إطلاقها لکل تائب بعد المحاربه و الإفساد و هذا کثیر فی الکلام.

و فی الکافی،بإسناده عن سوره بنی کلیب قال: قلت لأبی عبد الله(ع):رجل یخرج من منزله یرید المسجد أو یرید حاجه-فیلقاه رجل فیستقفیه فیضربه فیأخذ ثوبه؟ قال:أی شیء یقول فیه من قبلکم؟قلت:یقولون:هذه ذعاره معلنه-و إنما المحارب فی قری مشرکه،فقال:أیها أعظم حرمه:دار الإسلام أو دار الشرک؟قال:فقلت:

دار الإسلام-فقال:هؤلاء من أهل هذه الآیه:« إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ » (إلی آخر الآیه.

أقول:ما أشار إلیه الراوی من قول القوم هو الذی وقع فی بعض روایات الجمهور کما فی بعض روایات سبب النزول عن الضحاک قال: نزلت هذه الآیه فی المشرکین،و ما فی تفسیر الطبری:أن عبد الملک بن مروان کتب إلی أنس یسأله عن هذه الآیه فکتب إلیه أنس یخبره:أن هذه الآیه نزلت فی أولئک النفر من العرنیین و هم من بجیله،قال أنس:

فارتدوا عن الإسلام،و قتلوا الراعی،و استاقوا الإبل،و أخافوا السبیل،و أصابوا الفرج الحرام فسأل رسول الله ص جبرئیل عن القضاء فیمن حارب فقال:من سرق و أخاف السبیل و استحل الفرج الحرام فاصلبه،إلی غیر ذلک من الروایات.

و الآیه بإطلاقها یؤید ما فی خبر الکافی،و من المعلوم أن سبب النزول لا یوجب تقید ظاهر الآیه.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ-وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَهَ » (الآیه)قال:فقال:تقربوا إلیه بالإمام.

أقول:أی بطاعته فهو من قبیل الجری و الانطباق علی المصداق،و نظیره ما

عن ابن شهر آشوب قال:قال أمیر المؤمنین(ع): فی قوله تعالی:« وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَهَ »:أنا وسیلته.:

و قریب منه ما فی بصائر الدرجات،بإسناده عن سلمان عن علی(ع)

،و یمکن أن یکون الروایتان من قبیل التأویل فتدبر فیهما.

و فی المجمع:،روی عن النبی ص: سلوا الله لی الوسیله فإنها درجه فی الجنه-لا ینالها

إلا عبد واحد و أرجو أن أكون أنا هو.

و فى المعانى،بإسناده عن أبى سعيد الخدرى قال:قال رسول الله ص: إذا سألتم الله فاسألوا لى الوسيله،فسألنا النبى ص عن الوسيله،فقال:هى درجتى فى الجنه (الحديث)و هو طويل معروف بحديث الوسيله.

و أنت إذا تدبرت الحديث،و انطباق معنى الآيه عليه وجدت أن الوسيله هى مقام النبى ص من ربه الذى به يتقرب هو إليه تعالى،و يلحق به آله الطاهرون ثم الصالحون من أمته،

و قد ورد فى بعض الروايات عنهم(ع): أن رسول الله آخذ بحجزه ربه-و نحن آخذون بحجزته،و أنتم آخذون بحجزتنا.

و إلى ذلك يرجع ما ذكرناه فى روايتى القمى و ابن شهر آشوب أن من المحتمل أن تكونا من التأويل،و لعلنا نوفق لشرح هذا المعنى فى موضع يناسبه مما سيأتى.

و من الملحق بهذه الروايات

ما رواه العياشى عن أبى بصير قال:سمعت أبا جعفر (ع)يقول: عدو على هم المخلدون فى النار-قال الله:« وَ مٰا هُمْ بِخٰارِجِينَ مِنْهٰا ».

و فى البرهان،:فى قوله تعالى:« وَ السّٰارِقُ وَ السّٰارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمٰا »(الآيه):عن التهذيب،بإسناده عن أبى إبراهيم(ع)قال: تقطع يد السارق و يترك إبهامه و راحته، و تقطع رجله و يترك عقبه يمشى عليها.

و فى التهذيب،أيضا بإسناده عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبى عبد الله(ع):فى كم تقطع يد السارق؟فقال:فى ربع دينار.قال:قلت له:فى درهمين؟فقال:فى ربع دينار بلغ الدينار ما بلغ.قال:فقلت له:أ رأيت من سرق أقل من ربع الدينار هل يقع عليه حين سرق اسم السارق؟و هل هو عند الله سارق فى تلك الحال؟فقال:

كل من سرق من مسلم شيئا-قد حواه و أحرزه فهو يقع عليه اسم السارق،و هو عند الله سارق-و لكن لا تقطع إلا فى ربع دينار أو أكثر،و لو قطعت يد السارق فيما هو أقل من ربع دينار-لألفيت عامه الناس مقطعين.

أقول:يريد(ع)بقوله:و لو قطعت يد السارق(إلخ)أن فى حكم القطع تخفيفا من الله رحمه منه لعباده،و هذا المعنى أعنى اختصاص الحكم بسرقه ربع دينار أو أكثر مروى ببعض طرق الجمهور أيضا

ففى صحيحى البخارى و مسلم،بإسنادهما عن عائشه أن

رسول الله ص قال: لا يقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا.

و فى تفسير العياشى،عن سماعه عن أبى عبد الله(ع):أنه قال: إذا أخذ السارق فقطع وسط الكف-فإن عاد قطعت رجله من وسط القدم-فإن عاد استودع السجن-فإن سرق فى السجن قتل.

و فيه،عن زراره عن أبى جعفر(ع): عن رجل سرق و قطعت يده اليمنى-ثم سرق فقطعت رجله اليسرى ثم سرق الثالثه؟قال:كان أمير المؤمنين(ع)يخلده فى السجن-و يقول:إنى لأستحيى من ربى-أن أدعه بلا يد يستنظف بها-و لا رجل يمشى بها إلى حاجته.

قال:فكان إذا قطع اليد قطعها دون المفصل،و إذا قطع الرجل قطعها دون الكعبين قال:و كان لا يرى أن يغفل عن شىء من الحدود.

و فيه،عن زرقان صاحب ابن أبى دواد و صديقه بشده قال: رجع ابن أبى دواد ذات يوم من عند المعتصم،و هو مغتم فقلت له فى ذلك فقال:وددت اليوم أنى قدمت منذ عشرين سنه قال:قلت له:و لم ذاك؟قال:لما كان من هذا الأسود-أبا جعفر محمد بن على بن موسى-اليوم بين يدى أمير المؤمنين المعتصم-قال:قلت:و كيف كان ذلك؟قال:

إن سارقا أقر على نفسه بالسرقه-و سأل الخليفه تطهيره بإقامه الحد عليه-فجمع لذلك الفقهاء فى مجلسه،و قد أحضر محمد بن على فسألنا عن القطع-فى أى موضع يجب أن يقطع؟قال:

فقلت:من الكرسوع لقول الله فى التيمم:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ »و اتفق معى على ذلك قوم.

و قال آخرون:بل يجب القطع من المرفق-قال:و ما الدليل على ذلك؟قالوا:لأن الله لما قال:« وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ »فى الغسل-دل على ذلك أن حد اليد هو المرفق.

قال:فالتفت إلى محمد بن على-فقال:ما تقول فى هذا يا أبا جعفر؟فقال:قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين-قال:دعنى بما تكلموا به أى شىء عندك؟قال:اعفنى عن هذا يا أمير المؤمنين-قال:أقسمت عليك بالله-لما أخبرت بما عندك فيه،فقال.أما إذا أقسمت على بالله إنى أقول:إنهم أخطئوا فيه السنه،فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع-فتترك الكف،قال:و ما الحجه فى ذلك؟قال:قول رسول الله ص:السجود على سبعه أعضاء:الوجه،و اليدين،و الركبتين،و الرجلين-فإذا قطعت يده من الكرسوع

أو المرفق-لم يبق له يد يسجد عليها،و قال الله تبارك و تعالى:« وَ أَنَّ الْمَسٰاجِدَ لِلّٰهِ »يعنى هذه الأعضاء السبعه التى يسجد عليها« فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً »و ما كان لله لم يقطع.

قال:فأعجب المعتصم ذلک-فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.قال ابن أبى دواد:قامت قيامتى و تمنيت أنى لم أك حيا-.

قال ابن أبى زرقان:إن ابن أبى دواد قال:صرت إلى المعتصم بعد ثالثه فقلت:إن نصيحه أمير المؤمنين على واجبه-و أنا أكلمه بما أعلم أنى أدخل به النار قال:و ما هو؟ قلت:إذا جمع أمير المؤمنين فى مجلسه-فقهاء رعيته و علماءهم لأمر واقع من أمور الدين-فسألهم عن الحكم فيه-فأخبروه بما عندهم من الحكم فى ذلک،و قد حضر المجلس بنوه و قواده و وزراؤه و كتابه،و قد تسامع الناس بذلک من وراء بابه-ثم يترک أقاويلهم كلهم لقول رجل-يقول شطر هذه الأمه بإمامته،و يدعون أنه أولى منه بمقامه-ثم يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء؟قال:فتغير لونه،و انتبه لما نبهته له،و قال:جزاک الله عن نصيحتک خيرا.

قال:فأمر اليوم الرابع فلانا من كتاب وزرائه-بأن يدعوه إلى منزله فدعاه فأبى أن يجيبه، و قال:قد علمت أنى لا أحضر مجالسكم-فقال:إنى إنما أدعوک إلى الطعام- و أحب أن تطأ ثيابى و تدخل منزلى فأتبرک بذلک-و قد:أحب فلان بن فلان-من وزراء الخليفه لقائک فصار إليه-فلما أطعم منها أحس مآلم السم-فدعا بدابته فسأله رب المنزل أن يقيم-قال:خروجى من دارک خير لک،فلم يزل يومه ذلک و ليلته فى خلفه حتى قبض.

أقول:و رويت القصه بغيره من الطرق،و إنما أوردنا الروايه بطولها كبعض ما تقدمها من الروايات المتكرره لاشتمالها على أبحاث قرآنيه دقيقه يستعان بها على فهم الآيات.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمر: أن امرأه سرقت على عهد رسول الله ص-فقطعت يدها اليمنى-فقالت:هل لى من توبه يا رسول الله؟قال:نعم-أنت اليوم من خطيئتک كيوم ولدتک أمک،فنزل الله فى سوره المائده:« فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».

أقول:الروايه من قبيل التطبيق و اتصال الآيه بما قبلها،و نزولها معا ظاهر

[سوره المائده (۵): الآیات ۴۱ الی ۵۰]

اشاره

یَا أَیُّهَا اَلرَّسُولُ لاٰ یَحْزُنْکَ اَلَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْکُفْرِ مِنَ اَلَّذِینَ قٰالُوا آمَنّٰا بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ اَلَّذِینَ هٰادُوا سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ سَمّٰاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ یُحَرِّفُونَ اَلْکَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوٰاضِعِهِ یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هٰذٰا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ یُرِدِ اَللّٰهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اَللّٰهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِی اَلدُّنْیٰا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۴۱) سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ أَکّٰالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ یَضُرُّوکَ شَیْئاً وَ إِنْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُقْسِطِینَ (۴۲) وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ اَلتَّوْرٰاهُ فِیهٰا حُکْمُ اَللّٰهِ ثُمَّ یَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۴۳) إِنّٰا أَنْزَلْنَا اَلتَّوْرٰاهَ فِیهٰا هُدیً وَ نُورٌ یَحْکُمُ بِهَا اَلنَّبِیُّونَ اَلَّذِینَ أَسْلَمُوا لِلَّذِینَ هٰادُوا وَ اَلرَّبّٰانِیُّونَ وَ اَلْأَحْبٰارُ بِمَا اُسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتٰابِ اَللّٰهِ وَ کٰانُوا عَلَیْهِ شُهَدٰاءَ فَلاٰ تَخْشَوُا اَلنّٰاسَ وَ اِخْشَوْنِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآیٰاتِی ثَمَناً قَلِیلاً وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْکٰافِرُونَ (۴۴) وَ کَتَبْنٰا عَلَیْهِمْ فِیهٰا أَنَّ اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ اَلْعَیْنَ بِالْعَیْنِ وَ اَلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ اَلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ اَلسِّنَّ بِالسِّنِّ وَ اَلْجُرُوحَ قِصٰاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفّٰارَهٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۴۵) وَ قَفَّیْنٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ بِعِیسَی اِبْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلتَّوْرٰاهِ وَ آتَیْنٰاهُ اَلْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلتَّوْرٰاهِ وَ هُدیً وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ (۴۶) وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ اَلْإِنْجِیلِ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فِیهِ وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۴۷) وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَکَ مِنَ اَلْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْکُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهٰاجاً وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ فَاسْتَبِقُوا اَلْخَیْرٰاتِ إِلَی اَللّٰهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) وَ أَنِ اُحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ اِحْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ إِلَیْکَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا یُرِیدُ اَللّٰهُ أَنْ یُصِیبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلنّٰاسِ لَفٰاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُکْمَ اَلْجٰاهِلِیَّهِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اَللّٰهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۵۰)

(بيان)

الآيات متصله الأجزاء يرتبط بعضها ببعض ذات سياق واحد يلوح منه أنها نزلت فی طائفه من أهل الكتاب حكموا رسول الله ص فی بعض أحكام التوراه و هم يرجون أن يحكم فيهم بخلاف ما حكمت به التوراه فيستريحوا إليه فرارا من حكمها قائلين بعضهم لبعض:« إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذٰا -أی ما يوافق هواهم- فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ -أی أوتيتم حكم التوراه -فَاحْذَرُوا ».

ص :٣٣٨

و أنه(ص)أرجعهم إلى حكم التوراه فتولوا عنه،و أنه كان هناك طائفه من المنافقين يميلون إلى مثل ما يميل إليه أولئك المحكمون المستفتون من أهل الكتاب يريدون أن يفتنوا رسول الله ص فيحكم بينهم على الهوى و رعايه جانب الأقوياء و هو حكم الجاهليه، و من أحسن حكما من الله لقوم يوقنون؟و بذلك يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن الآيات نزلت فى اليهود حين زنا منهم محصنان من أشرافهم،و أراد أحبارهم أن يبدلوا حكم الرجم الذى فى التوراه الجلد،فبعثوا من يسأل رسول الله ص عن حكم زنا المحصن،و وصوهم إن هو حكم بالجلد أن يقبلوه،و إن حكم بالرجم أن يردوه فحكم رسول الله ص بالرجم فتولوا عنه فسأل(ص)ابن صوريا عن حكم التوراه فى ذلك و أقسمه بالله و آياته أن لا يكتم ما يعلمه من الحق فصدق رسول الله ص بأن حكم الرجم موجود فى التوراه (القصه)و سيجىء فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و الآيات مع ذلك مستقله فى بيانها غير مقيده فيما أفادها بسبب النزول،و هذا شأن الآيات القرآنيه مما نزلت لأسباب خاصه من الحوادث الواقعه،ليس لأسباب نزولها منها إلا ما لواحد من مصاديقها الكثيره من السهم،و ليس إلا لأن القرآن كتاب عام دائم لا يتقيد بزمان أو مكان،و لا يختص بقوم أو حادثه خاصه،و قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» :(يوسف:۱۰۴)و قال تعالى: «تَبارَكَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً» :(الفرقان:۱)و قال تعالى: «وَ إِنَّهُ لَکِتابٌ عَزِیزٌ لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ» :(فصلت:۴۲).

قوله تعالى:« یا أَیُّهَا الرَّسُولُ لا یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ »،تسليه للنبى ص و تطييب لنفسه مما لقى من هؤلاء المذكورين فى الآيه،و هم الذين يسارعون فى الكفر أى يمشون فيه المشيه السريعه،و يسيرون فيه السير الحثيث،تظهر من أفعالهم و أقوالهم موجبات الكفر واحده بعد أخرى فهم كافرون مسارعون فى كفرهم،و المسارعه فى الكفر غير المسارعه إلى الكفر.

و قوله:« مِنَ الَّذِینَ قالُوا آمَنّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ »بيان لهؤلاء الذين يسارعون فى الفكر أى من المنافقين،و فى وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشاره إلى عله النهى كما أن الأخذ بالوصف السابق أعنى قوله:« اَلَّذِینَ یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ »للإشاره إلى عله المنهى عنه،و المعنى-و الله أعلم-:لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم فى الكفر فإنهم

إنما آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم و ما أولئك بالمؤمنين،و كذلك اليهود الذين جاءوك و قالوا ما قالوا.

و قوله:« وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا »عطف على قوله:« مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا »(إلخ)على ما يفيده السياق،و ليس من الاستيناف فی شیء،و على هذا فقوله:« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ »خبر لمبتدء محذوف أی هم سماعون(إلخ).

و هذه الجمل المتسقه بيان حال الذين هادوا،و أما المنافقون المذكورون فی صدر الآيه فحالهم لا يوافق هذه الأوصاف كما هو ظاهر.

فهؤلاء المذكورون من اليهود هم سماعون للكذب أی يكثرون من سماع الكذب مع العلم بأنه كذب،و إلا لم يكن صفه ذم،و هم كثير السمع لقوم آخرين لم يأتوك،يقبلون منهم كل ما ألقوه إليهم و يطيعونهم فی كل ما أرادوه منهم،و اختلاف معنى السمع هو الذی أوجب تكرار قوله:« سَمَّاعُونَ »فإن الأول يفيد معنى الإصغاء و الثانيه معنى القبول.

و قوله:« يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ »أی بعد استقرارها فی مستقرها و الجمله صفه لقوله:« لِقَوْمٍ آخَرِينَ »و كذا قوله:« يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ».

و يتحصل من المجموع أن عده من اليهود ابتلوا بواقعه دينيه فيما بينهم،لها حكم إلهی عندهم لكن علماءهم غيروا الحكم بعد ثبوته ثم بعثوا طائفه منهم إلى النبی ص و أمروهم أن يحكموه فی الواقعه فإن حكم بما أنبأهم علماؤهم من الحكم المحرف فليأخذوه و إن حكم بغير ذلك فليحذروا.

و قوله:« وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً »الظاهر أنها معترضه يبين بها أنهم فی أمرهم هذا مفتونون بفتنه إلهيه،فلتطب نفس النبی ص بأن الأمر من الله و إليه و ليس يملك منه تعالى شیء فی ذلك،و لا موجب للتحزن فيما لا سبيل إلى التخلص منه.

و قوله:« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ »فقلوبهم باقيه على قذارتها الأوليه لما تكرر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلهم الله به،و ما يضل به إلا الفاسقين.

و قوله:« لَهُمْ فِی الدُّنْيَا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »إيعاد لهم بالخزی فی الدنيا و قد فعل بهم،و بالعذاب العظيم فی الآخره.

قوله تعالى:« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ »قال الراغب فی المفردات:، السحت

القشر الذی یستأصل،قال تعالی:« فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ »و قرئ: فَيُسْحِتَكُمْ (أی بفتح الیاء)یقال:سحته و أسحته،و منه السحت للمحظور الذی یلزم صاحبه العار کأنه یسحت دینه و مروءته،قال تعالی:« أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »أی لما یسحت دینهم،

و قال(ع):

کل لحم نبت من سحت فالنار أولی به،و سمی الرشوه سحتا. انتهی.

فکل مال اکتسب من حرام فهو سحت،و السیاق یدل علی أن المراد بالسحت فی الآیه هو الرشا و یتبین من إیراد هذا الوصف فی المقام أن علماءهم الذین بعثوا طائفه منهم إلی النبی ص کانوا قد أخذوا فی الواقعه رشوه لتحریف حکم الله فقد کان الحکم مما یمکن أن یتضرر به بعضه فسد الباب بالرشوه،فأخذوا الرشوه و غیروا حکم الله تعالی.

و من هنا یظهر أن قوله تعالی:« سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »باعتبار المجموع وصف لمجموع القوم،و أما بحسب التوزیع فقوله:« سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ »وصف لقوله:

« اَلَّذِينَ هادُوا »و هم المبعوثون إلی النبی ص و من فی حکمهم من التابعین،و قوله:

« أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »وصف لقوم آخرین،و المحصل أن الیهود منهم علماء یأکلون الرشا، و عامه مقلدون سماعون لأکاذیبهم.

قوله تعالی:« فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »(إلی آخر الآیه)تخییر للنبی ص بین أن یحکم بینهم إذا حکموه أو یعرض عنهم،و من المعلوم أن اختیار أحد الأمرین لم یکن یصدر منه(ص)إلا لمصلحه داعیه فیئول إلی إرجاع الأمر إلی نظر النبی ص و رأیه.

ثم قرر تعالی هذا التخییر بأنه لیس علیه(ص)ضرر لو ترک الحکم فیهم و أعرض عنهم،و بین له أنه لو حکم بینهم فلیس له أن یحکم إلا بالقسط و العدل.

فیعود المضمون بالآخره إلی أن الله سبحانه لا یرضی أن یجری بینهم إلا حکمه فإما أن یجری فیهم ذلک أو یهمل أمرهم فلا یجری من قبله(ص)حکم آخر.

قوله تعالی:« وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »تعجیب من فعالهم أنهم أمه ذات کتاب و شریعه و هم منکرون لنبوتک و کتابک و شریعتک ثم یبتلون بواقعه فی کتابهم حکم الله فیها،ثم یتولون بعد ما عندهم التوراه فیها حکم الله و الحال أن أولئک المبتعدین من الکتاب و حکمه لیسوا

بالذين يؤمنون بذلك.

و على هذا المعنى فقوله:« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ »أی عن حكم الواقعه مع كون التوراه عندهم و فيها حكم الله،و قوله:« وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »أی بالذين يؤمنون بالتوراه و حكمها،فهم تحولوا من الإيمان بها و بحكمها إلى الكفر.

و يمكن أن يفهم من قوله:« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ »،التولى عما حكم به النبی ص و من قوله:« وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »نفی الإيمان بالنبی ص على ما كان يظهر من رجوعهم إليه و تحكيمهم إياه،أو نفی الإيمان بالتوراه و بالنبی ص جميعا،لكن ما تقدم من المعنى أنسب لسياق الآيات.

و فی الآيه تصديق ما للتوراه التی عند اليهود اليوم،و هی التی جمعها لهم عزراء بإذن «كورش»ملك إيران بعد ما فتح بابل،و أطلق بنی إسرائيل من أسر البابليين و أذن لهم فی الرجوع إلى فلسطين و تعمير الهيكل،و هی التی كانت بيدهم فی زمن النبی ص، و هی التی بيدهم اليوم،فالقرآن يصدق أن فيها حكم الله،و هو أيضا يذكر أن فيها تحريفا و تغييرا.

و يستنتج من الجميع:أن التوراه الموجوده الدائره بينهم اليوم فيها شیء من التوراه الأصليه النازله على موسى(ع)و أمور حرفت و غيرت إما بزياده أو نقصان أو تغيير لفظ أو محل أو غير ذلك،و هذا هو الذی يراه القرآن فی أمر التوراه،و البحث الوافی عنها أيضا يهدی إلى ذلك.

قوله تعالى:« إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ »(إلخ)بمنزله التعليل لما ذكر فی الآيه السابقه،و هی و ما بعدها من الآيات تبين أن الله سبحانه شرع لهذه الأمم على اختلاف عهودهم شرائع،و أودعها فی كتب أنزلها إليهم ليهتدوا بها و يتبصروا بسببها،و يرجعوا إليها فيما اختلفوا فيه،و أمر الأنبياء و العلماء منهم أن يحكموا بها، و يتحفظوا عليها و يقوها من التغيير و التحريف،و لا يطلبوا فی الحكم ثمنا ليس إلا قليلا، و لا يخافوا فيها إلا الله سبحانه و لا يخشوا غيره.

و أكد ذلك عليهم و حذرهم اتباع الهوى،و تفتين أبناء الدنيا،و إنما شرع من الأحكام مختلفا باختلاف الأمم و الأزمان ليتم الامتحان الإلهی فإن استعداد الأزمان مختلف بمرور

الدهور،و لا يستكمل المختلفان فى الاستعداد شده و ضعفا بمكمل واحد من التربيه العلميه و العمليه على وتيره واحده.

فقوله:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ »أى شىء من الهدايه يهتدى بها،و شىء من النور يتبصر به من المعارف و الأحكام على حسب حال بنى إسرائيل،و مبلغ استعدادهم، و قد بين الله سبحانه فى كتابه عامه أخلاقهم،و خصوصيات أحوال شعبهم و مبلغ فهمهم، فلم ينزل إليهم من الهدايه إلا بعضها و من النور إلا بعضه لسبق عهدهم و قدمه أمتهم،و قله استعدادهم، قال تعالى: «وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» (الأعراف:۱۴۵).

و قوله:« يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا »إنما وصف النبيين بالإسلام و هو التسليم لله،الذى هو الدين عند الله سبحانه للإشاره إلى أن الدين واحد،و هو الإسلام لله و عدم الاستنكاف عن عبادته،و ليس لمؤمن بالله-و هو مسلم له-أن يستكبر عن قبول شىء من أحكامه و شرائعه.

و قوله:« وَ الرَّبّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ »أى و يحكم بها الربانيون و هم العلماء المنقطعون إلى الله علما و عملا،أو الذين إليهم تربيه الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الرب أو التربيه،و الأحبار و هم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم الله به و أراده منهم أن يحفظوه من كتاب الله،و كانوا من جهه حفظهم له و تحملهم إياه شهداء عليه لا يتطرق إليه تغيير و تحريف لحفظهم له فى قلوبهم،فقوله:

« وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ »بمنزله النتيجه لقوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا »(إلخ)أى أمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

و ما ذكرناه من معنى الشهاده هو الذى يلوح من سياق الآيه،و ربما قيل:إن المراد بها الشهاده على حكم النبى ص فى الرجم أنه ثابت فى التوراه،و قيل:إن المراد الشهاده على الكتاب أنه من عند الله وحده لا شريك له،و لا شاهد من جهه السياق يشهد على شىء من هذين المعنيين.

و أما قوله تعالى:« فَلا تَخْشَوُا النّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً »فهو متفرع على قوله:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا »،أى لما كانت التوراه منزله من عندنا مشتمله على شريعه يقضى بها النبيون و الربانيون و الأحبار بينكم فلا تكتموا شيئا

منها و لا تغيروها خوفا أو طمعا،أما خوفا فبأن تخشوا الناس و تنسوا ربكم بل الله فاخشوا حتى لا تخشوا الناس،و أما طمعا فبأن تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا هو مال أو جاه دنيوى زائل باطل.

و يمكن أن يكون متفرعا على قوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ »بحسب المعنى لأنه فى معنى أخذ الميثاق على الحفظ أى أخذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب و أشهدناهم عليه أن لا يغيروه و لا يخشوا فى إظهاره غيرى،و لا يشتروا بآياتى ثمنا قليلا،قال تعالى: «وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً» :(آل عمران:١٨٧)و قال تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلاَ تَعْقِلُونَ وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَ أَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» :(الأعراف:١٧٠).

و هذا المعنى الثانى لعله أنسب و أوفق لما يتلوه من التأكيد و التشديد بقوله:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ».

قوله تعالى:« وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ -إلى قوله وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ » السياق و خاصه بالنظر إلى قوله:« وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ »يدل على أن المراد به بيان حكم القصاص فى أقسام الجنايات من القتل و القطع و الجرح،فالمقابله الواقعه فى قوله:« اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ »و غيره إنما وقعت بين المقتص له و المقتص به و المراد به أن النفس تعادل النفس فى باب القصاص،و العين تقابل العين و الأنف الأنف و هكذا و الباء للمقابله كما فى قولك:

بعت هذا بهذا.

فيئول معنى الجمل المتسقه إلى أن النفس تقتل بالنفس،و العين تفقأ بالعين و الأنف تجدع بالأنف،و الأذن تصلم بالأذن،و السن تقلع بالسن و الجروح ذوات قصاص،و بالجمله أن كلا من النفس و أعضاء الإنسان مقتص بمثله.

و لعل هذا هو مراد من قدر فى قوله:« اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ »إن النفس مقتصه أو مقتوله بالنفس و هكذا و إلا فالتقدير بمعزل عن الحاجه،و الجمل تامه من دونه و الظرف لغو.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن هذا الحكم غير الحكم الذى حكموا فيه النبى ص و تذكره

الآيات السابقه فإن السياق قد تجدد بقوله:« إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ ».

و الحكم موجود فی التوراه الدائره علی ما سیجیء نقله فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّٰارَةٌ لَهُ »أی فمن عفا من أولیاء القصاص كولی المقتول أو نفس المجنی علیه و المجروح عن الجانی،و وهبه ما یملكه من القصاص فهو أی العفو كفاره لذنوب المتصدق أو كفاره عن الجانی فی جنایته.

و الظاهر من السیاق أن الكلام فی تقدیر قولنا:فإن تصدق به من له القصاص فهو كفاره له،و إن لم یتصدق فلیحكم صاحب الحكم بما أنزله الله من القصاص،و من لم یحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

و بذلك یظهر أولا:أن الواو فی قوله:« وَ مَنْ لَمْ یَحْكُمْ »للعطف علی قوله:

« فَمَنْ تَصَدَّقَ »لا للاستیناف كما أن الفاء فی قوله:« فَمَنْ تَصَدَّقَ »للتفریع:تفریع المفصل علی المجمل،نظیر قوله تعالی فی آیه القصاص: «فَمَنْ عُفِیَ لَهُ مِنْ أَخِیهِ شَیْءٌ فَاتِّبٰاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدٰاءٌ إِلَیْهِ بِإِحْسٰانٍ» :(البقره:۱۷۸).

و ثانیا:أن قوله:« وَ مَنْ لَمْ یَحْكُمْ »،من قبیل وضع العله موضع معلولها و التقدیر:

و إن لم یتصدق فلیحكم بما أنزل الله فإن من لم یحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

قوله تعالی:« وَ قَفَّیْنٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ » التقفیه جعل الشیء خلف الشیء و هو مأخوذ من القفا،و الآثار جمع أثر و هو ما یحصل من الشیء مما یدل علیه،و یغلب استعماله فی الشكل الحاصل من القدم ممن یضرب فی الأرض، و الضمیر فی« آثٰارِهِمْ »للأنبیاء.

فقوله:« وَ قَفَّیْنٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ »استعاره بالكنایه أرید بها الدلاله علی أنه سلك به(ع)المسلك الذی سلكه من قبله من الأنبیاء،و هو طریق الدعوه إلی التوحید و الإسلام لله.

و قوله:« مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ »تبیین لما تقدمه من الجمله و إشاره إلی أن دعوه عیسی هی دعوه موسی(ع)من غیر بینونه بینهما أصلا.

قوله تعالی:« وَ آتَیْنٰاهُ الْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ »

(إلخ)سياق الآيات من جهه تعرضها لحال شريعه موسى و عيسى و محمد ص و نزولها فى حق كتبهم يقضى بانطباق بعضها على بعض و لازم ذلك:

أولا-أن الإنجيل المذكور فى الآيه-و معناها البشاره-كان كتابا نازلا على المسيح (ع)لا مجرد البشاره من غير كتاب غير أن الله سبحانه لم يفصل القول فى كلامه فى كيفيه نزوله على عيسى كما فصله فى خصوص التوراه و القرآن قال تعالى فى حق التوراه: «قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّٰاسِ بِرِسٰالاٰتِي وَ بِكَلاٰمِي فَخُذْ مٰا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشّٰاكِرِينَ وَ كَتَبْنٰا لَهُ فِي الْأَلْوٰاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» :(الأعراف:١۴۵)و قال:

«أَخَذَ الْأَلْوٰاحَ وَ فِي نُسْخَتِهٰا هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» :(الأعراف:١۵۴).

و قال فى خصوص القرآن: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» :(الشعراء:١٩۵)و قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» :(الشعراء:١٩۵)و قال: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطٰاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :(التكوير:٢١)و قال: «فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرٰامٍ بَرَرَةٍ» :(عبس:١۶)و هو سبحانه لم يذكر فى تفصيل نزول الإنجيل و مشخصاته شيئا،لكن ذكره نزوله على عيسى فى الآيه محاذيا لذكر نزول التوراه على موسى فى الآيه السابقه،و نزول القرآن على محمد ص يدل على كونه كتابا فى عرض الكتابين.

و ثانيا:أن قوله تعالى فى وصف الإنجيل:« فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ »محاذاه لقوله فى وصف التوراه:« إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ »يراد به ما يشتمل عليه الكتاب من المعارف و الأحكام غير أن قوله تعالى فى هذه الآيه ثانيا:« وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »يدل على أن الهدى المذكور أولا غير الهدى الذى تفسيره الموعظه فالهدى المذكور أولا هو نوع المعارف التى يحصل بها الاهتداء فى باب الاعتقادات،و أما ما يهدى من المعارف إلى التقوى فى الدين فهو الذى يراد بالهدى المذكور ثانيا.

و على هذا لا يبقى لقوله:« وَ نُورٌ »من المصداق إلا الأحكام و الشرائع،و التدبر ربما ساعد على ذلك فإنها أمور يستضاء بها و يسلك فى ضوئها و تنورها مسلك الحياه،و قد قال تعالى: «أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ» :(الأنعام:١٢٢).

و قد ظهر بذلك:أن المراد بالهدى فى وصف التوراه و فى وصف الإنجيل أولا هو نوع المعارف الاعتقاديه كالتوحيد و المعاد،و بالنور فى الموضعين نوع الشرائع و الأحكام،

و بالهدی ثانیا فی وصف الإنجیل هو نوع المواعظ و النصائح،و الله أعلم.

و ظهر أیضا وجه تکرار الهدی فی الآیه فالهدی المذکور ثانیا غیر الهدی المذکور أولا و أن قوله« وَ مَوْعِظَةً »من قبیل عطف التفسیر و الله أعلم.

و ثالثا:أن قوله ثانیا فی وصف الإنجیل:« وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْرٰاةِ »لیس من قبیل التکرار لتأکید و نحوه بل المراد به تبعیه الإنجیل لشریعه التوراه فلم یکن فی الإنجیل إلا الإمضاء لشریعه التوراه و الدعوه إلیها إلا ما استثناه عیسی المسیح علی ما حکاه الله تعالی من قوله: «وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ» :(آل عمران:۵۰).

و الدلیل علی ذلک قوله تعالی فی الآیه الآتیه فی وصف القرآن:« وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ »علی ما سیجیء من البیان.

قوله تعالی:« وَ هُدیً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِینَ »قد مر توضیحه،و الآیه تدل علی أن فی الإنجیل النازل علی المسیح عنایه خاصه بالتقوی فی الدین مضافا إلی ما یشتمل علیه التوراه من المعارف الاعتقادیه و الأحکام العملیه،و التوراه الدائره بینهم الیوم و إن لم یصدقها القرآن کل التصدیق،و کذا الأناجیل الأربعه المنسوبه إلی متی و مرقس و لوقا و یوحنا و إن کانت غیر ما یذکره القرآن من الإنجیل النازل علی المسیح نفسه لکنها مع ذلک کله تصدق هذا المعنی کما سیجیء إن شاء الله الإشاره إلیه.

قوله تعالی:« وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ الْإِنْجِیلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِیهِ »(إلخ)و قد أنزل فیه تصدیق التوراه فی شرائعها إلا ما استثنی من الأحکام المنسوخه التی ذکرت فی الإنجیل النازل علی عیسی(ع)،فإن الإنجیل لما صدق التوراه فیما شرعته،و أحل بعض ما حرم فیها کان العمل بما فی التوراه فی غیر ما أحلها الإنجیل من المحرمات عملا بما أنزل الله فی الإنجیل و هو ظاهر.

و من هنا یظهر ضعف ما استدل بعض المفسرین بالآیه علی أن الإنجیل مشتمل علی صرائع مفصله کما اشتملت علیه التوراه،و وجه الضعف ظاهر.

و أما قوله:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ »فهو تشدید فی الأمر المدلول علیه بقوله:« وَ لْیَحْکُمْ »،و قد کرر الله سبحانه هذه الکلمه للتشدید ثلاث مرات:

مرتین فی أمر الیهود و مره فی أمر النصاری باختلاف یسیر فقال:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ ، فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ ، فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ »فسجل علیهم

الكفر و الظلم و الفسق.

و لعل الوجه فی ذکر الفسق عند التعرض لما یرجع إلی النصاری،و الکفر و الظلم فیما یعود إلی الیهود أن النصاری بدلوا التوحید تثلیثا و رفضوا أحکام التوراه بأخذ بولس دین المسیح دینا مستقلا منفصلا عن دین موسی مرفوعا فیه الأحکام بالتفدیه فخرجت النصاری بذلک عن التوحید و شریعته بتأول ففسقوا عن دین الله الحق،و الفسق خروج الشیء من مستقره کخروج لب التمره عن قشرها.

و أما الیهود فلم یشتبه علیهم الأمر فیما عندهم من دین موسی(ع)و إنما ردوا الأحکام و المعارف التی کانوا علی علم منها و هو الکفر بآیات الله و الظلم لها.

و الآیات الثلاث أعنی قوله:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ ، فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ ، فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ »آیات مطلقه لا تختص بقوم دون قوم،و إن انطبقت علی أهل الکتاب فی هذا المقام.

و قد اختلف المفسرون فی معنی کفر من لم یحکم بما أنزل الله کالقاضی یقضی بغیر ما أنزل الله،و الحاکم یحکم علی خلاف ما أنزل الله،و المبتدع یستن بغیر السنه و هی مسأله فقهیه الحق فیها أن المخالفه لحکم شرعی أو لأی أمر ثابت فی الدین فی صوره العلم بثبوته و الرد له توجب الکفر،و فی صوره العلم بثبوته مع عدم الرد له توجب الفسق،و فی صوره عدم العلم بثبوته مع الرد له لا توجب کفرا و لا فسقا لکونه قصورا یعذر فیه إلا أن یکون قصر فی شیء من مقدماته و لیراجع فی ذلک کتب الفقه.

قوله تعالی:« وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ » هیمنه الشیء علی الشیء-علی ما یتحصل من معناها-کون الشیء ذا سلطه علی الشیء فی حفظه و مراقبته و أنواع التصرف فیه،و هذا حال القرآن الذی وصفه الله تعالی بأنه تبیان کل شیء بالنسبه إلی ما بین یدیه من الکتب السماویه:یحفظ منها الأصول الثابته غیر المتغیره و ینسخ منها ما ینبغی أن ینسخ من الفروع التی یمکن أن یتطرق إلیها التغیر و التبدل حتی یناسب حال الإنسان بحسب سلوکه صراط الترقی و التکامل بمرور الزمان قال تعالی:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ» :(إسراء:۹)و قال: «مٰا نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا» :(البقره:۱۰۶)و قال: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِی کٰانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :(الأعراف:۱۵۷).

فهـذه الجمله أعنی قوله:« وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ »متممه لقول:« مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْکِتٰابِ » تتميم إيضاح إذ لولاها لأمکن أن يتوهم من تصديق القرآن للتوراه و الإنجيل أنه يصدق ما فيهما من الشرائع و الأحکام تصديق إبقاء من غير تغيير و تبديل لکن توصيفه بالهيمنه يبين أن تصديقه لها تصديق أنها معارف و شرائع حقه من عند الله و لله أن يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ و التکميل کما يشير إليه قوله ذيلا:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰکِنْ لِيَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ ».

فقول:« مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ »معناه تقرير ما فيها من المعارف و الأحکام بما يناسب حال هـذه الأمه فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ و التکميل و الزياده کما کان المسيح(ع) أو إنجيله مصدقا للتوراه مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات کما حکاه الله عنه فی قوله:

«وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاةِ وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَيْکُمْ» :(آل عمران:۵۰).

قوله تعالی:« فَاحْکُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَکَ مِنَ الْحَقِّ » أی إذا کانت الشريعه النازله إليک المودعه فی الکتاب حقا و هو حق فيما وافق ما بين يديه من الکتب و حق فيما خالفه لکونه مهيمنا عليه فليس لک إلا أن تحکم بين أهل الکتاب-کما يؤيده ظاهر الآيات السابقه-أو بين الناس-کما تؤيده الآيات اللاحقه- بما أنزل الله إليک و لا تتبع أهواءهم بالإعراض و العدول عما جاءک من الحق.

و من هنا يظهر جواز أن يراد بقوله:« فَاحْکُمْ بَيْنَهُمْ »الحکم بين أهل الکتاب أو الحکم بين الناس لکن تبعد المعنی الأول حاجته إلی تقدير کقولنا فاحکم بينهم إن حکمت،فإن الله سبحانه لم يوجب عليه(ص)الحکم بينهم بل خيره بين الحکم و الإعراض بقوله:« فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »(الآيه)علی أن الله سبحانه ذکر المنافقين مع اليهود فی أول الآيات فلا موجب لاختصاص اليهود برجوع الضمير إليهم لسبق الذکر و قد ذکر معهم غيرهم،فالأنسب أن يرجع الضمير إلی الناس لدلاله المقام.

و يظهر أيضا أن قوله:« عَمّٰا جٰاءَکَ »متعلق بقوله:« وَ لاٰ تَتَّبِعْ »بإشرابه معنی العدول أو الإعراض.

قوله تعالی:« لِکُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً »قال الراغب فی المفردات:،

الشرع نهج الطريق الواضح يقال: شرعت له طريقا و الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج فقيل له:شرع و شرع و شريعه،و أستعير ذلك للطريقه الإلهيه قال:« شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً » -إلى أن قال-قال بعضهم:سميت الشريعه شريعه تشبيها بشريعه الماء انتهى.

و لعل الشريعه بالمعنى الثانى مأخوذ من المعنى الأول لوضوح طريق الماء عندهم بكثره الورود و الصدور و قال: النهج (بالفتح فالسكون):الطريق الواضح،و نهج الأمر و أنهج وضح،و منهج الطريق و منهاجه.

(كلام فى معنى الشريعه) (و الفرق بينها و بين الدين و المله فى عرف القرآن)

معنى الشريعه كما عرفت هو الطريقه،و الدين و كذلك المله طريقه متخذه لكن الظاهر من القرآن أنه يستعمل الشريعه فى معنى أخص من الدين كما يدل عليه قوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ» :(آل عمران:١٩)و قوله تعالى: «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰاسِرِينَ» :(آل عمران:٨٥) إذا انضما إلى قوله:

« لِكُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهٰاجاً »(الآيه)و قوله: «ثُمَّ جَعَلْنٰاكَ عَلىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا» :(الجاثيه:١٨).

فكان الشريعه هى الطريقه الممهده لأمه من الأمم أو لنبى من الأنبياء الذين بعثوا بها كشريعه نوح و شريعه إبراهيم و شريعه موسى و شريعه عيسى و شريعه محمد ص،و الدين هو السنه و الطريقه الإلهيه العامه لجميع الأمم فالشريعه تقبل النسخ دون الدين بمعناه الوسيع.

و هناك فرق آخر و هو أن الدين ينسب إلى الواحد و الجماعه كيفما كانا،و لكن الشريعه لا تنسب إلى الواحد إلا إذا كان واضعها أو القائم بأمرها يقال:دين المسلمين و دين اليهود و شريعتهم،و يقال:دين الله و شريعته و دين محمد و شريعته،و يقال:دين زيد و عمرو، و لا يقال:شريعه زيد و عمرو،و لعل ذلك لما فى لفظ الشريعه من التلميح إلى المعنى الحدثى و هو تمهيد الطريق و نصبه فمن الجائز أن يقال:الطريقه التى مهدها الله أو الطريقه التى مهدت للنبى أو للأمه الفلانيه دون أن يقال:الطريقه التى مهدت لزيد إذ لا اختصاص له بشيء.

و كيف كان فالمستفاد منها أن الشريعه أخص معنى من الدين و أما قوله تعالى:

«شَرَعَ لَكَمْ مِنَ الـدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ» :(الشوری:١٣)فلا ينافی ذلك إذ الآيه إنما تدل علی أن شريعه محمد ص المشروعه لأمته هی مجموع وصايا الله سبحانه لنوح و إبراهيم و موسی و عيسی مضافا إليها ما أوحاه إلی محمد صلی الله عليه و آله و عليهم،و هو كنايه إما عن كون الإسلام جامعا لمزايا جميع الشرائع السابقه و زياده،أو عن كون الشرائع جميعا ذات حقيقه واحده بحسب اللب و إن كانت مختلفه بحسب اختلاف الأمم فی الاستعداد كما يشعر به أو يدل عليه قوله بعده:

«أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» :(الشوری:١٣).

فنسبه الشرائع الخاصه إلی الدين -و هو واحد و الشرائع تنسخ بعضها بعضا-كنسبه الأحكام الجزئيه فی الإسلام فيها ناسخ و منسوخ إلی أصل الدين،فالله سبحانه لم يتعبد عباده إلا لدين واحد و هو الإسلام له إلا أنه سلك بهم لنيل ذلك مسالك مختلفه و سن لهم سننا متنوعه علی حسب اختلاف استعداداتهم و تنوعها،و هی شرائع نوح و إبراهيم و موسی و عيسی و محمد صلی الله عليه و آله و عليهم كما أنه تعالی ربما نسخ فی شريعه واحده بعض الأحكام ببعض لانقضاء مصلحه الحكم المنسوخ و ظهور مصلحه الحكم الناسخ كنسخ الحبس المخلد فی زنا النساء بالجلد و الرجم و غير ذلك،و يدل علی ذلك قوله تعالی:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِی مٰا آتٰاكُمْ »(الآيه).

و أما المله فكان المراد بها السنه الحيويه المسلوكه بين الناس،و كان فيها معنی الإملال و الإملاء فيكون هی الطريقه المأخوذه من الغير،و ليس الأصل فی معناه واضحا ذاك الوضوح،فالأشبه أن تكون مرادفه للشريعه بمعنی أن المله كالشريعه هی الطريقه الخاصه بخلاف الدين،و إن كان بينهما فرق من حيث إن الشريعه تستعمل فيها بعنايه أنها سبيل مهده الله تعالی لسلوك الناس إليه،و المله إنما تطلق عليها لكونها مأخوذه عن الغير بالاتباع العملی،و لعله لذلك لا تضاف إلی الله سبحانه كما يضاف الدين و الشريعه،يقال:دين الله و شريعه الله،و لا يقال:مله الله.

بل إنما تضاف إلی النبی مثلا من حيث إنها سيرته و سنته أو إلی الأمه من جهه أنهم سائرون مستنون به،قال تعالی: «مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» :(البقره:

١٣٥)و قال تعالی حكايه عن يوسف(ع): «إِنِّی تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبٰائِی إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ» :(يوسف:٣٨)و قال

تعالی حکایه عن الکفار فی قولهم لأنبیائهم: «لَنُخْرِجَنَّکَمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا» :(إبراهیم:۱۳).

فقد تلخص أن الدین فی عرف القرآن أعم من الشریعه و المله و هما کالمترادفین مع فرق ما من حیث العنایه اللفظیه.

[(بیان)]

قوله تعالی:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ »بیان لسبب اختلاف الشرائع،و لیس المراد بجعلهم أمه واحده الجعل التکوینی بمعنی النوعیه الواحده فإن الناس أفراد نوع واحد یعیشون علی نسق واحد کما یدل علیه قوله تعالی:

«وَ لَوْ لاٰ أَنْ یَکُونَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّهٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَیْهٰا یَظْهَرُونَ» :(الزخرف:۳۳).

بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أمه واحده علی مستوی واحد من الاستعداد و التهیؤ حتی تشرع لهم شریعه واحده لتقارب درجاتهم الملحوظه فقوله:« وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً »من قبیل وضع عله الشرط موضع الشرط لیتضح باستحضارها معنی الجزاء أعنی قوله:« وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ »أی لیمتحنکم فیما أعطاکم و أنعم علیکم،و لا محاله هذه العطایا المشار إلیها فی الآیه مختلفه فی الأمم،و لیست هی الاختلافات بحسب المساکن و الألسنه و الألوان فإن الله لم یشرع شریعتین أو أکثر فی زمان واحد قط بل هی الاختلافات بحسب مرور الزمان،و ارتقاء الإنسان فی مدارج الاستعداد و التهیؤ و لیست التکالیف الإلهیه و الأحکام المشرعه إلا امتحانا إلهیا للإنسان فی مختلف مواقف الحیاه و إن شئت فقل:إخراجا له من القوه إلی الفعل فی جانبی السعاده و الشقاوه،و إن شئت فقل:

تمییزا لحزب الرحمن و عباده من حزب الشیطان فقد اختلف التعبیر عنه فی الکتاب العزیز،و مآل الجمیع إلی معنی واحد،قال تعالی جریا علی مسلک الامتحان: «وَ تِلْکَ الْأَیّٰامُ نُدٰاوِلُهٰا بَیْنَ النّٰاسِ وَ لِیَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَتَّخِذَ مِنْکُمْ شُهَدٰاءَ وَ اللّٰهُ لاٰ یُحِبُّ الظّٰالِمِینَ وَ لِیُمَحِّصَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَمْحَقَ الْکٰافِرِینَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ وَ لَمّٰا یَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِینَ جٰاهَدُوا مِنْکُمْ وَ یَعْلَمَ الصّٰابِرِینَ» :(آل عمران:۱۴۲)إلی غیر ذلک من الآیات.

و قال جریا علی المسلک الثانی: «فَإِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰایَ فَلاٰ یَضِلُّ وَ لاٰ یَشْقیٰ وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْکاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ أَعْمیٰ» :(طه:۱۲۴).

و قال جریا علی المسلک الثالث: «وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً -Xإلی أن

قال‌X- قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّ عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ قَالَ هٰذَا صِرَاطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ إِنَّ عِبَادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغَاوِینَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ» :(الحجر:۴۳)إلی غیر ذلک من الآیات.

و بالجمله لما کانت العطایا الإلهیه لنوع الإنسان من الاستعداد و التهیؤ مختلفه باختلاف الأزمان،و کانت الشریعه و السنه الإلهیه الواجب إجراؤها بینهم لتتمیم سعاده حیاتهم و هی الامتحانات الإلهیه تختلف لا محاله باختلاف مراتب الاستعدادات و تنوعها أنتج ذلک لزوم اختلاف الشرائع،و لذلک علل تعالی ما ذکره من اختلاف الشرعه و المنهاج بأن إرادته تعلقت ببلائکم و امتحانکم فیما أنعم علیکم فقال:« لِکُلٍّ جَعَلْنَا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً وَ لَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مَا آتَاکُمْ ».

فمعنی الآیه-و الله أعلم-:لکل أمه جعلنا منکم(جعلا تشریعیا)شرعه و منهاجا و لو شاء الله لأخذکم أمه واحده و شرع لکم شریعه واحده،و لکن جعل لکم شرائع مختلفه لیمتحنکم فیما ءاتاکم من النعم المختلفه،و اختلاف النعم کان یستدعی اختلاف الامتحان الذی هو عنوان التکالیف و الأحکام المجعوله فلا محاله ألقی الاختلاف بین الشرائع.

و هذه الأمم المختلفه هی أمم نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمد صلی الله علیه و آله و علیهم کما یدل علیه ما یمتن الله به علی هذه الأمه بقوله: «شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مَا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ وَ مَا وَصَّیْنَا بِهِ إِبْرَاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ : (الشوری:۱۳).

قوله تعالی:« فَاسْتَبِقُوا الْخَیْرَاتِ إِلَی اللّٰهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً »(إلخ) الاستباق أخذ السبق،و المرجع مصدر میمی من الرجوع،و الکلام متفرع علی قوله:« لِکُلٍّ جَعَلْنَا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً »بما له من لازم المعنی أی و جعلنا هذه الشریعه الحقه المهیمنه علی سائر الشرائع شریعه لکم،و فیه خیرکم و صلاحکم لا محاله فاستبقوا الخیرات و هی الأحکام و التکالیف،و لا تشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التی بینکم و بین غیرکم فإن مرجعکم جمیعا إلی ربکم تعالی فینبئکم بما کنتم فیه تختلفون و یحکم بینکم حکما فصلا،و یقضی قضاء عدلا.

قوله تعالی:« وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ »،هذا الصدر یتحد مع ما فی الآیه السابقه من قوله:« أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ »،ثم یختلفان فیما فرع علی کل منهما،و یعلم منه أن التکرار لحیازه هذه الفائده فالآیه الأولی تأمر بالحکم بما أنزل الله و تحذر اتباع أهواء الناس لأن هذا الذی أنزله الله هی الشریعه المجعوله للنبی

ص و لأمته فالواجب عليهم أن يستبقوا هذه الخيرات،و الآيه الثانيه تأمر بالحكم بما أنزل الله،و تحذر اتباع أهواء الناس و تبين أن توليهم إن تولوا عما أنزل الله كاشف عن إضلال إلهی لهم لفسقهم و قد قال الله تعالی: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ» :(البقره:٢۶).

فيتحصل مما تقدم أن هذه الآيه بمنزله البيان لبعض ما تتضمنه الآيه السابقه من المعانی المفتقره إلی البيان،و هو أن إعراض أرباب الأهواء عن اتباع ما أنزل الله بالحق إنما هو لكونهم فاسقين،و قد أراد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم الموجبه لفسقهم،و الإصابه هو الإضلال ظاهرا،فقوله:« وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ »عطف علی الكتاب فی قوله:

« وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ »كما قيل،و الأنسب حينئذ أن يكون اللام فيه مشعره بالتلميح إلی المعنی الحدثی،و يصير المعنی:و أنزلنا إليك ما كتب عليهم من الأحكام و أن احكم بينهم بما أنزل الله(إلخ).

و قوله:« وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ »أمره تعالی نبيه بالحذر عن فتنتهم مع كونه(ص)معصوما بعصمه الله إنما هو من جهه أن قوه العصمه لا توجب بطلان الاختيار و سقوط التكاليف المبنيه عليه فإنها من سنخ الملكات العلميه،و العلوم و الإدراكات لا تخرج القوی العامله و المحركه فی الأعضاء و الأعضاء الحامله لها عن استواء نسبه الفعل و الترك إليها.

كما أن العلم الجازم بكون الغذاء مسموما يعصم الإنسان عن تناوله و أكله،لكن الأعضاء المستخدمه للتغذی كاليد و الفم و اللسان و الأسنان من شأنها أن تعمل عملها فی هذا الأكل و تتغذی به،و من شأنها أن تسكن فلا تعمل شيئا مع إمكان العمل لها فالفعل اختياری و إن كان كالمستحيل صدوره ما دام هذا العلم.

و قد تقدم شطر من الكلام فی ذلك فی الكلام علی قوله تعالی: «وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» (النساء:١١٣).

و قوله:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ »بيان لأمر إضلالهم إثر فسقهم كما تقدم،و فيه رجوع إلی بدء الكلام فی هذه الآيات:« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ »(إلخ)ففيه تسليه للنبی ص،و تطييب لنفسه،و تعليم له

ما لا یدب معه الحزن فی قلبه،و هکذا فعل الله سبحانه فی جل الموارد التی نهی فیها النبی ص عن أن یحزن علی تولیهم عن الدعوه الحقه و استنکافهم عن قبول ما یرشدهم إلی سبیل الرشاد و الفلاح فبین له(ص)أنهم لیسوا بمعجزین لله فی ملکه و لا غالبین علیه بل الله غالب علی أمره،و هو الذی یضلهم بسبب فسقهم،و یزیغ قلوبهم عن زیغ منهم، و یجعل الرجس علیهم بسلب توفیقه عنهم و استدراجه إیاهم،قال تعالی: «وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ یُعْجِزُونَ» :(الأنفال:۵۹)و إذا کان الأمر إلی الله سبحانه،و هو الذی یذب عن ساحه دینه الطاهره کل رجس نجس فلم یفته شیء مما أراده و لا وجه للحزن إذا لم یکن فائت.

و لعله إلی ذلک الإشاره بقوله:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ »(إلخ)دون أن یقال:

فإن تولوا فإنما یرید الله(إلخ)أو ما یؤدی معناه فیئول المعنی إلی تعلیم أن تولیهم أنما هو بتسخیر إلهی فلا ینبغی أن یحزن ذلک النبی ص فإنه رسول داع إلی سبیل ربه إن أحزنه شیء فإنما ینبغی أن یحزنه لغلبته إراده الله فی أمر الدعوه الدینیه،و إذا کان الله سبحانه لا یعجزه شیء بل هو الذی یسوقهم إلی هنا و هناک بتسخیر إلهی و توفیق و مکر فلا موجب للحزن.

و قد بین تعالی هذه الحقیقه بلسان آخر فی قوله: «فَلَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ عَلیٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ یُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِیثِ أَسَفاً إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَیْهٰا صَعِیداً جُرُزاً» :(الکهف:۸)فبین أن الله تعالی لم یرد بإرسال الرسل و الإنذار و التبشیر الدینی إیمان الناس جمیعا علی حد ما یریده الإنسان فی حوائجه و مآربه،و إنما ذلک کله امتحان و ابتلاء یبتلی به الناس لیمتاز به من هو أحسن عملا، و إلا فالدنیا و ما فیها ستبطل و تفنی فلا یبقی إلا الصعید العاری من هؤلاء الکفار المعرضین عن الحدیث الحق،و من کل ما یتعلق به قلوبهم فلا موجب للأسف إذ لا یجر ذلک خیبه إلی سعینا و لا بطلانا لقدرتنا و کلالا لإرادتنا.

و قوله:« وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النّٰاسِ لَفٰاسِقُونَ »فی محل التعلیل لقوله:« أَنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ أَنْ یُصِیبَهُمْ »(إلخ)علی ما تقدم بیانه.

قوله تعالی:« أَ فَحُکْمَ الْجٰاهِلِیَّهِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ » تفریع بنحو الاستفهام علی ما بین فی الآیه السابقه من تولیهم مع کون ما یتولون عنه هو حکم

الله النازل إليهم و الحق الذى علموا أنه حق،و يمكن أن يكون فى مقام النتيجه اللازمه لما بين فى جميع الآيات السابقه.

و المعنى:و إذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقه نازله من عند الله و لم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها إلا حكم الجاهليه الناشئه عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم و ليس هناك إلا حكم الجاهليه؟أ فحكم الجاهليه يبغون و الحال أنه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدعين للإيمان؟.

فقوله:« أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ »استفهام توبيخى،و قوله:« وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُكْماً »استفهام إنكارى أى لا أحد أحسن حكما من الله،و إنما يتبع الحكم لحسنه، و قوله:« لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »فى أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم إن صدقوا فى دعواهم الإيمان بالله فهم يوقنون بآياته،و الذين يوقنون بآيات الله ينكرون أن يكون أحد أحسن حكما من الله سبحانه.

و اعلم أن فى الآيات موارد من الالتفات من التكلم وحده أو مع الغير إلى الغيبه و بالعكس كقوله:« إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »ثم قوله:« إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ »ثم قوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتٰابِ اللّٰهِ »ثم قوله:« وَ اخْشَوْنِ »و هكذا،فما كان منها يختار فيه الغيبه بلفظ الجلاله فإنما يراد به تعظيم الأمر بتعظيم صاحبه.

و ما كان منها بلفظ المتكلم وحده فيراد به أن الأمر إلى الله وحده لا يداخله ولى و لا يشفع فيه شفيع،فإذا كان ترغيبا أو وعدا فإنما القائم به هو الله سبحانه،و هو أكرم من يفى بوعده،و إذا كان تحذيرا أو إيعادا فهو أشد و أشق و لا يصرف عن الإنسان بشفيع و لا ولى إذ الأمر إلى الله نفسه و قد نفى كل واسطه و رفع كل سبب متخلل فافهم ذلك، و قد مر بعض الكلام فيه فى بعض المباحث السابقه.

(بحث روائى)

فى المجمع،: فى قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » (الآيه)عن الباقر(ع):أن امرأه من خيبر ذات شرف بينهم-زنت مع رجل من أشرافهم و هما محصنان،فكرهوا رجمهما،فأرسلوا إلى يهود المدينه-و كتبوا إليهم أن يسألوا النبى عن ذلك-طمعا فى أن يأتى لهم برخصه- فانطلق قوم منهم كعب بن الأشرف و كعب بن أسيد-و شعبه بن عمرو و مالك بن الصيف-و كنانه بن أبى الحقيق و غيرهم فقالوا:يا محمد

أخبرنا عن الزانی و الزانیه-إذا أحصنا ما حدهما؟فقال:و هل ترضون بقضائی فی ذلک؟ قالوا:نعم،فنزل جبرائیل بالرجم فأخبرهم بذلک-فأبوا أن یأخذوا به فقال جبرائیل:

اجعل بینک و بینهم ابن صوریا و وصفه له-.

فقال النبی:هل تعرفون شابا أمرد أبیض أعور-یسکن فدکا یقال له:ابن صوریا؟ قالوا:نعم،قال:فأی رجل هو فیکم؟قالوا:أعلم یهودی بقی علی ظهر الأرض-بما أنزل الله علی موسی،قال:فأرسلوا إلیه ففعلوا فأتاهم عبد الله بن صوریا.

فقال له النبی:إنی أنشدک الله الذی لا إله إلا هو-الذی أنزل التوراه علی موسی، و فلق لکم البحر و أنجاکم و أغرق آل فرعون،و ظلل علیکم الغمام،و أنزل علیکم المن و السلوی-هل تجدون فی کتابکم الرجم علی من أحصن؟قال ابن صوریا:نعم و الذی ذکرتنی به-لو لا خشیه أن یحرقنی رب التوراه-إن کذبت أو غیرت ما اعترفت لک،و لکن أخبرنی کیف هی فی کتابک یا محمد؟قال:إذا شهد أربعه رهط عدول أنه قد أدخله فیها- کما یدخل المیل فی المکحله وجب علیه الرجم،قال ابن صوریا:هکذا أنزل الله فی التوراه علی موسی-.

فقال له النبی:فما ذا کان أول ما ترخصتم به أمر الله؟ قال:کنا إذا زنی الشریف ترکناه،و إذا زنی الضعیف أقمنا علیه الحد-فکثر الزنا فی أشرافنا-حتی زنی ابن عم ملک لنا فلم نرجمه،ثم زنی رجل آخر فأراد الملک رجمه فقال له قومه لا-حتی ترجم فلانا - یعنون ابن عمه-فقلنا:تعالوا نجتمع فلنضع شیئا دون الرجم-یکون علی الشریف و الوضیع، فوضعنا الجلد و التحمیم،و هو أن یجلدا أربعین جلده-ثم یسود وجوههما ثم یحملان علی حمارین،و یجعل وجوههما من قبل دبر الحمار-و یطاف بهما فجعلوا هذا مکان الرجم-.

فقالت الیهود لابن صوریا:ما أسرع ما أخبرته به!و ما کنت لما أتینا علیک بأهل، و لکنک کنت غائبا فکرهنا أن نغتابک-فقال:إنه أنشدنی بالتوراه،و لو لا ذلک لما أخبرته به،فأمر بهما النبی فرجما عند باب مسجده،و قال:أنا أول من أحیا أمرک إذا أماتوه فأنزل الله فیه:« یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا-یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتابِ-وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ »فقام ابن صوریا فوضع یدیه علی رکبتی رسول الله ثم قال:هذا مقام العائذ بالله و بک أن تذکر لنا الکثیر-الذی أمرت أن تعفو عنه فأعرض النبی عن ذلک.

ثم سأله ابن صوریا عن نومه فقال:تنام عینای و لا ینام قلبی،فقال:صدقت،

و أخبرنی عن شبه الولد بأبیه-لیس فیه من شبه أمه شیء-أو بأمه لیس فیه من شبه أبیه شیء، فقال:أیهما علا و سبق ماء صاحبه کان الشبه له-قال:قد صدقت،فأخبرنی ما للرجل من الولد و ما للمرأه منه؟قال:فأغمی علی رسول الله طویلا-ثم خلی عنه محمرا وجهه یفیض عرقا-فقال:اللحم و الدم و الظفر و الشحم للمرأه،و العظم و العصب و العروق للرجل-قال له:صدقت،أمرک أمر نبی-.

فأسلم ابن صوریا عند ذلک و قال:یا محمد من یأتیک من الملائکه؟قال:جبرائیل قال:صفه لی فوصفه النبی-فقال:اشهد أنه فی التوراه کما قلت:و أنک رسول الله حقا-.

فلما أسلم ابن صوریا وقعت فیه الیهود و شتموه،فلما أرادوا أن ینهضوا-تعلقت بنو قریظه ببنی النضیر فقالوا:یا محمد إخواننا بنو النضیر أبونا واحد،و دیننا واحد،و نبینا واحد-إذا قتلوا منا قتیلا لم یقد،و أعطونا دیته سبعین وسقا من تمر،و إذا قتلنا منهم قتیلا قتلوا القاتل-و أخذوا منا الضعف مائه و أربعین وسقا من تمر،و إن کان القتیل امرأه قتلوا به الرجل منا،و بالرجل منهم رجلین منا،و بالعبد الحر منا-و جراحاتنا علی النصف من جراحاتهم،فاقض بیننا و بینهم-فأنزل الله فی الرجم و القصاص الآیات:

أقول:و أسند الطبرسی فی المجمع، إلی روایه جماعه من المفسرین مضافا إلی روایته عن الباقر(ع)

،و روی ما یقرب من صدر القصه فی جوامع أهل السنه و تفاسیرهم بعده طرق عن أبی هریره و براء بن عازب و عبد الله بن عمر و ابن عباس و غیرهم،و الروایات متقاربه،و روی ذیل القصه فی الدر المنثور،عن عبد بن حمید و أبی الشیخ عن قتاده، و عن ابن جریر و ابن إسحاق و الطبرانی و ابن أبی شیبه و ابن المنذر و غیرهم عن ابن عباس.

أما ما وقع فی الروایه من تصدیق ابن صوریا وجود حکم الرجم فی التوراه و أنه المراد بقوله:« وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرٰاهُ فِیهٰا حُکْمُ اللّٰهِ »(الآیه)فیؤیده أیضا وجود الحکم فی التوراه الدائره الیوم بنحو یقرب مما فی الحدیث.

ففی الإصحاح (۱)الثانی و العشرین من سفر التثنیه من التوراه ما هذا نصه": [(۲۲) إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأه زوجه بعل-یقتل الاثنان:الرجل المضطجع مع المرأه و المرأه-فتنزع الشر من إسرائیل(۲۳)إذا کانت فتاه عذراء مخطوبه لرجل-فوجدها رجل فی المدینه و اضطجع معها(۲۴)فأخرجوهما کلیهما إلی باب تلک المدینه-و ارجموهما بالحجاره

۱- ۱) منقول من التوراه العربیه المطبوعه فی کمبروج سنه ۱۹۳۵.

حتی یموتا:الفتاه من أجل أنها لم تصرخ فی المدینه،و الرجل من أجل أنه أذل امرأه صاحبه فتنزع الشر من وسطک.

و هذا کما تری یخص الرجم ببعض الصور.

و أما ما وقع فی الروایه من سؤالهم رسول الله ص عن حکم الدیه مضافا إلی سؤالهم عن حکم زنا المحصن فقد تقدم أن الآیات لا تخلو عن تأیید لذلک،و الذی ذکرته الآیه فی حکم القصاص فی القتل و الجرح أنه مکتوب فی التوراه فهو موجود فی التوراه الدائره الیوم:

فی الإصحاح (1)الحادی و العشرین من سفر الخروج من التوراه ما نصه": [(۱۲)من ضرب إنسانا فمات یقتل قتلا(۱۳)و لکن الذی لم یتعمد بل أوقع الله فی ید-فأنا أجعل لک مکانا یهرب إلیه...(۲۳)و إن حصلت أذیه تعطی نفسا بنفس(۲۴)و عینا بعین و سنا بسن و یدا بید و رجلا برجل(۲۵)و کیا بکی و جرحا بجرح و رضا برض].

و فی الإصحاح الرابع و العشرین من سفر اللاویین ما نصه":[(۱۷) و إذا أمات أحد إنسانا فإنه یقتل(۱۸)و من أمات بهیمه فإنه یعوض عنها نفسا بنفس(۱۹)و إذا أحدث إنسان فی قرینه عیبا-فکما فعل کذلک یفعل به(۲۰)کسر بکسر و عین بعین و سن بسن کما أحدث عیبا فی الإنسان کذلک یحدث فیه].

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و أبو داود بن جریر و ابن المنذر و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن ابن عباس قال": إن الله أنزل:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ-فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ ، اَلظّٰالِمُونَ ، اَلْفٰاسِقُونَ »،أنزلها الله فی طائفتین من الیهود-قهرت إحداهما الأخری فی الجاهلیه حتی ارتضوا-و اصطلحوا علی أن کل قتل-قتلته العزیزه من الذلیله فدیته خمسون وسقا،و کل قتیل قتلته الذلیله من العزیزه فدیته مائه وسق-فکانوا علی ذلک حتی قدم رسول الله ص المدینه-فنزلت الطائفتان کلتاهما لمقدم رسول الله ص-یومئذ لم یظهر علیهم فقامت الذلیله فقالت:و هل کان هذا فی حیین قط:دینهما واحد،و نسبهما واحد، و بلدهما واحد،و دیه بعضهم نصف دیه بعض؟إنما أعطیناکم هذا ضیما منکم لنا و فرقا منکم فأما،إذ قدم محمد فلا نعطیکم ذلک فکادت الحرب تهیج بینهم-ثم ارتضوا علی أن یجعلوا رسول الله ص بینهم-ففکرت العزیزه فقالت:و الله ما محمد بمعطیکم منهم ضعف ما یعطیهم منکم،و لقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضیما و قهرا لهم،فدسوا إلی رسول الله

۱- ۱) فی المصدر السابق الذکر.

ص-فأخبر الله رسوله بأمرهم كله و ما ذا أرادوا-فأنزل الله:« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ -إلى قوله- وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » ثم قال:فيهم و الله أنزلت.

أقول:و روى القصه القمى فى تفسيره فى حديث طويل و فيه: أن عبد الله بن أبى هو الذى كان يتكلم عن بنى النضير-و هى العزيزه-و يخوف رسول الله ص أمرهم، و أنه كان هو القائل:« إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ».

و الروايه الأولى أصدق متنا من هذه لأن مضمونها أوفق و أكثر انطباقا على سياق الآيات فإن أوائل الآيات و خاصه الآيتين الأوليين لا تنطبق سياقا على ما ذكر من قصه الديه بين بنى النضير و بنى قريظه كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام،و ليس من البعيد أن يكون الروايه من قبيل تطبيق القصه على القرآن على حد كثير من روايات أسباب النزول، فكأن الراوى وجد القصه تنطبق على مثل قوله:« وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » (الآيه)و ما قبلها،ثم رأى اتصال الآيات بادئه من قوله:« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ »(الآيه) فأخذ جميع الآيات نازله فى هذه القصه،و قد غفل عن قصه الرجم.و الله أعلم.

و فى تفسير العياشى،عن سليمان بن خالد قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: إن الله إذا أراد بعبد خيرا نكت فى قلبه نكته بيضاء،و فتح مسامع قلبه،و وكل به ملكا يسدده،و إذا أراد الله بعبد سوءا نكت فى قلبه نكته سوداء،و سد مسامع قلبه و وكل به شيطانا يضله-.

ثم تلا هذه الآيه:« فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ-وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً »(الآيه)و قال:« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ » و قال:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ».

و فى الكافى،بإسناده عن السكونى عن أبى عبد الله قال: السحت ثمن الميته و ثمن الكلب و ثمن الخمر-و مهر البغى و الرشوه فى الحكم و أجر الكاهن.

أقول:ما ذكره فى الروايه إنما هو تعداد من غير حصر،و أقسام السحت كثيره كما فى الروايات،و فى هذا المعنى و ما يقرب منه روايات كثيره من طرق أئمه أهل البيت (ع).

و فى الدر المنثور،أخرج عبد بن حميد عن على بن أبى طالب: أنه سئل عن السحت

فقال:الرشا.فقیل له:فی الحکم؟قال:ذاک الکفر.

أقول:قوله:«ذاک الکفر»کأنه إشاره إلی ما وقع بین الآیات المبحوث عنها من قوله تعالی فی سیاق ذم السحت و الارتشاء فی الحکم:« وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآیٰاتِی ثَمَناً قَلِیلاً وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ »و قد تکرر فی الروایات عن الباقر و الصادق(ع) أنهما قالا:و أما الرشا فی الحکم فإن ذلک الکفر بالله و برسوله،و الروایات فی تفسیر السحت و حرمته کثیره مرویه من طرق الشیعه و أهل السنه مودعه فی جوامعهم.

و فی الدر المنثور،":فی قوله تعالی:« فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ »(الآیه)":أخرج ابن أبی حاتم و النحاس فی ناسخه و الطبرانی و الحاکم-و صححه-و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن ابن عباس قال": آیتان نسختا من هذه السوره-یعنی من المائده-:آیه القلائد و قوله:

« فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »فکان رسول الله ص مخیرا إن شاء حکم بینهم و إن شاء أعرض عنهم فردهم إلی أحکامهم،فنزلت:« فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ »قال:فأمر رسول الله ص أن یحکم بینهم بما فی کتابنا.

و فیه،أخرج أبو عبید و ابن المنذر و ابن مردویه عن ابن عباس": فی قوله:« فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »قال:نسختها هذه الآیه- وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »:

أقول:و روی أیضا عن عبد الرزاق عن عکرمه مثله

،و المتحصل من مضمون الآیات لا یوافق هذا النسخ فإن الاتصال الظاهر من سیاق الآیات یقضی بنزولها دفعه واحده و لا معنی حینئذ لنسخ بعضها بعضا،علی أن قوله تعالی:« وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »، آیه غیر مستقله فی معناها بل مرتبطه بما تقدمها و لا وجه علی هذا لکونها ناسخه،و لو صح النسخ مع ذلک کان ما قبلها أعنی قوله:« فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »،فی الآیه السابقه أحق بالنسخ منها.علی أنک قد عرفت أن الأظهر رجوع الضمیر فی قوله تعالی:« بَیْنَهُمْ »إلی الناس مطلقا دون أهل الکتاب أو الیهود خاصه،علی أنه قد تقدم فی أوائل الکلام علی السوره:أن سوره المائده ناسخه غیر منسوخه.

و فی تفسیر العیاشی،: فی قوله تعالی:« إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِیهٰا هُدیً وَ نُورٌ »:(الآیه)عن أبی عمرو الزبیری عن أبی عبد الله(ع):أن مما استحقت به الإمامه:التطهیر و الطهاره من الذنوب-و المعاصی الموبقه التی توجب النار ثم العلم المنور-و فی نسخه:المکنون-بجمیع ما یحتاج إلیه الأمه من حلالها و حرامها،و العلم بکتابها خاصه و عامه،و المحکم و المتشابه

و دقـائق علمـه،و غرائـب تـأويله،و ناسـخه و منسـوخه.قلت:و مـا الحجـه-بـأن الإمـام لاـ يكـون إلاـ عالمـا بهـذه الأشـياء الـتى ذكرت؟قـال:قول الله فيمن أذن الله لهم فى الحكومه- و جعلهم أهلها:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ-يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ »فهـذه الأئمه دون الأنبياء-الـذين يربون الناس بعلمهم،و أما الأحبار فهم العلماء دون الربانيين،ثم أخبر-فقال:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ »و لم يقل بما حملوا منه.

أقول:و هذا استدلال لطيف منه(ع)يظهر به عجيب معنى الآيه و هو معنى أدق مما تقدم بيانه و محصـله:أن الترتيب الذى اتخذته الآـيه فى العـد فـذكرت الأنبيـاء ثم الربانيين ثم الأحبار يـدل على ترتبهم بحسب الفضل و الكمال: فالربانيون دون الأنبياء و فوق الأحبار، و الأحبار هم علماء الدين الذين حملوا علمه بالتعليم و التعلم.

و قد أخبر الله سبحانه عن نحو علم الربانيين بقوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ »و لو كان المراد بذلك نحو علم العلماء لقيل:بما حملوا كما قال: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها» :الآيه(الجمعه:۵)فإن الاستحفاظ هو سؤال الحفظ، و معناه التكليف بالحفظ نظير قوله: «لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» :(الأحزاب ۸)أى ليكلفهم بأن يظهروا ما كمن فى نفوسهم من صفه الصدق،و هذا الحفظ ثم الشهاده على الكتاب لا يتمان إلا مع عصمه ليست من شأن غير الإمام المعصوم من قبل الله سبحانه فـإن الله سبحانه بنى إذنه لهم فى الحكم على حفظهم للكتاب،و اعتبر شـهادتهم بانيا ذلك عليه،و من المحال أن يعتبر شـهادتهم على الكتاب،و هى التى يثبت بها الكتاب مع جواز الخطإ و الغلط عليهم.

فهـذا الحفظ و الشـهاده غير الحفظ و الشـهاده اللـذين بيننا معاشـر الناس،بل من قبيل حفظ الأعمال و الشـهاده التى تقدم فى قوله تعالى: «لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» :(البقره:۱۴۳)و قد مر فى الجزء الأول من الكتاب.

و نسـبه هذا الحفظ و الشهاده إلى الجميع مع كون القائم بهما البعض كنسبه الشهاده على الأعمال إلى جميع الأمه مع كون القائم بها بعضهم،و هو استعمال شائع فى القرآن نظير قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِى إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ» :(الجاثيه:۱۶).

و هـذا لاـ ينـافى تكليف الأحبار بالحفظ و الشـهاده و أخـذ الميثاق منهم بـذلك لأنه ثبوت شـرعى اعتبارى غير الثبوت الحقيقى الذى يتوقف على حفظ حقيقى خال عن الغلط

و الخطإ،و الدين الإلهی کما لا یتم من دون هذا لا یتم من دون ذاک.

فثبت أن هناک منزله بین منزلتی الأنبیاء و الأحبار،و هی منزله الأئمه و قد أخبر به الله سبحانه فی قوله: «وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یُوقِنُونَ» :(السجده:

۲۴)و لا ینافیه قوله: «وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ نٰافِلَةً وَ کُلاًّ جَعَلْنٰا صٰالِحِینَ وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا» :(الأنبیاء:۷۳)فإن اجتماع النبوه و الإمامه فی جماعه لا ینافی افتراقهما فی غیرهم،و قد تقدم شطر من الکلام فی الإمامه فی قوله تعالی: «وَ إِذِ ابْتَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمٰاتٍ» XالآیهX:(البقره:۱۲۴)فی الجزء الأول من الکتاب.

و بالجمله للربانیین و الأئمه و هم البرازخ بین الأنبیاء و الأحبار العلم بحق الکتاب و الشهاده علیه بحق الشهاده.

و هذا فی الربانیین و الأئمه من بنی إسرائیل لکن الآیه تدل علی أن ذلک لکون التوراه کتابا منزلا من عند الله سبحانه مشتملا علی هدی و نور أی المعارف الاعتقادیه و العملیه التی تحتاج إلیها الأمه،و إذا کان ذلک هو المستدعی لهذا الاستحفاظ و الشهاده للذین لا یقوم بهما إلا الربانیون و الأئمه کان هذا حال کل کتاب منزل من عند الله مشتمل علی معارف إلهیه و أحکام عملیه و بذلک یثبت المطلوب.

فقوله(ع):«فهذه الأئمه دون الأنبیاء»أی هم أخفض منزله من الأنبیاء بحسب الترتیب المأخوذ فی الآیه کما أن الأحبار-و هم العلماء-دون الربانیین،و قوله:«یربون الناس بعلمهم»ظاهر فی أنه(ع)أخذ لفظ الربانی من ماده التربیه دون الربوبیه،و قد اتضح معانی بقیه فقرات الروایه بما قدمناه من محصل المعنی.

و لعل هذا المعنی هو مراده(ع)

فیما رواه العیاشی أیضا عن مالک الجهنی قال:

قال أبو جعفر(ع): « إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِیهٰا هُدیً وَ نُورٌ -إلی قوله- بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتٰابِ اللّٰهِ »قال:فینا نزلت.

و فی تفسیر البرهان،:فی قوله تعالی:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ »:

عن الکافی،بإسناده عن عبد الله بن مسکان رفعه قال:قال رسول الله ص: من حکم فی درهمین بحکم جور-ثم جبر علیه کان من أهل هذه الآیه:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ »فقلت:و کیف یجبر علیه؟فقال:یکون له سوط و سجن فیحکم علیه-فإن رضی بحکمه و إلا ضربه بسوطه و حبسه فی سجنه:

أقول:و رواه الشيخ فی التهذیب،بإسناده عن ابن مسکان مرفوعا عن النبی ص و رواه العیاشی فی تفسیره مرسلا عنه. و معنی صدر الحدیث مروی بطرق أخری أیضا عن أئمه أهل البیت (ع).

و المراد بتقیید الحکم بالجبر إفاده أن یکون الحکم مما یترتب علیه الأثر فیکون حکما فصلا بحسب نفسه بالطبع و إلا فمجرد الإنشاء لا یسمی حکما.

و فی الدر المنثور،أخرج سعید بن منصور و أبو الشیخ و ابن مردویه عن ابن عباس قال": إنما أنزل الله« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ ،و اَلظّٰالِمُونَ ،و اَلْفٰاسِقُونَ فی الیهود خاصه.

أقول:فیه:أن الآیات الثلاث مطلقه لا دلیل علی تقییدها،و المورد لا یوجب التصرف فی إطلاق اللفظ،علی أن مورد الآیه الثالثه النصاری دون الیهود،علی أن ابن عباس قد روی عنه ما یناقض ذلک.

و فیه،أخرج عبد بن حمید عن حکیم بن جبیر قال: سألت سعید بن جبیر عن هذه الآیات فی المائده،قلت:زعم قوم أنها نزلت علی بنی إسرائیل و لم تنزل علینا-قال:اقرأ ما قبلها و ما بعدها فقرأت علیه-فقال:لا،بل نزلت علینا،ثم لقیت مقسما-مولی ابن عباس-فسألته عن هؤلاء الآیات التی فی المائده قلت:زعم قوم أنها نزلت علی بنی إسرائیل و لم ینزل علینا-قال:إنه نزل علی بنی إسرائیل و نزل علینا،و ما نزل علینا و علیهم فهو لنا و لهم.

ثم دخلت علی علی بن الحسین-فسألته عن هذه الآیات التی فی المائده-و حدثته أنی سألت عنها سعید بن جبیر و مقسما-قال:فما قال مقسم؟فأخبرته بها،قال:قال:صدق- و لکنه کفر لیس ککفر الشرک،و فسق لیس کفسق الشرک،و ظلم لیس کظلم الشرک.

فلقیت سعید بن جبیر فأخبرته بما قال-فقال سعید بن جبیر لابنه:کیف رأیته؟ (1)لقد وجدت له فضلا علیک و علی مقسم.

أقول:قد ظهر انطباق الروایه علی ما یظهر من الآیه فیما تقدم من البیان.

و فی الکافی،بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)و فی تفسیر العیاشی،عن أبی بصیر عنه(ع): فی قوله تعالی:« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفّٰارَهٌ لَهُ »الآیه-قال:یکفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا من جراح أو غیره.

۱- ۱) قال ظ.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن رجل من الأنصار عن النبی ص: فی قوله:

« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارَةٌ لَهُ »قال:الرجل تکسر سنه أو تقطع یده أو یقطع الشیء أو یجرح فی بدنه فیعفو عن ذلک فیحط عنه قدر خطایاه-فإن کان ربع الدیه فربع خطایاه، و إن کان الثلث فثلث خطایاه،و إن کانت الدیه حطت عنه خطایاه کذلک:

أقول:و روی مثله أیضا عن الدیلمی عن ابن عمر

،و لعل ما وقع فی هذه الروایه و الروایه السابقه علیها من انقسام التکفیر بحسب انقسام العفو مستفاد من تنزیل الدیه شرعا-و هی منقسمه-منزله القصاص ثم توزین القصاص و الدیه جمیعا بمغفره الذنوب و هی أیضا منقسمه فینطبق البعض علی البعض کما انطبق الکل علی الکل.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً »-قال:لکل نبی شریعه و طریق.

و فی تفسیر البرهان،:فی قوله تعالی:« أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ »،:عن الکافی بإسناده عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبیه رفعه عن أبی عبد الله(ع)قال: القضاه أربعه:ثلاثه فی النار و واحد فی الجنه:رجل یقضی بجور و هو یعلم فهو فی النار،و رجل قضی بجور و هو لا یعلم فهو فی النار،و رجل قضی بالحق و هو لا یعلم فهو فی النار،و رجل قضی بالحق و هو یعلم فهو فی الجنه.

و قال(ع): الحکم حکمان:حکم الله و حکم الجاهلیه-فمن أخطأ حکم الله حکم بحکم الجاهلیه.

أقول:و فی المعنیین جمیعا أخبار کثیره من طرق الشیعه و أهل السنه مودعه فی أخبار القضاء و الشهادات،و الآیه تشعر بل تدل علی المعنیین جمیعا:أما بالنسبه إلی المعنی الأول فلأن الحکم بالجور سواء علم به أو حکم بغیر علم فکان جورا بالمصادفه و کذا الحکم بالحق من غیر علم کل ذلک من اتباع الهوی و قد نهی الله عنه بقوله:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ »فحذر اتباع الهوی فی الحکم و قابل به الحکم بالحق فعلم بذلک أن العلم بالحق شرط فی جواز الحکم و إلا لم یجز لأن فیه اتباع الهوی.

علی أنه یصدق علیه حکم الجاهلیه المقابل لحکم الله تعالی.

و أما المعنی الثانی و هو کون الحکم منقسما إلی حکم الجاهلیه و حکم الله فهو مستفاد من ظاهر قوله تعالی:« أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً »من حیث

المقابله الواقعه بين الحكمين،و الله أعلم.

و في تفسير الطبرى،عن قتاده: في قوله تعالى:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا وَ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ »قال:أما الربانيون ففقهاء اليهود-و أما الأحبار فعلماؤهم،قال:و ذكر لنا أن نبى الله ص قال-لما أنزلت هذه الآيه:نحن نحكم على اليهود و على من سواهم من أهل الأديان.

أقول:و رواه السيوطى،أيضا فى قوله تعالى:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ »(الآيه)عن عبد بن حميد و عن ابن جرير عن قتاده.

و ظاهر الروايه أن المنقول من قول النبى ص متعلق بالآيه أى أن الآيه هى الحجه فى ذلك فيشكل بأن الآيه لا تدل إلا على الحكم بالتوراه على اليهود لقوله تعالى:« لِلَّذِينَ هٰادُوا »لا على غير اليهود و لا على الحكم بغير التوراه كما هو ظاهر الروايه إلا أن يراد بقوله:«نحن نحكم»،أن الأنبياء يحكمون كذا و كذا،و هو مع كونه معنى سخيفا لا يرتبط بالآيه.

و الظاهر أن بعض الرواه غلط فى نقل الآيه،و أن النبى ص إنما قاله بعد نزول قوله تعالى:« وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »(الآيات)و ينطبق على ما تقدم أن ظاهر الآيه رجوع الضمير فى قوله:« بَيْنَهُمْ »إلى الناس دون اليهود خاصه.

فأخذ الراوى الآيه مكان الآيه

[سوره المائده (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشاره

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (۵۱) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنٰا دٰائِرَةٌ فَعَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ (۵۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰاسِرِينَ (۵۳) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰافِرِينَ يُجٰاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لاٰ يَخٰافُونَ لَوْمَةَ لاٰئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴)

(بيان)

السير الإجمالی فی هذه الآیات یوجب التوقف فی اتصال هذه الآیات بما قبلها،و کذا فی اتصال ما بعدها کقوله تعالی:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »(إلی آخر الآیتین)ثم اتصال قوله بعدهما:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً »إلی تمام عده آیات ثم فی اتصال قوله:« يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ »(الآیه).

أما هذه الآیات الأربع فإنها تذکر الیهود و النصاری،و القرآن لم یکن لیذکر أمرهم فی آیاته المکیه لعدم مسیس الحاجه إلیه یومئذ بل إنما یتعرض لحالهم فی المدینه من الآیات، و لا فیما نزلت منها فی أوائل الهجره فإن المسلمین إنما کانوا مبتلین یومئذ بمخالطه الیهود و معاشرتهم أو موادعتهم أو دفع کیدهم و مکرهم خاصه دون النصاری إلا فی النصف الأخیر من زمن إقامه النبی ص بالمدینه فلعل الآیات الأربع نزلت فیه،و لعل المراد بالفتح فیها فتح مکه.

لکن تقدم أن الاعتماد علی نزول سوره المائده فی سنه حجه الوداع و قد فتحت مکه فهل المراد بالفتح فتح آخر غیر فتح مکه؟أو أن هذه الآیات نزلت قبل فتح مکه و قبل نزول السوره جمیعا؟.

ثم إن الآیه الأخیره أعنی قوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ »(الآیه) هل هی متصله بالآیات الثلاث المتقدمه علیها؟ و من المراد بهؤلاء القوم الذین تتوقع ردتهم؟ و من هؤلاء الآخرون الذین وعد الله أنه سیأتی بهم؟کل واحد منها أمر یزید إبهاما علی إبهام،و قد تشتت ما ورد من أسباب النزول و لیست إلا أنظار المفسرین من السلف کغالب أسباب النزول المنقوله فی الآیات،و هذا الاختلاف الفاحش أیضا مما یشوش الذهن فی تفهم المعنی،أضف إلی ذلک کله مخالطه التعصبات المذهبیه الأنظار القاضیه فیها کما سیمر بک شواهد تشهد علی ذلک من الروایات و أقوال المفسرین من السلف و الخلف.

ص: ۳۶۷

و الذی یعطیه التدبر فی الآیات أن هذه الآیات الأربع علی ما نقلناها متصله الأجزاء منقطعه عما قبلها و ما بعدها،و أن الآیه الرابعه من متممات الغرض المقصود بیانه فیها غیر أنه یجب التحرز فی فهم معناها عن المساهلات و المسامحات التی جوزتها أنظار الباحثین من المفسرین فی الآیات و خاصه فیما ذکر فیها من الأوصاف و النعوت علی ما سیجیء.

و إجمال ما یتحصل من الآیات أن الله سبحانه یحذر المؤمنین فیها اتخاذ الیهود و النصاری أولیاء،و یهددهم فی ذلک أشد التهدید،و یشیر فی ملحمه قرآنیه إلی ما یئول إلیه أمر هذه الموالاه من انهدام بنیه السیره الدینیه،و أن الله سیبعث قوما یقومون بالأمر،و یعیدون بنیه الدین إلی عمارتها الأصلیه.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصٰاریٰ أَوْلِیٰاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ »قال فی المجمع:،الاتخاذ هو الاعتماد علی الشیء لإعداده لأمر،و هو افتعال من الأخذ،و أصله الائتخاذ فأبدلت الهمزه تاء،و أدغمتها فی التاء التی بعدها و مثله الاتعاد من الوعد،و الأخذ یکون علی وجوه تقول:أخذ الکتاب إذا تناوله،و أخذ القربان إذا تقبله،و أخذه الله من مأمنه إذا أهلکه،و أصله جواز الشیء من جهه إلی جهه من الجهات.انتهی.

و قال الراغب فی المفردات:،الولاء و التوالی أن یحصل شیئان فصاعدا حصولا لیس بینهما ما لیس منهما،و یستعار ذلک للقرب من حیث المکان،و من حیث النسبه و من حیث الدین،و من حیث الصداقه و النصره و الاعتقاد(انتهی موضع الحاجه)و سیأتی استیفاء البحث فی معنی الولایه.

و بالجمله الولایه نوع اقتراب من الشیء یوجب ارتفاع الموانع و الحجب بینهما من حیث ما اقترب منه لأجله فإن کان من جهه التقوی و الانتصار فالولی هو الناصر الذی لا یمنعه عن نصره من اقترب منه شیء،و إن کان من جهه الالتیام فی المعاشره و المحبه التی هی الانجذاب الروحی فالولی هو المحبوب الذی لا یملک الإنسان نفسه دون أن ینفعل عن إرادته، و یعطیه فیما یهواه و إن کان من جهه النسب فالولی هو الذی یرثه مثلا من غیر مانع یمنعه، و إن کان من جهه الطاعه فالولی هو الذی یحکم فی أمره بما یشاء.

و لم یقید الله سبحانه فی قوله:« لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصٰاریٰ أَوْلِیٰاءَ »الولایه بشیء من الخصوصیات و القیود فهی مطلقه غیر أن قوله تعالی فی الآیه التالیه:« فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ »،یدل علی أن المراد بالولایه نوع من القرب و الاتصال یناسب هذا الذی اعتذروا به بقولهم:« نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ »

و هی الدوله تدور علیهم،و کما أن الدائره من الجائز أن تصیبهم من غیر الیهود و النصاری فیتأیدوا بنصره الطائفتین بأخذهما أولیاء النصره کذلک یجوز أن تصیبهم من نفس الیهود و النصاری فینجو منها باتخاذهما أولیاء المحبه و الخلطه.

و الولایه بمعنی قرب المحبه و الخلطه تجمع الفائدتین جمیعا أعنی فائده النصره و الامتزاج الروحی فهو المراد بالآیه،و سیجیء ما فی القیود و الصفات المأخوذه فی الآیه الأخیره:

«یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ »،من الدلاله علی أن المراد بالولایه هاهنا ولایه المحبه لا غیر.

و قد أصر بعض المفسرین علی أن المراد بالولایه ولایه النصره و هی التی تجری بین إنسانین أو قومین من الحلف أو العهد علی نصره أحد الولیین الآخر عند الحاجه،و استدل علی ذلک بما محصله أن الآیات-کما یلوح من ظاهرها-منزله قبل حجه الوداع فی أوائل الهجره أیام کان النبی ص و المسلمون لم یفرغوا من أمر یهود المدینه و من حولهم من یهود فدک و خیبر و غیرهم،و من ورائهم النصاری و کان بین طوائف من العرب و بینهم عقود من ولایه النصره و الحلف،و ربما انطبق علی ما ورد فی أسباب النزول أن عباده بن الصامت من بنی عوف بن الخزرج تبرأ من بنی قینقاع لما حاربت رسول الله ص و کان بینه و بینهم ولایه حلف، لکن عبد الله بن أبی رأس المنافقین لم یتبرأ منهم و سارع فیهم قائلا: نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ .

أو ما ورد فی قصه أبی لبابه لما أرسله رسول الله ص لیخرج بنی قریظه من حصنهم و ینزلهم علی حکمه،فأشار أبو لبابه بیده إلی حلقه:أنه الذبح.

أو ما ورد أن بعضهم کان یکاتب نصاری الشام بأخبار المدینه،و بعضهم کان یکاتب یهود المدینه لینتفعوا بمالهم و لو بالقرض.

أو ما ورد أن بعضهم قال:إنه یلحق بفلان الیهودی أو بفلان النصرانی إثر ما نزل بهم یوم أحد من القتل و الهزیمه.

و هؤلاء الروایات کالمتفقه فی أن القائلین:« نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ »کانوا هم المنافقین، و بالجمله فالآیات إنما تنهی عن المحالفه و ولایه النصره بین المسلمین و بین الیهود و النصاری.

و قد أکد ذلک بعضهم حتی ادعی أن کون الولایه فی الآیه بمعنی ولایه المحبه و الاعتماد مما تتبرأ منه لغه الآیه فی مفرداتها و سیاقها کما یتبرأ منه سبب النزول و الحاله العامه التی کان علیها المسلمون و الکتابیون فی عصر التنزیل.

و كيف يصح حمل الآيه على النهى عن معاشرتهم و الاختلاط بهم و إن كانوا ذوى ذمه أو عهد،و قد كان اليهود يقيمون مع النبى ص و مع الصحابه فى المدينه،و كانوا يعاملونهم بالمساواه التامه(انتهى ما ذكره ملخصا).

و هذا كله من التساهل فى تحصيل معنى الآيه أما ما ذكروه من كون الآيات نازله قبل عام حجه الوداع و هى سنه نزول سوره المائده فمما ليس فيه كثير إشكال لكنه لا يوجب كون الولايه بمعنى المحالفه دون ولايه المحبه.

و أما ما ذكروه من أسباب النزول و دلالتها على كون الآيات نازله فى خصوص المحالفه و ولايه النصره التى كانت بين أقوام من العرب و بين اليهود و النصارى.ففيه(أولا)أن أسباب النزول فى نفسها متعارضه لا ترجع إلى معنى واحد يوثق و يعتمد عليه،و(ثانيا) أنها لا توجه ولايه النصارى و إن وجهت ولايه اليهود بوجه إذ لم يكن بين العرب من المسلمين و بين النصارى ولايه الحلف يومئذ،و(ثالثا)أنا نصدق أسباب النزول فيما تقتضيها إلا أنك قد عرفت فيما مر أن جل الروايات الوارده فى أسباب النزول على ضعفها متضمنه لتطبيق الحوادث المنقوله تاريخا على الآيات القرآنيه المناسبه لها،و هذا أيضا لا بأس به.

و أما الحكم بأن الوقائع المذكوره فيها تخصص عموم آيه من الآيات القرآنيه أو تقيد إطلاقها بحسب اللفظ فمما لا ينبغى التفوه به،و لا أن الظاهر المتفاهم يساعده.و لو تخصص أو تقيد ظاهر الآيات بخصوصيه فى سبب النزول غير مأخوذه فى لفظ الآيه لمات القرآن بموت من نزل فيهم،و انقطع الحجاج به فى واقعه من الوقائع التى بعد عصر التنزيل،و لا يوافقه كتاب و لا سنه و لا عقل سليم.

و أما ما ذكره بعضهم:«أن أخذ الولايه بمعنى المحبه و الاعتماد خطأ تتبرأ منه لغه الآيه فى مفرداتها و سياقها كما يتبرأ منه أسباب النزول و الحاله العامه التى كان عليها المسلمون و الكتابيون فى عصر التنزيل»فمما لا يرجع إلى معنى محصل بعد التأمل فيه فإن ما ذكره من تبرى أسباب النزول و ما ذكره من الحاله العامه أن تشمل الآيات ذلك و تصدق عليه إذا لم يأب ظهور الآيه من الانطباق عليه، و أما قصر الدلاله على مورد النزول و الحاله العامه الموجوده وقتئذ فقد عرفت أنه لا دليل عليه بل الدليل-و هو حجيه الآيه فى ظهورها المطلق-على خلافه فقد عرفت أن الآيه مطلقه من غير دليل على تقييدها فتكون حجه فى المعنى المطلق،و هو الولايه بمعنى المحبه.

و ما ذکره من تبری الآیه بمفرداتها و سیاقها من ذلک من عجیب الکلام،و لیت شعری ما الذی قصده من هذا التبری الذی وصفه و حمله علی مفردات الآیه و لم یقنع بذلک دون أن عطف علیها سیاقها.

و کیف تتبرأ من ذلک مفردات الآیه أو سیاقها و قد وقع فیها بعد قوله:« لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاریٰ أَوْلِیٰاءَ »قوله تعالی:« بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ »و لا ریب فی أن المراد بهذه الولایه ولایه المحبه و الاتحاد و الموده،دون ولایه الحلف إذ لا معنی لأن یقال:لا تحالفوا الیهود و النصاری بعضهم حلفاء بعض،و إنما کان ما یکون الوحده بین الیهود و یرد بعضهم إلی بعض هو ولایه المحبه القومیه،و کذا بین النصاری من دون تحالف بینهم أو عهد إلا مجرد المحبه و الموده من جهه الدین؟.

و کذا قوله تعالی بعد ذلک:« وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »فإن الاعتبار الذی یوجب کون موالی جماعه من تلک الجماعه هو أن المحبه و الموده تجمع المتفرقات و توحد الأرواح المختلفه و تتوحد بذلک الإدراکات،و ترتبط به الأخلاق،و تتشابه الأفعال، و تری المتحابین بعد استقرار ولایه المحبه کأنهما شخص واحد ذو نفسیه واحده،و إراده واحده، و فعل واحد لا یخطئ أحدهما الآخر فی مسیر الحیاه،و مستوی العشره.

فهذا هو الذی یوجب کون من تولی قوما منهم و لحوقه بهم،و قد قیل:من أحب قوما فهو منهم،و المرء مع من أحب،و قد قال تعالی فی نظیره نهیا عن موالاه المشرکین:

«یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیٰاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ وَ قَدْ کَفَرُوا بِمٰا جٰاءَکُمْ مِنَ الْحَقِّ X-إلی أن قال بعد عده آیات-X وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰالِمُونَ»:

(الممتحنه:۹)و قال تعالی: «لاٰ تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کٰانُوا آبٰاءَهُمْ أَوْ أَبْنٰاءَهُمْ أَوْ إِخْوٰانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ» :(المجادله:۲۲) و قال تعالی فی تولی الکافرین-و اللفظ عام یشمل الیهود و النصاری و المشرکین جمیعا-:

«لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اللّٰهِ فِی شَیْءٍ إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاهً وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ» :(آل عمران:۲۸)و الآیه صریحه فی ولایه الموده و المحبه دون الحلف و العهد،و قد کان بین النبی ص و بین الیهود،و کذا بینه و بین المشرکین یومئذ أعنی زمان نزول سوره آل عمران معاهدات و موادعات.

و بالجمله الولایه التی تقتضی بحسب الاعتبار لحوق قوم بقوم هی ولایه المحبه و الموده

دون الحلف و النصره و هو ظاهر،و لو كان المراد بقوله:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » أن من حالفهم على النصره بعد هذا النهى فإنه لمعصيته النهى ظالم ملحق بأولئك الظالمين فى الظلم كان معنى-على ابتذاله-بعيدا من اللفظ يحتاج إلى قيود زائده فى الكلام.

و من دأب القرآن فى كل ما ينهى عن أمر كان جائزا سائغا قبل النهى أن يشير إليه رعايه لجانب الحكم المشروع سابقا،و احتراما للسيره النبويه الجاريه قبله كقوله: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا» :(التوبه:٢٨)و قوله: فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا مٰا كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا» XالآيهX:(البقره:١٨٧)و قوله: «لاٰ يَحِلُّ لَكَ النِّسٰاءُ مِنْ بَعْدُ وَ لاٰ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوٰاجٍ» :(الأحزاب:٥٢)إلى غير ذلك.

فقد تبين أن لغه الآيه فى مفرداتها و سياقها لا تتبرأ من كون المراد بالولايه ولايه المحبه و الموده،بل إن تبرأت فإنما تتبرأ من غيرها.

و أما قولهم:إن المراد بالذين فى قلوبهم مرض المنافقون فسيجىء أن السياق لا يساعده فالمراد بقوله:« لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ »النهى عن موادتهم الموجب لتجاذب الأرواح و النفوس الذى يفضى إلى التأثير و التأثر الأخلاقيين فإن ذلك يقلب حال مجتمعهم من السيره الدينيه المبنيه على سعاده اتباع الحق إلى سيره الكفر المبنيه على اتباع الهوى و عباده الشيطان و الخروج عن صراط الحياه الفطريه.

و إنما عبر عنهم باليهود و النصارى،و لم يعبر بأهل الكتاب كما عبر بمثله فى الآيه الآتيه لما فى التعبير بأهل الكتاب من الإشعار بقربهم من المسلمين نوعا من القرب يوجب إثاره المحبه فلا يناسب النهى عن اتخاذهم أولياء،و أما ما فى الآيه الآتيه:«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفّٰارَ أَوْلِيٰاءَ »من وصفهم بإيتائهم الكتاب مع النهى عن اتخاذهم أولياء فتوصيفهم باتخاذ دين الله هزوا و لعبا يقلب حال ذلك الوصف-أعنى كونهم ذوى كتاب-من المدح إلى الذم فإن من أوتى الكتاب الداعى إلى الحق و المبين له ثم جعل يستهزئ بدين الحق و يلعب به أحق و أحرى به أن لا يتخذ وليا،و تجتنب معاشرته و مخالطته و موادته.

و أما قوله تعالى:« بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ »فالمراد بالولايه-كما تقدم-ولايه المحبه المستلزمه لتقارب نفوسهم،و تجاذب أرواحهم المستوجب لاجتماع آرائهم على اتباع الهوى، و الاستكبار عن الحق و قبوله،و اتحادهم على إطفاء نور الله سبحانه،و تناصرهم على النبى

ص و المسلمين كأنهم نفس واحده ذات مله واحده،و ليسوا على وحده من المليه لكن يبعث القوم على الاتفاق،و يجعلهم يدا واحده على المسلمين أن الإسلام يدعوهم إلى الحق، و يخالف أعز المقاصد عندهم و هو اتباع الهوى،و الاسترسال فى مشتهيات النفس و ملاذ الدنيا.

فهذا هو الذى جعل الطائفتين:اليهود و النصارى-على ما بينهما من الشقاق و العداوه الشديده-مجتمعا واحدا يقترب بعضه من بعض،و يرتد بعضه إلى بعض،يتولى اليهود النصارى و بالعكس،و يتولى بعض اليهود بعضا،و بعض النصارى بعضا،و هذا معنى إبهام الجمله:« بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ »فى مفرداتها،و الجمله فى موضع التعليل لقوله:« لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ »و المعنى لا تتخذوهم أولياء لأنهم على تفرقهم و شقاقهم فيما بينهم يد واحده عليكم لا نفع لكم فى الاقتراب منهم بالموده و المحبه.

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله:« بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ »معنى آخر،و هو أن لا تتخذوهم أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذى هم أولياؤكم على البعض الآخر،و لا ينفعكم ذلك فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ » التولى اتخاذ الولى،و«من»تبعيضيه و المعنى أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم،و هذا إلحاق تنزيلى يصير به بعض المؤمنين بعضا من اليهود و النصارى،و يئول الأمر إلى أن الإيمان حقيقه ذات مراتب مختلفه من حيث الشوب و الخلوص،و الكدوره و الصفاء كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنيه قال تعالى: «وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» :(يوسف:١٠٦) و هذا الشوب و الكدر هو الذى يعبر تعالى عنه بمرض القلوب فيما سيأتى من قوله:« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ ».

فهؤلاء الموالون لأولئك أقوام عدهم الله تعالى من اليهود و النصارى و إن كانوا من المؤمنين ظاهرا،و أقل ما فى ذلك أنهم غير سالكين سبيل الهدايه الذى هو الإيمان بل سالكو سبيل اتخذه أولئك سبيلا يسوقه إلى حيث يسوقهم و ينتهى به إلى حيث ينتهى بهم.

و لذلك علل الله سبحانه لحوقه بهم بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »فالكلام فى معنى:أن هذا الذى يتولاهم منكم هو منهم غير سألك سبيلكم لأن سبيل الإيمان هو سبيل الهدايه الإلهيه،و هذا المتولى لهم ظالم مثلهم،و الله لا يهدى القوم الظالمين.

و الآيه-كما ترى-تشتمل على أصل التنزيل أعنى تنزيل من تولاهم من المؤمنين

منزلتهم من غير تعرض لشیء من آثاره الفرعیه،و اللفظ و إن لم یتقید بقید لکنه لما کان من قبیل بیان الملاک-نظیر قوله: «وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ» :(البقره:۱۸۴)و قوله:

«إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشاٰءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللّٰهِ أَکْبَرُ» :(العنکبوت:۴۵)إلی غیر ذلک-لم یکن إلا مهملا یحتاج التمسک به فی إثبات حکم فرعی إلی بیان السنه،و المرجع فی البحث عن ذلک فن الفقه.

قوله تعالی:« فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ »تفریع علی قوله فی الآیه السابقه:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ » فمن عدم شمول الهدایه الإلهیه لحالهم-و هو الضلال-مسارعتهم فیهم و اعتذارهم فی ذلک بما لا یسمع من القول،و قد قال تعالی:

« یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ »و لم یقل یسارعون إلیهم،فهم منهم و حالون فی الضلال محلهم،فهؤلاء یسارعون فیهم لا لخشیه إصابه دائره علیهم فلیسوا یخافون ذلک،و إنما هی معذره یختلقونها لأنفسهم لدفع ما یتوجه إلیهم من ناحیه النبی ص و المؤمنین من اللوم و التوبیخ بل إنما یحملهم علی تلک المسارعه تولیهم أولئک(الیهود و النصاری).

و لما کان من شأن کل ظلم و باطل أن یزهق یوما و یظهر للملأ فضیحته،و ینقطع رجاء من توسل إلی أغراض باطله بوسائل صورتها صوره الحق کما قال تعالی:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ »کان من المرجو قطعا أن یأتی الله بفتح أو أمر من عنده فیندموا علی فعالهم، و یظهر للمؤمنین کذبهم فیما کانوا یظهرونه.

و بهذا البیان یظهر وجه تفرع قوله:« فَتَرَی الَّذِینَ »(إلخ)علی قوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ »و قد تقدم کلام فی معنی عدم اهتداء الظالمین فی ظلمهم.

فهؤلاء القوم منافقون من جهه إظهارهم للنبی ص و المؤمنین ما لیس فی قلوبهم حیث یعنونون مسارعتهم فی الیهود و النصاری بعنوان الخشیه من إصابه الدائره،و عنوانه الحقیقی الموافق لما فی قلوبهم هو تولی أعداء الله فهذا هو وجه نفاقهم،و أما کونهم منافقین بمعنی الکافرین المظهرین للإیمان فسیاق الآیات لا یوافقه.

و قد ذکر جماعه من المفسرین أنهم المنافقون کعبد الله بن أبی و أصحابه علی ما یؤیده أسباب النزول الوارده فإن هؤلاء المنافقین کانوا یشارکون المؤمنین فی مجتمعهم و یجاملونهم من جانب،و من الجانب الآخر کانوا یتولون الیهود و النصاری بالحلف و العهد علی النصره استدرارا للفئتین،و أخذا بالاحتیاط فی رعایه مصالح أنفسهم لیغتبطوا علی أی حال،

و يكونوا فى مأمن من إصابه الدائره على أى واحده من الفئتين المتخاصمتين دارت.

و ما ذكروه لا يلائم سياق الآيات فإنها تتضمن رجاء أن يندموا بفتح أو أمر من عنده،و الفتح فتح مكه أو فتح قلاع اليهود و بلاد النصارى أو نحو ذلك على ما قالوا و لا وجه لندمهم على هذا التقدير فإنهم احتاطوا فى أمرهم بحفظ الجانبين،و لا ندامه فى الاحتياط، و إنما كان يصح الندم لو انقطعوا من المؤمنين بالمره و اتصلوا باليهود و النصارى ثم دارت الدائره عليهم،و كذا ما ذكره الله تعالى من حبط أعمالهم و صيرورتهم خاسرين بقوله:« حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰاسِرِينَ »لا يلائم كونهم هم المنافقين الآخذين بالحائطه لمنافعهم و مطالبهم إذ لا معنى لخسران من احتاط بحائطه اتقاء من مكروه يخافه على نفسه ثم صادف إن لم يقع ما كان يخاف وقوعه،و الاحتياط فى العمل من الطرق العقلائيه التى لا تستتبع لوما و لا ذما.

إلا أن يقال:إن الذم إنما لحقهم لأنهم عصوا النهى الإلهى و لم تطمئن قلوبهم بما وعده الله من الفتح،و هذا و إن كان لا بأس به فى نفسه لكن لا دليل عليه من جهه لفظ الآيه.

قوله تعالى:« فَعَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ »لفظه«عسى»و إن كان فى كلامه تعالى للترجى كسائر الكلام-على ما قدمنا أنه للترجي العائد إلى السامع أو إلى المقام-لكن القرينه قائمه على أنه مما سيقع قطعا فإن الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ »و تثبيت صدقه، فما يشتمل عليه واقع لا محاله.

و الذى ذكره الله تعالى من الفتح-و قد ردد بينه و بين أمر من عنده غير بين المصداق بل الترديد بينه و بين أمر مجهول لنا-لعله يؤيد كون اللام فى« بِالْفَتْحِ »للجنس لا للعهد حتى يكون المراد به فتح مكه المعهود بوعد وقوعه فى مثل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّكَ إِلىٰ مَعٰادٍ» :(القصص:۸۵)و قوله: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ» (الفتح:۲۷)و غير ذلك.

و الفتح الواقع فى القرآن و إن كان المراد به فى أكثر موارده هو فتح مكه لكن بعض الموارد لا يقبل الحمل على ذلك كقوله تعالى: «وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاٰ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمٰانُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ» (السجده:۳۰)فإنه تعالى وصف هذا الفتح بأنه لا ينفع عنده الإيمان لمن كان كافرا قبله،و أن الكفار ينتظرونه،و أنت تعلم أنه لا ينطبق على فتح مكه و لا على سائر الفتوحات التى

نالها المسلمون حتی الیوم فإن عد نفع الإیمان و هو التوبه إنما یتصور لأحد أمرین-کما تقدم بیانه فی الکلام علی التوبه (۱)-:إما بتبدل نشأه الحیاه و ارتفاع الاختیار لتبدل الدنیا بالآخره،و إما بتکون أخلاق و ملکات فی الإنسان یقسو بها القلب قسوه لا رجاء معها للتوبه و الرجوع إلی الله سبحانه قال تعالی: «یَوْمَ یَأْتِی بَعْضُ آیاتِ رَبِّکَ لا یَنْفَعُ نَفْساً إِیمانُها لَمْ تَکُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ کَسَبَتْ فِی إِیمانِها خَیْراً» :(الأنعام:۱۵۸)و قال تعالی: «وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ حَتّٰی إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِینَ یَمُوتُونَ وَ هُمْ کُفّٰارٌ» :(النساء:۱۸).

و کیف کان فإن کان المراد بالفتح أحد فتوحات المسلمین کفتح مکه أو فتح قلاع الیهود أو فتح بلاد النصاری فهو،إلا أن فی انطباق ما ذکره الله تعالی بقوله:« فَیُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا أَسَرُّوا »(إلخ)و قوله:« وَ یَقُولُ الَّذِینَ »(إلخ)علیه خفاء تقدم وجهه.

و إن کان المراد به الفتح بمعنی القضاء للإسلام علی الکفر و الحکم الفصل بین الرسول و قومه فهو من الملاحم القرآنیه التی ینبئ تعالی فیها عما سیستقبل هذه الأمه من الحوادث، و ینطبق علی ما ذکره الله فی سوره یونس من قوله: «وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ» Xإلی آخر الآیاتX:(یونس:۴۷-۵۶).

و أما قوله:« فَیُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِینَ »فإن الندامه إنما تحصل عند فعل ما لم یکن ینبغی أن یفعل أو ترک ما لم یکن ینبغی أن یترک،و قد فعلوا شیئا،و الله سبحانه یذکر فی الآیه التالیه حبط أعمالهم و خسرانهم فی صفقتهم فإنما أسروا فی أنفسهم تولی الیهود و النصاری لینالوا به و بالمسارعه فیهم ما کانت الیهود و النصاری یریدونه من انطفاء نور الله و التسلط علی شهوات الدنیا من غیر مانع من الدین.

فهذا-لعله-هو الذی أسروه فی أنفسهم،و سارعوا لأجله فیهم،و سوف یندمون علی بطلان سعیهم إذا فتح الله للحق.

قوله تعالی:« وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا »(إلی آخر الآیه)و قرئ« یَقُولُ »بالنصب عطفا علی قوله:« فَیُصْبِحُوا »و هی أرجح لکونها أوفق بالسیاق فإن ندامتهم علی ما أسروه فی أنفسهم و قول المؤمنین:« أَ هٰؤُلاٰءِ »(إلخ)جمیعا تقریع لهم بعاقبه تولیهم و مسارعتهم فی الیهود و النصاری،و قوله:« هٰؤُلاٰءِ »إشاره إلی الیهود و النصاری،و قوله:« لَمَعَکُمْ »خطاب

۱- ۱) فی الکلام علی قوله تعالی:«إنما التوبه علی الله،الآیتین»النساء ۱۷:۱۸ فی الجزء الرابع من الکتاب.

للـذين فی قلـوبهم مرض و یمکن العکس،و کـذا الضـمیر فی قـوله:« حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا »، یمکن رجـوعه إلی الیهـود و النصاری،و إلی الذین فی قلوبهم مرض.

لکـن الظـاهر مـن السـیاق أن الخطـاب للـذین فی قلـوبهم مرض،و الإشـاره إلی الیهـود و النصـاری،و قـوله:« حَبِطَـتْ أَعْمٰالُهُمْ »،کالجواب لسؤال مقـدر،و المعنی:و عسـی أن یأتی الله بالفتـح أو أمر من عنـده فیقول الـذین آمنوا لهؤلاء الضـعفاء الإیمان عند حلول السـخط الإـلهی بهم:أ هؤلاء الیهود و النصاری هم الـذین أقسـموا بالله جهـد أیمانهم أی أیمانهم التی بالغوا و جهـدوا فیها جهـدا إنهم لمعکم فلمـا ذا لاـ ینفعونکم؟!ثم کـأنه سـئل فقیـل:فـإلی م انتهی أمر هؤلاء الموالین؟فقیل فی جوابه:حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرین.

(کلام فی معنی مرض القلب)

و فی قوله تعـالی:« فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »دلاـله علی أن للقلوب مرضـا فلهـا لاـ محاله صـحه إذ الصـحه و المرض متقابلان لا یتحقق أحـدهما فی محل إلا بعد إمکان تلبسه بالآخر کالبصـر و العمی أ لا تری أن الجدار مثلا لا یتصف بأنه مریض لعدم جواز اتصافه بالصحه و السلامه.

و جمیع الموارد التی أثبت الله سبحانه فیها للقلوب مرضا فی کلامه یـذکر فیها من أحوال تلک القلوب و آثارها أمورا تدل علی خروجهـا من اسـتقامه الفطره،و انحرافهـا عن مسـتوی الطریقه کقـوله تعـالی: «وَ إِذْ یَقُـولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مٰا وَعَـدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّٰـ غُرُوراً» :(الأحزاب:۱۲)و قـوله تعـالی: «إِذْ یَقُـولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِـمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰـءِ دِینُهُمْ» :(الأنفال:۴۹)و قوله تعالی: «لِیَجْعَلَ مٰا یُلْقِی الشَّیْطٰانُ فِتْنَهً لِلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقٰاسِیَهِ قُلُوبُهُمْ» :(الحج:۵۳)إلی غیر ذلک.

و جمله الأـمر أن مرض القلب تلبسه بنوع من الارتیـاب و الشـک یکـدر أمر الإیمـان بالله و الطمأنینه إلی آیاته،و هو اختلاط من الإیمان بالشـرک،و لـذلک یرد علی مثل هذا القلب من الأحوال،و یصدر عن صاحب هذا القلب فی مرحله الأعمال و الأفعال ما یناسب الکفر بالله و بآیاته.

و بالمقابله تکون سـلامه القلب و صـحته هی اسـتقراره فی استقامه الفطره و لزومه مستوی الطریقه،و یئول إلی خلوصه فی توحید الله سبحانه و رکونه إلیه عن کل شـیء یتعلق به هوی الإنسان،قال تعالی: «یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَـلِیمٍ» (الشعراء:۸۹).

و من هنا یظهر أن الذین فی قلوبهم مرض غیر المنافقین کما لا یخلو تعبیر القرآن عنهما

بمثل قوله:« اَلْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »فى غالب الموارد عن إشعار ما بذلك، و ذلك أن المنافقين هم الذين آمنوا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم،و الكفر الخاص موت للقلب لا مرض فيه قال تعالى: «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ» :(الأنعام:١٢٢)و قال: «إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ» (الأنعام:٣٦).

فالظاهر أن مرض القلب فى عرف القرآن هو الشك و الريب المستولى على إدراك الإنسان فيما يتعلق بالله و آياته،و عدم تمكن القلب من العقد على عقيده دينيه.

فالذين فى قلوبهم مرض بحسب طبع المعنى هم ضعفاء الإيمان،الذين يصغون إلى كل ناعق،و يميلون مع كل ريح،دون المنافقين الذين أظهروا الإيمان و استبطنوا الكفر رعايه لمصالحهم الدنيويه ليستدروا المؤمنين بظاهر إيمانهم و الكفار بباطن كفرهم.

نعم ربما أطلق عليهم المنافقون فى القرآن تحليلا لكونهم يشاركونهم فى عدم اشتمال باطنهم على لطيفه الإيمان،و هذا غير إطلاق الذين فى قلوبهم مرض على من هو كافر لم يؤمن إلا ظاهرا قال تعالى: «بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً» :(النساء:١۴٠).

و أما قوله تعالى فى سوره البقره: «وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ X-إلى أن قال-X: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً X-إلى أن قال-X وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ» :Xالآيات X(البقره:٧-٢٠)فإنما هو بيان لسلوك قلوبهم من الشك فى الحق إلى إنكاره،و أنهم كانوا فى بادئ حالهم مرضى بسبب كذبهم فى الإخبار عن إيمانهم و كانوا مرتابين لم يؤمنوا بعد،فزادهم الله مرضا حتى هلكوا بإنكارهم الحق و استهزائهم له.

و قد ذكر الله سبحانه أن مرض القلب على حد الأمراض الجسمانيه ربما أخذ فى الزياده حتى أزمن و انجر الأمر إلى الهلاك و ذلك بإمداده بما يضر طبع المريض فى مرضه،و ليس إلا المعصيه قال تعالى: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً» (البقره:١٠)و قال تعالى «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ X-إلى أن قال-X: وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى

رِجْسِـهِمْ وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كٰافِرُونَ أَ وَ لاٰ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عٰامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاٰ يَتُوبُونَ وَ لاٰ هُمْ يَذَّكَّرُونَ» :(التوبه:۱۲۶)و قال تعالى–و هو بيان عام–: «ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا السُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِؤُنَ» :(الروم:۱۰).

ثم ذكر تعالى فى علاجه الإيمان به قال تعالى–و هو بيان عام–: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ» :(يونس:۹)و قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ»:

(فاطر:۱۰) فعلى مريض القلب–إن أراد مداواه مرضه–أن يتوب إلى الله،و هو الإيمان به و أن يتذكر بصالح الفكر و صالح العمل كما يشير إليه الآيه السابقه الذكر: «ثُمَّ لاٰ يَتُوبُونَ وَ لاٰ هُمْ يَذَّكَّرُونَ» :(التوبه:۱۲۶).

و قال سبحانه و هو قول جامع فى هذا الباب: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً مُبِيناً إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّٰهِ فَأُولٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً» :(النساء:۱۴۶)و قد تقدم أن المراد بذلك الرجوع إلى الله بالإيمان و الاستقامه عليه و الأخذ بالكتاب و السنه ثم الإخلاص.

[بيان]

قوله تعالى:«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ »ارتد عن دينه رجع عنه، و هو فى اصطلاح أهل الدين الرجوع من الإيمان إلى الكفر سواء كان إيمانه مسبوقا بكفر آخر كالكافر يؤمن ثم يرتد أو لم يكن،و هما المسميان بالارتداد الملى و الفطرى(حقيقه شرعيه أو متشرعيه).

ربما يسبق إلى الذهن أن المراد بالارتداد فى الآيه هو ما اصطلح عليه أهل الدين، و يكون الآيه على هذا غير متصله بما قبلها،و إنما هى آيه مستقله تحكى عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إيمان طائفه من المؤمنين بإيمان آخرين.

لكن التدبر فى الآيه و ما تقدم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال فإن الآيه على هذا تذكر المؤمنين بقدره الله سبحانه على أن يعبد فى أرضه،و أنه سوف يأتى بأقوام لا يرتدون عن دينه بل يلازمونه كقوله تعالى: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَكَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَيْسُوا بِهٰا بِكٰافِرِينَ» :(الأنعام:۸۹)أو كقوله تعالى: «وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ»:

(آل عمران:۹۷)و قوله تعالى: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ

حَمِيدٌ» :(إبراهيم:٨).

و المقام الذی هذه صفته لا یقتضی أزید من التعرض لأصل الغرض،و هو الإخبار بالإتیان بقوم مؤمنین لا یرتدون عن دین الله،و أما أنهم یحبون الله و یحبهم،و أنهم أذله علی المؤمنین أعزه علی الکافرین إلی آخر ما ذکر فی الآیه من الأوصاف فهی أمور زائده یحتاج التعرض لها إلی اقتضاء زائد من المقام و الحال.

و من جهه أخری نجد أن ما ذکر فی الآیه من الأوصاف أمور لا تخلو من الارتباط بما ذکر فی الآیات السابقه من تولی الیهود و النصاری فإن اتخاذهم أولیاء من دون المؤمنین لا یخلو من تعلق القلب بهم تعلق المحبه و الموده،و کیف یحتوی قلب هذا شأنه علی محبه الله سبحانه و قد قال تعالی: «مَا جَعَلَ اللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» :(الأحزاب:۴) و من لوازم هذا التولی أن یتذلل المؤمن لهؤلاء الکفار، و أن یتعزز علی المؤمنین و یترفع عنهم کما قال تعالی: «أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً» : (النساء:١٣٩).

و من لوازم هذا التولی المساهله فی الجهاد علیهم و الانقباض عن مقاتلتهم،و التحرج من الصبر علی کل حرمان،و التحمل لکل لائمه فی قطع الروابط الاجتماعیه معهم کما قال تعالی: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ X-إلی أن قال-X إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» :(الممتحنه:١)و قال تعالی: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ» :(الممتحنه:۴).

و کذلک الارتداد بمعناه اللغوی أو بالعنایه التحلیلیه صادق علی تولی الکفار کما قال تعالی فی الآیه السابقه(آیه:۵۱):« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »و قال أیضا: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ» :(آل عمران:٢٨) و قال تعالی: «إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ»:

(النساء:١۴٠).

فقد تبین بهذا البیان أن للآیه اتصالا بما قبلها من الآیات و أن الآیه مسوقه لإظهار أن دین الله فی غنی عن أولئک الذین یخاف علیهم الوقوع فی ورطه المخالفه و تولی الیهود و النصاری لدبیب النفاق فی جماعتهم،و اشتمالها علی عده مرضی القلوب لا یبالون باشتراء الدنیا بالدین،و إیثار ما عند أعداء الدین من العزه الکاذبه و المکانه الحیویه الفانیه علی حقیقه

العزه التی هی لله و لرسوله و للمؤمنین،و السعاده الواقعیه الشامله علی حیاه الدنیا و الآخره.

و إنما أظهرت الآیه ذلک بالإنباء عن ملحمه غیبیه أن الله سبحانه فی قبال ما یلقاه الدین من تلون هؤلاء الضعفاء الإیمان،و اختیارهم محبه غیر الله علی محبته،و ابتغاء العزه عند أعدائه و مساهلتهم فی الجهاد فی سبیله،و الخوف من کل لومه و توبیخ سیأتی بقوم یحبهم و یحبونه أذله علی المؤمنین أعزه علی الکافرین یجاهدون فی سبیل الله لا یخافون لومه لائم.

و کثیر من المفسرین و إن تنبهوا علی اشتمال الآیه علی الملحمه و أطالوا فی البحث عمن تنطبق علیه الآیه مصداقا غیر أنهم تساهلوا فی تفسیر مفرداتها فلم یعطوا ما ذکر فیها من الأوصاف حق معناها فآل الأمر إلی معاملتهم کلام الله سبحانه معامله کلام غیره و تجویز وقوع المسامحات و المساهلات العرفیه فیه کما فی غیره.

فالقرآن و إن لم یسلک فی بلاغته مسلکا بدعا،و لم یتخذ نهجا مخترعا جدیدا فی استعمال الألفاظ و ترکیب الجمل و وضع الکلمات بحذاء معانیها بل جری فی ذلک مجری غیره من الکلام.

و لکنه یفارق سائر الکلام فی أمر آخر،و هو أنا معاشر المتکلمین من البلیغ و غیره إنما نبنی الکلام علی أساس ما نعقله من المعانی،و المدرک لنا من المعانی إنما یدرک بفهم مکتسب من الحیاه الاجتماعیه التی اختلقناها بفطرتنا الإنسانیه الاجتماعیه،و من شأنها الحکم بالقیاس،و عند ذلک ینفتح باب المسامحه و المساهله علی أذهاننا فنأخذ الکثیر مکان الجمیع،و الغالب موضع الدائم،و نفرض کل أمر قیاسی أمرا مطلقا،و نلحق کل نادر بالمعدوم،و نجری کل أمر یسیر مجری ما لیس بموجود یقول قائلنا:کذا حسن أو قبیح، و کذا محبوب أو مبغوض،و کذا محمود أو مذموم،و کذا نافع أو ضار،و فلان خیر أو شریر،إلی غیر ذلک فنطلق القوم فی ذلک،و إنما هو کذلک فی بعض حالاته و علی بعض التقادیر،و عند بعض الناس،و بالقیاس إلی بعض الأشیاء لا مطلقا،لکن القائل إنما یلحق بعض التقادیر المخالفه بالعدم تسامحا فی إدراکه و حکمه،هذا فیما أدرکه من جهات الواقع الخارج،و أما ما یغفل عنه لمحدودیه إدراکه من جهات الکون المربوطه فهو أکثر، فما یخبر به الإنسان و یحدثه عن الخارج و خیلت له الإحاطه بالواقع إدراکا و کشفا فإنما هو مبنی علی التسامح فی بعض الجهات،و الجهل فی بعض آخر،و هو من الهزل إن قدرنا علی أن نحیط بالواقع ثم نطبق کلامه علیه،فافهم ذلک.

فهذا حال كلام الإنسان المبنى على ما يحصل عنده من العلم،و أما كلام الله سبحانه فمن الواجب أن نجله عن هذه النقيصه،و هو المحيط بكل شىء علما و قد قال تعالى فى صفه كلامه:« إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ مٰا هُوَ بِالْهَزْلِ ».

و هذا من وجوه الأخذ بإطلاق كلامه تعالى فيما كان بظاهره مطلقا لم يعقب بقيد متصل أو منفصل،و من وجوه إشعار الوصف فى كلامه بالعليه فإذا قال:« يُحِبُّهُمْ »فليس يبغضهم فى شىء و إلا لاستثنى،و إذا وصف قوما بأنهم أذله على المؤمنين كان من الواجب أن يكونوا أذلاء لهم بما هم مؤمنون أى لصفه إيمانهم بالله سبحانه،و أن يكونوا أذلاء فى جميع أحوالهم و على جميع التقادير،و إلا لم يكن القول فصلا.

نعم هناك معان تنسب إلى غير صاحبها إذا جمعها جامع يصحح ذلك كما فى قوله:

«وَ لَقَدْ آتَيْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ» :(الجاثيه:۱۶)و قوله: «هُوَ اجْتَبٰاكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»:

(الحج:۷۸)و قوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» :(آل عمران:۱۱۰)و قوله: «لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» :(البقره:۱۴۳)و قوله: «وَ قٰالَ الرَّسُولُ يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» :(الفرقان:۳۰)إلى غير ذلك من الآيات المشتمله على أوصاف اجتماعيه يتصف بها الفرد و المجتمع و ليس شىء من ذلك جاريا مجرى التسامح و التساهل بل هى أوصاف يتصف بها الجزء و الكل،و الفرد و المجتمع لعنايه متعلقه بذلك كمثل حفنه من تراب مشتمله على جوهره يقبض عليها لأجل الجوهره فالتراب مقبوض و الجوهره مقبوضه و الأصل فى ذلك الجوهره،و لنرجع إلى ما كنا فيه:

أما قوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ »فالمراد بالارتداد و الرجوع عن الدين بناء على ما مر هو موالاه اليهود و النصارى،و خص الخطاب فيه بالمؤمنين لكون الخطاب السابق أيضا متوجها إليهم،و المقام مقام بيان أن الدين الحق فى غنى عن إيمانهم المشوب بموالاه أعداء الله،و قد عده الله سبحانه كفرا و شركا حيث قال:

« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »لما أن الله سبحانه هو ولى دينه و ناصره،و من نصرته لدينه أنه سوف يأتى بقوم براء من أعدائه يتولون أولياءه و لا يحبون إلا إياه.

و أما قوله:« فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ »نسب الإتيان إلى نفسه ليقرر معنى نصره لدينه

المفهوم من السياق المشعر بأن لهذا الدين ناصرا لا يحتاج معه إلى نصره غيره،و هو الله عز اسمه.

و كون الكلام مسوقا لبيان انتصار الـدين بهؤلاء القوم تجاه من يقصـده هؤلاء الموالون لأعدائه من الانتصار القومى،و كذا التعبير بـالقوم و الإتيـان بالأوصاف و الأفعال بصيغه الجمع كل ذلك مشـعر بأن القوم الموعود إيتاؤهم إنما يبعثون جماعه مجتمعين لا فرادى و لا مثنى كان يأتى الله سبحانه فى كل زمان برجل يحب الله و يحبه الله ذليل على المؤمنين عزيز على الكافرين يجاهد فى سبيل الله لا يخاف لومه لائم.

و إتيـان هـذه القوم فى عين أنه منسوب إليهم منسوب إليه تعـالى و هو الآتى بهم لا بمعنى أنه خالقهم إذ لا خالق إلا الله سـبحانه قـال: «اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَـيْءٍ» :(الزمر:۶۲)بـل بمعنى أنـه البـاعث لهم فيمـا ينتهزون إليه من نصـره الـدين،و المكرم لهم بحبه لهم و حبهم له،و الموفق لهم بالتذلل لأوليائه،و التعزز لأعدائه،و الجهاد فى سبيله،و الإعراض عن كل لائمه، فنصرتهم للدين هى نصرته تعالى له بسببهم و من طريقهم،و قريب الزمان و بعيده عند الله واحد،و إن كانت أنظارنا لقصورها تفرق فى ذلك.

و أمـا قوله تعـالى:« يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ »فـالحب مطلق معلق على الـذات من غير تقييـده بوصف أو غير ذلـك،أمـا حبهم لله فلازمه إيثارهم ربهم على كل شـىء سواه مما يتعلق به نفس الإنسان من مال أو جاه أو عشيره أو غيرها،فهؤلاء لا يوالون أحدا من أعداء الله سبحانه،و إن والوا أحدا فإنما يوالون أولياء الله بولايه الله تعالى.

و أما حبه تعالى لهم فلازمه براءتهم من كل ظلم،و طهارتهم من كل قـذاره معنويه من الكفر و الفسق بعصـمه أو مغفره إلهيه عن توبه،و ذلـك أن جمل المظالم و المعاصـى غير محبوبه لله كما قال تعالى: «فَإِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» :(آل عمران:۳۲)و قال: «وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ» :(آل عمران:۵۷)و قـال: «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» :(الأنعـام:۴۱)و قـال: «وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» :(المائده:۶۴)و قـال: «إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» :(البقره:۱۹۰) و قـال: «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» :(النحل:۲۳)و قـال: «إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ»:

(الأنفال:۵۸)إلى غير ذلك من الآيات.

و فى هذه الآيات جماع الرذائل الإنسانيه،و إذا ارتفعت عن إنسان بشـهاده محبه الله له اتصف بما يقابلها من الفضائل لأن الإنسان لا مخلص له عن أحد طرفى الفضيله و الرذيله إذا تخلق بخلق.

فهؤلاء هم المؤمنون بالله حقا غير مشوب إيمانهم بظلم و قد قال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا

وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» :(الأنعام:٨٢)فهم مأمونون من الضلال و قد قال تعالى: «فَإِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ» :(النحل:٣٧)فهم فى أمن إلهى من كل ضلاله،و على اهتداء إلهى إلى صراطه المستقيم،و هم بإيمانهم الذى صدقهم الله فيه مهديون إلى اتباع الرسول و التسليم التام له كتسليمهم لله سبحانه قال تعالى: «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» :(النساء:۶۵).

و عند ذلك يتم أنهم من مصاديق قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ» :(آل عمران:٣١)و به يظهر أن اتباع النبى ص و محبه الله متلازمان فمن اتبع النبى أحبه الله و لا يحب الله عبدا إلا إذا كان متبعا لنبيه(ص).

و إذا اتبعوا الرسول اتصفوا بكل حسنه يحبها الله و يرضاها كالتقوى و العدل و الإحسان و الصبر و الثبات و التوكل و التوبه و التطهر و غير ذلك قال تعالى: «فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» :(آل عمران:٧۶)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» :(البقره:١٩۵)و قال:

«وَ اللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ» :(آل عمران:١۴۶)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ» :(الصف:۴)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» :(آل عمران:

١۵٩)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» :(البقره:٢٢٢)إلى غير ذلك من الآيات.

و إذا تتبعت الآيات الشارحه لآثار هذه الأوصاف و فضائل تتعقبها عثرت على أمور جمه من الخصال الحسنه،و وجدت أن جميعها تنتهى إلى أن أصحابها هم الوارثون الذين يرثون الأرض،و أن لهم عاقبه الدار كما يومئ إليه الآيه المبحوث عنها:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ »و قد قال تعالى-و هى كلمه جامعه-: «وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى» :(طه:١٣٢)و سنشرع معنى كون العاقبه للتقوى فيما يناسبه من المورد إن شاء الله العزيز.

قوله تعالى:« أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ »الأذله و الأعزه جمعا الذليل و العزيز،و هما كنايتان عن خفضهم الجناح للمؤمنين تعظيما لله الذى هو وليهم و هم أولياؤه، و عن ترفعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزه الكاذبه التى لا يعبأ بأمرها الدين كما أدب بذلك نبيه فى قوله: «لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» :(الحجر:٨٨)و لعل تعديه« أَذِلَّةٍ »بعلى لتضمينه معنى الحنان أو الحنو كما قيل.

ص :٣٨۴

قوله تعالى:« يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ »أما قوله:« يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »فقد اختص بالذكر من بين مناقبهم الجمه لكون الحاجه تمس إليه فى المقام لبيان أن الله ينتصر لدينه بهم،و أما قوله:« وَ لاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ »فالظاهر أنه حال متعلق بالجمل المتقدمه لا بالجمله الأخيره فقط-و إن كانت هى المتيقنه فى أمثال هذه التركيبات- و ذلك لأن نصره الدين بالجهاد فى سبيل الله كما يزاحمها لومه اللائمين الذين يحذرونهم تضييع الأموال و إتلاف النفوس و تحمل الشدائد و المكاره كذلك التذلل للمؤمنين و التعزز على الكافرين و عندهم من زخارف الدنيا و مبتغيات الشهوه،و أمتعه الحياه ما ليس عند المؤمنين هما مما يمانعه لومه اللائم،و فى الآيه ملحمه غيبيه سنبحث عنها فى كلام مختلط من القرآن و الحديث إن شاء الله تعالى.

(بحث روائى)

و فى الدر المنثور،":فى قوله تعالى:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ »(الآيه)":

أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر عن عباده بن الوليد أن عباده بن الصامت قال": لما حاربت بنو قينقاع.رسول الله ص-تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول و قام دونهم،و مشى عباده بن الصامت إلى رسول الله ص-و تبرأ إلى الله و إلى رسوله من حلفهم،و كان أحد بنى عوف بن الخزرج،و له من حلفهم مثل الذى كان لهم من عبد الله بن أبى-فخلعهم إلى رسول الله ص، و قال:أتولى الله و رسوله و المؤمنين،و أبرأ إلى الله و رسوله من حلف هؤلاء الكفار و ولايتهم.

و فيه،": و فى عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى المائده:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ-بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ -إلى قوله- فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ »

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير عن عطيه بن سعد قال: جاء عباده بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ص فقال:يا رسول الله إن لى موالى من يهود كثير عددهم،و إنى أبرأ إلى الله و رسوله من ولايه يهود،و أتولى الله و رسوله.

فقال عبد الله بن أبى:إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولايه موالى،فقال رسول الله ص لعبد الله بن أبى:يا أبا الحباب أ رأيت الذى نفست به-من ولاء يهود على عباده فهو لك دونه؟قال:إذن أقبل فأنزل الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ

وَ النَّصارىٰ أَوْلِياءَ-بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

-إلى أن بلغ إلى قوله- وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّٰاسِ» .

و فيه،أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال": آمن عبد الله بن أبى بن سلول قال:إن بينى و بين بنى قريظه و النضير حلفا،و إنى أخاف الدوائر فارتد كافرا،و قال عباده بن الصامت:

أبرأ إلى الله من حلف قريظه و النضير-و أتولى الله و رسوله و المؤمنين.

فأنزل الله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ -إلى قوله- فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ »يعنى عبد الله بن أبى و قوله:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا-الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ-وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ »يعنى عباده بن الصامت و أصحاب رسول الله ص.قال:« وَ لَوْ كٰانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ النَّبِيِّ-وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيٰاءَ-وَ لٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ ».

أقول:و رويت القصه بغير هذه الطرق،و قد تقدم أن هذه الأسباب أسباب تطبيقه اجتهاديه،و فيها أمارات تدل على ذلك،كيف و الآيات تذكر النصارى مع اليهود،و لم يكن فى قصه بنى قينقاع و ما جرى بين المسلمين و بين بنى قريظه و النضير للنصارى إصبع، و لا للمسلمين معهم شأن؟و مجرد ذكرهم تطفلا و اطرادا مما لا وجه له،و فى القرآن آيات متعرضه لحال اليهود فى الوقائع التى جرت بينهم و بين المسلمين و ما داخل فيه المنافقون من أعمالهم خص فيه اليهود بالذكر و لم يذكر فيه النصارى كما فى سوره الحشر و غيرها،فما بال الاطراد و التطفل يجرى حكمهما هاهنا و لا يجرى هناك.

على أن الروايه تذكر الآيات النازله فى عباده بن الصامت و عبد الله بن أبى سبع عشره آيه(آيه:۵۱-۶۷)و لا اتصال بينها حتى تنزل دفعه(أولا)،و فيها آيه:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »و قد تواترت روايات الخاصه و العامه على أنها نزلت فى على(ع)(ثانيا)، و فيها آيه:« يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ »و لا ارتباط لها مع القصه البته(ثالثا).

فليس إلا أن الراوى أخذ قصه عباده و عبد الله ثم وجد الآيات تناسبها بعض المناسبه فطبقها عليها ثم لم يحسن التطبيق فوضع سبع عشره آيه مكان ثلاث آيات بمناسبه تعرضها لحال أهل الكتاب.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمه": فى قوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ-بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ »فى بنى قريظه إذ غدروا و نقضوا العهد بينهم و بين رسول الله ص-فى كتابهم إلى أبى سفيان بن حرب يدعونهم-و قريشا

لیدخلوهم حصونهم-فبعث النبی ص أبا لبابه بن عبد المنذر إلیهم-أن یستنزلهم من حصونهم- فلما أطاعوا له بالنزول-أشار إلی حلقه بالذبح.و کان طلحه و الزبیر یکاتبان النصاری و أهل الشام،و بلغنی أن رجالا من أصحاب النبی ص-کانوا یخافون العوز و الفاقه-فیکاتبون الیهود من بنی قریظه و النضیر-فیدسون إلیهم الخبر من النبی ص-یلتمسون عندهم القرض و النفع فنهوا عن ذلک.

أقول:و الروایه لا بأس بها و هی تفسر الولایه فی الآیات بولایه المحبه و الموده و قد تقدم تأیید ذلک،و هی إن کانت سببا للنزول حقیقیا فالآیات مطلقه تجری فی غیر القصه کما نزلت و جرت فیها،و إن کانت من الجری و التطبیق فالأمر أوضح.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ-فَسَوْفَ یَأْتِی اللّٰهُ بِقَوْمٍ »(الآیه)قال:و قیل:هم أمیر المؤمنین علی(ع)و أصحابه-حین قاتل من قاتله من الناکثین و القاسطین و المارقین،": و روی ذلک عن عمار و حذیفه و ابن عباس، و هو المروی عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع) .

أقول:قال فی المجمع،بعد ذکر الروایه:و یؤید هذا القول أن النبی وصفه بهذه الصفات المذکوره فی الآیه فقال فیه و قد ندبه لفتح خیبر بعد أن رد عنها حامل الرایه إلیه مره بعد أخری و هو یجبن الناس و یجبنونه-

:«لأعطین الرایه غدا رجلا-یحب الله و رسوله و یحبه الله و رسوله-کرارا غیر فرار لا یرجع حتی یفتح الله علی یده »ثم أعطاها إیاه.

فأما الوصف باللین علی أهل الإیمان،و الشده علی الکفار و الجهاد فی سبیل الله مع أنه لا یخاف فیه لومه لائم فمما لا یمکن أحدا دفع علی(ع)عن استحقاق ذلک لما ظهر من شدته علی أهل الشرک و الکفر و نکایته فیهم،و مقاماته المشهوره فی تشیید المله و نصره الدین،و الرأفه بالمؤمنین.

و یؤید ذلک أیضا

إنذار رسول الله ص قریشا بقتال علی(ع)لهم من بعده حیث جاء سهیل بن عمرو فی جماعه منهم فقالوا:یا محمد إن أرقائنا لحقوا بک فارددهم إلینا فقال رسول الله ص:لتنتهن یا معاشر قریش-أو لیبعثن الله علیکم رجلا-یضربکم علی تأویل القرآن کما ضربتکم علی تنزیله،فقال له بعض أصحابه:من هو یا رسول الله؟أبو بکر؟قال:لا،و لکنه خاصف النعل فی الحجره،و کان علی(ع)یخصف نعل رسول الله ص.

و روی عن علی(ع)أنه قال یوم البصره: و الله ما قوتل أهل هذه الآیه حتی الیوم،

و تلا هذه الآیه.

و روی أبو إسحاق الثعلبی فی تفسیره بالإسناد عن الزهری عن سعید بن المسیب عن أبی هریره أن رسول الله ص قال: یرد إلی قوم من أصحابی یوم القیامه فیحلون عن الحوض-فأقول:یا رب أصحابی،أصحابی-فیقال:إنک لا تدری بما أحدثوا من بعدک-إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری ،انتهی.

و هذا الذی ذکره إنما یتم فیه(ع)و لا ریب فی أنه أفضل مصداق لما سرد فی الآیه من الأوصاف لکن الشأن فی انطباق الآیه علی عامه من معه من أهل الجمل و صفین و قد غیر کثیر منهم بعد ذلک،و قد وقع قوله تعالی:« یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ »(إلخ)فی الآیه بغیر استثناء،و قد عرفت معناه.

و فیه،أیضا.و روی: أن النبی ص سئل عن هذه الآیه-فضرب بیده علی عاتق سلمان- فقال:هذا و ذووه،ثم قال:لو کان الدین معلقا بالثریا-لتناوله رجال من أبناء فارس.

أقول:و الکلام فیه کالکلام فی سابقه إلا أن یراد أنهم سوف یبعثون من قومه.

و فیه،و قیل: هم أهل الیمن هم ألین قلوبا،و أرق أفئده،الإیمان یمانی،و الحکمه یمانیه،و قال عیاض بن غنم الأشعری:لما نزلت هذه الآیه-أومأ رسول الله ص إلی أبی موسی الأشعری-فقال:هم قوم هذا.

أقول:و روی هذا المعنی فی الدر المنثور،بعده طرق،و الکلام فیه کالکلام فی سابقه.

و فی تفسیر الطبری،بإسناده عن قتاده قال": أنزل الله هذه الآیه و قد علم أنه سیرتد مرتدون من الناس-فلما قبض الله نبیه محمدا ص-ارتد عامه العرب عن الإسلام-إلا ثلاثه مساجد أهل المدینه-و أهل مکه و أهل البحرین قالوا:نصلی و لا نزکی و الله لا تغصب أموالنا،فکلم أبو بکر فی ذلک فقیل لهم: (۱)إنهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها و زادوها فقال:لا و الله لا أفرق بین شیء جمع الله بینه،و لو منعوا عقالا مما فرض الله و رسوله لقاتلناهم علیه،فبعث الله عصابه مع أبی بکر-فقاتل علی ما قاتل علیه نبی الله ص-حتی سبی و قتل و حرق بالنیران أناسا-ارتدوا عن الإسلام و منعوا الزکاه-فقاتلهم حتی أقروا بالماعون-و هی الزکاه-صغره أقمیاء،الحدیث:.

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و أبی الشیخ

۱- ۱) له(ظ).

و البيهقى و ابن عساكر عن قتاده،و رواه أيضا عن الضحاك و الحسن.

و لفظ الحديث أوضح شاهد على أنه من قبيل التطبيق النظرى،و حينئذ يتوجه إليه ما توجه إلى ما تقدمه من الروايات فإن هذه الوقائع و الغزوات تشتمل على حوادث و أمور و قد قاتل فيها رجال كخالد و مغيره بن شعبه و بسر بن الأرطاه و سمره بن جندب يذكر التاريخ عنهم فيها و بعد ذلك مظالم و آثاما لا تدع الآيه:(يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ، إلخ)أن تصدق فيهم و تنطبق عليهم،فعليك بالرجوع إلى التاريخ ثم التأمل فيما قدمناه من معنى الآيه.

و قد بلغ من إفراط بعض المفسرين أن استغرب قول بعضهم:«إن الآيه أوضح انطباقا على الأشعريين من أهل اليمن منها على هؤلاء الذين قاتلوا أهل الرده»قائلا:إن الآيه عامه تشمل كل من نصر الدين ممن اتصف بمضمونها من خيار المسلمين من مؤمنى عهد النبى ص،و من جاء بعد ذلك من المؤمنين،و تنطبق على جميع ما تقدم من الأخبار كالخبر الدال على أنهم سلمان و قومه-على ضعفه-و الخبر الدال على أنه أبو موسى الأشعرى و قومه، و الخبر الدال على أنه أبو بكر و أصحابه إلا ما دل على أنه على-(ع)-فإن لفظ الآيه لا ينطبق عليه لأن لفظ القوم-المأخوذ فى الآيه-لا يجرى على الواحد لأنه نص فى الجماعه.

هذا محصل كلامه،و ليس إلا أنه عامل كلامه تعالى فيما ذكره من الثناء على القوم و مدحهم معامله الشعر الذى يبنى المدح على التخيل،فما قدر عليه خيال الشاعر حمله على ممدوحه من غير أن يعتنى بأمر الصدق و الكذب،و قد قال تعالى: «وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً» :(النساء:١٢٢)أو على المتعارف من الكلام الدائر بيننا الذى لا يعتمد فى إلقائه إلا على الأفهام البانيه على التسامح و التساهل فى التلقى و الإلقاء،و الاعتذار بالمسامحه فى كل ما أشكل عليها فى شىء و قد قال تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ»: (الطارق:

١۴)و قد عرفت فيما تقدم أن الآيه لو أعطيت حق معناها فيما تتضمنه من الصفات تبين أن مصداقها لم يتحقق بعد إلى هذا الحين فراجع و تأمل ثم اقض ما أنت قاض.

و من العجيب ما ذكره فى آخر كلامه فإن من ذكر نزول الآيه فى على(ع) إنما ذكر عليا و أصحابه كما ذكر آخرون:سلمان و ذويه،و آخرون:أبا موسى و قومه،و آخرون:

أبا بكر و أصحابه،و كذا ما ورد من الروايات-و قد تقدم بعضها-إنما ورد فى على و أصحابه،و لم يذكر نزول الآيه فى على(ع)وحده حتى يرد بأن لفظ الآيه نص فى الجماعه لا ينطبق على المفرد.

نعم ورد فی تفسیر الثعلبی أنها نزلت فی علی و أیضا فی نهج البیان للشیبانی عن الباقر و الصادق(ع)أنها نزلت فی علی(ع)،و المراد به بقرینه الروایات الآخر نزوله فیه و فی أصحابه من جهه قیامهم بنصره الدین فی غزوه الجمل و صفین و الخوارج.

مع أنه سیأتی أن الروایات من طرق الجمهور متکاثره فی نزول آیه:« إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ »فی علی(ع)و لفظ الآیه جمع.

علی أن فی الروایه-روایه قتاده و الضحاک و الحسن-إشکالا آخر و هو أن قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ » (إلخ)ظاهر ظهورا لا مریه فیه فی معنی التبدیل و الاستغناء سواء کان الخطاب للموجودین فی یوم النزول أو لمجموع الموجودین و المعدومین،و المقصود خطاب الجماعه من المؤمنین بأنهم کلهم أو بعضهم إن ارتدوا عن دینهم فسوف یبدلهم الله من قوم یحبهم و یحبونه-و هو لا یحب المرتدین و لا یحبونه-و لهم کذا و کذا من الصفات ینصرون دینه.

و هذا صریح فی أن القوم المأتی بهم جماعه من المؤمنین غیر الجماعه الموجودین فی أوان النزول،و المقاتلون أهل الرده بعید وفاه النبی ص کانوا موجودین حین النزول مخاطبین بقوله:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »(إلخ)فهم غیر مقصودین بقوله:« فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ »(إلخ).

و الآیه جاریه مجری قوله تعالی: «وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ ثُمَّ لا یَکُونُوا أَمْثالَکُمْ» :(محمد:۳۸).

و فی تفسیر النعمانی،بإسناده عن سلیمان بن هارون العجلی قال:سمعت أبا عبد الله (ع)یقول: إن صاحب هذا الأمر محفوظ له،لو ذهب الناس جمیعا أتی الله بأصحابه،و هم الذین قال الله عز و جل:« فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ-فَقَدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ » و هم الذین قال الله:« فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ-أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ » أقول:و روی هذا المعنی العیاشی و القمی فی تفسیریهما.

(کلام و بحث مختلط من القرآن و الحدیث) [فی کلیات حوادث آخر الزمان.]

مما تقدم فی الأبحاث السابقه مرارا التلویح إلی أن الخطابات القرآنیه التی یهتم القرآن بأمرها،و یبالغ فی تأکیدها و تشدید القول فیها لا یخلو لحن القول فیها من دلاله علی أن

العوامل و الأسباب الموجوده متعاضده على أن تسوقهم إلى مهابط السقوط و دركات الردى، و الابتلاء بسخط الله كما فى آيات الربا و آيه موده القربى و غيرهما.

و من طبع الخطاب ذلك فإن المتكلم الحكيم إذا أمر بأمر حقير يسير ثم بالغ فى تأكيده و الإلحاح عليه بما ليس شأنه ذلك،أو خاطب أحدا بخطاب ليس من شأن ذلك المخاطب أن يوجه إلى مثله ذلك الخطاب كنهى عالم ربانى ذى قدم صدق فى الزهد و العباده عن ارتكاب أفضح الفجور على رءوس الأشهاد دل ذلك على أن المورد لا يخلو عن شىء و أن هناك خطبا جليلا و مهلكه خطيره مشرفه.

و الخطابات القرآنيه التى هذا شأنها تعقبت حوادث صدقتها فى ما كانت تلوح إليه بل تدل عليه،و إن كان السامعون(لعلهم)ما كانوا يتنبهون فى أول ما سمعوها يوم النزول على ما تتضمنه من الإشارات و الدلالات.

فقد أمر القرآن بموده قربى رسول الله ص و بالغ فيها حتى عدها أجر الرساله و السبيل إلى الله سبحانه ثم وقع أن استباحت الأمه فى أهل بيته من فجائع المظالم ما لو أمروا به لم يكونوا ليزيدوا على ما أتوا به فيهم.

و نهى القرآن عن الاختلاف و بالغ فيه بما لا مزيد عليه ثم وقع إن تفرقت الأمه تفرقا و انشعبت انشعابات زادت على ما عند اليهود و النصارى،و كانت اليهود إحدى و سبعين فرقه،و النصارى اثنتين و سبعين فرقه فأتى المسلمون بثلاث و سبعين فرقه هذا فى مذاهبهم فى معارف الدين العلميه،و أما مذاهبهم فى السنن الاجتماعيه و تأسيس الحكومات و غيرها فلا تقف على حد حاصر.

و نهى القرآن عن الحكم بغير ما أنزل الله،و نهى عن إلقاء الاختلاف بين الطبقات و نهى عن الطغيان و اتباع الهوى إلى غير ذلك و شدد فيها ثم وقع ما وقع.

و الأمر فى النهى عن ولايه الكفار و أهل الكتاب نظير غيره من النواهى المؤكده الوارده فى القرآن الكريم بل ليس من البعيد أن يدعى أن التشديد الواقع فى النهى عن ولايه الكفار و أهل الكتاب لا يعدله أى تشديد واقع فى سائر النواهى الفرعيه.

فقد بلغ الأمر فيه إلى أن عد الله سبحانه الموالين لأهل الكتاب و الكفار منهم:

« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »و نفاهم من نفسه إذ قال: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ :(آل عمران:٢٨)و حذرهم منتهى التحذير فقال مره بعد أخرى: «وَ يُحَذِّرُكُمُ

اللّهُ نَفْسَهُ» :(آل عمران:۲۸-۳۰)و قد مر فی الکلام علی الآیه أن مدلولها وقوع المحذور لا محاله قضاء حتما لا مبدل له و لا محول.

و إن شئت مزید وضوح لذلک فتدبر فی قوله تعالی: «وَ إِنَّ کُلاًّ لَمّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمالَهُمْ -Xو قد ذکر قبل الآیه قصص أمم نوح و هود و صالح و غیرهم ثم اختلاف الیهود فی کتابهم-X إِنَّهُ بِما یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ فَاسْتَقِمْ کَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَکَ وَ لا تَطْغَوْا -Xو الخطاب کما تری خطاب اجتماعیX- إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ» :(هود:۱۱۲)ثم تدبر فی قوله تعالی بعده: «وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ النّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ» :(هود:۱۱۳).

و قد بین الله سبحانه معنی مسیس هذه النار فی الدنیا قبل الآخره- و الآیه مطلقه- و هو الذی توعد به فی قوله:« وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّهُ نَفْسَهُ »بقوله تعالی: «الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» :(المائده:۳)فبین فیه أن الذی کان یخشاه المؤمنون علی دینهم من الذین کفروا و هم المشرکون و أهل الکتاب-کما تبین سابقا-إلی یوم نزول الآیه فهم الیوم فی أمن منه فلا ینبغی لهم أن یخشوهم فیه بل یجب علیهم أن یخشوا فیه ربهم،و الذی کانوا یخشونهم فیه علی دینهم هو أن الکفار لم یکن لهم هم فیهم إلا إطفاء نور الدین،و سلب هذه السلعه النفیسه من أیدیهم بأی وسیله قدروا علیها.

فهذا هو الذی کانوا یخشونه قبل الیوم،و بنزول سوره المائده أمنوا ذلک و اطمأنت أنفسهم غیر أنه یجب علیهم أن یخشوا فی ذلک ربهم أن لا یذهب بنورهم و لا یسلبهم دینه.

و من المعلوم أن الله سبحانه لا یفاجئ قوما بنقمه أو عذاب من غیر أن یستحقوه قال تعالی: «ذلِکَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَها عَلی قَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» :(الأنفال:

۵۳)فبین أن تغییره النعمه لا یکون إلا عن استحقاق،و أنه یتبع تغییر الناس ما بأنفسهم، و قد سمی الدین أو الولایه الدینیه کما تقدم نعمه حیث قال بعده: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً» الأنفال ۳.

فتغییر هذه النعمه من قبلهم،و التخطی عن ولایه الله بقطع الرابطه منه،و الرکون إلی الظالمین،و ولایه الکفار و أهل الکتاب هو المتوقع منهم،و الواجب علیهم أن یخشوه علی أنفسهم فیخشوا الله فی سخط لا راد له،و قد أوعدهم فیه بقوله: «وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ» :(المائده:۵۱)فأخبر أنه لا یهدیهم إلی سعادتهم

فهی التی تتعلق بها الهدایه،و سعادتهم فی الدنیا إنما هی أن یعیشوا علی سنه الدین و السیره العامه الإسلامیه فی مجتمعهم.

و إذا انهدمت بنیه هذه السیره اختلت مظاهرها الحافظه لمعناها من الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و سقطت شعائره العامه،و حلت محلها سیره الکفار و لم یزل تستحکم أرکانها و تستثبت قواعدها،و هذا هو الذی علیه مجتمع المسلمین الیوم.

و لو تدبرت فی السیره الإسلامیه العامه التی ینظمها الکتاب و السنه و یقررانها بین المسلمین ثم فی هذه السیره الفاسده التی حملت الیوم علی المسلمین ثم تدبرت فی ما یشیر إلیه بقوله:

«فَسَوْفَ یَأْتِی اللّٰهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّةٍ عَلَی الْکٰافِرِینَ یُجٰاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ لاٰ یَخٰافُونَ لَوْمَةَ لاٰئِمٍ»

:(المائده:۵۴) وجدت أن جمیع الرذائل التی تحیط بمجتمعنا معاشر المسلمین و تحکم فینا الیوم-مما اقتبسناها من الکفار ثم نمت و نسلت فینا- إنما هی أضداد ما ذکره الله فی وصف من وعد بالإتیان به فی الآیه أعنی أن جمیع رذائلنا الفعلیه تتلخص فی أن المجتمع الیوم لا یحبون الله و لا یحبهم الله،أذله علی الکافرین،أعزه علی المؤمنین،لا یجاهدون فی سبیل الله،یخافون کل لومه.

و هذا هو الذی تفرسه القرآن فی وجه القوم،و إن شئت فقل:هو النبأ الغیبی الذی نبأ به العلیم الخبیر أن المجتمع الإسلامی سیرتد عن دینه،و لیست رده مصطلحه و إنما هی رده تنزیلیه یبینها قوله تعالی: «وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ»:

(المائده:۵۱)و قوله: «وَ لَوْ کٰانُوا یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ النَّبِیِّ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِیٰاءَ وَ لٰکِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ» :(المائده:۸۱).

و قد وعدهم الله النصر إن نصروه،و تضعیف أعدائهم إن لم یقووهم و یؤیدوهم فقال:

«إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ یَنْصُرْکُمْ» :(محمد:۷)و قال: «وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْکِتٰابِ لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَکْثَرُهُمُ الْفٰاسِقُونَ لَنْ یَضُرُّوکُمْ إِلاّٰ أَذیً وَ إِنْ یُقٰاتِلُوکُمْ یُوَلُّوکُمُ الْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ یُنْصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِّلَّةُ أَیْنَ مٰا ثُقِفُوا إِلاّٰ بِحَبْلٍ مِنَ اللّٰهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّٰاسِ»:

(آل عمران:۱۱۲)و لیس من البعید أن یستفاد من قوله:« إِلاّٰ بِحَبْلٍ مِنَ اللّٰهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّٰاسِ »أن لهم أن یخرجوا من الذله و المسکنه بموالاه الناس لهم و تسلیط الله تعالی إیاهم علی الناس.

ثم وعد الله سبحانه المجتمع الإسلامی-و شأنهم هذا الشأن-بالإتیان بقوم یحبهم

و یحبونه أذله علی المؤمنین أعزه علی الکافرین یجاهدون فی سبیل الله لا یخافون لومه لائم، و الأوصاف المعدوده لهم-کما عرفت-جماع الأوصاف التی یفقدها المجتمع الإسلامی الیوم، و یستفاد بالإمعان فی التدبر فیها تفاصیل الرذائل التی تنبئ الآیه أن المجتمع الإسلامی سیبتلی بها.

و قد اشتملت علی تعدادها عده من أخبار ملاحم آخر الزمان المرویه عن النبی ص و الأئمه من أهل بیته(ع)،و هی علی کثرتها و من حیث المجموع و إن کانت لا تسلم من آفه الدس و التحریف إلا أن بینها أخبارا یصدقها جریان الحوادث و توالی الوقائع الخارجیه،و هی أخبار مأخوذه من کتب القدماء المؤلفه قبل ما یزید علی ألف سنه من هذا التاریخ أو قریبا منه،و قد صحت نسبتها إلی مؤلفیها و تظافر النقل عنها.

علی أنها تنطق عن حوادث و وقائع لم تحدث و لم تقع فی تلک الآونه و لا کانت مترقبه تتوقعها النفوس التی کانت تعیش فی تلک الأزمنه فلا یسعنا إلا الاعتراف بصحتها و صدورها عن منبع الوحی.

کما

رواه القمی فی تفسیره عن أبیه،عن سلیمان بن مسلم الخشاب،عن عبد الله بن جریح المکی،عن عطاء بن أبی ریاح،عن عبد الله بن عباس قال: حججنا مع رسول الله ص حجه الوداع-فأخذ باب الکعبه ثم أقبل علینا بوجهه-فقال:أ لا أخبرکم بأشراط الساعه؟و کان أدنی الناس منه یومئذ سلمان رضی الله عنه-فقال:بلی یا رسول الله-.

فقال(ص): إن من أشراط القیامه إضاعه الصلاه،و اتباع الشهوات،و المیل مع الأهواء،و تعظیم المال،و بیع الدین بالدنیا-فعندها یذاب قلب المؤمن و جوفه-کما یذوب الملح فی الماء-مما یری من المنکر فلا یستطیع أن یغیره-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان إن عندها یلیهم أمراء جوره،و وزراء فسقه،و عرفاء ظلمه،و أمناء خونه.

فقال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده- یا سلمان-إن عندها یکون المنکر معروفا و المعروف منکرا،و اؤتمن الخائن،و یخون الأمین،و یصدق الکاذب،و یکذب الصادق.

قال سلمان،و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان فعندها إماره النساء،و مشاوره الإماء،و قعود الصبیان علی المنابر،و یکون

الکذب طرفا و الزکاه مغرما،و الفیء مغنما،و یجفو الرجل والدیه،و یبر صدیقه، و یطلع الکوکب المذنب.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده- یا سلمان و عندها تشارک المرأه زوجها فی التجاره،و یکون المطر قیظا،و یغیظ الکرام غیظا،و یحتقر الرجل المعسر،فعندها یقارب الأسواق إذا قال هذا:لم أبع شیئا و قال هذا:لم أربح شیئا فلا تری إلا ذاما لله.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان فعندها یلیهم أقوام إن تکلموا قتلوهم،و إن سکتوا استباحوهم-لیستأثروا بفیئهم و لیطؤن حرمتهم، و لیسفکن دماءهم و لیملؤن قلوبهم رعبا-فلا تراهم إلا وجلین خائفین مرعوبین مرهوبین-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده-یا سلمان إن عندها یؤتی بشیء من المشرق-و شیء من المغرب یلون أمتی،فالویل لضعفاء أمتی منهم،و الویل لهم من الله،لا یرحمون صغیرا،و لا یوقرون کبیرا،و لا یتجاوزون عن مسیء أخبارهم خناء،جثتهم جثه الآدمیین،و قلوبهم قلوب الشیاطین.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-و عندها یکتفی الرجال بالرجال و النساء بالنساء،و یغار علی الغلمان-کما یغار علی الجاریه فی بیت أهلها-و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال،و یرکبن ذوات الفروج السروج-فعلیهن من أمتی لعنه الله.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟فقال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان إن عندها تزخرف المساجد-کما تزخرف البیع و الکنائس،و تحلی المصاحف و تطول المنارات،و تکثر الصفوف بقلوب متباغضه و ألسن مختلفه-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص)إی و الذی نفسی بیده- و عندها تحلی ذکور أمتی بالذهب،و یلبسون الحریر و الدیباج-و یتخذون جلود النمور صفاقا-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان و عندها یظهر الربا،و یتعاملون بالغیبه و الرشی،و یوضع الدین و یرفع الدنیا.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟فقال(ص):إی و الذی نفسی بیده

يا سلمان-و عندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حد،و لن يضر الله شيئا-.

قال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان-و عندها تظهر القينات و المعازف و يليهم أشرار أمتى-.

قال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان-و عندها يحج أغنياء أمتى للنزهه،و يحج أوساطها للتجاره،و يحج فقراؤهم للرياء و السمعه-فعندها يكون أقوام-يتعلمون القرآن لغير الله و يتخذونه مزامير،و يكون أقوام يتفقهون لغير الله،و يكثر أولاد الزنا،و يتغنون بالقرآن،و يتهافتون بالدنيا-.

قال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان-ذاك إذا انتهك المحارم،و اكتسبت المآثم-و سلط الأشرار على الأخيار،و يفشو الكذب،و تظهر اللجاجه،و تفشو الفاقه و يتباهون فى اللباس،و يمطرون فى غير أوان المطر،و يستحسنون الكوبه و المعازف،و ينكرون الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان أذل من فى الأمه،و يظهر قراؤهم و عبادهم فيما بينهم التلاؤم،فأولئك يدعون فى ملكوت السماوات:الأرجاس و الأنجاس-.

قال سلمان:و إن هذه لكائن يا رسول الله؟فقال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان-فعندها لا يخشى الغنى إلا الفقر-حتى أن السائل ليسأل فيما بين الجمعتين-لا يصيب أحدا يضع فى يده شيئا-.

قال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان-عندها يتكلم الرويبضه،فقال:و ما الرويبضه يا رسول الله فداك أبى و أمى؟ قال(ص):يتكلم فى أمر العامه من لم يكن يتكلم-فلم يلبثوا إلا قليلا حتى تخور الأرض خوره-فلا يظن كل قوم إلا أنها خارت فى ناحيتهم-فيمكثون ما شاء الله ثم ينكتون فى مكثهم-فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها،قال:ذهب و فضه ثم أومأ بيده إلى الأساطين- فقال:مثل هذا فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضه فهذا معنى قوله:« فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا ».

و فى روضه الكافى،عن محمد بن يحيى،عن أحمد بن محمد،عن بعض أصحابه،و على بن إبراهيم،عن أبيه،عن ابن أبى عمير جميعا عن محمد بن أبى حمزه،عن حمران قال:قال أبو عبد الله(ع): -و ذكر هؤلاء عنده و سوء حال الشيعه عندهم فقال:-إنى سرت مع أبى جعفر المنصور و هو فى موكبه،و هو على فرس و بين يديه خيل،و من خلفه خيل،و أنا على

حمار إلى جانبه فقال لی:یا أبا عبد الله قد کان ینبغی لک-أن تفرح بما أعطانا الله من القوه،و فتح لنا من العز،و لا تخبر الناس-أنک أحق بهذا الأمر منا و أهل بیتک فتغرینا بک و بهم-.

قال:فقلت:و من رفع هذا إلیک عنی فقد کذب فقال لی:أ تحلف علی ما تقول؟.

قال:فقلت:إن الناس سحره-یعنی یحبون أن یفسدوا قلبک علی-فلا تمکنهم من سمعک فإنا إلیک أحوج منک إلینا،فقال لی:تذکر یوم سألتک:هل لنا ملک؟فقلت:نعم- طویل عریض شدید فلا تزالون فی مهله من أمرکم،و فسحه من دنیاکم حتی تصیبوا منا دما حراما فی شهر حرام فی بلد حرام؟فعرفت أنه قد حفظ الحدیث-فقلت:لعل الله عز و جل أن یکفیک-فإنی لم أخصک بهذا و إنما هو حدیث رویته،ثم لعل غیرک من أهل بیتک أن یتولی ذلک،فسکت عنی-.

فلما رجعت إلی منزلی أتانی بعض موالینا فقال،جعلت فداک و الله لقد رأیتک فی موکب أبی جعفر،و أنت علی حمار و هو علی فرس،و قد أشرف علیک یکلمک کأنک تحته فقلت بینی و بین نفسی:هذا حجه الله علی الخلق،و صاحب هذا الأمر الذی یقتدی به، و هذا الآخر یعمل بالجور،و یقتل أولاد الأنبیاء-و یسفک الدماء فی الأرض بما لا یحب الله، و هو فی موکبه و أنت علی حمار!فدخلنی من ذلک شک حتی خفت علی دینی و نفسی-.

قال(ع):فقلت:لو رأیت من کان حولی و بین یدی-و من خلفی و عن یمینی و عن شمالی من الملائکه-لاحتقرته و احتقرت ما هو فیه-فقال:الآن سکن قلبی-.

ثم قال:إلی متی هؤلاء یملکون أو متی الراحه منهم؟فقلت:أ لیس تعلم أن لکل شیء مده؟قال:بلی،فقلت:هل ینفعک علمک-إن هذا الأمر إذا جاء کان أسرع من طرفه العین؟إنک لو تعلم حالهم عند الله عز و جل،و کیف هی کنت لهم أشد بغضا-و لو جهدت و جهد أهل الأرض-أن یدخلوهم فی أشد ما هم فیه من الإثم لم یقدروا،فلا یستفزنک الشیطان-فإن العزه لله و لرسوله و للمؤمنین-و لکن المنافقین لا یعلمون،أ لا تعلم أن من انتظر أمرنا،و صبر علی ما یری من الأذی و الخوف هو غدا فی زمرتنا؟فإذا رأیت الحق قد مات و ذهب أهله،و رأیت الجور قد شمل البلاد،و رأیت القرآن قد خلق-و أحدث فیه ما لیس فیه و وجه علی الأهواء،و رأیت الدین قد انکفأ کما ینکفئ الإناء (1)و رأیت أهل

۱- ۱) الماء.

الباطل قد استعلوا على أهل الحق،و رأيت الشر ظاهرا لا ينهى عنه و يعذر أصحابه،و رأيت الفسق قد ظهر-و اكتفى الرجال بالرجال و النساء بالنساء،و رأيت المؤمن صامتا لا يقبل قوله، و رأيت الفاسق يكذب و لا يرد عليه كذبه و فريته،و رأيت الصغير يستحقر بالكبير،و رأيت الأرحام قد تقطعت،و رأيت من يمتدح بالفسق يضحك منه و لا يرد عليه قوله،و رأيت الغلام يعطى ما تعطى المرأه-و رأيت النساء يتزوجن بالنساء،و رأيت الثناء قد كثر،و رأيت الرجل ينفق المال فى غير طاعه الله-فلا ينهى و لا يؤخذ على يديه،و رأيت الناظر يتعوذ بالله-مما يرى المؤمن فيه من الاجتهاد،و رأيت الجار يؤذى جاره و ليس له مانع،و رأيت الكافر فرحا لما يرى فى المؤمن،مرحا لما يرى فى الأرض من الفساد،و رأيت الخمور تشرب علانيه-و يجتمع عليها من لا يخاف الله عز و جل،و رأيت الأمر بالمعروف ذليلا،و رأيت الفاسق فيما لا يحب الله قويا محمودا،و رأيت أصحاب الآيات (۱)يحقرون و يحقر من يحبهم،و رأيت سبيل الخير منقطعا و سبيل الشر مسلوكا،و رأيت بيت الله قد عطل و يؤمر بتركه-و رأيت الرجل يقول ما لا يفعله،و رأيت الرجال يتمنون للرجال و النساء للنساء،و رأيت الرجل معيشته من دبره-و معيشه المرأه من فرجها،و رأيت النساء يتخذن المجالس كما يتخذها الرجال،و رأيت التأنيث فى ولد العباس-قد ظهر و أظهروا الخضاب-و امتشطوا كما تمشط المرأه لزوجها،و أعطوا الرجال الأموال على فروجهم،و تنوفس فى الرجل،و تغاير عليه الرجال،و كان صاحب المال أعز من المؤمن،و كان الربا ظاهرا لا يعير،و كان الزنا تمتدح به النساء،و رأيت المرأه تصانع زوجها على نكاح الرجال،و رأيت أكثر الناس و خير بيت من يساعد النساء على فسقهن،و رأيت المؤمن محزونا محتقرا ذليلا-و رأيت البدع و الزنا قد ظهر،و رأيت الناس يعتدون بشاهد الزور،و رأيت الحرام يحلل،و الحلال يحرم، و رأيت الدين بالرأى و عطل الكتاب و أحكامه،و رأيت الليل لا يستخفى به من الجرأه على الله،و رأيت المؤمن لا يستطيع أن ينكر إلا بقلبه-و رأيت العظيم من المال ينفق فى سخط الله عز و جل،و رأيت الولاه يقربون أهل الكفر و يباعدون أهل الخير،و رأيت الولاه يرتشون فى الحكم،و رأيت الولايه قباله لمن زاد،و رأيت ذوات الأرحام ينكحن و يكتفى بهن، و رأيت الرجل يقتل على التهمه و على الظنه-و يتغاير على الرجل الذكر فيبذل له نفسه و ماله، و رأيت الرجل يعير على إتيان النساء،و رأيت الرجل يأكل من كسب امرأته من الفجور

۱- ۱) الآثار.

يعلم ذلـك و يقيم عليه،و رأيت المرأه تقهر زوجهـا-و تعمـل مـا لا يشـتهى و تنفق على زوجهـا، و رأيت الرجل يكرى امرأته و جـاريته-و يرضـى بالـدنى من الطعام و الشـراب،و رأيت الإيمان بالله عز و جل كثيره على الزور،و رأيت القمار قـد ظهر،و رأيت الشـراب يبـاع ظـاهرا ليس له مانع،و رأيت النساء يبـذلن أنفسـهن لأهل الكفر،و رأيت الملاهى قـد ظهرت يمر بها لا يمنعها أحد أحـدا-و لا يجترئ أحـد على منعها،و رأيت الشـريف يستذله الـذى يخاف سـلطانه،و رأيت أقرب الناس من الولاه-من يمتـدح بشـتمنا أهـل البيت،و رأيت من يحبنـا يزور و لا تقبـل شـهادته،و رأيت الزور من القول يتنافس فيه،و رأيت القرآن قـد ثقل على الناس اسـتماعه-و خف على الناس اسـتماع الباطل،و رأيت الجار يكرم الجار خوفا من لسانه، و رأيت الحـدود قد عطلت و عمل فيها بالأهواء،و رأيت المساجـد قـد زخرفت،و رأيت أصـدق الناس عنـد الناس المفترى الكـذب،و رأيت الشـر قد ظهر و السـعى بـالنميمه،و رأيت البغى قـد فشا،و رأيت الغيبه تسـتملح و يبشـر بها الناس بعضـهم بعضا،و رأيت طلب الحـج و الجهاد لغير الله-و رأيت السـلطان يذل للكافر المؤمن،و رأيت الخراب قد أديل من العمران، و رأيت الرجل معيشـته من بخس المكيال و الميزان،و رأيت سـفك الـدماء يسـتخف بهـا،و رأيت الرجـل يطلب الرئـاسه لغرض الـدنيا-و يشـهر نفسه بخبث اللسان ليتقى و تسـتند إليه الأمور، و رأيت الصلاه قد استخف بها،و رأيت الرجل عنده المال الكثير لم يزكه منذ ملكه،و رأيت الميت ينشر من قبره و يؤذى و تباع أكفانه،و رأيت الهرج قد كثر،و رأيت الرجل يمسى نشوان-و يصبح سكران لا يهتم بما الناس فيه،و رأيت البهائم تنكح،و رأيت البهائم تفرس بعضـها بعضا،و رأيت الرجل يخرج إلى مصـلاه و يرجع-و ليس عليه شىء من ثيابه،و رأيت قلوب الناس قد قست-و جمدت أعينهم و ثقل الذكر عليهم،و رأيت السحت قد ظهر يتنافس فيه،و رأيت المصلى إنما يصلى ليراه الناس،و رأيت الفقيه يتفقه لغير الـدين-يطلب الـدنيا و الرئـاسه،و رأيت النـاس مع من غلب،و رأيت طـالب الحلال يـذم و يعير-و طالب الحرام يمـدح و يعظم،و رأيت الحرمين يعمـل فيهـا بمـا لا يحب الله-لا يمنعهم مانع و لا يحول بينهم و بين العمل القبيـح أحـد،و رأيت المعازف ظاهره فى الحرمين،و رأيت الرجل يتكلم بشـىء من الحق-و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر-فيقوم إليه من ينصـحه فى نفسه فيقول:هـذا عنك موضوع،و رأيت الناس ينظر بعضـهم إلى بعض و يقتـدون بأهل الشـر،و رأيت مسـلك الخير و طريقه خاليا لا يسلكه أحد،و رأيت الميت يهز به فلا يفزع له أحد،و رأيت كل عام يحدث فيه من البدعه

و الشر أكثر مما كان،و رأيت الخلق و المجالس لا يتابعون إلا الأغنياء،و رأيت المحتاج يعطى على الضحك به-و يرحم لغير وجه الله،و رأيت الآيات فى السماء لا يفزع لها أحد-و رأيت الناس يتسافدون كما تسافد البهائم-لا ينكر أحد منكرا تخوفا من الناس،و رأيت الرجل ينفق الكثير فى غير طاعه الله- و يمنع اليسير فى طاعه الله،و رأيت العقوق قد ظهر و استخف بالوالدين-و كانا من أسوإ الناس حالا-عند الولد-و يفرح بأن يفترى عليهما،و رأيت النساء و قد غلبن على الملك و غلبن على كل أمر لا يؤتى إلا ما لهن فيه هوى،و رأيت ابن الرجل يفترى على أبيه-و يدعو على والديه و يفرح بموتهما،و رأيت الرجل إذا مر به يوم-و لم يكسب فيه الذنب العظيم-من فجور أو بخس مكيال أو ميزان أو غشيان حرام-أو شرب مسكر كئيبا حزينا-يحسب أن ذلك اليوم عليه وضيعه من عمره،و رأيت السلطان يحتكر الطعام،و رأيت أموال ذوى القربى-تقسم فى الزور و يتقامر بها و تشرب بها الخمور،و رأيت الخمر يتداوى بها و يوصف للمريض و يستشفى بها،و رأيت الناس قد استووا فى ترك الأمر بالمعروف-و النهى عن المنكر و ترك التدين به،و رأيت رياح المنافقين و أهل النفاق قائمه-و رياح أهل الحق لا تحرك،و رأيت الأذان بالأجر و الصلاه بالأجر،و رأيت المساجد محتشيه ممن لا يخاف الله-مجتمعون فيها للغيبه و أكل لحوم أهل الحق-و يتواصفون فيها شراب المسكر،و رأيت السكران يصلى بالناس-و هو لا يعقل و لا يشان بالسكر-و إذا سكر أكرم و اتقى و خيف و ترك لا يعاقب و يعذر بسكره، و رأيت من أكل أموال اليتامى يحمد بصلاحه،و رأيت القضاه يقضون بخلاف ما أمر الله، و رأيت الولاه يأتمنون الخونه للطمع،و رأيت الميراث قد وضعته الولاه-لأهل الفسوق و الجرأه على الله-يأخذون منهم و يخلونهم و ما يشتهون،و رأيت المنابر يؤمر عليها بالتقوى-و لا يعمل القائل بما يأمر،و رأيت الصلاه قد استخف بأوقاتها، و رأيت الصدقه بالشفاعه-و لا يراد بها وجه الله و يعطى لطلب الناس،و رأيت الناس همهم بطونهم و فروجهم-لا يبالون بما أكلوا و ما نكحوا،و رأيت الدنيا مقبله عليهم،و رأيت أعلام الحق قد درست فكن على حذر-و اطلب إلى الله عز و جل النجاه،و اعلم أن الناس فى سخط الله عز و جل-و إنما يمهلهم لأمر يراد بهم فكن مترقبا-و اجتهد ليراك الله عز و جل فى خلاف ما هم عليه-فإن نزل بهم العذاب-و كنت فيهم عجلت إلى رحمه الله،و إن أخرت ابتلوا-و كنت قد خرجت مما هم فيه من الجرأه على الله عز و جل-و اعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين،و أن رحمه الله قريب من المحسنين.

أقول:و هناك أخبار مأثوره عن النبى و الأئمه من أهل بيته(ع)كثيره

فی هذه المعانی،و ما نقلناه من الحدیثین من أجمعها معنی،و الأحادیث(أخبار آخر الزمان) کالتفصیل لما یدل علیه الآیه الکریمه أعنی قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ »(الآیه)و الله أعلم.

تم و الحمد لله.

ص :۴۰۱

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ۱۴۲۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.